

أ.ج. سوانسن كوبر

رحلة في البلاد العربية الخاضعة لآثرنا

من البحر المتوسط إلى بومبي عن طريق مصر والشام والعراق والخليج العربي في ١٨٩٣م

ترجمة : صادق عبد الركابي



رحلة في البلاد العربية الخاصة لا تترك

من البحر المتوسط إلى يهودي
من طريق مصر والبلاد والعراق والخليج العربي في ١٨٩٣ م



الأهلية للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

المملكة الأردنية الهاشمية ، عمان ، وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمان / الأردن
لسان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع الصغارات
هاتف : ٨٢٤٢٠٣ / ٠١ - قسم ١٩

رحلة في البلاد العربية الخاضعة للأتراك
من البحر المتوسط إلى بومبي عن طريق مصر والشام والعراق والخليج العربي في ١٨٩٣ م.
أ. ج. سوانسن كوبر
ترجمة :
صادق عبد الركاابي / العراق

الطبعة العربية الأولى ، ٢٠٠٤
حقوق الطبع محفوظة

تصميم الغلاف : زهير أبو شهاب / الأردن

سكة سي

لوحة الغلاف :
عبد القادر الرسام / العراق
الصفحة الضوئية : إيمان زكريا خطاب ، عمان ، هاتف ٥٦٤٩١٠٦ / ٧٩

*All rights reserved. No part of this book may be reproduced
in any form or by any means without the prior permission of
the publisher.*

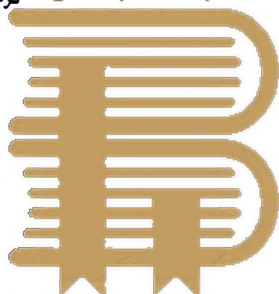
جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أي جزء منه ، بأي شكل من الأشكال ، إلا بإذن خطي مسبق من الناشر .

أ.ج. سوانسن كوبر

رحلة في البلاد المريبة الخاضعة للاثراء

من البحر المتوسط إلى بومبي عن طريق مصر والشام والعراق والخليج العربي في ١٨٩٣م

شبكة كتب الشيعة ترجمة : صادق عبد الركابي



shiabooks.net

رابط بديل < nktba.net

إهداء

إلى...

مضيفي السيد حسنة حكيم زاده الكرملاني

أ. ح. سوانسه كوبه

مقدمة المؤلف

□ هذا الكتاب هو تسجيل مبسط لرحلة انفرادية من البحر المتوسط إلى الخليج العربي عبر وادي دجلة والفرات وهما النهران العظيمان في غرب آسيا. وعلى القارئ أن يدرك، وهنا أجلب انتباهه بأن لا يتوقع أن يكون الكتاب سردًا لاكتشاف علمي أو رحلة خيالية كالتّي تزيد كتب المؤلفين الرحالة. لذا فإنني هنا أرد بتواضع نقد من يقول أن الكتاب تعوزه قوة الملاحظة المنظمة أو إنه يفتقر إلى الأسلوب.

على حد علمي، لقد تم وصف ما يسمى بطريق القوافل على نهر الفرات من حلب إلى بغداد مرة واحدة فقط في كتاب حديث للرحلات الإنكليزية هو كتاب السيدة آن بلنت الممتع "قباذل الفرات البدوية". وبالنسبة إلى الوادي نفسه، فلدينا مؤلفات علمية إحصائية هي ثمرة جهود "بعثة وادي الفرات" في عام ١٨٣٦م. إلا أن هذه المؤلفات، ولكون البعثة قد استخدمت النهر في خط سيرها، لم تصف الطريق البري، وليس لها أي تأثير، وكما كان يتوقع منها في ذلك الوقت، في كشف الوادي أمام

الرحالة الإنكليز، لهذا ولغاية هذا اليوم ظل الفرات وما يحيطه عملياً أرضاً مجهولة، دون أي أدب وصفي شعبي عنه باستثناء ما ذكر آنفاً.

واسباب ذلك واضحة. فالمسافر الذي يرغب أن يشق طريقه من البحر المتوسط إلى بغداد أو الخليج العربي، يجد طريقاً أسهل وأكثر متعة بسلوك طريق أورفه - ديار بكر أو ماردين والموصل. صحيح أن هذه الطرق ليست دائماً ذات شمس مشرقة كما هو الحال مع طريق الفرات ما خلا منتصف الشتاء، إلا أنه ما يعوض عن هذه الميزة السلبية، هو ما يتداول من قصص عن أخطار غزو القبائل العربية في شمال الصحراء العربية، والتي تكفي لثني أي مسافر عن سلوك هذا الطريق.

وفي الواقع أن هذه الأخطار قد بولغ بها كثيراً، إلا أن هذا غير معروف بشكل عام إذ أنه لا يمكن تجنب هذه الصعوبة المفترضة بواسطة السفر عن طريق مياه النهر حيث لا يصلح الجزء الأكبر من النهر بين مسكنة والفلوجة لأي نوع من الملاحة. الاعتراض الجوهري الآخر على سلوك هذا الطريق هو ندرة المؤن إذ أن طريق الفرات من الناحية العملية هو رحلة صحراوية ما خلا أنه يتوفر فيها تجهيزاً كبيراً من المياه. ومرة أخرى ينطلق الغامر بعد أن يعامله "الغزاة" اللصوص العرب بازدرأ مع مؤنته الصغيرة، بشكل متواصل من دمشق سالكاً طريق البريد القديم أو طريق تدمر، وإذا ما قامت عنزة أو غيرها على الطريق بتسليبه، فإنه لا يهتم كثيراً لأن امتعته ضئيلة أو معدومة، وستحيطه مغامرته، عند عودته للحضارة إلى حد أبعد، بهالة من الرومانسية والشهرة كأحد الرحالة الشرقيين.

لهذه الأسباب، خضت مغامرة نسخ ذلك القسم من يومياتي التي تتعلق بهذا الجزء من رحلتي، والتي ربما تكون ذات تفاصيل مملة إلى حد ما. وعلينا أن نتذكر أن

امام هذا الوادي مستقبلاً مهماً، إذا لم يكن بسبب كونه يمثل طريقاً لسكة الحديد الهندية - الأوروبية، فإنه على أية حال يمثل طريقاً لمرور السفن.

رغم أنني مدرك جيداً أنه مع التقدم المضطرد للرحلات العلمية الذي نعيشه اليوم، فإن هذا الكتاب لا يمكن أن يحظى إلا باهتمام قليل، إلا أنني متأكد أن موضوعه سيكون ذا فائدة للآخرين. واجازف في التفكير بأن اليوميات المدونة عن الطرق بين حلب وبغداد وبين الأخيرة وبابل وكربلاء ستكون ذات فائدة. فإضافة إلى الملاحظات الجغرافية العلمية، فإن هذه اليوميات الدقيقة المدونة بالساعات لها قيمة كبيرة للمسافرين على طرق القوافل الشرقية القديمة.

إن رفيق السفر على هذه الطرق التي ذكرتها آنفاً هو السيد (أ. ج. جني كوننكام من ليسنر ريجمنت) وهو الآن لسوء الحظ في الهند، بعد رحلة دامت (١٨) شهراً في بلاد فارس وآسيا الوسطى، لهذا فإني لا أستطيع أن أقدم إليه قبل النشر، كما كنت أتمنى، هذه الصفحات التي تتناول تلك الفترة القصيرة، إلا أنها مثيرة من الرحلة التي قمنا بها معاً.

إن الرحلة من بغداد إلى بومبي، تمر بالطبع بمناطق ذات طابع متحضر، وهي معروفة إلى حد كافٍ، إلا أنني أمل أن يجد القارئ فيها شيئاً من المتعة.

بالنسبة إلى تهجئة أسماء الأماكن، حاولت أن أكون متوافقاً قدر استطاعتي مع ما ذكرته الجمعية الجغرافية الملكية. مع ذلك، فإنه فيما يتعلق باسم بغداد (Bagdad)، لم أتبني حرفي (gh) اللذين يستخدمان بشكل عام لتمثيل الحرف العربي (غين)، لأنه عند تلفظ هذا الاسم، ليس هناك شيئاً من الخشونة التي ترافق عادة هذا

الحرف كما هو الحال على سبيل المثال في كلمة (غزو) (ghazu) حيث يكون الحرفان الإنكليزيان (rg) اصدق تمثيلاً لصوت الحرف.

وفيما يتعلق بعنوان الكتاب (Through Turkish Arabia) اتفقت مع السيد ولفرد بلنت وآخرين بأن الخط الوهمي الممتد من خليج العقبة إلى ثغر شط العرب لا يمثل الحد الحقيقي لشمال الجزيرة العربية - على العكس من ذلك، فإن كل الصحراء شرق وغرب الفرات والتي يسكنها بدو يتحدثون العربية هي عربية محضة كحضر موت في اليمن. صحيح أن الأتراك يسيطرون على الفرات وأن بغداد والبصرة هي مدن تحت السيطرة التركية، إلا أن ضواحي هذه المدن هي عربية صرفة وأن الرحلة من أبواب حلب إلى حيث يتدفق تيار المياه الداكن إلى البحر عند رأس الخليج العربي، هي في كل خطوة فيها تكون عبر البلاد العربية الخاضعة للأتراك.

لقد أنك قواي سوء حالتي الصحية بقدر أكثر من اللازم مما اضطرني إلى التخلي عن الكثير من الخطط، التي لو كان قد تم تنفيذها، فإنها ستضيف متعة أكثر إلى الرحلة، كالسفر إلى مشهد علي ونهر الكارون الذي تم افتتاح خط ملاحى فيه مؤخراً. ربما يكون قد نري أن أزورها يوماً ما في المستقبل.

هو كشيء

تشرين الأول ١٨٩٣

ا.ج. اس. كوبر



مقدمة المترجم

□ يقدم هذا الكتاب وصفًا لرحلة قام بها المؤلف عام ١٨٩٢م. وقد بناها من الإسكندرية والقاهرة في مصر ثم ميناء الإسكندرون وحلب ودير الزور وابو كمال في سوريا ثم القانم وعانة وهيت والرمادي والفلوجة وبغداد والحلة وكربلاء والبصرة في العراق، ويواصل رحلته بحرًا عن طريق الخليج العربي ليصف موانئه كالحمرة وبوشهر وبندر عباس والبحرين وهرمز ليصل إلى بومبي ومنها يعود إلى بلده إنكلترا.

يتضمن الكتاب وصفًا للأوضاع الاقتصادية والسياسية والتاريخية للمناطق التي مرّ بها في ذلك الوقت دون أن يغفل عن ذكر القرى والقبائل والجمعات العربية البسيطة والمواقع التاريخية والآثار المنتشرة في المنطقة وكذلك النباتات والحيوانات البرية فيها ويصف أزياء السكان وعاداتهم ويعطي إحصائيات عن أعدادهم والجاتيات المتواجدة بين ظهرانيهم. يعطي الكتاب تصورًا عامًا عن أحوال البلاد في تلك الفترة. وهو لا يخلو من المتعة والفائدة للقارئ الاعتيادي أو للقارئ المتخصص.

وأخيراً أرجو من القارئ الكريم أن يمنحنا العذر لأي خطأ أو سهو، فالكمال له وحده، وقد حاولت أن أكون دقيقاً قدر المستطاع في نقل ما إرادته المؤلف وفي إعادة الأسماء أو الكلمات الواردة في الكتاب إلى أصلها ووضعت بعض الشروح في هوامش الكتاب زيادة في التوضيح.

وفي الآخر، أتقدم بالشكر الخالص إلى كل من مدّ إلي يد العون والمساعدة وأخص بالذكر منهم صديقي الوفي علاء العبادي وأخي العزيز علي حسين الخطاط ورفيقة دربي سامية وأولادي سارة وعمر وهمام واكنم.

المرّجم / المحامي صادق عبد علي الركابي

✱

✱

✱

موضوعات الكتاب

١٩ الفصل الأول: من لندن إلى الإسكندرون

- خططي - الطرق - الاستعدادات - التجهيزات وسرير ليفنج
- الكوليرا والأنفلونزا - الرحيل نحو الشرق - في البحر المتوسط
- القاهرة - ضريح الخديوي - مولد ستي زينب - المغادرة نحو سوريا
- يافا - بيروت - الاقتراب من الإسكندرون

٣٥ الفصل الثاني: من الإسكندرون إلى حلب

- الإسكندرون - فندق سوري - طقس سيئ - عربتي والأربعة
- بيلان - جليل - خان كرا - سهل إنطاكية - سيدات سوريات
- العمق - حمام - خان افرين - القنصل اليوناني ورهافي في غرفة
- النوم - بداية فارسة - الوصول إلى حلب

٥١ الفصل الثالث: في حلب

- فندق العريزية - هزة أرضية في السرير - جليل - الطبخ التركي
- وشرب العرق - القنصلية البريطانية - الطرق إلى بغداد - الخدم في
- حلب - قصة طالب - اتخاذ القرار بسلوك طريق الفرات - التخت
- روان - تأخير وغضب - استعدادات وتجهيزات - المزيد من المشاكل
- شراء مركبة للمطران - التناكر وجوازات السفر

٦٥ الفصل الرابع: شيء عن حلب

- التاريخ - المركز الإنكليزي - الوصف - الأبعاد - الأسوار والبوابات
- المدينة من الداخل - الشوارع والبيوت - الأسواق - الجوامع - القلعة

زيارتي لها - خان الوزير - الأبهة - الضواحي - للقابر - الآبار - شيخ
بكر - خليط السكان في حلب - التهذيب في حلب - خفوت التعصب -
الزي - المناخ - حبة حلب - حياة الشارع

٩٧ الفصل الخامس، على الطريق

بدء الرحيل - البقشيش - جبرين - القرية المزدحمة - القسوة في
معاملة حيوانات القوافل - السبخ - البحيرة الملحية - الوصول إلى
دير حفر - الخان - حديث الدرك - البراغيث - التخت روان - نظام
السير - خدمي - السحلية المزعجة - لصوص الأغنام البدو - المنظر
الأول للفرات - مخيم عنزة - مسكينه - بالس - شيخ غنى - أبو
هريرة وقلعة جابر - اللقاء بعم رجالي - الدرك التركي - التمور
وزبدة اللبن

١١٩ الفصل السادس، تواصل الرحلة

رحيل عرب عنزة - اليهودج - الزي والسلاح - مشاهدة الرقة -
العرب على الجلود المنفوخة - المنير افندي - عويل درويش - زوار
غير مرحب بهم - الاستحمام في المياه العكرة للنهر وحصول نتائج
سيئة - ضرب الخيام في منطقة اللصوص - الوصول إلى الدير -
الخان - وصف المدينة - فقرها - زراعتها - رود - السكان العرب -
أهميتها السياسية - ظهور رجل إنكليزي - تقبيمه لنفسه ومزايده -
جمع وقود الخشب - ظهور شخص يدعى التون - الصحراء الروعة
- الزوار - وصول الباشا - بطن حجي محمد المنتفخة - صلابه
سائقي البغال

١٣٩ الفصل السابع: من الدير إلى عانة

مغادرة النهر - السراب - قلعة الرحبة - رحوبوت على النهر -
ميادين - المزيد من القطط - اجتياز الصلاحية - عاصفة رملية -
اصوات البغال - طقس بارد - الدراويش المتجولون - المرافق البدوي
- ابو كمال - الخنفساء الماهرة - آثار واسعة - القائم - غزو عنزة -
سنلت فيما إذا كنت احب قطع عنقي - خطر على الطريق -
الإصابة بالمرض - وديان الصحراء - الخنزير البري - اجتياز الرحوة
- الوصول إلى عانة

١٥٩ الفصل الثامن: من عانة إلى بغداد

عانة — مذنبا من على الطراز العربي - للرض - وادي فهمين - نزاع
- حديثة - وادي البغدادي - عاصفة رعدية - الوصول إلى هيت -
مدينة متسخة - عيون القار - رمضان - رجالي يقبضون على
اثنين من اللصوص - قلعة الرمادي - الاتصال بالحضارة - المرور
بين الأهوار - بغل يصاب بالإرهاق - حصول حادث التخت - قارب
الفرات - قوارب الكوفة - الفلوجة - مسير ليلي - ضلالنا للطريق -
القنوات البابلية - عكر كوف - منظر بغداد - المزيد من
المستنقعات والمصاعب - الوصول إلى بغداد

١٨٣ الفصل التاسع: بغداد

موقع المدينة - مزايا الموقع - اسوارها وبواباتها مهدمة حاليا -
المدافع القديمة في الثكنات - الشوارع - البيوت - فن العمارة لدار
المقيم البريطاني - السراييب - المقاهي - الأسواق - التبضع في بغداد -
المال - الجوامع - ضريح السيدة زبيدة

١٩٩ الفصل العاشر، المزيد عن بغداد

الكاظمين - ترامواي بغداد - جامع الإمام موسى الكاظم - مناراته
وقبابه المذهبة - سكان بغداد - الوباء - العرب - اليهود - تقييم
بنيامين التودولي عن اليهود - الأرمن - الكنائس المسيحية - المناخ -
الصادرات - الوضع الراهن - رمضان - فندق بغدادي - حبة العمر -
يوسف أنتيكا - الاستعداد للرحلة إلى بابل وكربلاء

٢١٥ الفصل الحادي عشر، عرض تاريخي عن بغداد

التأسيس - الخلفاء الأوائل - البويهيون - انحطاط الخلافة - الظهور
الأول للأتراك - انتقال بغداد إلى الضفة الشرقية من دجلة -
جنكيزخان - المستنصر - هولاكو - نهاية العباسيين - اضطهاد
المسيحيين - تيمورلنك - الشاه إسماعيل - استيلاء السلاطنة
العثمانيين على المدينة

٢٢٥ الفصل الثاني عشر، من بغداد إلى بابل والحلة

مغادرة بغداد - خان الزاد - خان المحمودية - قافلة الحجاج -
الكاجاويه - خان بيرونس - الوصول إلى خان الحصوة - فن العمارة
للخانات الفارسية - النوم في أحد المقاهي والقلق من البراغيث -
مغادرة خان الحصوة - منظر آثار بابل - مقابلة اثنين من
الأمريكيين - الوصول إلى الآثار - بابل - المجلب والقعر - عمران بن
علي - المغادرة نحو الحلة - إصابة امرأة كبيرة

٢٤٣ الفصل الثالث عشر، الحلة وبرس نمرود

الوصول إلى الحلة - سيد حسن - الحلة - بداية برس نمرود -
مظهر فريد - اللقاء برحالة روسي - البرس - وصف الأثر - نظرة

من الأعلى - تقييم بنيامين التودولي - نظريات عن اصله - بور
سبها - النبي إبراهيم والروايات العربية المتوارثة - اختفاء مظلتي -
نفوذ الاسم البريطاني - العودة إلى الحلة - زوار - حصان يوسف
يكبس اللحم - الطريق إلى المسيب - أولاد مسلم - الوصول إلى
المسيب

١٦١ الفصل الرابع عشر: طريق الحج

المسيب - طريق الحج - عاصفة في الليل - مشهد الحسين - حصي
كربلاء - تعصب - شهادة الحسين - قوافل الجثث - كربلاء - في
زيارة نواب - الاستشهاد بسبب البعوض - حادث مروع - افتراقنا
عن مضيفنا - مغادرة كربلاء - المسيب ثانية - ركوب غير آمن -
خان الإسكندرية - الوصول إلى بغداد - إشاعات عن ثورة عربية
على دجلة - حلاق بغداد - أحلب البصرة - السفر على ظهر
سفينة تجارية في دجلة

٢٧٩ الفصل الخامس عشر: من بغداد إلى البصرة

النقل التجاري في دجلة - باخرة نهريّة - البحارة الكلدان - دليل
الرحلة - مغادرة بغداد - طيسفون - القبائل العربية - ندرّة
الناقلات - العرب ضحايا الفيضان - العمارة - الصابنة - مناظر
ظهر المركب - ثورة الشيخ سعود بن منشد - ضريح عزرا - زعر
عام - القرنة - شط العرب - ميناء البصرة - زيارة المدينة - هروب
السجناء - ملاحظات تاريخية - الحالة الصحية في البصرة

٣٠٣ الفصل السادس عشر: الخليج العربي

المحمرّة - الصناعة المحلية - صيد الأسماك - الشوسترين - التاريخ
- الفاو - عبور العقبة - الخليج العربي - قرصنة - المناخ - الرياح -

الصحة - بوشهر - سوق وايتلي بنمط فارسي - وصف المدينة -
لعبة القلي - الوصول للبحرين - المياه العذبة تحت البحر - صيد
اللؤلؤ

٣١٩ الفصل السابع عشر: الخليج العربي

الجبال المحيطة بميناء لنكا - ميناء لنكا - إمدادات المياه - مضائق
هرمز - موقع بندر عباس - المدينة - حرارة عظيمة - جزيرة
هرمز - تاريخها - تقييم قديم - منظر جميل - السمكة الطائرة
ونعابين البحر - السلاحف وأسماك التوتوج - بومبي - المغادرة نحو
إنكلترا - طقس عاصف في البحر الأحمر

٣٣٢ ملاحق

أبو نواس، مهرج هارون الرشيد - رحلة بالبي من بغداد إلى البصرة -
تقرير هاملتون عن البصرة - قصة رومانسية من الخليج العربي -
مقاييس وأوزان مضطربة

الفصل الأول

من لندن إلى الإسكندرون

خططي - الطرق - الاسلعة - إلات - للجهازات - وسرير ليفنج - الكوليرا - الانفلونزا - الرحيل نحو الشرق - في البحر المتوسط - القاهرة - ضريح الخديوي - موله سلي زينب - المفارة نحو سوريا - يافا - بيروت - الاقتراب من الاسكندرون

بعد قضاء شتاء سعيد في عام ١٨٨٩-١٨٩٠م على النيل وفي القاهرة، اتخذت قراراً، عند عودتي إلى الوطن، بزيارة المدينة العظيمة الأخرى في الشرق الناطقة بالعربية، وهي بغداد، بغداد الكتاب الأوائل، بغداد الرومانسية، لأنني كنت أرى، لحين ما أزال، عدة دراسات بعض الأوهام التي كانت تملكني، أنه لابد أن هناك الكثير من المتعة التي ينبغي مشاهدتها وأنه لابد أن هناك الكثير من الأشياء التي سأتعلمها من زيارتي لمدينة كانت تلعب في السابق دوراً عظيماً في عالم الشرق.

وعند محاولتي قراءة كتابات الرحالة المتأخرين، وجدت أنني كنت مخطئاً، فقد استنتجت أن أهمية بغداد تقع فقط في ماضيها التاريخي، وهذا الربط الرومانسي مع "الف ليلة وليلة"، ووجدت أيضاً أن الوصول إليها ليس أمراً سهلاً إلا إذا جرت الرحلة بالكامل عن طريق البحر، وهي رحلة تستغرق حوالي خمسة أسابيع، إن الطريق الذي

يكسبنا المزيد من المعرفة رغم انه من المؤكد أكثر صعوبة هو النزول في أحد الموانئ السورية ثم شق الطريق براً إلى بغداد، وهو شكل من السفر لم تكن لدي تجربة مسبقة فيه، والذي يتبين من دراستي لكتب الرحلات أن أقل ما يقال عنه أنه تكتنفه المصاعب بالنسبة لعديم التجربة.

مع ذلك، اتخذت قراراً، وعليّ الالتزام به وتحمل نتائجها. ليس لدي أي فكرة عن السفر بحرّاً إلى البصرة، لأن جميع أشكال السفر بحرّاً تفضي إلى عدة منال، أذكر منها ثلاثة فقط، اختلال الصفراء والبدانة والجهل. لهذا بقي عليّ التفكير بالطرق البرية، من بين هذه الطرق، من الضروري في هذه المرحلة تحديد اثنين منها فقط هما طريق بيروت ودمشق والآخر طريق الإسكندرون أو الإسكندريتا وحلب.

لم يحز الطريق الأول اهتمامي طويلاً. رغم أن سلوك هذا الطريق إلى بغداد يتضمن مشاهدة آثار تدمر الشهيرة، إلا أنه يستلزم ركوباً مرهقاً على الجمل لعدة أيام، على الأقل لقطع الصحراء من ذلك المكان إلى الفرات وهي تجربة لم تكن لدي الرغبة في خوض غمارها، رغم أنني كما أثبتت الأحداث لم أقتنع تماماً بتبني الطريق الآخر، لذلك قررت أن أشق طريقي للوهلة الأولى إلى حلب، وأترك الموضوع للقدر لأقرر هناك فيما إذا كنت سأسلك طريق الفرات المباشر أو أن أشق طريقي إلى الموصل ودجلة.

لم تكن استعداداتي وتجهيزاتي كبيرة، فقد اشتريت خيمة صغيرة بأبعاد 6×8 قدم من السادة Piggott، وهي مربعة الشكل لها رافدتين منتصبتين ورافدة أفقية، وعندما تطوى يكون وزنها الكامل ٦٥ باون، ولا تأخذ الروافد الثلاثة سوى حيزاً صغيراً كونها تدخل في تجاويف داخل الخيمة للطوية. كذلك اشتريت شبتاً غريباً يعرفه الطالعون بأنه سرير ليفنج Leving. وهو يتكون من كيس من الكتان مربوط في نهايته المفتوحة بستارة طويلة للحماية من البعوض، وهو اختراع عبقرى يمكن

توسيعه ليكون غرفة صغيرة محترمة باستخدام عيدان الخيزران المنحنية، يمكن الدخول إلى الكيس عن طريق رقبة من الكتان، ويمكن غلق فمها بأشرطة، وعلى مستخدم الكيس سحب هذه الرقبة إلى داخل الكيس بعد دخوله والرقود عليها وبذلك يتم الحصول على نوع من الأمن المقبول ضد كافة أشكال الحشرات الزاحفة أو الطائرة. يربط أعلى ستارة الموسلين بمسمار أو رافدة. ورغم أن هذا أعظم اختراع يستخدم في الخانات والنزل في الشرق حيث توجد جميع أشكال الهوام والحشرات، والذي علي أن اعترف بأنني مدين له بالنوم العميق في العديد من الليالي، والذي لا يمكن تحقيقه بدون، فإنه يجب الإقرار أنه عند المبيت في خان بقرية عربية بدائية وربما متعصبة دون قفل على بابك، فإنه من الممكن أن يكون أي شيء عدا أن يكون شعورًا سارًا بأن تحس بنفسك مربوطًا بإحكام في حقيبة حيث يكون التحرر منها في حالة الطوارئ أمرًا مستحيلًا تقريبًا في أقل من دقيقة أو دقيقتين. وفي أوقات السلم، يتطلب الخروج من سرير Leving بأمان دون تمزيقه حضورًا ذهنيًا وبصيرة وحدة إدراك. وتحت تأثير أخطار الرحلات فإني أشعر بالفزع من التفكير بمصير سين الحظ لشاغل السرير.

كانت أمتعتي عبارة عن لقافه من البطانيات، وملاءة (شرشف) مضاد للماء وحقيبتين جلديتين كبيرتين تحويان حاجياتي الشخصية وحقيبة كلادستونية تنفتح من وسطها إلى قسمين متساويين. وعندما جهزت جميع أشيائي، ذهبت إلى الريف لقضاء عيد الميلاد، على أمل أن أغادر إنكلترا في ١٤ كانون الثاني على باخرة الشرق Orizaba.

ويبدو أن الكوليرا، والتي كانت متفشية بشكل سين في دمشق وحلب والتي كانت تشكل أكثر من مرة تهديدًا بتغيير خططي، من خلال الصحف، أخذة بالانحسار بحيث لا تشكل أي عائق أمام الرحلة. إلا أنني قد تعرضت خلال حفلة عيد

الميلاد إلى هجمة شرسة من الأنفلونزا التي كانت في ذلك الوقت بأسوأ حالاتها. ونتيجة لذلك، اضطرت لتغيير سفري ليكون على متن الباخرة Orient والتي تبحر في ٢٩ من نفس الشهر. لقد قررت أن اذهب أولاً إلى القاهرة حيث كنت أمل أن اتحقق من الميناء السوري الذي جرى الحجز عليه، وكذلك للحصول على معلومات مؤكدة عن خطوط سير البواخر التي تعمل على طول الساحل السوري.

لهذا وفي يوم ٢٩ كانون الثاني، وجدت نفسي أقف في قمرة على ظهر السفينة Orient، واخذت الأنفلونزا تشتد باكثر من السابق وأخذ كل مسافر ينظر بتوتر إلى رفاقه في القمرة للتحقق مما إذا بليت على أي منهم اعراض المرض. كان رفاقي في القمرة محام إيرلندي شاب وبحار كبير السن، وكان الأخير في حالة من الانهيار التام بسبب تناوله الخمر والحزن على فراقه لعائلته والهجمة الأخيرة للمرض. كان يبدو نصف إنسان بسبب المرض. وفي الواقع بسبب مشاعر القلق التي تنتابه وقد أمضى معظم أول فترة بعد الظهر بين النوم على الأريكة وشرب الخمر والاعتذار مني. وعندما لا يكون مشغولاً، فإن دموعه تنهمر كالطوفان. ولأنه يبقى الباب مغلقاً ويتناول جميع وجباته في القمرة، فإننا لم نجد فيه رفيقاً متنوراً. ولحسن حظنا فإنه قد انتقل إلى مكان آخر في اليوم التالي.

تعتبر بواخر خط الشرق، كما يعرف الجميع، من بين أجمل البواخر التي تسير بين إنكلترا وأستراليا، ورغم أنه خط جديد نسبياً، إلا أنه أدنى من بواخر P & O من حيث اللوازم والتجهيزات. لقد تمت صناعة الباخرة Orient على وفق متطلبات دار إمارة البحر لصناعة السفن، والتي يمكن تحويلها في حالة الحرب إلى سفن مسلحة، وفي الواقع هي الأقدم من بين ثمانية سفن تبلغ حمولتها أكثر من ٥,٠٠٠ طن. تبلغ قوتها الحصانية ٦٠٠٠ وحمولتها المسجلة ٥٤٠٠ طن. وهي تحمل أربعة صواري ومدختين

وطولها ٢٧ قدمًا. وتتميز غرف الجلوس والموسيقى والتدخين وغرف السيدات، رغم أنها ربما ليست بنفس الأبهة التي تتميز بها السفن الأخرى على نفس الخط، إلا أنها في قمة الراحة. ويشكل سطح الباخرة متنزهًا ساحرًا وميدانًا لمباريات رائعة للكريكت على سطح السفينة.

لقد سلك خليج بسكاي سلوكًا حسنًا لم نكن نتوقعه. فقد كان مجمل اذاه رعدًا خفيفًا وساعة من الضباب، وعند عبورنا له وجئنا أنفسنا في مناخ معتدل رغم أن ذلك كان في بداية شهر شباط بحيث أننا استطعنا الجلوس على منصة السفينة حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً دون أي خوف من نزلة برد. لقد كان للسان البري الممتد داخل البحر في منطقة سانت فنسنت وساكر أثرًا في حشد جميع المصورين الهواة الموجودين في السفينة لالتقاط الصور لهذه الألسنة البرية الجميلة. ويبدو الأخير خصوصًا بشكل جيد من البحر مع كهوفه وجرفه الحادة ومحطة الإرسال البيضاء للمقامة على قمته.

اجتازت السفينة Orient مسافة حوالي نصف ميل. وامام قارب صيد جميل ذو شراع مثلث رُسمت على أقواسه عين كبيرة، تهادت سفينتنا بمرح على الأمواج الخضراء. وقد وقف الصيادون البرتغاليون أمامنا ليرونا سمكة كبيرة، من الواضح أنها سمكة الجريت. لقد كان يومًا رائعًا بنسيمه في منطقة جبل طارق، لهذا ذهبت إلى الساحل وزرت المدينة الإسبانية، والتي يمكن التفاوضي عن قنارتها من أجل مناظرها الرائعة. عند المغادرة، كانت هناك رياحًا عاصفة في مؤخرة السفينة والتي تعتبر مدعاة للسرور في ذلك الجزء، إلا أنها تكون غير مريحة للغاية لو كانت أمامها.

في ٧ شباط، وجئنا أنفسنا نبحر ببطء في خليج نابولي وكان يلف المدينة ضباب كثيف كون الطقس كان دافئًا، وكانت تغطي بركان فيزوف غيوم كثيفة

بيضاء. وعند الساعة السابعة والنصف، تم إنزال مرساة السفينة، وسرعان ما غمرت أنوفنا رائحة ننتة تكفي لإيقاظ الميت.

في نابولي، فقدنا الكثير من ركابنا اللطاف، هذا هو قانون البحار إذ سرعان ما تتشكل صداقات حميمة، ولكن حكم الضرورة ينهيها وربما إلى الأبد. مع ذلك، اعتقد انه تتشكل نسبيا في البحر صداقات دائمة أكثر مما على اليابسة. فقد قضيت مع مجموعة من ثلاثة أشخاص يوما بطوله على الساحل نزور مدينة رومانية قديمة. ونجدد معارفنا بعجائب بومباي والمتحف والأوبرا.

كانت سماء جزيرة سترومبولي صافية. في مضائق مسينا، كان الساحل الإيطالي يستحم بالشمس المشرقة في حين يقبع الجانب الصقلي بالضباب والغيوم. في بركان (إتنا) التقطنا نظرة خاطفة على غروب الشمس كون معظم الجبل تغمره غيوم سوداء كثيفة. في ١١ شباط، وصلنا إلى ميناء بور سعيد في الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي، وصلنا إلى الإسمايلية، حيث وجدت في الفندق طباحي القديم يعمل كنادل. وفي مساء يوم ١٢ شباط كنت أقف في فندق النيل بالقاهرة.

وحالما وصلت، بدأت اتحقق عن طريق وكالات البواخر والوكالات السياحية عن حالة الكوليرا في سوريا واللوائ التي جرى الحجر عليها. كان الإجابات التي حصلت عليها متضاربة تماما. لا يبدو ان شخصا ما يعرف ما يجري. فقد أبلغت انه لا بواخر الخديوي ولا بواخر لويدي النمساوية تصل إلى ميناء الإسكندرون. وفيما يخص خط شركة Messageries، أكلت لي شركة كوك اند سونز أن بواخرها قد وصلت بالفعل إلى هناك في حين بالمقابل أبلغتني شركة Gaze أنهم لم يصلوا هناك.

وبشعور من اليأس، اتصلت بصديقي السيد آر. جي. موسى من الإسكندرية الذي أعلم بالتجربة أن معلوماته عن مثل هذه المواضيع تعادل بجودتها كرمه وضافته، وسرعان ما استلمت جوابًا منه بأن بواخر Messageries تصل فعلاً إلى ميناء الإسكندرون.

وبموجب ذلك، حجزت لي مكانًا على ظهر الباخرة Senegal وغادرت الإسكندرية في ٢١ شباط، لا أستطيع أن أؤكد أي شيء بخصوص الكوليرا، فقد أقرت الوكالات السياحية وموظفيها وأي شخص بجهلهم التام عن الموضوع. يفترض أنه لا تزال الكوليرا باقية في المكان إلا أنه ربما بشكل ضعيف جدًا ولا يحتمل أن تنتشر خلال هذا الوقت من السنة. من العبث محاولة الحصول على معلومات حاسمة عن الموضوع، لهذا أبعدته عن تفكيري وقررت مواجهة القضية عندما يحين وقتها.

عندما كنت في القاهرة، كنت محظوظًا بحضوري شعيرة دينية مميزة ومثيرة للانتباه. فقد توفي محمد توفيق باشا خديوي مصر في ٧ كانون الثاني، ووفقًا لعادات هذا البلد، ينبغي توزيع وجبة طعام تتكون من الخبز واللحم إلى الفقراء لمدة أربعين يومًا. وقد سمعت أن هذه الشعيرة تستمر ليوم أو يومين على الأكثر، لهذا وفي ١٤ كانون الثاني توجهت سيرًا على الأقدام نحو اضرحة الخلفاء حيث تم دفن سمو الخديوي. وقد لازمني فتى صغير لحوح صاحب حمار وأبقيته معي كدليل. وبعد صراع مع الأوحال شرق المدينة باتجاه اضرحة الخلفاء، وصلنا إلى موقع خلف الجامع الجميل لضريح قائد بك. وعندما وصلنا، تجمعت حولنا زمر من الناس الفقراء الذين جاءوا لتلقي الكرم العتاد. مرت أيضًا عدة عربات تحمل أوروبيين أو من سكان البلاد الأثرياء في طريقهم لزيارة الضريح. عند وصولي، وحبت بناءً مبهرجًا غاية في القبح حيث قاذني مرافقي الفتى نحو باب. وحول هذا الباب الرئيسي المغطى بالسنانير، وقف

عدة جنود أحنوا رؤوسهم بإجلال مهيب عند دخولي للمبنى. وعند الدخول، وجدت نفسي في ممر مفروش، يتدل من فوقه قماش، وهناك على الجهة اليمنى منه كراسي يشغلها بضعة افراد، معظمهم من الإنكليز. وعند الجانب الأيسر من الممر، قبالة الكراسي، يوجد باب يمثل المدخل نحو ضريح الخليوي الأخير. قدّم لي أحد الموظفين كرسياً للجلوس وسرعان ما تقدمت إلي السكائر الفاخرة وفنجان من القهوة التركية. وبعد توقف قصير، طلبوا مني تسجيل اسمي في سجل تم إعداده لهذا الغرض، ثم إرشادي إلى بناية الضريح. وتتكون هذه البناية من غرفتين، تقع في وسط الأولى، ضريح كبير، بشع وقبيح كالمبنى، تغطيه الزهور، حيث يجلس بقربه بعض الرجال المشغولين في ترتيب حزين، اعتقد أنه من القران. وفي هذه الغرفة ومن يسارها دخلت إلى الغرفة الثانية التي كان فيها النوع الاعتيادي من الضريح الملكي مرسوم عليه زخارف على الطراز التركي، وقد سمحوا لي بالمرور حوله ومشاهدته. كانت الزينة في الغرفة سوقية ومبتذلة ومعلق فيها عدة ثريات زجاجية. وكان في هذه الغرفة أيضاً ثلاثة رجال يرتلون.

بعد مشاهدتي لذلك، خرجت، وبعد سري حول البناية، وصلت إلى باب بهو كبير حيث يتم فيه توزيع الطعام. تقع هذه الإجراءات تحت مسؤولية جنود وعدد من الأفندية. وبعد الدخول، وقع نظري على منظر غير اعتيادي. فقد جلست في ساحة كبيرة، مجاميع من الناس، كل مجموعة مؤلفة من عشرة اشخاص، مشكلة ازدحاماً كبيراً من العرب المترقبين. وقد قدرت عددهم بحوالي ألف شخص. شغل الرجال الجانب الأيسر بشكل كامل، في حين كانت النساء على الجانب الأيمن. كان هناك أيضاً العديد من الأطفال، ومن الواضح ان جميعهم كما يتضح ذلك من ملابسهم المهلهلة أنهم من طبقة فقيرة جداً. في البداية، تم تقديم الخبز والخضراوات في اواني معدنية كبيرة، كل مجموعة امامها إناء، وسرعان ما اختفت محتويات الإناء. وفي

حالات عديدة يتم تقديم وجبة إضافية. بعد ذلك، تم تقديم وجبة اللحم (المكونة من لحم الضأن والبقر) بنفس الطريقة. فقد تم تقطيع اللحم بقطع غليظة قصيرة، واحدة لكل شخص، وما يترك أثرًا في النفس إلى حد ما أن نرى الطريقة التي تقبض بها أيادي الأطفال السمرء النحيفة حصصهم المخصصة من اللحم. مع ذلك، جرى كل شيء بنظام، ولم يكن هناك نهم أو سطو أو سرقة من حصة الجار أو أي شجار من أي نوع، رغم أنه يرافق مثل هذه الترتيبات عادة قسطًا كبيرًا من الضوضاء. وقد شهد عدد غير قليل من الإنكليز عمل الصدقة هذا كونه يجري بأخر يومين من الأيام الأربعين.

قضيت يومي متمشيًا نحو قمة جبل المقطم، يرافقني خادمي الفتى الذي الخ بأن اذهب في اليوم التالي على حماره إلى ما يسميه هو "الغابة المتحجرة" إلا أنني رفضت.

المنظر المتميز الآخر الذي شهِدته خلال إقامتي القصيرة في القاهرة هو الاحتفال أو ما يسمى (بمولد ستي زينب)، ابنة علي وفاطمة وحفيدة محمد، يقع الجامع في الحي الجنوبي الغربي في المدينة قرب الخليج وفي نهاية (درب الجماميز). وقد ذهبت إلى هناك بعد الغداء في نفس يوم زيارتي لقبر الخديوي. وعند اقترابنا للحي، كانت الشوارع قرب الجامع مظلمة وفارغة، وبدأ يظهر فيها جانبًا أكثر حيوية، حيث أخذت الإضاءة والرايات الحمراء الصغيرة تظهر في الشوارع. كانت الحوانيت مفتوحة خاصة تلك التي تعرض حلوى ملونة غير اعتيادية. ورغم أن هذه الحلويات تباع في احتفال ديني، إلا أنها كانت في الغالب بشكل هيئات بشرية وبذلك تنتهك الأوامر القرآنية بجرمة تصوير الحياة وحتى أن تصاميم بعضها، رديئة للغاية، وفي الجامع نفسه، كان الازدحام كبيرًا إلى حد ما ولم تربنا لللمحة الخاطفة التي استرقناها عبر الباب سوى وهج من الضوء.

تجري في الداخل مراسيم الذكر. كانت إضاءة الشوارع وفي المحيط المباشر لها ساطعة، وكانت تعلق في الشوارع بالإضافة إلى الرايات اشربة من الكرات الملونة

الزجاجية العديدة وأعداد من الثريات الزجاجية. وبعد مرورنا بهذا الطريق، دخلنا في (باب ستي زينب)، وقد كان للنظر في الخارج بهيجاً إن لم يكن أكثر روعة مما هو قرب الجامع. وقد كان على جانبي الطريق سقائف وخيم منصوبة عديدة. وكان هناك في البداية أراجيح ودوامات ببناء مختلف، تشبه إلى حد كبير مما نشاهده في المعارض الإنكليزية. جلس على مصطبة اثنان من الموسيقيين يعزفون على آلاتهم للموسيقى البدائية، ويبدو أنهم ينشدون قصة عربية رومانسية. وخلف ذلك، كانت هناك سقيفة كبيرة تشبه السيرك كما استطعنا أن نتبين ذلك ونحن على ظهور حميرنا. وعلى الجانب المقابل من الطريق، هناك خيمة منصوبة استطعنا أن نرى داخلها فتاة ترقص، وبالقرب من هذه الخيمة، هناك خيمة أخرى يرقص فيها راقص ذكر. وفي أسفل البسار، رأينا رجلاً يرتدي خوذة رومانية وسيفاً بيده، وقد جنب تهريجه وهزله لفظ جمعاً كبيراً مولناً الكثير من اللح. وخلف هذا مرة أخرى كانت هناك أيضاً خيماً وسقائف صغيرة، في كل منها شيئاً من التسلية أو العروض المسلية. وقد وقف أمام كل عرض من هذه العروض حشد من الناس (الذين كان من بينهم العديد من الأقباط)، وقد كان الطريق مزدحماً للغاية وقد واجهنا صعوبة كبيرة في العودة. كانت الأراجيح والدوامات تدور جميعها ورغم أن الضوضاء هنا كانت كبيرة، إلا أن النظام واعتدال المزاج يسودان المكان. وعند عودتنا إلى المنزل، مررنا على بيت تجري فيه طقوس الذكر وقد توقفنا لمشاهدتها من خلال الشباك المفتوح، وقد خرج مالك الجدار وقدم لنا قدحين صغيرين من شراب متبل لا أعرف اسمه.

وفي ٢٠ من الشهر صعدت على ظهر الباخرة Senegal في الإسكندرية حيث أفهموني بأني الراكب الوحيد في الحجرة. إلا أن ذلك لم يشكل مفاجأة سارة لي، حيث وجلت أن حبرتي مكتظة بدزنتين أو ثلاثة من الركاب الآخرين من البعوض الاسكندراني، والذي أزعجني للغاية في الليلتين الأوليتين بحيث أن راسي قد بدا وكأنه

تمثالاً نصفياً لدراسة شكل الجمجمة. بعد ذلك، استخدمت سرير ليفنج، وبذلك استطعت تجنب لسعات هذه الحشرات الصغيرة البغيضة.

ورغم أن الباخرة السنغال قد أعلنت أنها ستغادر في يوم (٢٠) من الشهر، إلا أنها لم تغادر إلا في صباح اليوم التالي، وعند الضحى كنا قد غادرنا منارة روزيتا، كانت المياه عند (مصب النيل) مضطربة وبنية وكانت مصر كما نشاهدها من البحر ليست سوى شريطاً من رملٍ أصفر خالٍ من الجمال أو البهاء أو المتعة. وقد اتضح أن هناك قليلاً من الركاب، ولم يكن من بينهم على أية حال أي راكب إنكليزي. إلا أنه كان من بينهم راكب إيطالي. وقد أخبرني أنه متجه نحو الإسكندرون وحلب. وقد أكد لي أن هناك عربة خيول تعمل بين هذه الأماكن، وهو شيء لم أسمع به من قبل. وقد كنا نتحدث بالإضافة إلى لغتنا الوطنيتين، بقليل من الفرنسية والعربية، لهذا كان حديثنا، والذي جرى بخليط من هذه اللغات، محدوداً للغاية. وقد مكثنا في ميناء بور سعيد مدة عشرة ساعات للتزود بالفحم وتحميل البضائع، وعندما غادرنا وجدنا على ظهر الباخر مجموعة من السياح الأمريكيين المتجهين إلى يافا والقدس.

وصلنا إلى يافا في أول صباح يوم ٢٢ من الشهر، وبعد الإفطار نزلت إلى الساحل مع رفيقي المسافر الإيطالي، الذي تملكه الذعر حالماً نزل إلى الساحل حيث كان يخشى من أن البحر سيضطرب وستواجهنا المصاعب عند عودتنا إلى سطح الباخرة لهذا علنا في الحال. وعليّ أن أعترف أن الدخول إلى الميناء الشهير فيه الكثير من الأخطار. في الطقس الهادئ، يبرز حاجز نصف دائري لصد الأمواج وهو عبارة عن صخور طبيعية أمام رصيف الميناء، ويتم الدخول إلى المياه الهادئة عبر ممر عرضه حوالي مرتين عرض زورق تجديف عريض. ومن السهولة ملاحظة أنه لا بد أن يكون المرور في هذا الممر خطيراً جداً في الطقس السيئ. ورغم أن رفيقي قد ألح عليّ بأن المدينة ليست جميلة وهي لا تستحق للمشاهدة، إلا أنني وجدتُها رائعة للغاية.

أول شيء يفاجأ به القادم من مصر هو اختلاف الزي. حيث يشاهد اللباس الأوروبي أقل بكثير مما يشاهده في الموانئ المصرية، رغم أنني لاحظت بشيء من الاستمئزاز أحد ملاحى الباخرة التي نقلتنا وهو يضع أطرافه السفلى في بنطلون إسكتلندي الطراز - يشكل هذا الزي مع الكوفية زياً فاتناً للغاية. ويشاهد لباس الرأس هنا مع عصابة من وبر الجمل لدى العديد من السكان، لأنه ليس كما يفترض بشكل شائع بأنه خاص بعرب الصحراء، بل هو شائع جداً في أوساط جميع الطبقات في سوريا وفي البلاد العربية الخاضعة للأتراك كذلك يشاهد بكثرة الطربوش الطويل جداً والقبيح للغاية في الموانئ السورية وحلب، ويقتصر لبسه بشكل رئيسي على المسيحيين المحليين.

قمت بجولة في المدينة مع أحد ملاحى الباخرة وزرنا بساتين البرتقال خلفها. كانت الشوارع ضيقة ومزدحمة ومسقفة، وفوق السقوف هناك بيوت سكنية. كانت معظم الشوارع خاصة القريبة من الميناء شديدة الانحدار وكانت الأسواق الصغيرة مليئة بالمشاهد السورية المتميزة. وقد اكملت نزعتي بجولة فاتنة في بستان للبرتقال خلف المدينة وإلقاء نظرة على سهل شارون وقد التقيت في أحد الشوارع برجل إنكليزي وسررت لأنه كان قادماً إلى الباخرة السنغال في طريقه إلى اسطنبول.

تمتلك شركتي كوك وكيز وكالات وفنادق هنا كون هذه المدينة تمثل نقطة البداية للرحلة إلى الأرض المقدسة. تقع الوكالة التابعة لشركة كيز قرب بساتين البرتقال خلف المدينة ويبدو عليها أنها مؤسسة مريحة صغيرة ونظيفة. وهنا تعرفت لأول مرة على العملة التركية والتي معظمها قليلة القيمة. ليست لدي أي فكرة عن عدد فئات هذه العملة، ولا اعتقد أن هناك أجني معين ولم بالموضوع. لقد عشت في تركيا مدة ثلاثة أشهر بكاملها، ولا اعتقد أنني قد قمت بتعامل تجاري لم يجر

تسليبي فيه بدرجة كبيرة أو صغيرة. وحتى اصحاب الحوانيت، عندما يجرون عمليات شراء لحوانيتهم فإنهم في الغالب يجدون من الضروري استخلاص مبلغ صغير وتثبيته في ورقة، وبعد ذلك فإنه بشكل عام يعتبر من المستحيل، ورغم العدد الكبير من الفئات النقدية أن يكونوا المبلغ للضبوط أو أن يحصلوا على المبلغ الصحيح للتعريف.

تبدو يافا من البحر شيئا أشبه بقطعة صغيرة من مالطا، فكل ما يحيطها هو رمال صفراء، إلا أنه على مسافة منها تقع سلسلة من الجبال الزرقاء التي تضيف جمالاً على المنظر الطبيعي.

ونتيجة لرفع الحجر الصحي الأخير والذي استلمنا إشعاراً منه في يافا، وجئنا انفسنا في صباح اليوم التالي (٢٤) من الشهر في بيروت. يعتبر خليج بيروت بشكل ما جميلاً كخليج نابولي، الذي سرعان ما تتذكره عند مشاهدتك لخليج بيروت. ومن البحر نشاهد جبل لبنان العظيم خلف المدينة مع جبل (سفين) المهيّب كسيده والذي يكسوه الجليد. وفي الأمام وعلى الجهة اليمنى على البحر تقع المدينة المزدحمة والتجارية (رغم أنها شرقية)، كون أهالي بيروت لسبب معين متفوقين تماماً على معظم الشرقيين، وبقي جزء صغير فقط من المدينة محافظاً على سمته الشرقية القديمة. وهذا يعود بالطبع بشكل رئيسي إلى كونها ميناء فلسطين الذي له تماس دائم مع التجارة المتوسطية والحضارة ويقع في نهاية طريق دمشق. فندق صغير حسن جئنا يديره مواطن من أهل البلاد حيث تناولت فيه وجبة رائعة. وبالقرب منه جلست على نتوء صخري صغير لتدخين الغليون، ولكني لم أكّد أفعّل ذلك عندما مرت امرأتان من أهالي البلاد أمامي ثم جلسن القرفصاء على الصخور بالقرب مني وبدان بالإيماء عليّ بشكل غريب. في البداية، لم أكتشف ماذا يردن حتى جاءني إحداهن وحسب ما استطعت أن أفهم وأشعرتني بأن عليّ المغادرة كونهن يردن الاستحمام. وبعد تناولتي

الغداء، دخلت في الأسواق المزدهمة الضيقة ثم خرجت إلى فضاء فسيح على الجانب الأيسر يعرف بموقع (كانون). وهنا، وفي ركن أحد الشوارع، شاهدت رجلاً ممدداً على ظهره في الطريق، يرتدي بنطلون مرقع مع صدرية مهلهلة مرفوعة إلى الوراء كاشفة عن صدره وبطنه كان هناك أسفل أضلاعه مباشرة عدة جروح عميقة في جسده تتخللها قطعاً من الخيوط أو الصوف. كانت تظهر من عيونه وأنفه وفمه وآذانه كميات من الدم وكان رأسه غارقاً في بركة من الدماء المتخثرة. وخلال فترة قصيرة، كان ينن ويصارع مبعداً عنه ذراعيه ورجليه كما لو أنه يحتضر أو على الأقل يمر بمعاناة قاسية. تجمع حوله حشد صغير من الناس، وكانوا ينظرون ببرود إلى هذا المشهد غير السار، إلا أن أصحاب الحوانيت في المكان المجاور وأغلب المتفرجين لم يبدون أي اهتمام بذكر. كان هناك رجلاً شاباً يدور حول الناس ويجمع الصدقات في طربوش، شاهدت فيه عندما جاءني عدداً قليلاً من فئات العملة المعدنية. وضعت صدقة صغيرة فيه، ثم سألت أحد المتفرجين ما الخطب؟ إلا أن معرفتي بالعربية لم تكن كافية لفهم جوابه. وفي جواب لسؤال آخر، أبلغت أنه ليس إلا درويشاً. كان النظر مؤلماً ومثيراً للاشمئزاز. ولا أعلم الآن فيما إذا كان الرجل يمر بنوبة مخيفة من المرض أو أن الموضوع برمته هو مجرد حيلة لدرويش دجال. على أية حال كان منظرًا غريباً في مدينة متحضرة. غادرت المكان وسلكت طريق دمشق الذي كان على جانبه بالقرب من المدينة حوانيت للحياك. وبعد انتهاء صف البيوت، قمت بجولة جميلة بين أشجار الصنوبر خلف المدينة حيث شاهدت من هناك منظرًا ساحراً لسلسلة جبال لبنان والخليج الواقع بين المدينة ونهر الكلب. وعند عودتي أخذت السلسلة تحتلني تدريجياً.

تمتلئ بيروت بالمدارس والبعثات التبشيرية، والتي إن لم تكن قد هتبت الأخلاق الإسلامية، فإنها قد غيرت بنجاح الآثار الأخيرة للحياة الشرقية في المدينة يبدو أن

السلعة التجارية الرئيسية في الوقت الحاضر هي الأثاث الخشبي، وتشاهد الحوانيت مليئة بالأثاث المصنوع محليًا على الطراز الفرنسي.

وصلنا إلى طرابلس في صباح اليوم التالي ثم اللانقية في نفس اليوم بعد الظهر، إلا أن فترة مكوثنا في هذه الموانئ كانت قصيرة لا تسمح لي بالنزول إليها. أبلغونا بأننا سنكون في الإسكندرون صباح اليوم التالي. كان يقصد هذا الميناء بالإضافة لي إنية القنصل الإنكليزي الأخير في حلب وعائلة فرنسية وسيدتان مسيحيتان من أهالي البلاد وجميعهم متوجهون إلى حلب. وقد غير الإيطالي الذي سبق ذكره، رأيه في الحقيقة الأخيرة لسبب أحله، وبدلاً من أن ينزل في الإسكندرون، ظل على ظهر السفينة واتجه إلى اسطنبول.

*

*

*

الفصل الثاني

من الإسكندرون إلى حلب

الإسكندرون - فندق سوريي - طقس سيئ - عربلي و الأربعة - بيلان - جليل - خان كرا - سهل
إنطاكية - سيدات سوريات - الميق - حماح - خان إفرين - القنصل اليوناني ورفاقه في
غرفة النوم - بداية قارسة - الوصول إلى حلب

ذكر ولي براند من أولدنبرغ، الذي قام برحلة في القرن الثالث عشر ان
الإسكندريتا، التي تسمى الآن من قبل أهالي البلاد (الإسكندرون أو سكندرون)، قد
أسسها الإسكندر المقدوني لاستراحة خيوله. وسواء كان ذلك حقيقة أم أسطورة، إلا أنه
لاشك أن أصول اسم الإسكندرية الصغيرة يعود بنحو ما إلى الإسكندر الكبير. ويخبرنا
أيضاً روشيتيه في كتابه "تاريخ المستعمرات الإغريقية" بأن ملوك أرمينيا قد حصنوا
هذا الموقع، إلا أنه لا توجد حالياً أية تحصينات فيه. تقع المدينة على خليج واسع هو
خليج الإسكندرون الحديثة ومدينة أسوس القديمة. وعلى سهل تكثر فيه المستنقعات
وتنعدم فيه الظروف الصحية، وإلى الشرق منها، ترتفع جبال أمانوس المهيبة وجبال
أخرى، تختلف أسماؤها الحالية عما هو وارد في الخرائط، مما يشكل إرباكاً كبيراً في
تعيينها.

وقد وصف رحالة آخر هو موريسون الذي قام برحلة هنا في عام ١٥٩٦م الإسكندرون بأنها قرية بائية مبنية جميعها من الطين القش باستثناء بيوت بعض العمال المسيحيين للمبينة من الخشب والطين... إن الهواء الخانق لهذا المكان هو السبب في عدم استقرار أي من العمال فيه. كون هذه القرية محاطة من جهاتها الثلاثة بسهل تكثر فيه المستنقعات بينما يقع الجانب الرابع منها على البحر.

وفي الجانب الشرقي خلف المستنقع ينتصب جبل عالي جدًا يمنع وصول الشمس إلى الإسكندرون، ولوجود الكثير من المستنقعات في المنطقة، فإن البخار الفاسد يغمر المكان من جميع الجهات. وفي الجانب الآخر نحو الشمال (كما أتذكر) في الطريق المؤدية إلى اسطنبول، يقع سهل مستنقعي آخر، وجبال، والتي رغم أنها أبعد قليلًا، إلا أنها لا تمنع وصول الشمس، ونتيجة لانبعاث الأبخرة الفاسدة من هذه الأرض المستنقعية، أصبحت الإسكندرون سينة الصيت في موت المسيحيين، ويخبرنا أيضًا بأن إكمونت، الذي جاب المنطقة عام ١٧٥٩ "إن هناك أقل من ستين بيتًا في هذه المنطقة، إلا أن للبيت الإنكليزي مظهرًا جميلًا فيها، ويوجد بالقرب منه مستودعات ضخمة قامت الشركة التركية ببنائها"، وذكر أيضًا، "إن معظم قاطني الإسكندريتا هم يونانيون، ويقيم فيها أيضًا أسقفًا يونانيًا، وهناك أيضًا دهر لآباء الأرض المقدسة".

وفي صباح يوم ٢٦ من الشهر، وجئنا أنفسنا نرقد في خليج الإسكندرون الجميل. كانت هناك أمطارًا غزيرة في الليل، وكانت ترتفع على سلسلة جبال طوروس العظيمة غيوم سوداء هائجة. وفي الأسفل على المنحدرات بشير الجليد المتلألئ أن الصيف لم ياتي بعد، وإننا ربما سندوق طعم الشتاء في رحلتنا إلى حلب. وفي البحر تشكل سلسلة الجبال للهيبة مع منظر المدينة الصغيرة في وسط السهل منظرًا جميلًا جدًا. وفي الساعة

العاشرة نزلنا إلى الساحل، وبعد دفع حضيف لقليل من البقشيش لإخراج امتعتنا من الجمارك، وجئت نفسي في نيل صف طويل من العتالين ذوي الأحذية الحمراء، وأحاول أن أشق طريقي، بينما تنفرز أقدامي في الوحل وللاء، للوصول إلى مكتب شركة بلفانت وكاتوني حيث يعمل الأخير كنائب للقنصل البريطاني. مع ذلك لم يكن الأخير موجوداً إلا أن السيد بلفانت قد أبدى لي كل اللطف في مساعدتي على إجراء التحضيرات لرحلتي إلى حلب. وقد وجدت أن الكلام صحيح بأن هناك حالياً طريقاً جيداً للعربات، ورغم أنني كنت أرغب أن أمتطي الخيل، إلا أن الانهماك المتواصل للمطر البارد مؤخراً قد دفعني لتأخير عربة ذات سقف، والتي ستكون جاهزة لي صباح اليوم التالي مع أربعة خيول. وبعد تناولي الغداء مع السيد بلفانت، شرعت بتأجير غرفة لي لقضاء الليل وذلك في مبنى بانس يسمونه فندقاً يديره رجل شرقي. وطالما أن هذه الغرف تحوي أسرة وكراسي وأثاث، وأن المضيف الكفء يتولى تقديم الطعام إليك، فإن هذا المبنى ربما يستحق أن تطلق عليه تسمية فندق. إلا أن الوصول إليه يمر عبر مستنقع من الأقدار، وغرف النوم متسخة ويمكن أن تطلق عليها أي شيء عدا أنها جميلة، ومن الواضح أن السربير قد جرى استخدامه لفترة ليست بالقصيرة دون أن يجري تغيير الملاء الضرورية للموجودة عليه. ولحسن الحظ فإن لدي لوازمي الخاصة للنوم. وعندما طلبت من الرجل العجوز المسؤول عن الفندق ترتيب الغرفة، طلب مني رسوماً باهضة. إلا أنه طالما أنني لا أستطيع أن أضع فراشي في البرك الموحلة القذرة في الخارج، ولكون السيد بلفانت يقيم في مسكن للعزاب وليس لديه أية مستلزمات إقامة ليقدمها لي، اضطررت للرضوخ إلى طلبات العجوز بعد أن بينت له رأبي في سلوكه. ولحسن الحظ فإن كرم السيد بلفانت قد أنقذني من وجوب تناول طعامي في هذا "الفندق" لهذا فإنني ممتن له حقاً. وقد قضيت فترة بعد الظهر أتجول في الجو الماطر، لشراء تجهيزات للرحلة ومشاهدة معالم المدينة. وحقاً يبدو أن الإسكندرون لم تتطور منذ أيام

موريسون والشريف فان إكمونت. لم أفلح بمشاهدة بناية واحدة لها مظهر جميل، في حين تجعل الطرق غير المعبدة أو نصف المعبدة الغارقة في المياه والأوحال من التنقل بين الأسواق والخوانيت تجربة غير سارة تمامًا. مع ذلك وجدت حانوثًا واحدًا أو اثنين جيدين يعودان لليونانيين، وكان يرافقني في الجولة صاحب الفندق. وقد اشتريت للرحلة دجاجتين ونصف آفة من البسكويت وحضيمة من السمك المقدد، وجبن وخبز وبرتقال. من المؤكد أن العباءات الحمراء المطرزة وأحذية الفلاحين الطويلة الساق وقوافل الجمال التركمانية خشنة الوبر تشكل شيئًا من المتعة للغريب القادم حديثًا، ولكن عدا هذا لا شيء يخفف من الرتابة التامة للإسكندرون. مع ذلك، فإن رأي السير بلفانت هو أن المدينة أكثر صحة مما كانت عليه سابقًا. وبعد تناول الغداء مع هذا الرجل، عدت أتمشى إلى الفندق وأنا أتلمس طريقي عبر البرك بنور الإضاءة المستمرة وبالموسيقى التي تعزفها ملاييين الضفادع التي تنق في المستنقع المحيط. وسرعان ما أصبحت مريضًا بكل معنى الكلمة بسبب الإسكندرون، بحيث اني قد تفت إلى مغادرتها.

وبعد ليلة ماطرة على نحو مخيف، كنت جاهزًا للمغادرة في الساعة التاسعة وهو الموعد الذي تم الاتفاق عليه مع صاحب العربية. إلا أن السماء كانت تمطر بشكل متقطع، ورغم أنني قد أرسلت إلى المالك بانني جاهز، إلا أن العربية لم تصل بعد، وفي الآخر، ويشعور من اليأس اتجهت للبحث عن الإسطبل واستعجال الآخرين بنفسي. كان المالك رجلًا أرمنيًا موسرًا ذا بنية قوية، يرتدي الزي الأوروبي وكان قبل يوم يود بشكل خاص بأن استاجر عربته ليس إلى حلب بل إلى بغداد، وهو مقترح أثار استغرابي لأنه كما أعرف لا يوجد طريق منظم إلى بغداد، إلا أنه قد أوضح أنه قد فعل ذلك من قبل وأيده السيد بلفانت.

وبعد طول عناء وجبت هذا الشخص واصطحبته إلى الإسطبل وتم إخراج العربية وربطها على الخيل امام ناظري. كانت العربية متداعية وقديمة وربما كانت تعمل في السابق في بيروت او الإسكندرية. وقد تم تجديد العجلات بخشب غير مصبوغ ربما في حلب وقد جرى صبغ الأجزاء الأصلية بعجالة. لا يبدو انه قد جرى تنظيفها لسنوات عدة، وكان هيكلها متزعزعا بحيث انني كنت اشك في انها قد قامت بهذه الرحلة سابقا. تم إخراج الخيول الأربعة وكانت صغيرة كستنائية اللون وتم ربطها جنباً إلى جنب كالمركبات الرومانية حيث تتطلب عملية ربط غدة الخيل مقداراً كبيراً من الحبال والخيوط وفي الآخر تم حزم امتعتي المكونة من ثلاث حقائب كبيرة وخيمة ولفة من البطانيات ووضعها بشكل امين في مقدمة ومؤخرة وداخل العربية. وفي الساعة العاشرة كان كل شيء جاهزاً، وبعد تسديد حسابي لضيفي وتوديعي للسيد بلفانت، اتخنت مكاني في العربية التي دارت في الوحل باتجاه الجبال.

الآن شعرت حقاً ان رحلتي قد بدأت، فالإسكندرون الميناء المتوسطي، البانس وغير المتحضر يمثل حلقة الاتصال بين الحضارة الغربية وآسيا الحديثة شبه المتخلفة. وإلى الخلف مني يمتد البحر المتوسط الأزرق اللون ببواخره وسواحله الباسمة، وتمتد أمامي تركيا الآسيوية بطرق قوافلها ومدتها البانسة. وعليّ ان اعترف انه عندما سحبت الشباك المتداعي للعربة اتقاءً للوابل الجليدي وبعد ان طويت نفسي في الزاوية واشعلت غليوني الحميم، ساورتني بعض الشكوك عن مدى عقلانية القيام بمفردي برحلة برية تستغرق فترة شهر بكل متاعبها وإزعاجاتها دون هدف محدد سوى مشاهدة هذه البلاد.

كان الطريق محاطاً بمتسع فسيح من الأهوار التي تتصاعد منها رائحة عفن الأبخرة والتي جعلتني أقرب من الشباك الآخر وانفت غليوني بطاقة مضاعفة. ولحسن

الحظ، اخذ الطقس بالتحسن، ورغم أن الجو ندي وبارد، إلا أن الشمس تصارع للظهور من بين الغيوم وتلغى بدرجة ما هواء السهل المشبع بالرطوبة. في حين لا تزال تقبع على الجبال أمامنا غيوم كثيفة وجليد.

كانت حال الطريق الممتد أمامنا على السهل جيدة، فعرضه حوالي ست ياردات، وعندما يصعد للراء الجبل، تقطع الطريق بعض الأحجار، ومن الواضح أنها في هذه الحالة نوعاً من الحجر الطيني. ويلاحظ أيضاً أن مرور القوافل على هذا الطريق يعتبر أمراً شاقاً، وهناك الكثير من الأشياء التي ينبغي مشاهدتها على هذا الطريق حيث تشاهد غالباً جملاً بعدد (٦٠-٧٠) وهي تجتاز الطريق في غضون عشرة دقائق. وبالإضافة إلى الجمال، تشاهد قوافل من البغال والحمير التي ترن أجراسها على نحو منفر، مع قطعان الأغنام ورعاتها الجفاة وهي تمشي بجهد جهيد على طريق شديد الانحدار، ويلاحظ أن العديد من سالكي الطريق كانوا يعانون من برد الرياح القارس. وقد لاحظت بين هؤلاء رجلاً ومعه رمح طويل. وبعد الدوران حول جوانب الجبل وصلنا إلى قرية كبيرة تدعى بيلان. وتقع هذه القرية، التي يتردد عليها أهالي الإسكندرون وحتى أهالي حلب في المواسم الحارة كنوع من المنتجعات الصحية، قرب القمة والتي تصل إلى ١٥٨٠ قدم فوق مستوى البحر. وقد تم بناؤها على منحدر جبلي على جانبي وادي صغير ضيق، وتقع البيوت أحدها فوق الآخر، وتبدو القرية وكأنها نوع من عش الزنايبر الكبير، وبالنسبة إلى القادم من مصر وفلسطين، فإنه يفاجأ بحقيقة أن جميع البيوت مسقفة بالأجر، مما يبين كما يتضح من تجربتي السابقة، أن في هذه المنطقة هطول مطر غزير، ويقال أن هذه القرية هي المثل الحالي لبينار في بلني وبنولي وممثلة إيرانا في سيسرو.

وقد توقفنا في بيلان لإراحة خيولنا، وقد انتهز سائق العربى الفرصة فتناول القهوة والخبز في حانوت أحد أصدقائه. وذهبت لأرى فيما إذا كان بالإمكان الحصول على قذح من الحليب، كوني قد نسيت ببلاهة أن أجلب معي أي نوع من أنواع المشروبات، إلا أن الناس كانوا يبدون متجهمين ومنطولين على أنفسهم وغير ميالين لتقديم أي شيء لي. فبعد تهذيب المصريين الباعث للسرور، وصلنا إلى مكان يمثل تغييراً نحو الأسوأ، إلا أن سكان بيلان ربما يكونون على الأكثر من دماء نصف تركمانية ونصف سورية مع قليل من السمات الجيدة للعرب الأذكىاء المتحضرين. يقال أنه يوجد هنا خان جيد إلى حد ما إلا أنني لم أره. وبشاهد في الممر الضيق الذي بنيت عليه المدينة آثار ما يعتبر تحصينات وقنوات رومانية.

وعندما كنا في بيلان، وصلت عربية أخرى قادمة من الإسكندرون تحمل عائلة فرنسية. وعلى صندوق العربى جلس فتى ظريف من أهالي البلاد وعلى رأسه طربوش ولكون ملابسه الخفيفة لا تشكل سوى وقاية بانسة ضد البرودة القارسة، فسحت له مجالاً في عربتي ليجلس فيها. وقد سرُ لتغيير الخطوط هذا وبدأ برباطة جأش تامة يسألني بالفرنسية عن اسمي ومهنتي والهدف من رحلتي. وبعد أن أرضيت فضوله عرفت أن اسمه جليل وأنه في الرابعة عشرة من العمر وأنه من عائلة كاثوليكية سورية إلا أن والد أمه رجل فرنسي. وقد كان في بيروت لبعض الوقت لغرض العلاج أولاً ولغرض التعليم ثانياً وهو الآن عائد إلى عائلته في حلب. ولكونه لا يستطيع أن يستاجر عربية لوحده، فإنه قد دفع ثلاث مجيديات مقابل أن يشغل مقعداً شاغراً في إحدى العربات. كان جليل يستطيع التحدث بالفرنسية والإيطالية والعربية وقدراً كبيراً من التركية والأرمنية وهو قادر تماماً على الاعتناء بنفسه. وقد أخبرني أن لديه اثنان من أشقائه في مصر، أحدهما جندي في أسوان. وعندما كان يجلس قبائلي وهو يمتص برتقالة ويرمقي بعينه السوداويتين النائريتين الكبيرتين كان يبدو مثلاً حياً

للاتكالية الشرقية على الحظ. طلبت منه أن يحدثني بالعربية فقط، وسرعان ما أصبحنا أصداً سفر حميمين جداً.

وبعد هنيهة وصلنا إلى قمة المر الجبلي (الشغب)، الذي يبلغ ارتفاعه أكثر من (٢٠٠٠) قدم فوق مستوى البحر، وحالاً بدانا بالنزول، هبت على الجبل عاصفة هوجاء من البرد. كان الطريق على هذا الجانب أقل انحداراً من جانب بيلان، ثم اتخذنا طريقنا إلى الأسفل بسرعة معقولة. كانت المنحدرات مزروعة بالأشجار بشكل جميل. وعند الساعة الثالثة انتهينا من الجبال وأصبحنا بمستوى سهل إنطاكية. وبعد ساعة وربع، اجتزنا قرية صغيرة غريبة مكونة من أكواخ مبنية من الحجارة وجذوع الأشجار وتقع عند حافة نهر هادر. كان هناك خانين، وقد أخذت القرية اسمها من أحدهما وهو (خان كرا)، والذي يبعد عنها مسافة حوالي (١٥٠) ياردة. وقد دخلت العربية الفرنسية أولاً ثم دخلنا بعدها. يقع خان (كرا) في أسفل الجبال التي اجتزناها توّاً والتي لا تزال تلفها الغيوم، وأمامها يمتد سهل العمق والهور الذي يمتد شمال شرق بحيرة إنطاكية. وإلى الشمال وشمال شرق السهل، يمكنني أن أتبين سلسلة واطنة من الجبال الأرومانية.

يتكون الخان الذي ذهب إليه من ساحة مربعة الشكل يحيطها سور واطن وإسطبل قدر في إحدى جهاته وعلى الجهة المواجهة للطريق هناك بناية خشبية من دورين. يتكون الجزء السفلي من هذا المبنى من غرفتين يسكنهما (الخانجي) أو صاحب الخان وبينهما ممر تدخل منه القوافل من الطريق إلى الخان. وفي الأعلى، الذي تصعد إليه بسلم خارجي هناك غرفتان أو ثلاثة لاستقبال المسافرين. كانت الغرفة التي قدمها لي بالطبع خالية من أي أثاث إلا أنها كانت نظيفة ومريحة. وقد جلب لي الخانجي قطعة من الحصر لأضع فراشي عليها ومجمر فحمية لتدفئة الغرفة. وبناءاً

على طلبي، جلب أيضا شيئا من اللبن الفاخر، وهو أحد مشتقات الحليب الذي يشبه اللبن الزبادي كذلك جلب لي كرسيا ومنضدة صغيرة ووضعها في مكان كالشرفة خارج غرفتي وقد تناولت غدائي الأول براحة نسبية. إن هذا الخان وخان افرين الذي توقفت فيه الليلة التالية، هما الخانان الوحيدان اللذان تتوقف بهما دائما العربات الزاهية والقادمة منذ تأسيس خط العربات، ونتيجة لذلك، كان هذان الخانان متطوران نوعا ما وتجهيزتهما افضل من تجهيزات الخانات الواقعة على طريق القوافل الاعتيادي.

اثناء ما كنت اشعل غليونني الوحيد بعد غدائي المبكر، جاءني رجل واخبرني ان العربية التي تحمل الأنسة B والسيدان من اهالي البلاد قد وصلت وانهم واقفون الآن في الخان الآخر. فقد بقيت الأنسة B مع السيدة كاتوني في الإسكندرون، ونتيجة للعاصفة الصباحية، فإنها قد تأخرت عني ساعتين. اتجهت نحوهم لأعرب لهم عن تحياتي واسألهم عن تعب النهار، وبعد مروري بغرفة مظلمة كبيرة حيث يجلس فيها حشد من سائسي البغال وسائقي العربات، أدخلوني إلى غرفة أكثر بؤسا من غرفتي حيث وجدت السيدات الثلاثة. كانت جميع السيدات (من ضمنهن الأنسة B) يجلسن على وسائل بسبب عدم وجود كراسي ويرتشفن قهوهن لما بعد الغداء. تعرفت على السيدتين السوريتين. وقد بذلت جهدي للدخول في حديث معهن. كانت الكبيرة امرأة عجوز ذات وجه مليء بالتجاعيد وكانت طيلة فترة زيارتي تدخن النرجيلة بحرارة. بينما الأصغر (واعتقد أنها ابنتها المتزوجة) فكانت امرأة شابة ذات منظر حسن وتبدو أينما دارت وجهها، وكأنها سيدة إنكليزية، فقد كانت ملامحها منتظمة وتبعث على السرور وعيونها كبيرة ومعبرة، إلا أن هيئتها كانت متينة وغير رشيقة. كانت السيدتان تلبسان نوعا من الزي الأوروبي المهنج والذي ربما يعتبر في حلب قمة الأزياء الأوروبية في وسط المسيحيين السوريين. كان زوجيهما في بغداد أو البصرة، وهما

عائدتان من رحلة إلى هذه الأماكن. حيث ذهبن وعدن عن طريق البحر. وقد دهشن كثيراً لسماعهما بأن في نيتي الذهاب إلى بغداد برّاً ولم يفهما لماذا اخترت الطريق البري بدلاً من القيام برحلة طويلة إلا أنها مريحة عبر البحر، وقد ازدادت حيرتهما أكثر عندما أخبرتهما من خلال الأنسة B أنني أريد (التفرج) فقط أو رؤية البلاد، وقد اقتنعتا بأنني لابد أن أكون رجلاً ثرياً ولا شك أنهما كانا في غاية الأدب بعدم القول بأنني مجنون أيضاً بأن أقوم بمثل هذه الرحلة من أجل المتعة فقط. وحسب رأيهما فإن بغداد والبصرة هما جنتان حيث فيهما التمر "كثير، كثير"، وحيث الإنكليزية هي اللغة الرئيسية وأن البواخر النهرية التي يقودها ربانية إنكليز هي من الكثرة كباوخر التايمز في (شارنك كروس)، ومع غليون وكوب قهوة فاخر قضيت ساعة ممتعة من الدردشة. وعندما اتجهت في طريق عودتي إلى الخان الذي أقيم فيه، وجئت الخبر منتشراً بين جميع سائسي البغال بأنني هو ذاك الرجل الإنكليزي الذي سيغادر إلى بغداد، وقد حاول واحد أو اثنان منهم جاهدين تقديم خدماتهم لي للقيام بالرحلة. وقد رافقني أحدهم خلال طريق سيري وكان يبدو متحمساً بشكل خاص في تقديم طلبه بأن علينا هو وأنا أن نقوم بالرحلة (سوا، سوا) أي معاً، وفي نفس الوقت كان يضع سبابتيه جنباً إلى جنب للإشارة إلى السيد وخادمه، وهي إشارة شائعة الاستخدام جداً لدى العرب عندما يودون أن يقدموا خدماتهم.

وبعد قضاء ليلة في نوم هادئ، وعندما دخلت إلى الحمام استعدنا لبداية الرحلة، رايت من الشباك مرور العرببة التي تحمل العائلة الفرنسية، وبعد ذلك مباشرة انقطع نحوي جليل، وببده قطعة خبز وأخبرني بنفس مقطوع أن الوقت قد حان للمغادرة. ورغم أنني لم ادعه للدخول إلى عربتي هذا اليوم، إلا أنه كان يعرف المكان المريح، لهذا قرر أن يرافقني. دفعت فاتورة حسابي لليلة واحدة وكانت بمبلغ (٢) فرنك وبعد

شرب كوب صغير من القهوة، غادرنا في الساعة السابعة ونحن نمضغ الخبز والبيض المسلوق كإفطار. كان صباحاً جميلاً، وكان يظهر سهل إنطاكية تحت أشعة الشمس جميلاً للغاية، وهو يبدو بحساب غير دقيق أن عرضه حوالي ثمانية أميال وطوله ربما (١٢) ميلاً. وعند الساعة ٨:٣٠ توقفنا في قرية تقع بين الأهوار التي يقطعها هنا ممراً وعدة جسور طويلة مبنية بعناية وبالقرب منها رواابي كبيرة بتضح أنها مواقع قديمة. وفيما يتعلق بذلك، كتب فان إكمونت في عام ١٧٥٩ "يسمى هذا جسر مراد على اسم كبير الوزراء الذي قام ببنائه، يبدأ هذا المر بجسر وثلاثة أقواس ويستمر بطول مسير نصف ساعة بشكل سلسلة من أقواس صغيرة منخفضة، وقد كان الجسر عسيراً جداً على الخيول كونه لم يمد بشكل جيد في البداية ولم يجر أي إصلاح له".

ويقطع هذا الطريق الذي شقه مراد نهر المياه السوداء او (كاراسو) التي تتدفق عبر الهور. وقد قام في عام ١٨٢٥ بالملاحة في زورق في النهر لغاية هذا المكان. وقد لاحظ أن الرابية القريبة منه تسمى (كل باشي). وفي الوقت الحاضر، لا يبدو أن الجسور تقطع شيئاً على السهل المستنقي وهذا دون شك يعود إلى أن النهر قد غُير مجراه أيضاً لأنه قد تلاشى في الهور. ويقال أن هذه الأعمال قد حلت محل أخرى مشابهة لها في زمن الرومان، وربما لا يزال موجوداً جزءاً من البناء الأول. تشاهد أيضاً أعداداً كبيرة من طيور الماء في السهل المحيط ويمكن تمييز البجع الضخم من حجمه من بينها. وعند هذه الاستراحة، كانت جميع العربات التي غادرت الإسكندرون في اليوم الماضي متوقفة معاً، وكان عندها لا يقل عن أربعة. كانت هناك عربة تقل القنصل اليوناني في حلب وشخصاً "أفندي" و"كواس" وكذلك عربة الأنسة B والسيتتين السوريتين،

وعربة العائلة الفرنسية، وأخيراً عربتي. كان في كل عربة سائقها الخاص وخادم كالعفريت يعمل سائناً للخليل، لهذا أصبحنا نشكل قافلة كبيرة.

وبعد المغادرة، انتهينا من السير في السهل ودخلنا في روابي معشبة هادئة على جانب الطريق الشرقي. وعند الساعة العاشرة والنصف وصلنا إلى خان الحمام، حيث توقفنا جميعاً لإراحة خيولنا لساعة واحدة ولتناول وجبة أساسية. وعندما كانت تجري التحضيرات لذلك ونقوم بتهينة مائدة صغيرة وعدد من الصناديق للجلوس عليها، أسرعت راكضاً إلى قمة تل مجاور ذي ارتفاع كبير. كان بالقرب من الخان عيناً كبريتية ساخنة غريبة، حيث أخذت في ذلك اليوم لأول مرة حماماً منعشاً (رغم أنه ذو بخار كثيف ورائحة كريهة). بعد ذلك التحقت بمجموعة المادبة البهيجة التي تمثل الأمة الإنكليزية والفرنسية والسورية واليونانية والتركية. وقد تم نشر لحم طيور الماء والكبّة (وهي شكل من النقانق الصلبة بشكل يشبه البيضة) والخبز والزبدة والجبن، والبرتقال والتوم. كان لدى المجموعة ثلاثة سكاكين وشوكات.

ومن الحمام انطلقنا برحلة طويلة متعبة إلى نجد، وعند الساعة الثالثة والنصف وصلنا إلى نهر صغير ربما يكون رافداً لنهر افرين. وبعد ساعة ونصف أخرى أصبح الطريق سبياً أكثر، والحقيقة أننا قد سرنا لبعض الوقت في أرض محروثة رغم أنه قد تم افتتاح طريق جيد. لا زال السهل ممتداً على يسارنا ولكن كانت هناك بعيدة على اليمين سلسلة خفيفة من تلال كلسية. وعند الساعة السادسة، دخلنا إلى فناء خان افرين الواقع على الضفة اليمنى لنهر صغير يحمل نفس الاسم. كان الخان يشبه إلى حد كبير خان كرا إلا أنه أكثر قناراً. كان هناك في أعلى السلم الخشبي المتداعي ثلاث غرف لإقامة النزلاء. شغلت إحدى هذه الغرف العائلة الفرنسية، والأخرى الأنسة B والسيدتين السوريتين، ووجدت نفسي في الغرفة الثالثة مع القنصل اليوناني

والأفندي والكواس ورجل تركي مسن ومتسخ سبق أن شاهلناه عدة مرات في اليوم وهو يعدو الهويينا على فرسه البلقاء ويضع نظارات شمسية زرقاء على عينيه ومظلة كبيرة فوق رأسه.

وقد فرش القنصل وصديقه بأدب شرقي جم فرشهما على الدكة المرتفعة المعدة لهذا الغرض والمزودة بحصير، وقد تركوني كالخنزير اضطلع على الأرض القذرة. وبناءً على الدعوة الكريمة من السيدتين اللتين استضفني في خان كرا اشتركت معهما في العشاء وسمعت أننا سنواصل الرحلة مبكرين، لهذا عدت إلى غرفتي وآويت إلى فراشي. لا يبدو مظهر غرفتي مشجعاً على النوم. صحيح أن الأفندي قد أوى إلى فراشه، ولكن عند حافة الدكة وامام المجررة، جلس القنصل اليوناني بمعطفه الكبير من الفرو وبعينيه الكبيرتين القلفتين وشعره المنتصب "كجزة نيص مشاكس"، ويبدو أنه لم يتناول عشاءه بشكل حكيم بل بإفراط وقد امتلأت الغرفة برائحة العرق. لقد حياني بثلاث كلمات بالإنكليزية وذلك عندما وجه كلامه إلي بصوت أجش لحظة دخولي: "هل انت نعسان؟" ثم اخبرني بالفرنسية بأن علينا أن نواصل رحلتنا في الساعة الثانية من صباح اليوم التالي، واقترح عليّ أنه طالما أن الوقت المتبقي لا يستحق الذهاب إلى الفراش خلاله، فإن عليّ مرافقته إلى غرفة مجاورة حيث لديه بعض المأكولات الخفيفة. ثم هجع بعد ذلك تلاه الكواس، وجلست أمام المجررة أدخل غليوني. بعد ذلك مباشرة، دخل أحد خدم العربات وأومأ لي بأن اتبعه وكان في نفس الوقت يقوم بإشارات بأن هناك بالقرب منا الكثير من الشراب. إذ أني آويت إلى فراشي، وبعد العديد من الأمور التي تقطع النوم، كضوضاء رفاقي العربدين، والقطة التي تلح على فتح الباب وهبوب تيار هواء جليدي، بدأت النوم. لم أكد أنام فترة عشرة دقائق حتى أيقظني القنصل ورقيقه باستعدادهما للرحيل، وقد هز الكواس قدمي برفق

لإيقاظي. إن الساعة لم تكن تبلغ الثانية فقط، وقد اعتبرت ذلك مقلبا من طرف رفاقي الصاخبين وغططت في نوم عميق. إلا أنه وبعد ذلك مباشرة جاء السانس العفريت الذي يخدم خيلي وسحب إصبعي أيضا وبدأ ينقل امتعتي. وبلمحة واحدة كنت خارج الفراش ووجدت حقا أن كل شخص قد أجرى استعداداته للرحيل. ورغم يقظتنا المبكرة، إلا أن الرحلة لم تبدأ إلا في الساعة الرابعة والربع، وقد قضى كل هذا الوقت في مراقبة ربط الأمتعة بترو على العربات في ربح بالغة البرودة. وفي الآخر انطلقنا في الظلام، وعند بزوغ الفجر في الساعة السادسة، وجلت نفسي متجمعا بسبب البرد بحيث اضطررت إلى الخروج والمشى على طول التل لأدق نفسي. ورغم أني قد صعدت التل بمعطفي الكبير، إلا أنني وجلت من الصعوبة استعادة جريان الدورة الدموية. كان العشب مغطى بالصقيع وكانت برك الماء عبارة عن جليد صلب. يمر طريقنا إلى اليسار من جبل سيمون، ومن هذه الأرض المرتفعة يرى منظرا جميلا للتلال التي يكسوها الثلج والتي مررنا عليها في أول يوم لرحلتنا. بقودنا الطريق الآن إلى بقعة أرض مقفرة كالصحراء. وعند الساعة التاسعة والنصف توقفنا في خان بجانب الطريق لتناول القهوة حيث أذى لنا ثلاثة موسيقيين متجولين يبدون كالبدايين عزفا موسيقيا. كان هنا مثيرا للغاية لمشاعر خدم العربات الذين كانوا، بسبب شراب الليلة الماضية، يمرحون ويعبثون في كل نقطة توقف، بحيث أنهم قد شكّلوا حلقة وبدأوا يرقصون بحماس على أنغام الموسيقى. وبعد مغادرتنا للمكان، اجتزنا رابية مخروطة الشكل، ربما يكون ارتفاعها ثمانون قدما، وباقل من ساعة كنا في قرية تل الفطر بمقرتها الكبيرة، ولهذا المكان سمات مشابهة تماما لقرية مصرية.

من هنا يبدو مظهر البلاد أكثر صحراوية وفي الساعة الثانية إلا ربعا استطعنا أن نرى قلعة ومنارات حلب الواقعة في أرض منخفضة. وفي مدخل المدينة بالقرب من الطريق هناك اثنتان أو ثلاثة من البيوت المبنية بشكل جيد على الطراز الأوروبي.

فالمسافر الذي يصل المدينة تخدمه هذه البيوت ويعتقد أنه يدخل إلى مدينة قد اشرق فيها نور الحضارة الأوروبية، إلا أنه مخطئ في ذلك، إذ باستثناء هذه البيوت فإن المدينة برمتها شرقية خالصة. لقد بنى هذه البيوت واحد أو اثنان من الباشوات القادمين، وهي الآن فارغة أو يقيم فيها العمال فقط. وبعد المرور بتلك البيوت، صعدنا فوق جسر يحدث صريرًا على نهر حلب أو (كويك سو)، وبعد استدارتنا إلى اليسار دخلنا إلى ضاحية العزيزية حيث نزلنا في خان تحت مستوى الأرض يسمى زيقًا بفندق العزيزية.

✱

✱

✱

الفصل الثالث

في حلب

فندق العزيزية - هزة لرضية في السرير - جليل - الطبخ التركي وشرب العرق - القنصلية البريطانية - الطرق إلى بغداد - الخدم في حلب - قصة طالب - الخاة القرار بسلك طريق الفرائ - اللحن روان - للخير وغضب - اسلمه ادك ولجهيزات - المزيد من المشاكل - شراء مركبة المطران - الذاكر وجوازات السفر

بسبب العديد من اسباب التأخير غير المتوقعة، مرت عشرة أيام قبل مغادرتي لحلب، وقد قضيت هذا الوقت في التجوال في المدينة بهذا أجلت ملاحظاتي التي تصف هذا المكان والتي استطعت تكوينها إلى فصل لاحق وخصصت صفحة أو صفحتين لبعض الأحداث التي واجهتني خلال مدة إقامتي هناك، والتي تعطي الرحالة الذي يريد زيارة الشرق فكرة عن الصعوبات التي تعترض طريق من يقوم برحلة سياحية إلى سوريا.

يقع فندق العزيزية، الذي اتخذته مقراً لإقامتي، في ضاحية جديدة تحمل نفس الاسم وتقع في غرب المدينة. يدير الفندق رجل أرمني، ورغم أن الفندق لا يستحق أن نطلق عليه الاسم الأوروبي فندق أو (هوتيل)، إلا أنه كان مريحاً. يدخل المرء من

الشارع مباشرة إلى فناء صغير يوجد فيه بئر، وعلى اليمين واليسار هناك مبنى مؤلف من دورين. كان في الطابق العلوي، الذي اضيف مؤخراً، حوالي اربعة غرف، مفتوحة كل منها على شرفة تمتد امامهن ويجري الصعود إليهن بسلم يبدا في الفناء. وفي الطابق السفلي تقع مرافق الدار والصالة العمومية وغرفة الطعام. كانت الغرف عند وصولي مشغولة باستثناء واحدة، وكانت نظيفة ولطيفة، إلا انها لم تجهز بالأثاث بعد، وعند وصولي ارسل المالك في الحال شخصاً إلى المدينة وجلب سريراً حديدياً انيقاً وبعض المستلزمات الضرورية لراحتي. وقد تم نصب السرير عندما كنت مشغولاً في المدينة، حيث هجعت إليه مبكراً بعد عناء رحلتي الطويلة مؤملاً نفسي بليلة سعيدة في سرير الصغير المريح وفراشي النظيف. ولكن لسوء الحظ، لم يثبت خادم الفندق الأرمني بسبب العجلة أو الإهمال، نهايات الألواح الحديدية التي تحمل الفراش والنام، لهذا كنت استيقظ بعض الأحيان ليلاً شاعراً بعدم الراحة والتف كالربيان حيث تكون قدماي وراسي في وضعهما الصحيح بينما ينزل باقي جسدي إلى الأرض، من مركز السرير، وذلك بسبب انهيار الألواح وقوة ما يعرف بالجاذبية حيث ينخسف السرير برفق وهدوء. وعندما كنت اتقصى السبب الحقيقي، سررت لاكتشافي أنني قد وصلت في الوقت المناسب لتكرار الهزة الأرضية في حلب لعام ١٨٢٢م، فسئلت وضعي في النوم بأقصى ما استطعت وامضيت ليلة مريحة إلى حد ما، كان معظم القيمين الآخرين في فندق العزيزية هم من الأتراك، وكان هناك أيضاً اثنين من الأطباء العسكريين وعدد من الأفندية ذوي الطرابيش، واحد أو اثنان منهم يتعاطون التجارة في حلب تناولت غدائي وعشائي مع هؤلاء السادة في الطابق الأرضي، أما الإفطار فهو وجبة متنقلة، يتم تناولها مشاركة في غرفة النوم، وعندما سألني الخادم ماذا أتناول في الإفطار، أجبت: "قهوة وخبز وزبدة وبيض". في هذا الزمن لم يكن البيض المسلوق طبقاً معروفاً في المطبخ الأرمني لهذا اكتشفت أن البيضات الخمسة التي جلبها لي لا

تزال بمحتوياتها السائلة كما هي عندما اشتريتهن لأول مرة. وقد احتجبت بعد ذلك على الخادم الكفف، إلا أنه لم يسبق له مطلقاً أن قام بسلق بهضة، وكانت احتجاجاتي غير مجدية. للعرب مفردة خاصة تدل على التدخين فهم يتحدثون عن شرب الغليون وشرب النارجيلة أو (التبغ)، لهذا رغم أنني اعترض بشدة على البيض السائل البارد، إلا أنني كنت أشرب بهضاتي الخمس المخصصة للإفطار صباح كل يوم في حلب. ربما لم أكن أستطيع أن أغير طبخ الخادم إلا إذا وقفت بجانبه والمجمر في الفناء وساعة في إحدى يدي وسيف مسلول في اليد الأخرى.

ورغم أنني قد تعلمت بعض المفردات العربية في السنتين الماضيتين في مصر وتلقيت دروساً في العامية السورية في لندن، فإني وجدت أن لهجة حلب مختلفة تماماً بحيث أن معرفتي القليلة بالعربية كانت دون الفائدة المتوقعة. وكان الناس في الفندق أيضاً يتحدثون بالكامل تقريباً بالتركية والأرمنية، لهذا كنت مسروراً عندما ظهر جليل الصغير مبدياً رغبته لتقديم خدماته لي كخادم في رحلتي إلى بغداد. وبالطبع لا يحتاج الأمر للتفكير لأخذ فتى صغير غر كجليل في رحلة بطول ثمانمائة أو تسعمائة ميل برّاً، إلا أنني وجدته ذا فائدة كبيرة لي خلال إقامتي في المدينة، فقد كان مسلماً وفتى صغيراً لعباً ممتلئاً باللهو والرح إلا أنه مزعج فيما يتعلق بفضوله وجشعه الذي لا ينتهي. فهو قد يتفحص بعناية سرتي النورفولكيه^(١) وبنطلوني النيكربوكرز^(٢)، وهو زي ربما لم يشاهد في حلب، وقد بسألني، "كم كلفة هذه الملابس يا سيد كوبر؟" وهو سؤال قد يتبعه في الحال سؤال آخر، "هل تعطيني شيئاً أتذكرك به عندما تسافر إلى بغداد يا سيد كوبر؟". أن تتصور جليلاً بعينه السوداوين الكبيرتين

(١) السرة النورفولكيه هي سرة فضفاضة ذات صف واحد من الأزوار، (الترجم).

(٢) البنطلون النيكربوكرز هو بنطلون قصير واسع مرموم عند الركبة، (الترجم).

ووجه الشرقي الماكر وهو يرتدي بنطلونا (نيكربوكرز) وسترة (نورفولكبيه) وطربوشا أحمرًا فإنه أمر مثير للضحك كثيرًا، ولو كان هناك خياطًا إنكليزيًا في المدينة، فإنني كنت سأفضل له زيًا كهذا.

كان جليل يكذب أيضًا - كذبًا ذو حسن ووداعة لا تجدها إلا لدى الصبية الشرقيين الحاذقين. سألته مرة إن كان يستطيع قراءة كتابة بالعربية القديمة مكتوبة على بئر عربي قديم. ودون لحظة تردد، أخذ يتفحص الكتابة بنظرة جادة، وهي كتابة عمرها اربعمائة سنة تقريبًا، ثم أخبرني بوقار بأن هذه الكتابة هي اسم السلطان عبد الحميد خان، الملك الحاكم حاليًا.

كان الغداء والعشاء في فندق العزيزية في الساعة الثانية عشرة والسادسة على التوالي، وبالتوقيت التركي، وهو ترتب مربك لأي أوروبي، كون التوقيت التركي يبدأ من شروق الشمس، لهذا تكون الوجبات مبكرة قليلًا كل يوم. كان الطبخ تركيًا، جيدًا بنوعيته، حيث أن الأطباق الرئيسية هي البيلاق^(١) والكباب واللبن. وبالطبع لا تشرب الخمر على المائدة باستثنائي وطبيب يوناني، إلا أن الأفندية كانوا غالبًا يقيمون جلسة مشتركة صغيرة لشرب العرق قبل العشاء مباشرة حيث يظهرون في هذه الوجبة مرحين ومبتهجين بشكل غريب. والسؤال هو فيما إذا كانت عاداتهم بالقدوم إلى المائدة وهم جذلين أفضل من عاداتنا بالانتهاء من المائدة ونحن جذلين. سألني رجل تركي شاب فيما إذا سبق أن شربت العرق. أجبت: "كلا، ليس هو نوعًا من الخمر؟" وقد أصابه الهلع بشيء من التقوى من ذلك وأخبرني بوقار إنه جعة مرة أو إلى حد ما حسب ما نسميه في إنكلترا شرابًا نافعًا للمعدة ومساعدًا على الهضم. ولكون

(١) البيلاق هو طعام مكون من أرز ولحم وتوابل، (الترجم).

الدار مشغولة بأترار من المدرسة الجديدة، فإنها تتباهى بأن فيها منضدة وكراسي وسكاكين وشوكات وملاعق رغم أن الأخيرة قليلة إلى حد ما. كان فراش المائدة هو أسوأ شيء في مستلزمات الضيافة، كون كل ضيف يمد يده إلى الطبق ليخدم نفسه، ويفعل ذلك يسقط جزءاً من الطعام على فراش المائدة الذي أرى أنه لم يغسل منذ افتتاح الفندق، وقد وجدت كياسة الرجال الباكوات والأفندية تلج دائماً عليّ بأن أخدم نفسي من كل طبق أولهم. وكان واحد أو اثنان منهم يتحدثون الفرنسية.

لم أعمل أي تنظيم للمصاريف عندما ذهبت لفندق العزيزية، وقد كانت الفاتورة بمبلغ ثمانية فرنكات في اليوم تشمل الطعام والسكن. ولأنك أني لو كنت قد أجريت تنظيمًا لكان المبلغ أقل من ذلك.

أحد الأشياء التي فعلتها عندما وصلت حلب هي الاتصال بالقنصل السيد جاكو، حيث أدين لعطفه وكرمه هو وزوجته بالشيء الكثير. وفي الواقع أن السيد جاكو قد وضعني في الطريق الصحيح لإجراء استعداداتي للرحلة وخلال العديد من المنزهات الجميلة التي أجريتها معنا داخل وحول المدينة، زوّدتني بالكثير من المعلومات المثيرة عن الولاية. كانت القنصلية عبارة عن دار جميلة مبنية من دور واحد قريبة من حي العزيزية وتنتصب في حديقة جميلة تابعة لها، وهناك أيام قليلة فقط في الأيام الإحدى عشر التي بقيت خلالها في حلب لم أقضي فيها ساعة رائعة في القنصلية.

وقد شعرت بالسرور عند وصولي لأجد أن الكوليرا، التي كانت متفشية في حلب، هي الآن في نهايتها. كانت هناك في السنة السابقة (٩٠٠) وفاة بسبب المرض و(١٤٠٠) في السنة التي قبلها. في حين أن الأنفلونزا التي كانت تدمر إنكلترا عند مغادرتي لها، تتواجد بشكل غير حاد في حلب، وهي تسمى على نحو مضحك من قبل الأهالي باسم (أبو الركب)، لأن المريض يشعر بعد إصابته بالمرض بوهن في أطرافه. وقد أخبرني

السيد جاكو بانى المسافر الأوروبي الوحيد الذي وصل إلى حلب خلال الستة أشهر الماضية، وهذا يبين كيف أن المدينة بعيدة تمامًا عن طرق المسافرين. ورغم إقامة عوائل من معظم الجنسيات الأوروبية في حلب، إلا أن إنكلترا لا يمثلها سوى القنصل واسرته وأرملة وابنة القنصل الذي سبقه. يقيم معظم الأوروبيين في ضاحية العزيزية رغم أنه لا يوجد حي إفرنجي مميز لهم.

وقد اخذني السيد جاكو في اليوم الأول لزيارة رجل إيطالي يدعى ستانو يعمل حاليًا في إدارة شركة التبغ الحكومية. كان السيد ستانو يعرف جيدًا معظم الطرق الممتدة بين حلب وبغداد، وفي الحال اشترك بأسلوب ودي في مناقشة خططي، أبلغني أن هناك ثلاثة طرق للوصول إلى بغداد:

١- طريق وادي الفرات، ويتضمن السفر بقافلة من الجمال أو العربات إلى النهر ثم السير مع مجرى النهر إلى نقطة تقع مقابل بغداد، حيث يتم الوصول إلى هذا المكان بالسير مسافة قصيرة عبر الجزيرة، يستغرق هذا الطريق ١٩-٢٥ يوم.

٢- طريق بيرجك - أورفه - ماردين - إلى الموصل ومن هناك بواسطة الكلك (الطوف) إلى بغداد على نهر دجلة.

٣- طريق بيرجك - ديار بكر ومن هناك بواسطة الكلك إلى الموصل وبغداد.

اعتراضي على الطريقين الآخرين، هو أنه ربما عليّ أن أواجه برنا قارسًا وفي حالة الطريق الثالث، هناك ممراً جبلياً ربما يكون مغلفاً بسبب الجليد. وهذا يمثل عقبة كبيرة أمامي، كوني بالكاد قد استعنت قواي بعد إصابتي القاسية بالأنفلونزا. كما أن هناك حقيقة أن الناس على هذين الطريقين يتحدثون بمعظمهم التركية والأرمنية، التي لا أعرف كلمة واحدة من أي منهما، ويبدو من غير المحتمل العثور على

مترجم أمين في حلب لمرافقتي. في حين يكون الطريق الأول مشرق الشمس على طول الطريق ويمتد بمعظمه عبر الصحراء على حافة الفرات. سيكون هناك بالطبع القليل من المتعة على هذا الطريق إن لم تكن المؤن كثيرة جدًا. كما قد تكون هناك مخاطرة باحتمال قيام عرب الصحراء بتسليبنا، إلا أنه لا السيد جاكو ولا السيد ستانو سبق أن سمعوا أن مسافرًا إنكليزيًا قد سلك هذا الطريق. مع ذلك، يبدو من الضروري أن آخذ معي واحد أو اثنين من الدرك المحمول على خيل (الضابطية).

وبعد تسليمي بهذه المعلومات الأولية، بدأت بإجراءات طلب خادم لمرافقتي وإذا كان ذلك ممكنًا، خادم يستطيع التحدث بالإنكليزية. كان الشخص الأول الذي قدم نفسه رجلًا يونانيًا اسمًا ذكي الحيا يرتدي ملابس أوروبية ويتحدث الإنكليزية بطلاقة. وقد أخبرني أنه كان مترجمًا لطام في دمشق وأنه يعرف جميع طرق السفر في الشرق. وعندما سألته عن معارفه هنا، أجاب أن الجميع في دمشق يعرفونه وقد اشتكى من أن ليس لديه شيئًا يفعله هنا، إلا أنه لم يوضح لي لماذا لم يعد إلى عالم الطبخ. وأخبرني أن السيد والسيدة جاكو يعرفانه جيدًا، حيث اكتشفت لاحقًا أن هذه كنية سافرة. وقال لي أيضًا أن القنصل اليوناني سيكون مستعدًا لتزكيته لي. وقال مرّة أخرى أنه سيتصل سلكيًا بالطاهي في دمشق ليرسل له تزكية، وأنه سيتصل بي في اليوم التالي. إلا أنه لم يحافظ على مواعده، وعلمت أنه قد وصل في وقت ما في السابق إلى حلب دون أية أوراق، وألقيت به السلطات في السجن. وبالطبع، لا يعني ذلك شيئًا في تركيا، حتى قام القنصل اليوناني بإنقاذه من هنا السجن الحقيق، إلا أن الرجل لم يقدم لي أيًا من معارفه، وكان الرأي في غير صالحه. لهذا كان يبدو من الأفضل لي أن أسافر دون خادم على أن يرافقني شخصًا مجهولًا كهذا، كان للتقدم الآخر شأنًا أرمنيًا بدعي (بوغوص) ذو عينان غائرتان جذابتان. أبلغني أنه لا يعرف الطبخ مطلقًا (وهو الشيء الوحيد الذي طلبت الخادم من أجله) إلا أنه يستطيع التحدث بكلمات قليلة (حوالي

دزينة) باللغة الإنكليزية التي تعلمها في مركز بعثة امريكية. وقال: "إذا احببت، خذني معك" وعندما سألته كم تطلب لمرافقتي في رحلة من ثلاثة اسابيع، اجاب: "نابليون واحد"^(١)، حيث طلب اليوناني مبلغ (١٠) باونات والذي اعتبرته مبلغا كبيرا جدا إلا ان مبلغ (نابليون واحد) قد اذهلني. وقد علمت فيما بعد انه كان شخصية سيئة للغاية، وفي الواقع يكون من الصعب السفر معه بأمان. وبعده جاءني طام محترف يتحدث العربية والتركية فقط وكانت ملامحه كرية بحيث اني قد أبعدته دون حتى الاستفسار منه.

بعد هذا، اخبرني الطبيب العسكري اليوناني الواقف في الفندق، انه يعرف رجلاً ممتازاً، يتحدث الإنكليزية بطلاقة وذو شخصية رائعة. جاءني في اليوم السادس ورغم انه لا يبدو ذكياً بشكل خاص، إلا انه كان ذو وجه أمين. كان يعرف عدداً متناثراً من الكلمات الإنكليزية، وقال انه يعرف الطبخ قليلاً. عرضت عليه (باونا واحداً) في اسبوع الرحلة وباونين لمصاريفه لدى عودته إلى أهله من بغداد إذا أراد العودة. كان يبدو ميالاً لقبول العرض، إلا ان سيده قد دخل إلى الفناء في هذه اللحظة ودعاه للتحدث معه. بعد ذلك اخبرني انه لا يستطيع ان يتقاضى اقل من (١٠) باونات قائلاً انه سيفقد وظيفته الحالية لأجلي. تحققت بعد ذلك عن وظيفته هذه وتبين ان اجرها (٣٠) شلن في الشهر. في نفس الوقت يبدو ان هناك قصة لهذا الشاب. حيث يبدو انه كان يعيش في اسطنبول كطالب. ثم بعد ذلك عرض افندي طهيب على هذا الشاب نتيجة عوز الأخير الشديد ان يوفر له وظيفة معينة مقابل بقشيش قدره حوالي (١٥) باون. باع هذا الشاب جميع ممتلكاته النديوية لهذا الغرض، إلا ان سيده الأفندي لسبب معين لم

(١) النابليون عملة فرنسية ذهبية تساوي عشرين فرنكاً، (لترجم).

ير بوعده. لم يكن الأفندي يستطيع أو لا يريد أن يعيد لهذا الشاب أمواله، لهذا كان الشاب غارقاً في الدين. وإذا كانت هذه القصة صحيحة، فإنها قد تدفعني بأن أعرض عليه أجراً أفضل، إلا أنه من جهة أخرى لم يكن يعرف شيئاً عن الطبخ، وفي الحقيقة أنه لم يكن خادماً مطلقاً. وطالما يبدو من المينوس منه العثور على رجل جدير بالثقة فقد أرسلت إليه بعد ذلك خيراً باني سازيد عرضي، واستلمت جواباً بأن مستخدمه الجديد قد رفع أجوره إلى (٢) باونات شهرياً، وأنه قرر عدم الذهاب معي، لهذا كنت على أية حال سبباً في تحسين وضع هذا الشاب سيئ الحظ.

ولاحقاً بعد أن اتخذت قراراً بسلوك طريق الفرات، وأخذت أقوم باستعداداتي لهذه الرحلة، كنت في أحد الأيام أسير داخل المدينة، عندما بان لي بالكلام رجل طويل وسيم ذو منظر طيب قائلاً أنه يرغب أن يكون خادمي. كان يتحدث القليل من الفرنسية ولا يعرف الإنكليزية، إلا أنني شعرت بالثقة من خلال وجهه بأنه رجل ممتاز. أخبرته أن يرافقني إلى القنصلية، وفي الطريق التقينا بالسيد جاكو، الذي تبين أنه يعرف الرجل جيداً وأثنى على شخصيته الممتازة. يبدو أنه كان طباحاً لدى القنصلية الفرنسية. لقد اتضح أن فكرته هي أنني سأأخذه معي إلى إنكلترا وأنه قد يصبح جندياً إنكليزياً. وعليّ أن اعترف أنه سوف لن يلحق الخزي بلباس الجندي ولكن عليّ أن أبلغه أنه ربما لا يمكنني أن أبقيه خادماً لي بعد مغادرتي بغداد. مع ذلك فقد عرضت عليه مبلغاً مقداره (باون واحد) في الأسبوع طالما بقي في خدمتي ووعدته بأن أعطيه ما هو ضروري لعودته إلى حلب، وهو مبلغ تتم تسويته في القنصلية ببغداد. ورغم حزنه لانتهاء أحلامه الوردية، فقد عبر عن رغبته في السفر معي بهذه الشروط، وتم الاتفاق على اللقاء في القنصلية في اليوم التالي لتوقيع العقد. شعرت بالسروور لتغير الأحوال كوني شعرت أن هيئة الرجل وأمانته الواضحة تساوي كل إنكليزية الآخرين. إلا أنني محكوم عليّ بخيبة الأمل. عاد جورج وهذا هو اسمه بشكل عاجل في اليوم التالي، وبعد

قراءة العقد له، همهم ودمدم وبدا يخلق المصاعب. عندما طلبنا منه التوقيع، قال إن المبلغ المعروض عليه غير كاف. فقد أراد كالأخريين عشرة باونات. كان هذا أمراً لا يحتمل. إذ يتضح كما هي القضية دائماً أن هناك حلقة تتكون ضدي ولا أحد يريد أن يذهب معي بهذا المبلغ. فقد تمت رشوة جورج الأمين، لهذا رفض عرضي، الذي يعتبر مغرياً، كون أجور الخدم في تلك الأماكن رخيصة للغاية، سوف لن أخضع لهذا الأسلوب لهذا تم إبعاد جورج. والحقيقة هي أنه قد انتشر في كل أنحاء المدينة خبراً مفاده أن الرجل الإنكليزي الذي وصل مؤخراً ويريد السفر إلى بغداد، لا يسافر من أجل إجراء عمل تجاري بل من أجل المتعة. وبموجب ذلك اعتبروني رجلاً في قمة الثراء. لو كنت قد أشعت باني تاجر إنكليزي، لاشك أن الأمر سيكون مختلفاً. عشن وتعلم.

ظهر شخص آخر قبل أن أغادر مباشرة وعرض أن يذهب معي بست باونات إلا أنني كنت في هذا الوقت قد قررت أن أسافر دون خدم ورفضت أن اتفاوض معه.

لقد ذكرت أنني قد قررت سلوك طريق الفرات، هناك عدة أسباب لاتخاذي لهذا القرار. من بينها الطمس الجميل وحقيقة أن اللغة العربية التي أعرف شيئاً منها هي اللغة الوحيدة المطلوبة، في حين أن السفر دون مترجم سيخلق لي صعوبة كبيرة بين الناس الناطقين بالتركية والأرمنية على الطريقين الآخرين. هناك أيضاً اعتبار آخر هو أن هذا الطريق هو أقصر الطرق وأن تأخير أسبوع واحد أو حوالي ذلك سيضعني أمام جربة من الرياح اللوسمية في الخليج والمحيط الهندي عند عودتي إلى أوروبا. وفي الآخر، ظهرت حبة مؤلة في جانبي شكلت تهديداً بقلب كل خططي رأساً على عقب كونها قد جعلتني لا أصلح تماماً للقيام بركوب طويل ومجهد على الخيل. وأمام هذه الصعوبة، جاء السيد جاكو لإنقاذي باقتراحه بأن عليّ أن أسافر في تخت روان وهو نوع من المحفات التي يستخدمها عادة الفرس وتتكون من صندوق خشبي مربع له أبواب

وشبابيك في كل جانب وزوج من الأعمدة أمامه وخلفه حيث يجري بواسطة هذه الأعمدة حمل التخت بواسطة اثنين من البغال أو الحصن القوية. استطيع الجلوس أو الرقود في التخت على سرير أو فراش حسب رغبتني وسوف لن أخشى المطر أو حرارة الشمس.

أخذ السيد ستانو يبحث لي عن بغال وسائقين لها. يعتمد معدل إيجار حيوانات القافلة على السعر السائد للعلف في البلاد. ومن خلال وكالة السيد ستانو استأجرت أخيراً ست بغال وتخت روان من حلب إلى بغداد بمبلغ (٩٠) مجيدي أو دولار تركي. من المقرر أن يرافق القافلة ثلاث خدم هم سائق البغل (وهو الكرشي بالتركية، والكاري بالعربية) واثنين من السائسين أو (الأكم). وفي الآخر اشترت التخت وكان سعر الإيجار أقل من سعر الشراء بخمس مجيديات. وفي اليوم الرابع أبلغني السيد ستانو بهذه الترتيبات، وعرفني برجل يوناني وهو طبيب في الجيش كان ينتظر لبعض الوقت في حلب ويبغي الحصول على بغال للسفر إلى بغداد وقد أبلغني أن قافلة أو عدداً من القوافل تستعد للمغادرة في ٧ أو ٨ أو ٩ من الشهر واقترح عليّ أن نبدأ الرحلة معاً في ذلك التاريخ. وفي يوم (٧) سمعت أن أحد الباشوات قد وصل إلى الفندق قادماً من اسطنبول وبعث إليّ الطبيب خبراً بأن علينا أن نبدأ السفر معاً في يوم (٩). لم أشاهد أية علامات عن وجود باشا في الفندق باستثناء خيمة مطوية في الفناء، وكانت الإضافة إلى مجلسنا البهيج هو شاباً هزلاً غريباً قيل أنه صهر الباشا ومعاونه. وفي اليوم التالي ذهبت إلى السوق برفقة السيد يوسف وهو تاجر مسيحي كلداني من حلب كان مقيماً في بغداد وكان يعمل في وقت ما باحد بهوت التجار الإنكليز هنا وهو يعرف كلمات متناثرة من الإنكليزية. كانت له خبرة كبيرة في تجارة القوافل مع بغداد، لهذا كان ذو فائدة كبيرة لي عند إجراء استعداداتي. كان رجلاً ذو طلعة بهية يرتدي زياً أوروبياً وهو الوحيد ذو المظهر غير الشرقي. أخذنني إلى عدة حوانيت واشترت خزيناً كبيراً من

المستلزمات الضرورية للرحلة، كالشموع، واللحم المملح والشوكولاته والقهوة والرز وملء كيس من البسكويت الصلب بشكل حلقات يسمى (كعكاً) وزبدة وسكر وبسكويت وبراندي (في حالة المرض) وخزين كبير من التين والتمر، إضافة إلى هذه، اشترت الكثير من القدور والمقالي لأغراض الطبخ وقنينة ماء جلدية كبيرة تسمى (مطارة) وخرج سرج كبير لحمل كل هذه المؤن. والأخير المزود بقفل ومفتاح قد اشترته من السيد يوسف نفسه. عندما كدست هذه الأشياء على شكل كدس في غرفتي، شعرت بأنني رجلاً ذو ممتلكات وأدركت لأول مرة أنني سأدخل إلى الصحراء.

وبعد ظهر نفس اليوم جاءني جليل وقال أن الباشا سوف لن يشرع برحلته حتى يوم السبت (١٢) من الشهر. عند سماعي لذلك كنت ميالاً في البداية إلى أن اصدر الأمر لبغالي بالاستعداد للرحيل في اليوم التالي ولكن بناءً على نصيحة السيد جاكو والسيد ستانو قررت أن اتحقق فيما إذا كانوا فعلاً سيبدأون الرحلة في ذلك اليوم، وإذا كانوا كذلك، فعليّ الانتظار. شعرت أنه قد يكون من الأفضل من نواحي معينة لو سافرت بمفردي، ولكن من جهة أخرى، فإن مرافقة أحد الباشوات امرًا لا يمكن الاستهانة به. وفي اليوم التالي جاءني المكاري والأكم يطلبون مقابلاً كونهم لم يبدأوا السفر في اليوم المحدد. وهذه ببساطة كانت مجرد اختبار وعندما رفضت غادروا فرحين تماماً.

وفي اليوم العاشر ازدادت مصاعبي ثانية ودخلت الأمور مرحلة أخرى. أولاً تأكدت أن الباشا سوف لن يسافر فعلاً في ذلك الأسبوع، لهذا أرسلت في الحال على رجالي بالاستعداد للرحيل في اليوم التالي. وبعد حصول مشكلة بخصوص التخت العائد لي، قمت في الحال والقيت نظرة ووافقت على تخت آخر وهو بناء على شكل غرفة قوي الصنع بحيث أنني قد تحققت بالتجربة بأنني أستطيع الرقود عليه بطولي الكامل. إلا أنه اتضح الآن أن التخت الذي يريدون إرساله لي مختلف عن الأول. وبسرعة طلبت أن أراه، حيث كان معروضاً في ساحة وملقى أمام حائط وكانت صناعته قديمة مخلعة

ومترعزة وذو شبابيك وابواب مفككة، وأصغر بكثير من التخت الأول الذي رأيته. وبسرعة اعتبرت القضية خديعة وأخبرت يوسف انه إذا لم يرسلوا إلي التخت الأول الذي تم الاتفاق عليه في البداية، فإني سوف لن أسافر مطلقاً ويجب أن تعاد إلي الأموال التي دفعتها مقدماً حالاً. كانت الترجمة تبدو كذلك.

كان التخت الجيد الذي رأيته في البداية يعود إلى بطريرك إحدى الكنائس المسيحية المحلية في الموصل. كان الأسقف الثري قد سافر فيه إلى حلب، وتركه هناك لغرض البيع. وعندما دخلت بمفاوضات مع يوسف حول الموضوع، وجد لي يوسف صاحب بغال يرغب في شراء التخت عندما يقلني إلى بغداد ويحاول هناك بيعه حيث من المحتمل أن يحقق ذلك ربحاً، كون التخوت تستخدم بكثرة على طريق الحج إلى كربلاء. إلا أن صاحب البغال هذا كما يعرفه يوسف شخصاً سيئ السمعة، لهذا ذهب إلى شخص آخر يملك التخت الرديء ولم يبلغني بتغييره لرايه. سألت بعد ذلك إن كنت أستطيع شراء التخت الأفضل، حيث نجح يوسف في شرائه لي بمبلغ (٤) نابلونات، وهو سعر رخيص لعربة الأسقف الشخصية.

وقد حصلت من خلال السيد جاكو على عدد من الوثائق الضرورية للسفر. منها أولاً التذكرة أو جواز السفر التركي وهي ورقة غريبة مرسوم فيها الطريق الذي سأسلكه ومختوم بستة اختام مختلفة، وثانياً رسالة تعريف عام، ولا شك أنه مفيد جداً في السفر عبر بلاد كثيفة السكان إلا أنه في الفرات الأسفل يفقد "حلاوته في هواء الصحراء" لأنه لا يمكن تقديمه لأي شخص عدا بدو عنزة، وأبناء الصحراء هؤلاء لا يهتمون بكتب التعريف ولا يستطيعون في الواقع قراءتها إذا ما قدمت إليهم. وأخيراً تذكرة ذات أبعاد أصغر من الأولى تسمح لي بحمل مسدس. وبعد أن تسلحت بهذه الوثائق أصبحت مستعداً للرحيل.

الفصل الرابع

شيء عن حلب

التاريخ - المركز الانكليزي - الوصف - الابعاد - الاسوار والبوابات - المدينة من الداخل - الشوارع
والبيوت - الاسواق - الجوامع - القلعة - زيارتي لها - خان الوزير - الابهة - الضواحي - المقابر -
الابار - شيخ بكر - خليط السكان في حلب - اللهفب في حلب - خفوت للمصطب - الزبي -
المناخ - حبة حلب - حياة الشارع

لدى الحلبيين قصة عن اصل اسم مدينتهم. تفيد القصة ان ابراهيم قد توقف
على هذا التل الذي هو الآن قلعة حلب، عندما كان في طريقه إلى أرض كنعان. ولا
يزال ينتصب عند اسوار القلعة اجزاء من الجامع الذي يخلد ذكره. ويقال انه في
ساعات معينة من اليوم، يقوم الشيخ الجليل بتوزيع الحليب على القرويين المتجمعين
من الأراضي المجاورة. يتجمع هؤلاء الناس عند أسفل التل، وتنتشر بينهم عبارة
"ابراهيم حلب" او "ابراهيم حلب الشهباء" اي ان ابراهيم قد اخذ يحلب البقرة المبقعة،
ومن هنا جاءت كما يقولون تسمية حلب التي حولت إلى الإنكليزية منذ امد بعيد إلى
اليوم.

تمثل حلب مدينة (Beroea) بيروا^(١) القديمة، التي يفترض ان مؤسسها هو السلوقي نيكاتور^(٢)، مؤسس إنطاكية وسلوقية^(٣) قرب بابل. وقد توقف الإمبراطور المرتد جوليان في هذا المكان وهو في طريقه من إنطاكية لتنفيذ حملته الحاسمة ضد الفرس في القرن الرابع. وفي عام ٦١١م، استولى الملك الساساني خسرو الثاني، الزاحف من (هيرابوليس أي المدينة المقدسة) على المدينة وحرقها، رغم أنه قد عجز عن اقتحام القلعة. وفي عام ٦٣٦م، حاصر المدينة المسلمون بقيادة أبو عبيدة و خالد "سيف الله". وقد ذكرت بعض الأخبار ان المقاومة كانت ضعيفة، بينما ذكرت اخبار أخرى، أن حامية المدينة قد تكبدت خسائر بشرية تقدر بـ (٢٠٠٠) رجل، إلا أنها ظلت صامدة. وفي الآخر، وبعد حصار دام عدة اشهر، تم الاستيلاء على المدينة بخدعة حربية غريبة. فقد حمل رجل عربي جبار يدعى (دامس) عدد من رفاقه على كتفيه، وبهذه الوسيلة تم الدخول عنوة إلى القلعة حيث ذبح الحراس وفتحت الأبواب امام المحاصرين. وبعد ذلك أصبحت المدينة عاصمة السلاطين الحمدانيين. وفي القرن العاشر، سقطت بأيدي البيزنطيين، إلا أنها أثبتت قوتها ولم يتم الاستيلاء عليها. وفي عام ١١١٤م، دمرت الهزات الأرضية المدينة التي كانت تحيلها دوماً إلى انقراض. وبعد عشرة سنوات حاصرها الصليبيون بقيادة بالدوين، إلا أنه حصل ارتفاع مفاجئ في مياه النهر مما أدى إلى إغراق معسكر المحاصرين الذين اضطروا إلى التراجع إلى إنطاكية. وفي الأعوام ١١٣٩م و ١١٧٠م دمرت هزات أرضية عنيفة أخرى المدينة، حيث أعاد نور الدين بناء المدينة. وفي

(١) هو الاسم اليوناني لحلب والذي ورد ذكره في الإنجيل، (لترجم).

(٢) هو السلوقي الأول للأسرة السلوقية من ملوك سوريا القديمة توفي عام ٢٨٠ ق.م. وكان أحد قادة الإسكندر الكبير في حروب خلافته، (لترجم).

(٣) مدينة قديمة من مدن بلاد الرافدين تقع على دجلة جنوب بغداد، أسسها السلوقي الأول نيكاتور عام ٣١٢ ق.م. وحلت محل بابل كمدينة رئيسية في المنطقة، بعد ذلك بنى الفرس البارثيون مدينة طيسفون في الجهة للقبالة من النهر. دمر الرومان سلوقية عام ١٦٤ بعد الميلاد، (لترجم).

عام ١٧٨٢م، استولى على المدينة المقدام صلاح الدين، وأورثها عند وفاته إلى ثالث أبنائه الملك الظاهر. وفي عام ١٢٦٠م و١٢٨٠م دمرها الغول، حيث تم في عام ١٢٦٠م تنفيذ منبجة لمعظم أهالي المدينة من قبل القائد المتعطش للدماء هولاكو. وفي السنة الأولى من القرن الخامس عشر، نهبت قوات المنتصر تيمورلنك المدينة. وفي عام ١٤٢٧م تم إعادة بناء التحصينات، وفي عام ١٥١٦م، أصبح السلطان التركي سيد حلب وفي الآخر استطاع دحر التفوق الملوكي.

يقول فان إكمونت، الذي ساه في المنطقة في منتصف القرن الثامن عشر: "تعتبر المدينة مشهورة إلى حد ما بكونها مسقط رأس تسفي ابن بائع الطيور الذي ادعى في القرن الماضي أنه ("المسيح الحقيقي").

وفي نهاية القرن السادس عشر، افتتح تجار الشركة الشرقية التركية محطة أو مركزاً في حلب للمتاجرة برّاً مع بلاد فارس والهند. وقد أسس الفرنسيون وتجار البندقية دوراً مماثلاً في وقت سابق. بعد ذلك تم تعيين قنصل إنكليزيًا في المدينة واعترف به السلطان، ويدعى أول قنصل تم تعيينه في المدينة بعد عام ١٥٨٢م مباشرة (باريت).

وخلال فترة وجود هذا المركز، كانت هناك بالطبع جالية إنكليزية صغيرة مقيمة في حلب. كان يبلغ عدد أفرادها في عام ١٦٠٥م ثلاث عوائل، بضمنها القنصل الذي كان في ذلك الوقت تاجرًا. وفي عام ١٧٢٨م، أخبرنا بوكوك (Pococke) أن عدد بيوت التجار الإنكليز هو ستة أو سبعة، وأشار إلى أن المركز كان في ذلك الوقت واهنا جدًا بسبب رخص وجودة السلع الفرنسية. وفي عام ١٧٤٠م كان المركز يتكون من القنصل وعشر تجار وقس وسكرتير وطبيب، وفي عام ١٧٥٢م، ذكر أن عدد البيوت

هو ثمانية عدا بيت القنصل. يقول فان إكمونت في عام ١٧٥٩م: "يملك التجار الإنكليز عشرين بيتا ويبلغ راتب القنصل (٤,٠٠٠) باون إلا أن عليه أن لا يمارس أي عمل تجاري". ربما يكون مخطئا فيما يتعلق بعدد البيوت لأنه في عام ١٧٧٢م قلّ عددها إلى أربعة. وقد ساهم افتتاح طريق رأس الرجاء الصالح في تسديد ضربة قاضية للمركز.

كان موظفو المركز في زمن السير رسل هم القنصل والقس والسكرتير والطبيب وموظف يطلق عليه "Chause"^(١)، الذي يتمشى امام القنصل حاملاً عصا ذات رأس من الفضة. وهناك أيضاً اثنان من المترجمين أو الأدلاء واثنان من الإنكشارية. "عند الذهاب إلى مقابلة رسمية مع شخص ذي مقام رفيع أو عند إجراء مواكب مماثلة لذلك في الشكل، يتمشى الدليلان الشرقيان مباشرة خلف جنود الإنكشارية، اثنان خلف اثنين، ويمشي امام المذكورين الوكيل. يمشي الأدلاء الرسميون بعد ذلك مباشرة وبعدهم يسير القنصل يتبعه جميع الرجال تحت الحماية البريطانية".

وقد بين السيد رسل أيضاً أن المقيمين الأوروبيين في زمنه في حلب هم من الإنكليز والهولنديين ومن البندقيين. كانت الإيطالية تسمى في ذلك الوقت اللغة

(١) على ذكر هذا اللقب، اود أن اصيف مقتطفاً من عمود للموسوعي السيد صلاح الذي يكتبه لسبوعياً إلى صحيفة (Sunday Times)، لفردة Chause. اصلاً غربياً جداً لا يبدو أن الكاتب في صحيفة Daily News يدركه. كانت للفردة في السابق تكتب بشكل chiaus أو chiauz أو chaous، وجميعها ترجمة خاطئة للفردة التركية التي تعني رسول أو وكيل أو مترجم. فقد حصل أن خدع تاجر تركي في لندن ليام حكم جيمس الأول بعض التجار الإنكليز المتعاملين مع تركيا وحصل على مبالغ كبيرة من الأموال، وبسبب ارتباط الكلمة بهذه الحادثة أصبحت تعني الخداع أو الاحتيال وشتق منها الفعل (chouse). وقد ذكر بن جونسون لفردة chiaus في كتابه "الكيميائي". (المؤلف).

الإفريقية. كانت هناك في عام ١٦٠٥م خمس عوائل فرنسية و(١٤) عائلة من البندقية إضافة إلى عائلة القنصل، في عام ١٧٥٢م، كان عدد البيوت الفرنسية المشتغلة بالتجارة تسعة ثم قلت في عام ١٧٧٢م وأصبحت ستة أو سبعة بيوت^(١). يذكر فان إكمونت (الذي ربما لا يكون موثوقاً جداً) قصته التي لا تعتبر سوى أنها مشرفة للإنكليز إذا كانت صحيحة. فقد قتل جندي إنكشاري سكير خادماً أرمنياً لتاجر إنكليزي. يقول فان إكمونت أن الإنكليزي قد أعطى رشوة إلى القضاة مقدارها (١٠٠٠) سكوين^(٢) للاستعجال في الحكم عليه حيث تم تنفيذه في الآخر بشنقه يدوياً أمام القلعة. "لقد كلف هذا الأمر الإنكليزي بضعة آلاف من القروش (البهزو)". ربما كان فان إكمونت يصدق هذه القصة أو لا يصدقها، إلا أنه من المحتمل أن قدرًا كبيراً من الغيرة الوطنية هي التي دفعته لتضمين القصة بكتابه، إلا أن تجربتي قد علمتني أن ثلث القصص التي تسمعها في حلب صحيحة، ومن المحتمل جداً أن تكون هذه القصة محرقة.

وفي عام ١٨٢٢م، هز المدينة مرة أخرى زلزالاً فاجعاً، دمر جزءاً من المدينة ودفن آلاف السكان تحت الركام. وقد قيل أن ثلث عدد السكان وثلثي البيوت قد دُمّرت. كذلك حدث زلزال آخر في عام ١٨٢٠م، ولكن أقل حدة. وفي السنة التالية، فتح إبراهيم باشا سوريا، وبقيت حلب تحت الحكم المصري حتى عام ١٨٣٩م، حيث عادت سوريا ثانية، بعد تدخل إنكلترا، كجزء من الإمبراطورية العثمانية وعادت حلب مدينة تركية.

(١) وفي وقت متأخر في عام ١٨٥٠م، ذكر رحالة إنكليزي أن هناك عددًا قليلاً جداً من التجار الإنكليز هناك، (المؤلف)

(٢) السكوين هو نقد ذهبي تركي أو إيطالي قديم. (الترجم).

تقع حلب في وسط قفر قاحل هو في الواقع الزاوية الشمالية للصحراء السورية الكبرى، بنيت المدينة على عدد من الهضاب الصغيرة التي يبين رسل أن عددها ثمانية. وإلى الغرب منها ترتفع سلسلة من التلال الحجرية المتعرجة التي يخترقها المسافر القادم من الساحل قبل أن يصل إلى المدينة. وفي أسفلها يتموج نهر حلب (كوبك سو) والذي ذكره زينوفون^(١)، وهو نهر بطيء يخترق بساتين الدردار والقبقب والحدود وباقي الأشجار. لم يمتلئ هذا النهر كثيرًا مطلقًا بالمياه وغالبًا ما يكون فارغًا في فصل الجفاف من السنة كون معظم المياه تسحب لأغراض الري. وما هو غريب، أنه ليس للنهر منفذًا للتصريف سواءًا للبحر أو لنهر أكبر، إلا أنه ينتهي في الآخر في مستنقع يقع على مسافة مسير ساعتين جنوب حلب. يعج النهر وبعض المستنقعات المليئة بالمياه قربها وإلى جوار حلب بالضفادع، التي تخلق في الأمسيات ضجيجًا لا يصدق لمثل هذه الكائنات الصغيرة. وعند اقتراب أي شخص منها، فإنها تتوقف عن النقيق ومن العسير أن تشاهد أيًا منها. لهذا اتخذت وضعًا مناسبًا لإلقاء نظرة عليها، ولم يظهر أنها أكبر حجمًا من النوع الإنكليزي. يقول رسل أن النهر قد أخذ تسميته (كوبك) من هذا الضجيج، وهي كلمة مشابهة لنقيق الضفادع، ولتعزيز هذا الرأي استشهد بنشيد "الضفادع" لأرستوفان^(٢). وكذلك يعج النهر بالسماك، وهو من صنف واحد حيث أخبرني الأوروبيون في حلب أنه سمك الجلكا الذي يسميه الأهالي (سمك إنكليز) أو السمكة الإنكليزية. وقد ذكر رسل هذه الحقيقة وحدد أن السمك من صنف عديم الزعانف وهو يختلف تمامًا عن سمك الجلكا. كان رسل عالمًا جيدًا بالطبيعات ولكونه كان طبيبًا في المستشفى الإنكليزي هناك، فقد كانت لديه فرصًا كثيرة للتحقق مما يتوصل إليه، بحيث أنه لا يساورني الشك بصحة ما يقوله. إن الاسم المحلي غريب جدًا

(١) مؤرخ يوناني أثيني عاش من ٤٢٠ ق.م - ٣٥٥ ق.م. (الترجم).

(٢) مؤلف مسرحي يوناني (٤٥٠ - ٣٨٨ ق.م.) يعتبر أعظم شعراء الكوميديا في الأدب الإغريقي في القديم. (الترجم).

ولا شك أنه قد أطلق على هذا السمك لأن أعضاء المركز الإنكليزي كانوا ينظرون إليه بتقدير خاص، والآن وبعد أن أصبح القنصل البريطاني هو الوحيد الذي يمثل بلدنا هنا، فإن المسافر يصاب بالدهشة لسماعه سمكاً يحمل هذا الاسم^(١).

وإلى الشمال والجنوب يقع وادي هذا النهر الصغير المزدهم ببساتين الفاكهة، ولكن تقع إلى الجانب الشرقي سلسلة من المرتفعات والروابي التي تمتد بعيداً حتى تصل الفرات. وقد تمت زراعة مساحات كبيرة منها في السنوات الأخيرة بحيث يمر المسافر من حلب إلى مسكنة عبر مساحات مزروعة متناثرة على طول الطريق تقريباً، وعند اللقاء المسافر القادم من الساحل نظرة شاملة على المدينة، فإنه يفاجأ بالحال - إذا كان معتاداً على زيارة المدن الشرقية - بانعدام وجود المنارات على نحو غير اعتيادي، حيث تضيف هذه السمة جمالاً وجلالاً على معظم المدن الإسلامية المهمة. فلو كان في حلب ولو جزءاً من هذه المباني الجميلة كما تتباهى بذلك القاهرة، لكان من ينظر من الأعلى يرى جمالاً ليس بالقليل رغم المحيط القاحل البسيط. هناك سمة وحيدة تعطي للمدينة نبلاً وتذكر المسافر أنه ينظر إلى واحدة من المدن التاريخية في الشرق. تلك هي التلة الشديدة الانحدار التي ترتفع في وسط المدينة وتحوي أجزاءً من حطام وانقاض القلعة المحصنة. ولكن من ينظر إلى هذه القلعة من مسافة معينة لا يرى سوى خرائب، وهذا يعود إلى الهزات الأرضية العنيفة والمتكررة والتي بالطبع قد دمرت المنارات، وبسبب تكرارها جعلت الأهالي يدركون أنه لا جدوى من بناء العديد من هذه المباني. ويعزى إلى نفس السبب أيضاً ندرة وجود بقايا المباني لجميع العصور في حلب بعد أن

(١) عند مكتبة السطور أعلاه أكد لي مقيم سوري في لندن أن (الحنكلبز) هو لفظة عربية صرفة لسمك الإنقليس أو الجريت وهي لا تشير إلى الأمة الإنكليزية. والحبليون يدغمون كلماتهم مما أدى لظهور هذا الخطأ. (المؤلف).

نضع في الاعتبار السمة المتكررة والتدميرية لهذا العقاب الإلهي، ويبدو من العجائب إلى حد ما أن تكون حلب مدينة موسورة ومزدهرة كما هي في الوقت الحاضر.

لقد "اتفق جميع الكتاب على أن يختلفوا" فيما يتعلق بتقديرات أبعاد المدينة والإحصائيات عن عدد سكانها. فالدكتور بوكوك يوضح في عام ١٧٢٨م أن محيط المدينة مع ضواحيها ليس أقل من خمسة أميال. في حين يعلن الدكتور رسل أن محيطها هو حوالي سبعة أميال، إلا أن محيط المدينة (بأحيائها المسورة) هو فقط ثلاثة أميال ونصف. ويعطي فان إكمونت (الذي عاش قبلهم بقليل) تقديرات عن المحيط الكامل للمدينة، بأنها مسيرة ثلاثة ساعات. بينما جعل "دليل موراي" محيطها أقل بقليل من تقدير رسل. وطالما أن تقدير فان إكمونت البالغ مسيرة ثلاث ساعات لا يمكن أن يمثل أقل من تسعة أو عشرة أميال، فلا بد أن تكون المدينة قد تضاءلت إذا كانت إحصائيات الرحالة صحيحة بأجمعها. ولكن طالما أنه قد أوضح أن عدد سكان المدينة كان في ذلك الوقت بشكل عام هو (٢٠٠٠٠٠) شخص، وهو رقم يحتمل أن لا يصله عدد السكان - ومن المؤكد أنه لم يصل إليه في زمنه - فمن المحتمل أن تكون تقديراته عن أبعاد المدينة مبالغاً فيها. ومع مدينة تتعرض باستمرار لهزات أرضية ويعاد بناؤها، يعتبر من العسير جداً (لأنه ليس هناك خرائط قديمة يمكن الرجوع إليها) معرفة أبعادها في فترات مختلفة. تبين الخريطة المعروضة في كتاب رسل موقفاً أصغر بكثير مما هو الآن، حيث لم تظهر ضاحيتي العزيزية والكتاب والضواحي الجنوبية إلى الوجود بعد. فالعزيرية هي في الواقع حديثة تماماً. وتبين خريطة يادكر في كتابه (سوريا) ضاحيتين إلى الجنوب. اللتان تبدوان لي أنهما مبالغاً بهما بشكل كبير، ورغم أنني على أية حال، قد زرت جانباً واحداً من المدينة، حيث ربما أكون مخطئاً هنا، إلا أنني ميال إلى الاعتقاد بأن بعض المرتفعات الموجودة على هذا

الجانب من الأسوار تمثل ضواحي دمرتها الزلازل ولم يعاد بناؤها. ورغم أنني قد طفت بنفسي سيرًا على الأقدام على كامل محيط المدينة، إلا أنني قد نسيت تثبيت الوقت الدقيق الذي استغرقه السير، واعتقد أنه قد استمر أقل من ثلاث ساعات. لقد علمنا أن التحصينات قد أعيد بناؤها في عام ١٤٢٧م، بعد تدمير تيمورلنك للمدينة، وربما يعود جزء من الأسوار الحالية للمدينة إلى ذلك التاريخ. ولكون هذه التحصينات متهدمة تمامًا وكونها إلى حد بعيد تمتد بين الضواحي الأخذة في الاتساع في المدينة، فليس من السهل اقتفاء أثرها وبالنتيجة من الصعب معرفة طريقة بنائها. لاشك أن حالتها الراهنة تعود إلى الهزات الأرضية التدميرية التي دمرت المدينة عدة مرات. كتب فان إكمونت أن هذه التحصينات (في وقته) كانت بحالة متهدمة. فقد تم تعزيز السور بأوقات متكررة بأبراج كما تحمي المدينة من الخارج بخندق بعرض كبير. وقد ذكر رسل قائمة بابواب المدينة وكما يلي:

بوابة فنسرين، وتسمى أحيانًا باب السجن، ويفترض أن بناؤها قد تم في زمن سيف الدولة ابن حمدان نهاية القرن العاشر، وأعيد بناؤها في عام ١٢٤٤م، في زمن الملك الناصر. وتقع هذه البوابة في الزاوية الجنوبية - الغربية من السور ومنها جاء اسمها كونها إلى طريق فنسرين التي تسمى أحيانًا حلب القديمة. تحتل فنسرين موقع كالسيس^(١) القديمة. يمكن مشاهدة بقايا هذه البوابة حاليًا، وقد سنحت لي الفرصة لمشاهدتها مع اثنين آخرين، وهي تتكون من برجين عظيمين وبينهما غرفة. والسمة الخاصة فيها هي أن المدخل إليها لا يكون من وسط المبنى بل يكون في الجانب الأيمن للبرج.

(١) كالسيس مدينة بونانية قديمة. (الترجم).

باب المقام وتسمى بوابة دمشق، وقد بدأ بناؤها أيام الملك الظاهر وانتهى في زمن ابنه العزيز. وهي بوابة حلب في أقصى الجنوب لكونها تقع على مسافة قصيرة شرق بوابة قنسرين ويمتد السور بينهما إلى الأمام. وهي كالأخيرة على نفس التصميم. تقع مقابل هذه البوابة تلال كبيرة، يبدو أنها جزئياً على أية حال انقاضاً اصطناعية. ينتصب على هذه التلال ضريح الشيخ علي الذي توجد عليه العديد من الشعارات والرموز الغربية التي تعود إليها لاحقاً. تقطع هذه التلال الوادي الطبيعي الصغير الذي يؤدي مباشرة إلى البوابة. لو لم تكن هذه التلال موجودة، والتي لا يمكن أن تكون جميعها اصطناعية، لظهر أن هذا الوادي يضم طريقاً للوصول إلى حلب ويعين موضع هذه البوابة، من المحتمل أن هذه التلال تمثل بعض المباني الواقعة خارج أسوار المدينة وقد حطمتها هزة أرضية. يوجد في هذا الوادي عدد كبير من الكهوف والأغوار الكلسية وبعضها بطول كبير. يشغل العديد منها حالياً نساخو الحرير. من الصعب تخمين أصلها، كون جميعها تقريباً اصطناعية، فربما تكون هذه الكهوف أو الأغوار مقاليع للحجارة.

باب النريب، والباب الأحمر، وكلاهما على الجانب الشرقي، وباب الحديد في الزاوية الشمالية الشرقية، وباب النصر وهو إلى الشمال وقد أعاد بناؤه الظاهر.

باب الفرج ويسمى أيضاً باب الفراديس أو العبارة، وقد بناه أولاً الظاهر. ويقع على الجانب الشمالي الغربي، والأثر الحالي له هو عبارة عن مبنى مهدم. وعلى الجانب الغربي تقع بوابات الجنائن وإنطاكية. وعلى هذا الجانب من المدينة يقع أفضل الأقسام من بقايا السور، فهناك سبعة أو ثمانية أبراج مربعة قوية، وقد لاحظت أن الثالث أو الرابع منها من الشمال مزود بتمائيل لأسود تمشي ورأسها إلى الأمام ويدها مرفوعة إلى الأعلى.

من الواضح أن جميع الأبراج التي شاهدها كانت أعلى بكثير مما هي عليه الآن، وفي العديد منها هناك أواوين ضخمة. واعتقد أن الباب الخامس كما استطيع أن أرى، كون السور يمتد داخل المباني الحديثة بحيث أنه من الصعب اختفاؤه، هو باب إنطاكية وله نفس تصميم باب قنسرين، وفيه عدد من التماثيل والكتابات. وقد تم بناء سوق بمواجهته، حيث أصبح من المستحيل ملاحظته بالتفصيل. وإلى الجنوب أكثر نحو باب قنسرين، كانت الأبراج هزيلة وصغيرة. كما ذكر رسل بوابتين في الضاحية الشمالية بأسماء الجديدة والعريان.

كان تصميم المدينة داخل الأسوار مربعاً تقريباً، إلا أن الضواحي التي أحاطتها قد أعطتها شكلاً غير نظامي. وقبل البدء بوصف المدينة، أقتبس جزءاً من إحصائيات فان إكمونت، التي ربما تكون كبياناته السابقة مبالغاً بها كثيراً. فهو يقول: "إن المدينة مقسمة إلى اثنين وسبعين حيّاً، هناك اثنان وعشرون منها داخل المدينة وخمسون في الضواحي. ويقدر أن هذه الأحياء تحوي (١٧٢) مسجداً و(٦٨) خاناً و(٦٤) حماماً، و(٣٧) مطحنة تديرها البغال وتكتبتان للدراويش وثمانية منارس وثلاثة دور للمرضى عقلياً، وسجن واحد، وأربعة دور لصناعة الصابون، وثمانية مجازر للنبح الحيوانات وست دور للصباغة وخمس كنائس وسبعة وسبعون سوقاً وأكثر من خمسة آلاف دار سكنية.

يعتبر الجانب العام للداخل المدينة شيئاً جوهرياً لأي مدينة شرقية. فالشوارع مرصوفة بحجر ممتاز وبطراز أنيق والمباني متجاورة مع بعضها بشكل جميل. إلا أن الشوارع باستثناء شوارع بعض الأسواق، كثيرة الانحناءات، وضيقة بالطبع رغم أن هناك شارع أو اثنين يمكن أن تدخل العربة منهما إلى السوق.

كانت معظم الطرق معبّدة بشكل جيد، وعلى العموم فهي نظيفة بشكل معقول. كانت بيوت الأهالي تبدي امتداداً مملأً قبيحاً لأسوارها المواجهة للطريق، باستثناء بعض البيوت في الأحياء غير المسلمة. وجزء كبير من بيوت الأهالي عبارة عن مباني من دور واحد فقط، فقد علمتهم التجربة خطر إقامة صروح عالية في مدينة تخضع للهزات الأرضية. إلا أن بعضاً من هذه المباني ذو دورين. وكقاعدة عامة يحيط المبنى فناء صغير جميل نوعاً ما، تطل عليه شبابيك هذا البناء. وفي بعض البيوت القديمة، تلاحظ الواح صغيرة جميلة من الأرابيسك (زخرف عربي) على الشبابيك وعلى باب المدخل. وفي بعض الأحيان تقطع الشبابيك بحجارة هندسية أو زخرفية وهذا يترك انطباعاً جميلاً. وفي الفناء يوجد عادة بئر.

تكون السقوف عادة مستوية حيث يقضي الأهالي فوقها قسطاً كبيراً من وقتهم. ويقال أنه بالإمكان المرور على الجزء الأكبر من المدينة دون الدخول إلى أي شارع وذلك بالمرور فوق السطوح.

وبالنسبة إلى المسافر الذي يريد زيارة أحد بيوت الأهالي، سواءً أكان بيت مسلم أم مسيحي، فإن إجراءات الزيارة مربكة إلى حد ما. فالباب مزود عادةً بأداة للطرق، هي في العديد من الحالات عبارة عن سلعة مستوردة فرنسية على شكل يد سيدة مصنوعة من الحديد أو البرونز. وعند استخدام هذه الأداة، لا أحد يفتح الباب كما قد يتوقع الأوروبيون، ولكن بدلاً من ذلك يسمع صوت حاد على مسافة من الباب يقول (مين)، وهو سؤال تعوزه اللياقة إلى حد ما إلى المسافر الذي تكون عربيته ليست جيدة.

ليس هناك حياً أوروبياً في حلب وبالنتيجة ليست هناك حوانيت أوروبية. مع ذلك، هناك شارع واحد تكثر فيه بشكل خاص المحلات التي تباع السلع الإفريقية

ومعظمها تعود لمشرقيين، هناك محل واحد يمكن الحصول منه على العديد من الأشياء الجيدة الخاصة بالرحلات كالمؤن الملعبة أو البسكويات وغيرها من الأشياء المائلة.

والأسواق كثيرة هناك، رغم أنها قياساً بأسواق القاهرة أدنى حالة منها، إلا أنها أفضل من الأسواق التي نشاهدها حالياً في بغداد الأكثر شهرة. فهي كقاعدة عامة ذات اتساع معتدل، لها أقواس أو أنها مسقفة، والحوانيت تكون عادة أكبر، رغم أنها أقل تميزاً من حوانيت القاهرة. (والحوانيت عبارة عن غرف يجلس فيها التجار وسط بضاعتهم). يمكن مشاهدة قطن واقمشة مانشستر في كل مكان، حيث حلت هذه الصناعات القبيحة رغم كونها رخيصة وعملية، محل الأقمشة الحريرية القديمة الجميلة ذات الصناعة المحلية. وبالطبع لا تزال صناعة الحرير جارية في حلب والأماكن الأخرى، ويمكن شراء أشياء جميلة، إلا أن ما يحزن أن هذه الصناعة أخذت في الانقراض. وهناك أيضاً أسواق منفصلة تباع سلعاً بعينها. ويستطيع المسافر المتطفل أن يجد أسواقاً تباع الصوف أو القطن أو الجلود أو أن يتمشى عبر أزقة طويلة معلق فيها اشربة متدلّية تحمل أخفافاً حمراء أو كوفيات حريرية. وقد قمت بالعديد من الجولات على هذه المناظر الرائعة كان دليلي فيها السيد جاكو. وما يبين حجم الأسواق هو أنني قضيت في عرض البحر نفس الفترة التي قضيتها في الأسواق بجولتي الأخيرة، ولكن هل توجد الآن أسواق فإن إكمونت السبعة والسبعين أم لا؟ ليس لدي الوسيلة لمعرفة ذلك.

يعتبر دكان الحلاق في حلب شيئاً متميزاً جداً، فهو عبارة عن غرفة مربعة تحيطها دكة خشبية مقسمة بانزع إلى مقاعد منفصلة. تتميز هذه الدكة بأنها عالية جداً بحيث تكون أقدام الشخص الذي يخضع لعمل الحلاق مرتفعة عن الأرض مسافة حوالي (١٢) إنج. وبذلك يتخذ وجه هذا الشخص المستوى المناسب لعمل الحلاق.

ويوجد في وسط المكان خزان يؤخذ منه الماء، الذي يرمى على الأرض الحجرية بعد الاستخدام. يكون خدم الحلاق عادة من الأولاد الذين يستخدمون عادة نعال خشبية عالية تختلف حسب طولهم. حيث يحتذي الولد الصغير نعالاً بارتفاع قدم كي يساعده على الوصول إلى المستوى الصحيح.

لم أشاهد في جوامع حلب سوى المظهر الخارجي لأنه ليس من المعتاد السماح للأوروبيين بالدخول، يسمى الجامع الكبير الواقع في الجزء الغربي من المدينة، جامع زكريا أو الجامع الأموي، ويفترض أنه يضم ضريح زكريا^(١) وقد حل محل كنيسة مسيحية. السمة المميزة له هي منارته المربعة الجميلة المقسمة من الخارج إلى خمسة مراحل ذات طبقات متسلسلة، تتميز الطبقتان العلويتان بأنهما معقودتان بقناطر ناتئة. باقي المبنى هو عبارة عن فناء مربع محاط بصفوف من الأعمدة. يقال أن الجامع قد أحرق مرتين وأعيد بناؤه، لهذا وبسبب الحرائق والهزات الأرضية، لا يحتمل وجود البناء القديم للجامع. إلا أن البرج الذي يقال أنه يحمل تاريخ ١٢٩٠، قد حافظ على حالته الجيدة. بعض الرحالة يؤكدون على أن هذا البرج هو نفسه برج الجرس في كنيسة زكريا نفسها التي أدمجت مع الجامع الإسلامي. يقال أن هذه الكنيسة قد بنتها الإمبراطورة (هيلينا) (انظر اللوحة).

هناك جامع جميل إلى حد ما رغم صغره يقع على الجانب الجنوبي من القلعة مقابل البوابة الكبرى. يسمى هذا الجامع بالسلطانية ويطلق عليه الشرقيون أو الإفرنج (الجامع الجاثم) وهو الآن لا يستخدم، وأبوابه مغلقة، لهذا لم أتمكن من الدخول إليه، في مقدمته قوس مستدق طويل جداً، أسفله بوابة الجامع الرئيسية. وإلى يسار المشاهد من الباب ثلاثة أواوين مربعة طويلة ذات نقوش كلسية في أعلاها. وتمتد على طول

(١) هو أبو يوحنا للمعمان. (لؤف).

القوس الكبير، الذي هو في الواقع نفس ارتفاع البناية في الوقت الحاضر. يحتوي كل إيوان على فتحة مربعة قرب الأرض وفوقها شباك صغير مستدق الطرف. وعلى يمين الباب هنالك ثلاثة أواوين مشابهة أخرى، إلا أنها ليست قريبة من بعضها كما هي الأواوين التي على اليسار. وترتفع فوق البنى منارة ثمانية وقبتين صغيرتين.

هناك رسوم لشعارات على الباب الذي سبق وصفه وعلى الجانب الشمالي من البناية مرسومة على خط عريض أفقي يقطع كاسنا، وهناك رسومات أخرى في القاعدة.

تعتبر القلعة إلى حد بعيد المكان الأكثر أهمية وإثارة في المدينة. وهي تقع إلى حد ما إلى الشرق من مركز المدينة المسورة وعلى الأرض الأكثر ارتفاعاً داخل الأسوار. يعتبر التل الكبير الذي أقيمت عليه التحصينات القديمة دائرياً تقريباً ويحيطه خندقاً عميقاً وواسعاً. يبلغ محيطه من حافة الخندق حوالي ثلاثة أرباع الميل. ويبلغ ارتفاع التل أو الرابية حوالي (٢٠٠) قدم، ورغم أنه يقال باستمرار أن هذا التل مصطنع، إلا أن الاحتمال الأكثر هو أنه مصطنع جزئياً وكما يشير رسل أنه قد تم العثور على كتلة من الأحجار الطبيعية قرب القمة. ومن المحتمل أيضاً أن القلعة تشغل جزءاً وربما كل موقع بيريا القديمة، كما أنها تشبه بعض التلال الكبيرة التي تنتشر في أنحاء السهول الكبيرة لشمال سوريا وبلاد وادي الرافدين. ويذكر المؤلفون العرب القدامى رواية متناقلة بأن هناك أفان من الأعمدة يقوم عليها التل، وهذه ليست سوى خيالاً شرقياً، أو ربما ترجع أصولها إلى اكتشاف بنايات وأعمدة قديمة عندما كانت حصناً للقاتحين المسلمين. وفي الواقع كما يقول الدكتور بوكوك أنه قد أبلغ بالعثور باستمرار على أعمدة رخامية في باطن الأرض إلى الجانب الشمالي الشرقي من القلعة. وقد حصل لي السيد جاكو على إذن بزيارة المكان ورافقني بنفسه خلال هذه الزيارة.

ذهبنا إلى المدخل الرئيسي في الجانب الجنوبي وكان إلى حد بعيد أجمل شيء في المبنى. لقد لاحظت أن بناءً يواجه منحدر التل تمامًا، وهذا يثبت أنه حتى لو كان التل طبيعيًا بجزء منه، إلا أنه قد جرى تشذيبه وتعديله بمهارة، لأن الغاية من هذا البناء دون شك هي الحيلولة دون انزلاق التربة. كان وضع البوابة كما يلي: جرى بناء بوابة مربعة ضخمة بحجم كبير على قمة وسفح التل حيث يؤدي إلى جسر صخري ذي ستة أقواس مستدقة يقطع خندقًا ويؤدي إلى مدخل أصغر أو حصن أمامي موجود داخل أو قرب الحافة الخارجية للخندق. ومزة أخرى، يمتد من هذا الحصن نصف قوس على جدار الخندق الخارجي مكملاً المجموعة المتقاطعة (انظر لوحة البوابة).

يعتبر الحصن الأمامي بناءً جميلًا بتصميم مربع وزوايا دائرية. بابيه غير مزخرف يعلوه قوس مقرنص بسيط، وفي كل جانب من جانبيه هناك شباك صغير. وفوقه مباشرة ثلاث كوات. لإطلاق النار تستخدم لأغراض الدفاع. حيث يوجد في القمة جدارًا ذو فتحات لهذا الغرض أما المدخل الكبير فهو بناء مهيب على شكل مربع تقريبًا مبني على سور القلعة. يجري الدخول إليها عبر قوس مستدق عالي، ترتفع فوقه إلى القمة الحالية للمبنى فجوة طويلة ذات زوايا قائمة مزخرفة بمواد ملونة وتنتهي في القمة بنقش كلسي من الأعلى. وفي كلا جانبي المدخل عند بداية القوس الذي يمثل حوالي نصف الارتفاع الكلي للمبنى، ثلاثة مجاميع من الكوات، قسم منها ذات زوايا سداسية والأخرى ثلاثية. وأسفلها كتابة طويلة بالخط الكوفي التي يقال أنها تحمل اسم الملك الظاهر ٦٠٥هـ. وفي كلا جانبي الفجوات المربعة شبابيك صغيرة وفي واجهة المبنى رسوم نافرة دائرية متعددة وبعضها محفور، لا يشغل القلعة في الوقت الحاضر أي شخص باستثناء عدد قليل من الجنود كون القلعة من الداخل مهدمة تمامًا. يعتبر باشا أو والي حلب رجلًا يحب بشكل خاص أن يضفي مظهرًا جميلًا عسكريًا على

الأشياء العسكرية في المدينة إلى أي أوروبي خاصة الإنكليز الذين يزورون المدينة والذين يقودهم فضولهم إلى التدقيق والسؤال بآية طريقة عن مثل هذه المسائل.

عند وصولنا إلى البوابة الكبرى، جرى استقبالنا من قبل حرس من أربعة رجال بأمرة ضابط صغير أو نقيب تقدموا برشاقة نحو الحضور أثناء وصولنا. كان مترجم القنصل حاضراً، وقد لفت الضابط انتباهنا إلى عدد كبير من الثقوب في السور الخارجي، حيث أخبرنا أن هذه الثقوب هي بسبب السهام والنبال وأضاف أن العديد من رؤوسها لا تزال مطمورة في الحجارة. هناك بالفعل ثقب، إلا أنه من الصعب التصديق بأن سهماً قد أطلق من قوس يدوي اعتيادي له من القوة والاختراق ليشق طريقه ويفتح ثغرة بعمق إنجين أو أكثر في حجارة صلبة. الأكثر احتمالاً أن هذه الثقوب قد حدثت بفعل الرصاص، ولكن إذا كانت رؤوس السهام كما أوضح الضابط، لا تزال موجودة في هذه الثقوب، فلابد أن تكون هناك مآكنة قوية جداً قد استخدمت لإطلاقها على الأسوار. وبعد مرورنا من أسفل القوس الكبير، وجئنا أنفسنا داخل صالة عالية الارتفاع تحمي جميع جهاتها الثلاثة كوات جرى بناؤها بنفس المستوى وهي في الواقع امتداد لخط الكوات التي شاهناها من الخارج. يتم الوصول إلى داخل القلعة من هذا المكان عن طريق سلم دوار طويل ذو عرض كبير ومعقود من الأعلى بارتفاع عالي. يدور هذا السلم في البداية نحو اليمين إلى خارج الصالة المقوسة. بعد ذلك يدور عدة دورات في كل اتجاه قبل أن ينتهي إلى مستوى سور الحصن، تجري حماية القلعة في فترات معينة بآبواب حديدية قوية، واعتقد أن عدد هذه الأبواب هو ثلاثة فقط، رغم أنني هنا اتحدث معتمداً على الذاكرة فقط. الباب الخارجي غير مزخرف إلا أن الأبواب الداخلية مزينة بطراز غريب إلى حد ما حيث قُسم السطح المعدني إلى مربعات صغيرة يوجد في مركز كل واحد منها حذوة حصان مصنوعة من حديد مطروق. وعلى أحد هذه الأبواب أيضاً كتابة في نفس السطح المعدني. وفي الدورة الأخيرة قبل

الوصول إلى الحصن، هناك على اليمين أضرحة اثنين من الرجال الصالحين، لا استطيع تذكر اسميهما. وهذه الأضرحة مزينة برايات بالية.

وفي داخل البوابة مباشرة، هناك بقعة مسوّرة مشبكة إلى الأرض، تضيء غرفة تحت الأرض، وقد أوضحوا لنا أنها تمثل شباكاً لسجن القلعة القديم، وبالقرب منها، لفت انتباهنا خزاناً كبيراً للمياه، تقول الروايات المتناقلة أنه الوعاء نفسه الذي يحفظ فيه إبراهيم حليب البقرة الشهباء ذاتها التي كزمت بإطلاق اسمها على حلب. ومن هنا المكان، توجهنّا عبر خرائب مقفرة نحو الجانب الشمالي من التل، حيث لا تزال تنتصب هناك منارة مربعة وهي الأثر الوحيد الباقي من جامع القلعة. وهنا جلبوا لنا كراسي للجلوس عليها، وظهر ضابط آخر، برتبة أعلى، يشرح لنا جمال الموقع، في نفس الوقت جلبوا لنا قهوة واقداخاً من ماء القلعة. تم سحب هذا الماء من بئر يقال أن عمقه يبلغ (١٥٠) ياردة ويسمع في قاعه صوت هدير جارف، وهو خبر تم استقباله ببرود تام، وبدلاً من ذلك حاولنا أن نبدو بأننا نبتلعه بنفس السهولة التي نبتلع فيها الماء الاعتيادي كان المنظر من قمة المنارة رائعاً جداً. فعند قدم المرء، تمتد المدينة، التي تعتبر بذاتها غير مثيرة إلى حد ما باستثناء مشاهدة فناءات الجوامع وسقوف البيوت. ولا يلاحظ المرء سوى نصف دزينة من المنارات وعدد قليل من القباب. كما يختلف ذلك عن النظر الرائع الذي يكشف نفسه عند قدم المرء عندما ينظر من قلعة القاهرة. في نفس الوقت يدرك المرء من هنا لأول مرة الحجم الكبير لحلب وتدل الضجة المتصاعدة من المدينة بأنها واحدة من المدن التي تزخر بعدد كبير من السكان. وعلى مسافة في الاتجاه الشمالي الغربي تقع الجبال التي تحيط قرية بهلان والتي عبرتها قبل أيام قليلة، وعلى مسافة كبيرة إلى الشمال يقع جبل آخر منخفض ضارب إلى الزرقة، الذي لابد أن يكون قريباً نوعاً ما من عنيتاب، وبنفس الاتجاه أسفل أقدامنا يقع السراي، بينما تقع خارج المدينة مباشرة قباب الشيخ بكر، وهو مبنى للدراويش ويعتبر موضعاً مدهشاً، وبالقرب

منها سلسلة قبيحة من الثكنات، وإلى الشرق تمتد صحراء قاحلة، لتصل الفرات، ويمكن أن نرى على الجانب الجنوبي الشرقي المنخفض الذي تقع فيه بحيرة جيبول الملحية الكبيرة، في حين شاهدنا في الجانب الغربي والجنوبي الغربي السهل الأزرق الذي يتلوى النهر في بساتينه من أشجار الفاكهة. وإلى الغرب ترتفع نحو السماء القمم الجليدية لإنطاكية.

وبعد مغادرتنا للمنارة، توجهنا نحو بئر القلعة، حيث يتم رفع الماء منه بواسطة حصان وأداة رافعة، ويبدو من الصوت الناتج من إلقاء حصاة فيه، أنه عميق جدًا. وطوال ما كنا ندور حوله، كان الجنود يتحركون هنا وهناك وبأيديهم الكراسي لوضعها أسفلنا عندما نتوقف. وبعد أن شاهدنا المواقع، ظهر ضابط ثالث، وكان أكثر حبوبة من زملائه السابقين، ويبدو أنه قد تم حجب عنا وإظهاره في الآخر كنوع من المعاملة الخاصة وعلامة على التكريم. وقد دخلنا معه إلى غرفة صغيرة داخل الأسوار مؤنثة بالآرائك ويظهر أنها تستخدم لاستقبال الضباط الكبار عند زيارتهم إلى القلعة. ولم نكد نجلس حتى قدمت القهوة إلينا تلاها بعد ذلك اقتراح عديدة من عصير البرتقال. تتطلب أصول الضيافة أن تشربها جميعًا وهذا ما فعلناه، حيث انتفخت بطوننا من هذه العملية. تلا ذلك أحاديث متقطعة، ثم غادرنا بعد ذلك بالزيد من الانحناء والتحية ورفع القبعات ودفع البقسبش، وغني عن القول أن الأخير يقدم إلى حرس الشرف المكون من أربعة رجال يقودهم النقيب، حيث تقدموا بفخامتهم نحو "الهدية" بحماس مضاعف عند مغادرتنا للمبنى.

وقد أخبرني السيد جاكو أن عرض الاستقبال غير التقليدي هذا، هو عرض غير اعتيادي لمناسبة زيارة الأوروبيين للقلعة. إذ أنه بشكل عام يقوم جندي واحد بمرافقة المسافر في أنحاء المكان.

تم تعزيز السور المحيط بالقلعة بأوقات متعددة إلا أن وضعه الآن مخرب بمجمله. هناك أيضا واحد أو اثنان من التحصينات الخارجية تأخذ شكل أبراج مبنية في الخندق وترتبط بالحصن الرئيسي بواسطة الأسوار.

وغني عن القول، أن القلعة قد لعبت دورا مهما في تقلبات الأحوال المتعددة التي شهدتها حلب والتي تم ذكرها مسبقا. في عام ١٦٣٠م قام السلطان مراد الرابع بتجريد القلعة من المدفعية التي كانت تملكها للاستفادة منها في محاصرة بغداد. ويخبرنا فان إكمونت أن القلعة كانت تحتوي في وقته على حوالي (٢٥٠) دارا سكنية، يبلغ تعداد سكانها عادة (١٢) ألف مواطن ويبلغ تعداد حاميتها (٢٥٠) شخص حيث لم يباشر الجنود الإنكشارية في الحامية بالقتال في حالة طارئة، وإذ ذاك يعيش الفرد في القلعة ويموت بتلك الخدمة كما أنه "لا يبدو أن القلعة مزودة بمدفعية أو ذخائر عسكرية". يقال أن بعض القبوهات تضم حاليا كمية من النبال والسهم وباقي الأسلحة القديمة.


ولكوننا نتحدث عن أمور عسكرية، أود أن أذكر أن القوات الوحيدة التي سنحت لي الفرصة بمشاهدتها في موكب عسكري بحلب هي خمس بطاريات مدفعية مرت صباح أحد الأيام عبر حي العزيزية، بطريقها إلى السهل خارج المدينة حيث تمارس تدريباتها. كانت مدفعتها من نوع كروب (Krupp) بحالة جيدة وبعض الجياد كانت بحالة ممتازة. إلا أن الرجال كانوا قذرين وكانت أطقم وسروج الخيل رديئة وغير نظيفة، وكانت الأخيرة كما علمت في وقت لاحق سلفا رديئة تم شراؤها بنمن بخس بعد الحرب الأهلية الأمريكية.


هناك عدة خانات في حلب، يجري فيها في الواقع حتى هذا اليوم عقد الكثير من الصفقات التجارية للمدن الشرقية، وإن فناءاتها الكبيرة تضم بشكل عام اكواما كبيرة

من البضائع. بعض هذه الخانات ذات بناء جميل، تعيد إلى الذاكرة قصص الف ليلة وليلة. يسمى أحدها وربما أجملها في حلب خان الوزير ويقع في غرب المدينة. يتم الدخول إليه عن طريق بوابة رائعة، بنيت في الجانب المواجه إلى الشارع وبصفوف من اللونين الأبيض والأسود الموضوعة بالتبادل. في المقدمة لوحات نقش ومنحوتات بارزة بشكل أسود. أما الجانب الداخلي من البوابة فهو بشكل قوس مستدق تدعمه أعمدة ذات تيجان كلسية. وبعد المرور عبر هذه البوابة، وجدت نفسي في مربع كبير في وسطه حوض ماء، لهذا فإن للمبنى مظهر قريب جدًا إلى جامع قديم. كانت مبانيه الرباعية من دورين، كان الدور الأسفل بسيطًا، فيه أبواب يتم الدخول إليها من الفناء، في حين كانت مقدمة الطابق العلوي عبارة عن ممرات مقنطرة مفتوحة على جميع الجهات باستثناء الجهة التي يكون فيها المدخل. تتميز صفوف الأعمدة بشكل عام بالبساطة كونها عبارة عن أقواس بسيطة تستند على أعمدة مربعة، إلا أنه في موضعين فقط وبالتحديد في النهاية اليسرى في الضلع إلى يسار الدخول، وقسم في نفس نهاية الضلع مقابل المدخل، هناك تشكيلة من القناطر فيها الكثير من الزخارف وفيها أقواس محنية في جانبيها ومعكوسة قرب الذروة تستند على أعمدة عربية مصنوعة من حجر الكلس أو قد تكون بتيجان مزخرفة، كنت في البداية ميالاً إلى الاعتقاد أن هذا يشير إلى اختلاف في التاريخ، إلا أنه، حيث تم دمج الأسلوبين، فقد نشأ عمود هجين يتكون من دعامة مربعة مع نصف عمود مبني إلى جانبها، يحتمل أن تكون كل البناية قد جرى بناؤها بتاريخ واحد وربما تم ذلك قبل مائة وخمسين سنة خلت. تتضمن العديد من الشبابيك المطلة على الفناء زخارف عربية جميلة عليها. جرى إسناد حوض الماء أيضًا بأعمدة لها نفس سمات الجزء المزخرف من الممرات المقنطرة.

سبق ان ذكرت وجود رموز وشعارات غريبة على بنايات قديمة مختلفة. كانت جميع هذه الرسوم متشابهة جدًا^(١). وهناك العديد من هذه الشعارات موجودة على الجوامع المصرية وفي بعض الأحيان على أشياء صغيرة كالمصابيح الزجاجية للجوامع التي صنعت في القاهرة في القرن الرابع عشر والخامس عشر في زمن الأسرة المملوكية. وقد كتب عن هذا الموضوع السيد ثي، وروجر زبيك الأخير ونشر في "نشرة المعهد المصري" عام ١٩٨٠م. ولم تسنح لي الفرصة لمراجعته، إلا أن هناك بعض الملاحظات القيمة حول نفس الموضوع في كتاب فن جنوب كنسنغتون. الفن الشرقي في مصر الذي كتبه السيد ستانلي لين بول. وقد تعلمت منه أن الشعار رقم (١) أدناه هو مزيج شائع وأن الشعار رقم (٢) قد استخدم فعلاً من قبل السلطان قائد بك في مصر واستخدمه أيضاً أحد ضباطه المدعو عامر جنبلاط الذي أصبح سلطاناً فيما بعد. أعتقد أن استخدام الفصح يشير إلى أن حامله مسؤول عن سقي السلطان وتوجد في القاهرة أيضاً رموزاً أخرى مشابهة، كزوج من عصي البولو، التي تشير إلى دائرة (الجوكندار) أو رئيس البولو، ومفاتيح الحاحب.

(١) فيما يلي قائمة بنماذج فيها،

١. هناك فصح لو كاس على شريط كالعصاة وفي قاعدته فصح آخر. وهذا موجود في جامع السلطنة.
٢. على شريط كالعصاة بين اثنين من الأوعية القرنية الشكل ولقواها إلى الأسفل، هناك فصح، في أعلاه معين وفي قاعدته فصح آخر. وهذا يوجد على حوض ماء عربي قديم جميل أو مكان للإرواء في الجانب الشمالي من المدينة قرب الشيخ بكر. وتكون الشعارات كالعقاد على شكل رسوم نافرة من الجدران. هناك أيضاً للنتصف نقوش لكتابات دينية وهناك أيضاً رسوم أخرى نافرة على الجدران مع نقوش كتابية أخرى.
٣. شعارات كما ورد في المادة (٢) أعلاه. وهذه موجودة أيضاً على قبر ما يسمى بشيخ علي خارج باب القام.
٤. على شريط كالعصاة بين الرمز الهيوغليفي  وعلى الجهة اليمنى واليسرى منها هناك فصحاً في أعلاه معين وأسفله فصح آخر. وقد شاهدت هذا المزيج القريب على جزء من سور في الجانب الغربي من المدينة. (المؤلف).

أما الشكل الرابع، فهو رمز لافت للنظر، حيث يوجد فيه الرمز الهيروغليفي ، رغم أنه جاء بأشكال مختلفة من المزج على تروس حكام الممالك المصريين في القرن الرابع عشر. وهذا الشكل الهيروغليفي شائع في الآثار المصرية القديمة ويمثل (إله البلاد العليا والسفلى)، كان رأي السيد روجريك أنه باعتبار أن الممالك استخدموا هذا الرمز، فلا بد أنهم قد فهموا معناه، إلا أن السيد لين بول يرى أن هذا الرمز الخاص ربما كان يعرفه الأقباط، أو أن الممالك قد استنتجوا دون فهم له ومن خلال كثرة تكراره، إنه لقب شرقي. أما وجوده في شمال سوريا فلا يزال امرًا جديرًا بالملاحظة أكثر.

هناك آثار قليلة في حلب ينبغي مشاهدتها. فقد جرى بناء السور حول بوابة إنطاكية كنوع من السواتر، حيث المستوى في الداخل أعلى بكثير من المستوى في الخارج. وفي نقطة هنا من الداخل، ولكن على مستوى قمة السور، لاحظت بناية غريبة فيها العديد من أجزاء الأعمدة البازلتية والكرانيت القديمة. ومبنى أيضا ضمن سورها حجر غريب فيه نحت مع ما قد نعتبره كتابة. إنه خرب ويبدو وكأنه مقلوب رأسا على عقب. كان العمل الفني مقسما إلى نصفين ويبدو بكونه يتألف من أشجار وأشكال بشرية. وأشك في أن أحدا يستطيع فك رموزها.

تتألف ضواحي حلب من الجديدة في الشمال والعريزية في الغرب والكتاب في الجنوب الغربي والفرديوس في الجنوب. هناك أيضا ضواحي كثيرة في الجانب الشرقي لم استطع أن اتحقق عن الأسماء التي أطلقت عليها. ربما تكون هذه أقدم أحياء المدينة الواقعة خارج أسوارها.

يسكن الجديدة والعريزية بشكل رئيسي المسيحيون. كانت الضاحية الأولى موجودة في زمن رسل إلا أنها قد توسعت في هذا الوقت. أما العريزية فإنها ضاحية حديثة ويفصلها عن المدينة حزام من المقابر التي تحيط بالمدينة. إن ابنيتهما ممتازة

وشوارعها عريقة وبيوتها مبنية من دورين وهي في الحقيقة ذات طراز أوروبي، وشبيهة ببيوت المدينة حيث يحيط المبنى فناءً، ولكونها مبنية بمجملها للمسيحيين، ففيها أيضاً شبابيك كبيرة مواجهة إلى الشوارع، وفيها أيضاً بشكل عام أجزاء ناتئة تشبه (المشربيات) في القاهرة ولكن بالطبع تعوزها الأنافة. ويحيط العديد من الشبابيك أجزاءً حديدية مطروقة جميلة إلى حد ما، وكلها يجري عملها في حلب تنتشر في الأبواب بشكل عام مسامير حديدية مزودة بصفائح من نفس المعدن.

رغم أن الكثير من أسواق وشوارع المدينة مسقفة، فإن طريقة البناء هذه أصبحت حالياً غير قانونية. بالقرب من الفندق، هناك شارع جديد، كل ما فيه يعود لمالك واحد. ولكونه يرغب بتسقيفه على الطراز القديم، فإنه قام بسخاء بتقديم البقشيش للسلطات وحصل على ما يريد بسرعة، فنصب السقالات (السكالات) في الليل وعند الصباح باشر مائتي رجل في العمل لنصب الأقواس. ولسوء حظ هذا الغامر، فقد وصل الأمر إلى مسامع السلطات الأعلى، اعتقد أنه الوالي، الذي هنك كل التحضيرات بلحظة وانهاها. وظلت الأسوار غير منجزة وأجزاءها التي تستند عليها الأقواس ثابتة.

وكما قلت، تحيط المقابر بحلب من جميع الجهات. ومعظمها بالطبع مقابر إسلامية، ولكن إلى الشمال تجد للمقابر الأوروبية الأرمنية واليهودية. والأولى قريبة من حي العزيزية وتضم العديد من الكتابات المنقوشة تخليداً لذكرى التجار الإنكليز والأوروبيين الآخرين الأعضاء في المراكز التجارية خلال المائتي سنة الماضية. كنت أود، لو كان لدي الوقت الكافي، أن أنسخ جميع الكتابات الإنكليزية. إنها بمعظمها بسيطة للغاية، كالمثال التالي:

"جارلس روبرت نومسون - مقاطعة وايتهانف - في إنكلترا - توفي في حلب في ٢٠

أيلول ١٨٦٥".

وبعضها، التي من المحتمل أن تكون لأجانب، مزينة بشعارات منمقة، وجميعها تقريباً، لسوء الحظ في حالة سيئة من العطب.

لقد سبق أن ذكرنا موضوع النهر والبساتين الجميلة المحيطة به. وتعتبر حلب بالطبع بعيدة إلى الشمال مما لا يسمح بنمو النخيل رغم وجود أعداد قليلة جداً، واحدة أو اثنتين من النخيل المتوقف النمو في الحدائق الخاصة، ويحتفظ به كشيء نادر. كذلك لا ثرى أشجار البرتقال في المنطقة لأن المناخ بارد جداً بحيث لا يسمح بنموها. إلا أن أشجار الدردار والحوار والجوز تنمو بشكل جيد هنا. وهناك أشجاراً لفواكه مختلفة. تشاهد أيضاً بساتين التين والزيتون، إلا أن هذه توجد بمعظمها على المنحدرات في الجانب الجنوبي الغربي من المدينة. وإلى الشرق من حلب هنالك مزارع كبيرة لأشجار الفستق. والواقع أن جوز الفستق الحلبي يعد من أفضل ما موجود في العالم. تتم عمليات الري بشكل رئيسي بواسطة دولاب الماء الفارسي أو ما يسمى بـ (الناعور) الذي يستخدم على امتداد نهر الفرات ولغاية التقائه بنهر دجلة، هنالك أيضاً قناة قديمة لسحب المياه من مكان قريب يدعى هيلان الواقع على مسافة معينة إلى الشمال. يقول رسل أنه يفترض أن هذه القناة قديمة قدم المدينة، وقد أعيد إصلاحها من قبل الإمبراطورة هيلينا. وهناك في بعض المواقع في ضواحي حلب آباراً وملاجئ التي تعتبر دون شك أعمالاً خيرية لبعض الأمراء أو أفراد أثرياء آخرين. لقد سبق أن ذكرنا واحداً من هذه الأماكن الواقعة شمال المدينة قرب مبنى الدراويش الذي يدعى الشيخ بكر حيث توجد عليه أداة مبتكرة نحتية. وقد شاهدت مكاناً آخرًا على النهر بنفس الاتجاه. إنه يتكون من مجرد بناية صغيرة ذات صاليتين مقوستين، إحداها تضم بئراً أو خزاناً للوضوء والأخرى محراباً للمصلين باتجاه مكة. لهذا يعتبر الموقع بئراً لعابر السبيل الفقير للتوقف فيه ومحللاً للعبادة.

يتميز مبنى الدراويش في شمال حلب المسمى الشيخ بكر بميزة لافتة للنظر إلى حد ما كونه يقع على أرض مرتفعة. ليس فيها من الخارج سوى منارات معمارية قليلة تتسم بالجمال إلا أن لقبابه الخمسة ومنارته الوحيدة أثرا شرقيا حقيقيا مثيرا للسرور. كذلك تضيف الأشجار العالية المحيطة بالمبنى جمالا آخرًا على مظهره. اعتقد أن هؤلاء الدراويش ليسوا من الذين يدورون أو يرقصون. إحدى أجمل النزاهات التي قمت بها في هذه المنطقة هي عبور النهر والتسلق إلى قمة الأرض المرتفعة الواقعة إلى الجانب الجنوبي - الغربي. يمر الطريق في جزء منه وسط بساتين الزيتون الجميلة بعد ذلك مررنا ببنايتين كبيرتين تقعان إلى اليمين تحت منحدر صخري. وقد قيل لي أكثر من مرة أن هذه البنايات هي جوامع ومباني دراويش واعتقد أن كونها جوامع أمرًا صحيحًا رغم أنها تبدو غير مستخدمة تقريبًا. ومن هذا المكان انعطفنا نحو الأرض المرتفعة حيث يمكن إلقاء نظرة جميلة عن بُعد على حلب.

يعتبر سكان حلب خليطًا متعددًا من الأجناس، الجزء الأكبر منهم سوريون بالطبع، إلا أن هناك العديد من الأرمن واليهود والأتراك وعدداً كبيراً متناثرًا من البدو شبه المستقرين والذين يقيمون على الجانب الجنوبي من المدينة في زرائب خربة وقسم منهم في أكواخ وخيم. هناك أيضًا العنصر الأوروبي، الذي يتكون بشكل رئيسي من اليونانيين والإيطاليين مع عدد قليل من الفرنسيين والروس والإنكليز، ويمثل هذه الأمم بشكل رئيسي ممثلين من القنصل، وهؤلاء يقيمون بمعظمهم في حي العزيزية. اللغات المتداولة هي العربية، والتركية، والأرمنية، ولا يتحدث بالعربية المسلمون السوريون فحسب، بل المسيحيين السوريين أيضًا. ويتم التحدث بالتركية بشكل واسع في الأسواق. أما عدد السكان، فقد قُدِّرَتْ له أرقامًا مختلفة. فالكتاب العرب القدامى يحصونهم بأنهم حوالي (٢٥٠٠٠) شخص، بينما قدرهم M.D. Arvieux في عام ١٦٨٢م بأنهم (٢٠٥٠٠) ويقول فان إكمونت في عام ١٧٥٩م بأنهم عموماً (٢٠٠٠٠) ويخبرنا

الدكتور رسل في عام ١٧٩٤ بأنهم (٢٢٥٠٠٠) منهم (٢٥٠٠٠) من المسيحيين و(٥٠٠٠) من اليهود. ويقول محرر "دليل موراي إلى فلسطين" أنه من المحتمل أن جميع هذه الأرقام مبالغ فيها ومن المحتمل أن عدد السكان لا يزيد عن (١٥٠٠٠). ليس هناك إجماعًا حاليًا يمكن الاهتداء به، إلا أن عدد السكان حاليًا يتراوح بين (٧٠٠٠٠-٩٠٠٠٠) منهم (١٦٠٠٠) أو (١٨٠٠٠) ربما يكونون من المسيحيين و(٢٥٠٠) أو (٤٠٠) من اليهود^(١)، ومن غير المحتمل أن المدينة قد شغلت مساحة أكثر من الأرض إذا كان هذا قد حدث فعلاً، كما تشغلها الآن، ويشير فان إكمونت، الذي أعطى بعض الإحصائيات الغربية عن عدد البيوت، التي انتقلت إلى مكان ما، إلى الآتي:

"يقال أن ستمائة رأس غنم يتم ذبحها يوميًا لأغراض اللحم".

يفتخر الحلبيون أو أهالي حلب دائمًا بالكياسة في سلوكهم وتهذيبهم العالي. وهنا ربما يكون صحيحًا في الطبقات العليا للمسلمين، إلا أنه من الصعب تصديق ذلك كونه لا يعدو أن يكون سوى أمرًا سطحيًا فقط في مجتمع يطفئ عليه الفساد الذي يقال أنه يعم جميع الطبقات في كافة أنحاء حلب. قد لا يصادف المسافر الاعتيادي الذي يلتقي الطبقات الدنيا في الأسواق والشوارع بما يتفق وهذا السلوك. يبدو لي من خلال تجربتي واستطيع أن أحكم أن أهالي البلاد ومن جميع الأجناس في حلب هم من النمط الفظ، السيء الخلق، والمخادع. فعند الخروج من مصر، يفقد المرء تحضر الفلاحين المتسم بالابتسام والواقع أنه في كلا المكانين، يتعرض المرء للنظرات وللملاحقة، إلا أنه في حلب هناك عدوانية في طريقة أداء ذلك والتي لا يجدها المرء في مصر. وبالطبع يمكن تفسير ذلك جزئيًا أن منظر الأوروبي هنا هو أمر غير اعتيادي

(١) في زمن بنهامين التودولي (القرن الثاني عشر) كان هناك ١٥٠٠ يهودي، (لؤلؤ).

أكثر. إلا أنه دون شك لا يزال هناك تعصبًا كبيرًا، وكرهية للعادات واللباس الإفرنجي الذي رغم أنه لا يتضح كثيرًا إلا أنه موجود. لا يستطيع أي رجل إنكليزي أن يمر عبر العديد من الشوارع الشرقية في حلب دون أن يواجهه الأطفال بالصياح وترديد كلمة "فرنجي"، وفي إحدى المرات وبينما كنت جالسًا إلى الجانب الشمالي من المدينة بين بعض القبور لرسم تخطيط لها، قامت كثير من الفتيات فجأة بعد أن لاحظوا وصولي برشقي بالحجارة بعد أن كمنوا لمهاجمتي خلف عدد من شواهد الأضرحة، وبالطبع حالما انطلقت وراءهم وفي يدي عصا غليظة من شجر البلوط، تفرقوا، إلا أن هذه القضايا الصغيرة تبين المزاج الكامن للشعب.

يحمل مسلمو حلب دائمًا سمة التعصب وعدم التسامح، حتى في الوقت الحاضر فإنه يقال بشكل شائع إنه لا يستطيع أي أوروبي أن يدخل الجوامع دون إفلات من العقوبة. إلا أن هذه بالطبع حالة عامة للأمور في المدن التركية البعيدة عن خط سير السائح^(١).

ونفس الأمر أيضًا سيحصل في بغداد، حيث منعت من صعود منارة وحيدة كان جامعها قد اختفى. يخبرنا فإن إكمونت حول موضوع التعصب في حلب ما يأتي:

"هناك قصة متداولة هنا بأن تركيًا ثريًا قد قرأ شيئًا من القرآن، لم يكن يفهمه جيدًا، ولكونه يرغب في الاستزادة بالمعرفة، فقد ذهب إلى القاضي يسأله عن معنى ما

(١) وبالطبع لا شيء يحصل غير المتاعب من دخول الجوامع الاعتيادية، إذا كان المسافر حريصًا. فقد دخل السبد تروت دراك إلى الجامع الكبير وبعض الجوامع الأخرى في حلب ويبدو إلى حد ما أنه استطاع الدخول لأنه قد أبلغ مسبقًا أن المسيحيين لا يمكنهم الدخول. ولكن لا يسر الأمر هكذا دون متاعب بالنسبة للمسافر قليل التجربة إذا ما فعل ذلك.

قراة، حيث أجاب القاضي: "تبعني وسوف أشرحها لك". وقاده إلى غرف أخرى وفجأة سل سيفه وقطع راسه". وقصة أخرى: "أن هناك تركيان يلعبان الشطرنج، وقد توقف أحدهما وقتاً طويلاً قبل أن يقوم بالنقلة، وقال له الآخر: "العب، لخطر أبي بكر"، ولأن الأول كان مستغرقاً في التفكير باللعب، ولا يرغب أن يقطع تفكيره شخص آخر، أصدر كلمة سباب متعجلة على أبي بكر، قام رفيقه بإبلاغها للقاضي، واستناداً على هذه الشهادة الصريحة، حكم على هذا الرجل بقطع راسه، وثُفِّد الأمر بموجب ذلك في اليوم التالي".

يخلف المسيحيون الحلبون من جميع الطوائف انطباعاً في نفس الفرد بالفكرة العامة بأنهم "حريصون على مصالحهم الخاصة إلى حد يؤثر على نزاهتهم". ومن بين الأرمين، يمكن مشاهدة حوالي (٢٠٠٠) شخص منهم ذوي ملامح جذابة. يعتبر غالبية المسيحيين هم من اليونانيين، إلا أن هناك أيضاً عدد لا بأس به من المارونيين وبعض السوريين الكاثوليك. وتشكل البعثات الأمريكية جالية بروتستانتية صغيرة في المدينة.

تعتبر الأزياء التي نراها في حلب متعددة، ففي أوساط سكان المدينة ربما يعتبر الطربوش اللباس الأكثر شيوعاً. وله عدة أشكال. فهناك النوع القاسي الذي يكون ارتفاعه أحياناً منافياً للمعقول، مما يضفي على مرتديه مظهرًا مثيرًا للسخرية. وأحياناً يكون لونه أسود بدلاً من الأحمر. يلف عادة حول الطربوش الناعم الذي يركب على الرأس بإحكام، مندبلاً صغيراً كمحاولة لجعله كالعمامة. كذلك تشاهد في حلب العمامة المميزة والأكثر وقاراً، إلا أنها قد فسحت المجال كثيراً إلى الطربوش، وليس عرب الصحراء والقرويون وسكان الريف في كافة أنحاء شمال سوريا، الكوفية، ليست الكوفية الحريرية البهية، المطرزة بالخيوط الذهبية، بل مندبلاً من صنع مانشستر ذو

نموذج بسيط لكن ليس قبيحاً، وهو شائع الاستخدام من الساحل السوري إلى الخليج العربي، حيث توضع بشكل حر على الرأس، (ويكون أسفلها وعلى الرأس مباشرة قلنسوة ضيقة بيضاء) ويتم تثبيت الكوفية بعصابة مزدوجة من وبر الإبل أو الصوف. وتختلف هذه العصابات بشكل كبير. بعضها يكون بشكل لفّة سميكة قاسية كالسحق (العوسج) الألماني بطول ثلاثة أقدام، وبعضها يصنع من خيوط سائبة تجمع بين مسافة وأخرى بخيوط حريرية ذات ألوان زاهية. وقد اشترت مجموعة مختلفة منها من أسواق بغداد وبأسعار ونماذج مختلفة. وألوانها هي الأسود والبني والأبيض، والآخر هو الأكثر روعة فيها.

يشوه الآن عدد كبير من الحلبيين الزي الشرقي المحترم وذلك بارتدائهم معطفاً أسوداً طويلاً قبيحاً مفصلاً على الطراز الأوروبي بدلاً من الجبة أو العباءة التي يجب أن تشكل اللباس الخارجي للتركي أو العربي. ويمثل هذا الزي الذي يشاهده المرء باستمرار مع الطربوش الطويل لدى سكان المدينة في حلب، ارتداداً حزيناً للعمامة المحترمة والجبة للتركي من المدرسة القديمة ويرتدي بعض الأفندية القاطنين في حي العزيزية اللباس الإفرنجي باستثناء الطربوش.

الجو في حلب جميل، جاف، ويثير النشاط، ويقال أن حرارة الصيف غير مفرطة، والشتاء رغم أنه قاسي قليلاً إلا أنه غير شاق، يعتبر الجليد مألوفاً هناك إلا أنه لا يبقى طويلاً. توجد لدى المقيمين الأوروبيين بالطبع مواقف إلا أنني أعتقد أن الأهالي يعتمدون بشكل تام على مجمرة الفحم للتدفئة. وكمعظم المدن في هذا الجزء من آسيا، تمر المدينة بأدوار سيئة من الكوليرا، إذ أنه وبرغم أنها تبدو أنظف من المدن الأخرى في هذا الجزء من تركيا إلا أنه وبنفس الطريقة تكون الشروط الصحية غير فعالة. وتعتبر دون شك حبة حلب أو (حبة العمر) التي تصيب المقيمين في المدينة أحد

الأسباب التي تؤدي إلى زبارة عدد قليل فقط من السياح إلى عاصمة شمال سوريا. لا يقتصر هذا المرض على حلب، فهو ينتشر جنوباً في وادي دجلة والفرات، وينتشر كثيراً في بغداد حيث تسمى هناك (حبة العمر). لقد كتب الكثير عن هذا الموضوع، إلا أنه لا أحد يفهم سبب أو طبيعة المرض، الذي هو بالتأكيد وباء في البلاد. فهو عبارة عن واحدة أو أكثر من القروح المؤلمة المشوهة التي تظهر في حلب في أشهر الشتاء وتبقى لسنة كاملة. لا يوجد علاج لها، رغم أن بعض الأطباء قد اكتشفوا أن هذا المرض يمكن أن ينتقل من جزء من الجسم إلى جزء آخر. وفي حالة الأطفال، الذين يعتبرون أكثر عرضة له، تظهر القروح بشكل عام على الوجه والساقين. لقد شاهدت ستة أو سبعة من الأطفال الأوروبيين وعلى وجوههم ثلاثة أو أربعة من النوب المشوهة وعدد آخر مماثل في الورك بأعلى الفخذين. لا اعتقد أنه من المبالغة القول بأنه توجد على وجوه نصف الأطفال بعمر من خمسة إلى عشرة سنوات في شوارع حلب بثوراً وندباً. قد ينجو الكبار من الأوروبيين الذين يأتون إلى حلب أو يعيشون سنوات دون الإصابة به، ولكن إذا ما هاجمهم المرض، فإنه يكون عادة على الساعد. مع ذلك، ليس هناك قاعدة عامة لذلك، فقد شاهدت سيدات إنكليزيات كن أقمن فترة قصيرة نسبياً قرب الخليج العربي، وهناك "حبّات العمر" على وجوههن. وقد يظهر على المسافرين الذين يمرون بهذه الولاية علامات المرض عند عودتهم إلى أوروبا. لقد جرى إرجاع أصل المرض إلى أسباب مختلفة. فالفكرة التي ترجع السبب إلى الماء الفاسد، فكرة تستحق الاهتمام لو كان المرض يقتصر على حلب. ولكن طالما أن المرض ينتشر بنفس الطريقة في وادي دجلة والفرات ذي المياه العذبة فإنه يمكن استبعاد هذه النظرية. يمكن إرجاع السبب إلى الافتراض بأن سبب المرض هو نوع من الذباب. وقد أخبرني السيد جاكو في الواقع بأن هناك نوعاً من الحشرات واعتقد أنه يظهر في كانون الأول وبعد ذلك بوقت قصير

تظهر علامات المرض بشكل عام. والمرض هو غير معدي وغير خطير! لأنه ذو طبيعة مزعجة مما يستحق بحثاً مستفيضاً.

يقول فان إكمونت: "هناك حديث شائع مفاده أنه إذا جاء شخص ما إلى حلب وهو بحالة صحية جيدة، فإنه سرعان ما يصيبه المرض، ومن الناحية الأخرى، إذا كان فيه مرضاً كامناً، فإنه سرعان ما يكشف عن نفسه".

ربما تكون السمات التي ليست دائماً جميلة من مظاهر العادات والحياة الشرقية واسعة الانتشار في حلب كما هي في المدن الشرقية الأخرى. مع ذلك، في القرن التاسع عشر هذا وفي هذه المدينة الكثيفة السكان والتي لا تبعد سوى سبعين ميلاً عن البحر المتوسط، فقد رايت درويشاً مجنوناً واقفاً يرتجف بكل ما في الكلمة من معنى مقابل سور الجامع في قلب السوق وفي وضوح النهار وتحت انظار السلطات التركية المتنورة، وتتدلى من على كتفيه جدائل سوداء طويلة، ويطلب بصوت متهدج الصدقات من العابرين. يشاهد عدد من الأفراد مثل هذه الشخصية في الأسواق حتى الوقت الحاضر. وما هو غريب، يبدو أن إحدى أيام الاحتفالات في حلب هو يوم الأحد. إنه بالطبع عطلة المسيحيين، وينتهاز المسلمون هذه الفرصة للقاء بأصدقائهم المسيحيين لغرض الدردشة. ففي أيام الأحد تزدهم المقاهي قرب مدخل المدينة بمدخني النارجيلة وتزدحم الطرق بكافة أجناس البشر. ومن بين هذا الخليط المزدهم، لا يشاهد المرء، مع الأسف، سوى القليل من الأتراك من اتباع المدرسة القديمة. حيث يحتك الأفندية واليونانيون والأرمن واليهود بعضهم ببعض في فوضى وعلى جانبي الطرق تشاهد الشباب من الرجال وهم يعدون على ظهور خيولهم بنشاط، وهذه فكرتهم الوحيدة عن معنى الفروسية. ويشاهد بين الخيول هنا وهناك الجواد العربي الأصيل ولكن معظمها خيولاً من فصيلة رديئة.

الفصل الخامس

على الطريق

بدء الرحيل - البقشيش - جبرين - القرية المزحمة - القسوة في معاملة حيوان القوافل -
السبخ - البحيرة الملحية - الوصول إلى دير حفر - الخان - حديث الدرك - البراغيش - اللخت وإن
نظام السير - خدمي - السحلية المزحمة - لصوص الإغناج البدو - المنظر الأول للفرات - مخيم
منزة - مسكنة - بالس - شيخ فني - أبو هريرة وقلمة جابر - اللقاء بمعرجي - الدرك
التركي - اللور وزبدة اللبن

في صباح يوم ١١ آذار، استيقظت نشيطاً بأمل البدء مبكراً بالرحيل، ولأنه كان
يوم جمعة، فقد أخبرت سائقي البغال، استجابة لطلبهم، بأن أؤخر الرحيل حتى انتهاء
صلاة الظهر، كوني لم أكن أرغب في التدخل بطقوسهم الدينية وسأكون راضياً
تماماً إذا ما كان كل شيء جاهزاً عند الظهر. حفر حجي محمد كبير السائسين أو
(الأكم) الذي اتفقت معه بأن يطبخ لي قليلاً حسبما أريد، وقال لي إن كل شيء
سيكون جاهزاً في هذا الوقت. ولكن بعد الغداء مباشرة، ظهر الكترجي أو (المكاري أو
سائق البغال) وأبدى تجاهله التام لعزمي المباشرة بالرحيل في هذا اليوم. وقد تطوع
أحد كواسي القنصل الذي جاء للاستفسار عن موعد رحيلي، للذهاب مع المكاري
لملاحظة كون التخت والبغال جاهزة سريعاً لغرض الرحيل. أخذت أتمشى بعد ذلك

نحو القنصلية، وعند حوالي الساعة الثانية، وردني خبر بأن الكل جاهزون. أخذ السيد جاكو يتمشى نحو الفندق ليرى بدء رحلتي حيث وجدنا الشارع الضيق مزدحمًا ببغالي وامتعتي. وكان على مسافة قصيرة يقف التخت العائد لي بهيّا بالوانه الأزرق والأحمر ومثبتًا على ظهور اثنين من البغال القوية والنشيطة. عند الساعة الثانية والنصف. كانت جميع امتعتي مربوطة بإحكام بطريقة معينة على ظهور الحيوانات، وعندما كانت تتحرك إلى حيث يوجد التخت، جلب رنين الأجراس الكبيرة للبغال جميع الناس إلى الشارع لمشاهدة رحيل قافلة الإنكليزي. وقد صعد رجل الدرك المرافق لي، والذي كان يجلس تحت حائط مقابل الفندق منذ الساعة الثامنة وهو يدخل السكائر ويتحدث مع حصانه الصغير البدين، على ظهر هذا الحيوان بجهد، ومعه بندقية ومسدسه وحذائه العسكري، وتحرك إلى الأمام، وقد جلبوا لي كرسيًا ووضعوه أمامي لأصعد فوقه نحو عربتي، وبعد مصافحة ودية مع القنصل الكريم، صعدت بعجلة وغادرنا. وقد التحق بنا عدد قليل من سكان المدينة لغاية وصولنا إلى الضواحي وعادوا إلى بيوتهم. لم نكد نصل إلى منطقة خالية من البيوت، حتى ظهر أحد سائقي البغال أمام باب عربتي وطلب بكشيشًا لرئيسه أو الكترجي باشا أو رئيس سائقي البغال. لم أكن أفهم في البداية أن هذا من أجل رئيس سائقي البغال، المقيم في حلب، وبعد أن شاهدنا قد غادرنا الأراضي التي توجد فيها مباني، فإنه الآن على وشك العودة. ربما تكون تلك عادة أن تعطي شيئًا إلى هذا الشخص بهذه المناسبة، إلا أنني لم أكن أعرف شيئًا عن ذلك، لهذا رفضت بشكل تام، وقلت أنني سوف لن ادفع بنسًا واحدًا كبكشيش حتى نصل بغداد. لهذا غادر الكترجي باشا بحنق شديد وبعد أن نظرت من خلال الشباك، لاحظت الحاج محمد يخرج شلتا من جيبه ويعطيه له، بينما كان الكترجي باشا من جانبه يشتم ويسب والقي الشلن في الطين، حيث التقطه محمد واستأنفنا سيرنا.

كان يوماً جميلاً ذا نسيم عليل، ويمتد الطريق عبر سهل فسيح مشابه للسهل الذي وصلنا من خلاله حلب من الجانب الغربي. إلا أنه هنا أقل حصنى وجزءاً منه مزروع. وفي غضون ساعة مررنا على يمين قرية تدعى الدير مبنية من اكواخ مخروطية الشكل تبدو من مسافة كأنها مجموعة من الخلايا. وفي غضون ساعة أخرى وصلنا إلى قرية أخرى مشابهة للأولى تماماً، حيث أصبحت محطة استراحتنا إذ تكون دائماً المرحلة الأولى من الرحلات بهذا الوصف قليلة. لقد شعرت بالسرور في هذه القرية التي يسميها رجالها بجبرين لاكتشاف أن لا توجد فيها غرف أو خان للمبيت لهذا خيمنا في مرج أخضر مربع وسط القرية. يحيط بهذا المرج الربع من ثلاث جهات اكواخ مخروطية بينما كان الجانب الرابع مفتوحاً باستثناء وجود بناية صغيرة ذات فناء وجرس ولها شكل الخان، إلا أن حجي محمد يقول أنها جامع. ورغم وجود عدة منات من هذه الأكواخ، إلا أنه من الصعوبة بمكان أن تشاهد شخصاً واحداً ولم يبدي أي شخص اهتماماً ولو طفيفاً بوصولي، كان هناك بنراً صغيراً في المرج الربع يستخرج منه الماء لاستخدام القوافل.

تم تثبيت حبل بوتد على الأرض لبشكل ثلاثة أضلاع من مربع، حيث ربطت بغالي به لقضاء الليل، وتركنت سروجها الكبيرة فوق ظهورها، لقد أدت هذه العادة السيئة والقاسية بأن تعاني جميع حيوانات القوافل في الشرق بشكل فاحش من قروح في ظهورها نتيجة الأحمال الثقيلة والعمل الشاق وبشكل خاص نتيجة السروج الثقيلة اللعينة التي توضع عليها بطريقة سيئة. من المستحيل أن تقنع سائق البغال أن ينزل هذه السروج ليلاً، لأن هناك عادة ممتدة إلى الماضي البعيد تقضي بترك هذه السروج فوق ظهورها، ومن المستحيل أيضاً إقناعه بأن أي ترتيب آخر هو الأفضل. وجوابهم هو أن لدى هذه الحيوانات قروحاً على ظهورها، وأن نزع سروجها سيجبها بالبرد. وهكذا توجد القروح على ظهورها إلا أنها تعود إلى السروج، فلو تم إنزال هذه السروج من على

ظهورها كل ليلة منذ بداية الرحلة، فإن ظهورها ستصبح أصلب والقروح بطيئة في التكون. وعند اقتراب نهاية الرحلة، أصبحت ظهور بعض بغالي سينة الحظ متقرحة جداً بحيث شعرت بأنني شيطان من القسوة لو واصلت استخدامهن. إلا أنه لا حل لذلك. فليس هناك حيوانات أخرى يمكن شراءها ولا أستطيع أن أقيم مدة أسبوعين في الصحراء لحين تحسنها.

لا يفكر رجال القافلة البتة في هذا الموضوع، فهم معتادون جداً على النظر بحيث أنني اعتقد أنهم لو راوا بغلاً أو حماراً دون قرحة في ظهره، فإنهم يعتقدون أنه صنف جديد من الحيوانات.

تم نصب خيمتي بعد ذلك قرب البغال، وبعد تناولتي لوجبة طعام اقتصادية مؤلفة من الدجاج والخبز والتمور، ذهبت إلى النوم، ورغم الرنين غير المنقطع لأجراس البغال ونباح كلاب القرية، حصلت على نوع من الإغفاءة.

وعند الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي، وعندما كنت أحضر لنفسي كوباً من القهوة، سمعت صوتاً خشناً خارج باب خيمتي يقول، "يا الله، صاحب". كانت هذه إشارة حجي محمد لنا بالرحيل، وبعد أن سمعت ذلك مباشرة بدأت بفك حبال خيمتي استعداداً لتقويضها. وبعد ذلك طويت فراشي في حين هب الرجال لرزم خيمتي وارتشفت قهوتي بينما كانوا يحملون الحيوانات ويربطون التخت الثقيل على البغال. وعند الساعة السادسة والنصف كان الجميع جاهزين وانطلقنا. كان هناك في الليل وابلاً كثيفاً من المطر بينما كان الصباح مليلاً وغائماً، ولكن كان كل شيء يبدو لطيفاً وجميلاً أثناء سيرنا عبر السهل. كان الريف الذي نمر به الآن مشابه إلى مثيله الذي مررنا به في اليوم السابق، وعلى مسافة، استطعنا أن نميز تلال ابلنية منخفضة. كان يتواجد في بعض هذه التلال الاصطناعية التي تميز المواقع الأثرية

القيمة المنتشرة هنا وهناك والقرى المشابهة لسمات قرية جبرين، فطبع من الأبقار أو الأغنام المبقعة، وتمر فيها بشكل عرضي قافلة من الجمال تواصل مسيرها إلى حلب، وطيور كبيرة قليلة تشبه مالك الحزين الضخم، كانت هذه الأشياء هي الوحيدة التي تكسر رتابة الطريق. كان أحد هذه التلال ذا حجم كبير جداً، وهو لا يقل عن حجم تل القلعة في حلب، وعند الساعة العاشرة مررنا بالقرب من قاعدته، وفي الحادية عشرة والنصف عبرنا نهرين صغيرين متجهين نحو الجنوب. وعلى بُعد أميال قليلة على يميننا يوجد منخفض تقع فيه بحيرة الملح التي تسمى السبخ أو كما يسميها رسل سبخة الجبول، وجبول هو اسم القرية التي تقع على حافته. وقد وصف هنري موندرل، القس التابع لمركز حلب في نهاية القرن السابع عشر هذا المكان الغريب في ملحق إحدى كتبه عن الرحلات بقوله: "إنه بعرض مسيرة ساعتين أو ثلاثة وذو مستوى واحد ويبدو من مسافة كأنه بحيرة من المياه.. تجف المياه في حرارة الصيف، وعندما تسفح الشمس الأرض، تتخلف طبقات من الملح، حيث يتم جمعها وتكديسها بأكوام متعددة حسب درجة نقاوتها، بعضها يكون ناصع البياض، وأخرى يشوبها الوحل.. وعلى طول أحد جوانب الوادي باتجاه جبول، هناك شفير صغير بعمق قامة رجلين تكوّن بسبب الاستخراج المستمر للملح من هذا المكان.. في جيبول، يتم الاحتفاظ بمستودعات الملح، حيث تجد كما يمكن أن أقول، جبلاً كبيرة من هذه المادة جاهزة للبيع. وهذا الوادي مقطع باللزعة لصالح سكنور الكبير (Grand Signor) بمبلغ قدره ١٢٠٠ دولار في السنة. واعتقد بأنه يأتي من جيبول جميع الملح الوارد إلى حلب في الوقت الحاضر.

وعند الساعة الثانية والربع وصلنا إلى دير الحفر وهي قرية تقع في أسفل تل انري قديم وفي وسط سهل عبارة عن مرج أخضر ناعم. وإلى الغرب قليلاً من القرية،

هناك دار ذات منظر جميل وبالقرب منها قليل من الأشجار تبدو كالصفصاف. وهذه الدار هي مقر إقامة عدد من أهالي حلب الموسرين. وكانت ترعى نصف دزينة من المهور أمام القرية.

نزلنا في خان بانس، حيث خصصت لي غرفة، كان فيها مفتاح وقفل إلا أنها من جوانب أخرى أسوأ من بيت إنكليزي للأبقار. كانت هناك فراغات في الشبابيك، إلا أن جميع لوازم الغرفة غير موجودة، وكانت تقيم في السقف الخرب والقذر مستعمرة كبيرة لطيور السنونو. إلا أن السكان هناك، كانوا متحضرين وكرماء، وعندما طلبت بعض الحليب، جلب لي قروي شاب ذو وجه حسن شراباً منعشاً رفض أن يأخذ مقابلته أي مال. ونتيجة تحسبي لفطور اليوم التالي، اشترت ببيزا واحدة (٢ بنس) تسع بيضات، حيث جعلت محمد يسلفها جيداً بحضوري في زريبة صغيرة تمثل مطبخاً للخان.

وبعد أن تناولت طعامي، أخذت أتمشى مع "الدرك" المرافق لي حيث تبادلت معه أحاديث قصيرة. كان رجلاً مضحكاً ذو وجه كثيف الزغب، وهو بعلامحه أشبه بقوزاقي منه إلى عربي، ويرتدي كمعظم هؤلاء الرجال زياً نصفه بالي والنصف الآخر مدني. وعلى رأسه بالطبع، الكوفية المعتادة. لقد وجبته رجلاً بسيطاً، نمطاً طيناً من الشباب، إلا أنني لم أفهم من عربيته إلا القليل، حيث بعثرت جميع مفاهيمي التي أعرفها عن هذه اللغة. فهو يلفظ "كثير" بصورة (جتير) و"كلب" بصورة (جلب). إلا أنني قد وجبته بارعاً جداً في استعمال يديه لإفهامي بالإشارات. لقد أخبرني بأنه قد رافق إنكليزياً ومترجمه في هذه البلاد قبل عدة سنوات. كان الإنكليزي رياضياً ورجلاً مدهشاً لأنه اصطاد أربعة خنازير برية بإطلاقه واحدة، حيث مرزت الرصاصه بسرعتها في رؤوس هذه الحيوانات. وأضاف "الدرك" أنه كان لديه كلب صيد أسود

انطلق بسرعة وجلب الصيد. ولغرض توضيح هذه القصة لي، وضع اربع من الحصى الصغير بخط مستقيم ليمثل الخنازير، وركلهما فجأة جميعاً بعصاه ليمثل قتلها في وقت واحد على يد الرياضي.

وعند عودتي، ولعدم وجود شيء آخر يمكن ان افعله، جلست مع غلبوني، اراقب ما يدور في فناء الخان. كانت بغالي الستة مشغولة بعلفها وهي مربوطة بحبال، وكان الفلاحون الخشنو الظهر منشغلين برعاية خيولهم ذات القروح المؤسفة على ظهورها. ومن المطبخ الزريبة، حيث يُعد الطعام البسيط لرجالي، تصاعد دخان اسود كثيف، جعل هواء الفناء مزعجاً اكثر، رغم اني كنت امل ان يفعل هذا الدخان مفعول المخدر لبعض الحشرات التي اتوقع ان تكون في غرفتي. وعندما دخلت الغرفة في الليل، وجدت ان ظنوني كانت صحيحة، ولم اكّد استلقي لمدة لا تزيد عن عشرة دقائق حتى كان عليّ النهوض ونشر بودرة كيتنكر المضادة للحشرات بالجملة. لم اجد هذه البودرة فعالة جداً وقضيت ليلة دون نوم. وفي الواقع، لم انظف فراشي من هذه الحشرات طيلة فترة اسبوع تقريباً، وباستثناء ليلتين في مدينة الدير، لم اتم في خيمتي طول الفترة المتبقية من رحلتي إلى بغداد.

قبل ان اواصل الحديث عن رحلتي، قد يبدو من الممتع ان اعطي وصفاً للتخت روان العائد لي ونظام السفر الذي حظيت به. التخت روان هو عبارة عن صندوق مربع الشكل بطول ستة اقدام وبعرض ثلاثة اقدام وتسع إنجات. مصبوغ باللون الأزرق باستثناء السقف، حيث كان احمرًا. فيه شبابيك زجاجية من جميع الجهات تحميها من الخارج قضبان حديدية نحيفة، ضرورية للغاية عندما يشق المرء طريقه عبر اشجار الطرفاء الخفيفة على حافة النهر وفيه بابين، باب واحد في كل جانب. وفي الداخل عند الطرف الذي يلي البغل الرئيسي، هناك رف، يمكن وضع التبغ او وجبة خفيفة او

كتاب أو كتابين عليه، وأسفل الرف هناك فراغ كاف يمكن وضع سلة أو حقيبة فيه. وفي كل طرف من الخارج هناك زوج من الأعمدة تنتهي بحلقات كبيرة. تكون البغال التي تحمل التخت مزودة بسروج كبيرة، هناك في كل جانب منه كلاًباً كبيراً. لغرض وضع التخت على الحيوان، يتم رفع التخت من قبل اثنين من الرجال ويوضع الحيوان بين العمودين وتلقى الحلقات في الكلايب، وهكذا يتم تعليقه. ثم تثبيته بعد ذلك بحبل مربوط في أحد الأعمدة ويمر فوق السرج ويربط بالعمود المقابل بإحكام.

جرى صنع التخت بمتانة عالية وصلابة سخيفة ووزن قاسي على هذه الحيوانات المسكينة. إن تصميمه ليس سيئاً. إلا أنه يمكن صناعة عربية مشابهة وبنفس المتانة ولكن بنصف هذا الوزن.

كان نظام اليوم كالتالي، عند بزوغ أول بصيص للفجر، يوقظني حجي محمد، وأثناء إعدادي لقهوتي أو لشراب الكاكاو، تقوض الخيمة، ويطوى الفراش، ويرزم كل شيء على ظهور البغال، يعلق التخت بعد ذلك، ثم يقدم الحجي لي ركبته كي أصعد إلى داخل التخت ثم ننطلق وقت أول بزوغ للشمس بصورة عامة. وفي الداخل، أحاول أن اتخذ وضعا مريحاً قدر الإمكان طيلة النهار. وُضع على أرضية التخت لحافاً محشواً كي تكون الأرضية أكثر يسراً، وعند ظهري كانت هناك لفّة فراشي. كانت معي أيضاً حقيبتَي الكلاوستونية وفيها بعض دفاتر الملاحظات والكتب. من الضروري بالطبع موازنة التخت، كي لا يكون الوزن الأكبر على أحد جوانبه دون الآخر بشكل غير منتظم. وبعد اتخاذي لوضع الجلوس المريح، أنهى إفطاري المكون من الخبز والبيض المسلوق وربما التمر أيضاً، ثم أضمت نفسي إلى ركبي التماساً للدفع ومعني غليونتي ودفتر ملاحظاتي، وبين القراءة والكتابة وربما الإغفاءة، ارتاح قليلاً حتى الساعة

العاشرة أو الحادية عشرة عندما أخرج لأتمشى لساعتين. وعندما أعود، أفتح سرتي وأتناول غدائي من لحم الدجاج البارد (إذا كان لدي منه شيئاً) والكثير من التمر. وفي وقت معين بعد الظهر، بحدود الواحدة أو الثانية بشكل عام، نصل إلى مكان نصب خيامنا حيث تنشر وتنصب الخيمة، وبعد أخذ حمام بارد في ماء الفرات المضطرب أتمشى قليلاً قبل العشاء، الذي أتناوله بحدود الساعة الخامسة، يتكون عشاءي الذي يطبخه موضع الثقة الحجي، من الرز أو الشعيرية والخبز والتمر والدجاج إذا كان لدي شيئاً منه. لقد استطعت الحصول على النعيم الأخير أي لحم الدجاج خمس أو ست مرات خلال الرحلة، ففي هذه المناسبات بشكل عام، أشتري اثنين أو ثلاثة وأطبخها جميعاً مرة واحدة. وبعد العشاء، ادخلت غليونتي ثم أذهب إلى فراشي بحدود الساعة السابعة والنصف أو الثامنة.

إن حركة التخت ليست سيئة كما قد يتصور البعض. من المؤكد أنه يتمايل إلى حد كبير (حيث يشعر الأوروبيون الذين يصعدون فيه لأول مرة أحياناً بدوار البحر) لكن باستثناء السير على أرض وعرة، ليس هنالك ذلك الارتجاج الذي يحصل في العربات ذات العجلات، ولكون المرء يستطيع أن يستلقي فيه بكامل طولهِ فإنه يكون مريحاً أكثر. ورغم وزنه الكبير إلا أن البغال لم تعثر مطلقاً ولكن عند عبور الأنهار أو صعود المنحدرات الحادة فإن الارتجاج يكون سيئاً للغاية. وإذا كان الطقس حاراً، فإنني أفتح الأبواب والشبابيك وأسحب الستائر، وإذا كان بارداً، كما يحصل ذلك أحياناً في بداية الصباح، فإنني أغطي نفسي ببطار غليظ وأغلق جميع الأبواب والشبابيك. أما نظام السير فهو الآتي، تسير البغال الأربعة التي لا تحمل التخت بل امتعتي الثقيلة وأكياس العلف في المقدمة بأعنتها المزينة بالقواقع والأصداف الصفراء المخيطة عليها بأشكال معينة. كان هناك بغلاً رمادياً صغيراً يسير دائماً خلال الأسبوع الأول من الرحلة في مقدمة الجميع بمسافة مائة ياردة. وإذا ما سبقه الآخرون، فإنه ينطلق بهرولة

لاستعادة اسبقيته على الجميع، إلا ان المسكين الصغير قد اكتشف حماقة ما يقوم به، وفي غضون عشرة أيام كان متروياً كباقي الحيوانات. لا تتبع البغال الحملة بالامتعة اي نوع من الأنظمة وغالباً ما تتجه إلى مسافة معينة يمينا أو يساراً عندما تشاهد بقعة جميلة من العشب لتلتقطها. ثم يأتي واجب سائق البغال لحثها على الإسراع. عادة ما يمتطي هذا الشخص حملاً صغيراً ينظم سرعته واتجاه سيره باستخدام إبرة رزم كبيرة يحملها معه متدلية من حزامه. ويعتبر مهماز إبرة الرزم هنا شائع الاستخدام جداً لدى سائقي البغال والحيوانات الأخرى في تركيا، وقد يبدو استخدامه لهذا الغرض فيه شيء من الوحشية للوهلة الأولى بالنسبة لنا. ومن المؤكد انها ليست أكثر من مهماز أو منخس ولا استطيع القول انني قد رايتها استخدمت بشكل مفرط. لا ريب ان شيئاً من هذا القبيل ضروري لدفع الحيوانات المتعبة لتلحق بالقافلة.

بعد ان تصل البغال وسائقها إلى "عربتي الرسمية" بكل فخامتها، يتقدم السائسين إلى مقربة من رؤوس البغال حيث يقوم "الدرك" المرافق لي بإنهاء العملية وهو ينفث سيكارته متلفعاً بعباءة وشال كما لو انه في المناطق القطبية الشمالية.

ربما تكون شخصية وزلي رحالي مثيرة لبعض من الاهتمام. فبخيت، سائق البغال هو رجل نحيل إلا انه قوي ووسيم من الطراز العربي الخالص، الذي ربما لم يتخلى أسلافه عن الحياة البدوية للصحراء منذ زمن طويل. وبشكل عام هو رجل طيب جداً وراضي عن مهنته ككترجي قوافل (مكاري)، ولكن كما هي الحالة دائماً عند السفر مع خدم من العرب، فإن الرئيس هو الذي يخلق كل المشاكل. كان يرتدي كوفية هي عبارة عن منديل من صنع مانشستر بلون وردي وأبيض، مثبتة على الراس بعصابة بنية داكنة (عكال)، ويرتدي أيضاً قميصاً أزرقاً مفتوحاً من الأمام من جهة الصدر ومثبت عند الخصر حيث تتدلى منه سكبنا وإبرة الرزم، للقميص اكمام تمتد

إلى الرسغ وتحت قميص داخلي بني. وعلى هذا القميص الأزرق، يرتدي بخت سرة حمراء جميلة مفتوحة على طولها من الأمام وتصل إلى الركب. أكماء هذه السرة قصيرة تصل إلى المرفق فقط، وهي مطرزة بشكل رائع بخطوط من الألوان الأصفر والأبيض والأزرق والأخضر. كان لون الجانب الداخلي من هذه السرة المقابل للجسم أبيضاً. وهناك تطريز مشابه أيضاً على ظهر هذا الرداء يمتد إلى الأسفل ليصل إلى نقطة معينة، وكذلك على الصدر أيضاً على شكل اشربة تمتد إلى الأسفل. ويكمل هذا الزي الرائع زوج من الأحذية الحمراء الكبيرة.

إن اسم بخت هو تصغير لـ (بخت) وتعني (الحظ الصغير أو القليل) ولا أستطيع القول إن هذا الاسم ينطبق تماماً على سائق البغال هذا.

كان حجي محمد، كبير السائسين وخادمي الخاص، رقيقاً ممتازاً. له ملامح طفولية تنم عن الصراحة والشرف، شرف الشرقي في كل مجال. لديه شجاعة الأسود وتحمل بغل من بغاله. كان فخوراً جداً بكونه قد زار مكة، وهو في الواقع رحالة كبير، يعرف جيداً جميع طرق القوافل في تركيا وفي آسيا. لقد خدمني بإخلاص طيلة الأسابيع الثلاثة ولم يخذعني مطلقاً بأكثر من خلطه للرز العائد لي الذي كان ذا نوعية جيدة بالرز العائد لهم ذي النوعية الرديئة لإعداد وجبة (بيلاف) كبيرة وإعطائي حصتي من هذا الخلط. لهذا إن أفعال حجي محمد وجميع ما قام به تستحق كتابته في الفصول التالية لأنها تكشف عن جزء من رحلتي إلى بغداد. يتكون لباس حجي محمد من ملابس داخلية مشابهة إلى ملابس بخت. وسرته بنية ذات أكماء مطرزة وفيها اشربة بيضاء وزركشة حمراء. والتطريز الذي عليها أكثر غزارة من تطريز سرة سائق البغال. وأمام كل كتف من اكتافها ثلاثة أشكال صغيرة على شكل وردة باللون الأحمر وأصفر وأزرق وأسفلها تماماً ثلاثة أخرى مشابهة لها. وهو

يرتدي أيضاً سروال داخلي أزرق طويل تدخل أطرافه السفلى بجوارب زرقاء مطرزة بلبس عليها الخف الأحمر المعتاد. كما بلبس كوفية زرقاء وعقالاً أبيضاً.

كان حمادي، مساعد السائس عربياً صغيراً بسيطاً مسلماً، وميزته الحسنة إذا كانت تلك ميزة حسنة هي جزله المستمر الذي يدفعه دائماً إلى الانطلاق بأغنية تطوعية. وتسبب هذه الأغنية التطوعية التي تثير دون شك في نفس كل من يفهمها عاطفة رقيقة عميقة إلى حد ما في بعض الأحيان إزعاجاً لي كونها تتواصل دون انقطاع على مدى ساعات الليل والنهار. لا يبالي حمادي إذا ما مشى تحت حرارة الشمس اللافتحة وسط الصحراء لثمان أو تسع ساعات، ثم يجلس بعد ذلك طيلة الليل أمام نار المخيم ويسلي رفاقه بأغانيه الطرية والمبهجة والتي يبدو لي أنها تمتد من شروق الشمس إلى غروبها. وهو يرتدي ستره بنية غامقة فيها خط أخضر في الباقة مع شريط أزرق يمتد إلى أسفل خط الالتحام على الكتف. وهناك أيضاً اشربة بيضاء في المقدمة تمتد إلى الأسفل أمام الأكتاف وتحت الذراعين. وهو يرتدي أيضاً قميصاً أسوداً وسروالاً أبيضاً وكوفية تشبه كوفية بخيت.

كان الصباح الذي غادرت فيه دهر الحضر مثاليًا. فالسهل كان زاهياً بأعشاب ذات زهر أصفر (الحونان)، وتؤدي القبترات ترنيمات جميلة بينما تثب السحالي النشيطة في كل الاتجاهات على المرج. وحالاً اجتزنا القرية، عبرنا نهراً صغيراً وبعد ساعتين دخلنا في سهل تمت زراعة قطع صغيرة فقط منه. وبعد ذلك بوقت قصير، مررنا بجانب تلال كبيرة يسميها (الدرك) المرافق لي ب (مادوم). ثم تتضاءل الأراضي المزروعة شيئاً فشيئاً حتى نجتازها جميعها ندخل في سهل شعبي متموج قليلاً، الذي هو في الحقيقة الركن الشمالي لما يسمى بشكل عام ب (الصحراء السورية).

وبينما كنت أتمشى صباحاً كالعتاد، نخست بعصاي زاحفاً رامادياً صغيراً، كنت أعتقد من خلال الوضع الذي يتخذه أنه ميت. كانت سحلية صغيرة بطول حوالي ستة إنجات وذنوب كذئب الجرد وسيقان طويلة إلى حد ما وقم ذو عرض كبير قياساً بحجم الحيوان^(١). ولدهشتي الكبيرة، فإنه بدلاً من أن يسرع للدخول في مغارته، فإنه استدار وأخذ يهاجم عصاي بحنق شديد، ويقفز بوثبات طائفة بارتفاع ستة إنجات وهو بعض في كل مرة الحلقة المعدنية المطوقة لطرف العصا، ويتوقف لثانية على الأكثر بين كل وثبة وأخرى. وإذا ما رفعت طرف العصا بعيداً بحيث لا يتمكن من الوصول إليه، فإنه يجثم محملاً بغضب، وينتظر حتى أقرب منه العصا، كي يثب عليها. وبعد أن وجد أنه لم يؤثر على العصا، استدار على حذائي. إن إقدام هذا الحيوان الصغير هو حقاً لافت للنظر، وقد حاولت تصويره بآلة التصوير اليدوية التي أحملها، إلا أن النتيجة كانت فاشلة.

وبعد ذلك ظهر فجأة ثلاثة من البدو على قمة تل، يركضون بأقصى طاقتهم وبحالة شديدة من الهياج. قالوا شيئاً معيناً لرجالي ثم مضوا. وبعد ذلك مباشرة رأينا شيئاً اسوداً ملقى على السهل، وبعد أن ركض حجي محمد باتجاهه، عاد إلينا سريعاً بحمل جميل جرى نبحه تواء. كان الرجال الذين مرّوا علينا هم من لصوص الأغنام الذين تمت مباغتتهم وهم متلبسين بالجرم المشهود. قام رجالي، (سائق البغال والدرك) بمتابعتهم في الحال، وبعد ذلك بوقت قصير عادوا ومعهم المتهم الذي ارتكب الفعل. كان شاباً عربياً وسيماً بعمر الثامنة عشرة الذي يشير قميصه الأبيض الرث وجدائله المظفورة أنه أحد أفراد قبيلة بدوية صغيرة تقوم بأعمال السلب. كان وجهه ويداؤه وملابسه ملطخة بدم الحمل. وعندما جلبوه إلى التخت حيث أجلس، انفجر بفيض من

(١) الظاهر أنه من صنف أبو بريص، (لؤلؤف).

الدموع، حيث كان يظن اني سأصدر الأمر بإعدامه فوراً. بعد ذلك ذهبنا إلى الفلاح الذي تعرضت قطعانه إلى السرقة، وسلمناه المتهم وغنيمته في يديه. كانت هذه المرة الأولى التي رايت فيه أساليب وعادات الصحراء.

وعند الظهيرة، القينا أول نظرة على الفرات الكبير، وبعد صعودنا ومرورنا على بعض المرتفعات، وصلنا بعد نصف ساعة إلى الوادي الكبير. يتميز خط الحدود الفاصل هنا بين الصحراء التي قطعناها ووادي النهر الذي وصلنا إليه تواء، بوجود سلسلة من المنحدرات الطباشيرية، التي لا تعتبر بشكل عام شديدة الانحدار. يتراوح عرض السهل الذي نقف عليه من المنحدرات إلى النهر من ميلين إلى ميلين ونصف الميل، وهو مغطى على مدى البصر بالخيام السوداء وقطعان الأغنام والجمال والخيول التي تعود إلى القبيلة العربية الكبيرة عنزة، التي وصلت مؤخراً قادمة من مضاربها الشتوية في الجزيرة العربية للانتشار في مراعيها الصيفية في الصحراء جنوب وشرق حلب. كان المنظر بالتأكيد مؤثراً للغاية، وهو يذكر بشكل حي بمشاهد ومقاطع من العهد القديم. وبعد نزولنا إلى السهل، سرنا على طول، محتفظين بقربنا من المنحدرات وبجوار مخيم عنزة الكبير. انطلق (الدرك) بعدو سريع نحو إحدى الخيام، وعاد إلينا سريعاً بوعاء كبير من الحليب الطازج، يكفي لكل مجموعتي. كان هذا ترحيب العرب بقدمي إلى النهر الكبير. وبالطبع، لم يطلبوا أي مقابل، وإذا ما تم عرضه عليهم فإن عنزة سوف لن تأخذه، تعتبر عنزة أقوى قبيلة إلى حد بعيد بين وادي الرافدين وسوريا وتعتبر غاية الكرم^(١). كان العديد منهم يعدون على ظهور خيولهم وبأيديهم عصي من الخيزران بطول (١٥) قدم، وهم أفراد سمر نحيلين لكن أقوياء ذوي جداول سوداء مظفورة. وقد

(١) للحصول على المزيد من المعلومات كثيرة عن عرب عنزة وبقية القبائل في وادي الرافدين والبلاد العربية الغاضبة للأتراك، انظر القبائل البدوية في وادي الفرات للسيدة أن بلنت. تقدر السيدة بلنت أن عدد أفراد عنزة يبلغ (٣٠٠٠٠) خيمة أو (١٢٠٠٠٠) شخص.

لاحظت بعض الطيور الكبيرة التي تحلق حولنا ويبدو لي انها نوارس. ولا اعلم فيما إذا كانت هذه الطيور قد جاءت من البحر المتوسط أم صعدت على طول النهر من الخليج، وتلك قصة غريبة.

وبعد ذلك مباشرة، انعطفنا على ركن منحدر لنجد أنفسنا على مقربة من عدة مباني يسميها رجالي (مسكنة) حيث قالوا أن فيها خانا وحصنا صغيرا يتمركز فيه عدد قليل من الجنود أو الشرطة، تقع مسكنة بالقرب من النهر وتعتبر الميناء المفترض لحلب إذا ما افتتح خط ملاحي في النهر. يقول رجالي، أن عليّ إما الذهاب إلى الخان أو أن اضرب خيامي بالقرب من النهر. وقد اخترت الخيار الثاني، وسرعان ما تم نصب خيمتي على بُعد ربع ميل تقريبًا من الفرات وبالقرب من خيمتين عربيتين تعودان لقبيلة رعوية. وبعد كوب من القهوة وحمام، أخذت أتمشى على ضفة النهر. يبدو لي أن عرض النهر هنا لا يزيد عن نصف ميل، والتيار سريع جدًا، والماء شديد الاضطراب. هذه هي حالة دجلة والفرات على امتداد جريانهما في السهل العظيم. لقد وجبت الماء عذبا، ولكن لكي تحصل على شيء صاف منه، من الضروري إخراجه وتركه لبعض الوقت قبل الاستعمال. واعتقد أنه سترسب من الوحل الأسمر الناعم كمية تملأ ثمن إنج في قدح. وأسفل المكان الذي أقف فيه، يمتد لسان بري يقلل من عرض النهر إلى النصف. لا توجد منحدرات في هذا الموقع في جانب بلاد وادي الرافدين، بل إن الأرض مستوية قرب النهر وتعود لتموج بعد ذلك. ويمكن مشاهدة سلسلة من التلال على خط مستقيم. وأثناء ما كنت واقفا أنظر إلى النهر، قدم راع شاب لإرواء قطعانه. ليس لديه كلب، بل كان يتمشى أمام حيواناته وهي خلفه تتبعه ويوجه تحركاتها بأصوات مختلفة يبدو أنها تفهمها. حاولت أن أتحدث معه، ووجبتة يريد معرفة الأمة التي أنتمي إليها وإلى أين أتجه. وقد أخبرني حسبما استطعت أن أفهم أنه من قبيلة فلاحية تدعى شاهر، وهو اسم لم أجده في قائمة السيدة بلنت للعشائر.

اشترت بعض البيض والحليب من رجل من الخيمتين المجاورتين. وفي المساء نهضت فجأة على صوت شجار كبير خارج خيمتي بين رجالي وهذا الرجل وزوجته وابنه. انطلقت إليهم ووجدت بخيت مربعا منفرج الساقين على الفتى سبي الحظ وهو يوالي ضربه كالبأخرة، في حين يومئ الرجل وزوجته إلي ويصرخان ويستغيثان طلبا للعدل. تبدو المعركة والقتل والموت المفاجئ على وشك الحدوث، وتدخلت بموجب ذلك. كان النزاع حول سعر البيض، ولكنني لم أستطع أن أقدم أو أؤخر شيئا في الموضوع، وكنت مسرورا عندما أخذ الشجار يهدم وقام العرب بالرحيل.

وفي اليوم التالي اجتزنا بعد ساعة من بداية السير، آثار باليس او قلعة باليس التي تبدو بارزة على قمة المنحدر. كل ما استطعت أن أراه من على مسافة ميل تقريبا هو قلعة عالية ومنارة عربية مئمنة مهيبة. كانت باليس في السابق مكانا مهما وميناءا لسوريا (وهي نفسها "باربار ييوس" في زمن بطليموس و"بارباليسوس" في الواح ثيودوروس). ويقال أن السهل المحيط بها هو جنيحة او متنزه المرزبان الفارسي لباليس التي دمرها ساهروس الأصغر. ويعينها بنيامين التودو لي بأنها (بيثور او يثورا) المذكورة في سفر العدد وسفر التثنية، وعندما زارها في عام ١١٦٢م، كانت تضم عشرة من اليهود. وقد فتح الصليبيون بقيادة تانكرد المدينة في عام ١١٨٨م. والآثار الموجودة حاليا هي عبارة عن مزيج من البناء الروماني والعربي. يجري النهر الآن على بُعد بضعة أميال من المنحدرات التي تقع عليها هذه الآثار، ولكن من الواضح أن قاعدة هذه الأرض المرتفعة كان يغسلها في زمن ما النهر أو الأكثر احتمالا كما يرى إينسورث فرعًا من النهر، يرتبط ثانياة بالمجرى الرئيسي للنهر في نقطة تقع إلى الجنوب من ذلك. وعلى هذه الأرض للمستوية، شاهدت آثار عدة قنوات قديمة.

وبعد اجتيازنا لبالبس، سرنا على طول السهل، أحيانا تحت المنحدرات الطباشيرية مباشرة وأحيانا أخرى على مسافة بعيدة منها. شاهدت على قمة المنحدرات طبقة من الحصى القاسي أو الصخور المشظاة، وفي موقع أو موقعين من سطح المنحدر هناك حفريات لها مظهر القبور القديمة. كانت هناك طيور عديدة - كالغربان والصقور الكبيرة ونسر أو نسرين - ترفرف حولنا أو تحط غالباً قرب القمة. يوجد في السهل الذي نسير عليه أعداد كبيرة من الشجيرات الخفيفة كنبات الطرفاء الذي سارى منه الكثير قبل أن أصل إلى مقصدي. وبعد حوالي ثلاث ساعات ونصف، اختفت المنحدرات وحل محلها ارتفاع طفيف للسهل الذي يجري فيه النهر عن الأرض الصحراوية. وهنا تركنا النهر، وبعد قطع مسافة من الصحراء لتفادي انحناء النهر، دخلنا ثانية إلى الوادي وبعد ذلك بوقت قصير ضربنا خيامنا لقضاء الليل في مكان رائع بجانب تل قديم يسمى الشيخ غني ومقابل جزيرة تقسم النهر وتظللها شجيرات خفيفة.

وفي أعلى التل أقام حصن من الطين بنته الحكومة التركية ووضعت فيه عدد قليل من الشرطة أو الجنود، إلا أن هؤلاء أخذوا يشغلون خيمة قرب قاعدة التل. وقد أشار لي الرجل الكبير المكلف بالاعتناء بالمكان من على قمة التل للنظر نحو قلعة جابر، وهي قلعة ومنارة تكمل رأساً برزاً شديد الانحدار في الجانب المقابل من النهر وتقع هذه على بُعد مسافة شرق الشيخ غني، ويجري النهر هنا بذلك الاتجاه وقال لي أنه على الضفة اليمنى خلف بعض المنحدرات يقع أثر أبو هريرة. وقد اشترت من هذا الرجل الوقور حملاً قدمته لرجالي، حيث جهز لي حجي محمد منه عشاءاً مناسباً من الرز ورأس الحمل (وهو وجبة طعام شهية بنظر العرب). أخذ الجو يتغير في الحال، فكان النهار دافئاً والمساء الآن جميلاً. وكان القمر عند ارتفاعه ذا لون برتقالي عميق ويظهر مشوه الشكل بشكل غريب، وعندما كان يرتفع تدريجياً ملقياً بظلاله القائمة على

تلال الصحراء ومنيرًا النهر الهادئ، كان المنظر جميلاً ومهيباً إلى حد غريب. كان الصوت الوحيد المسموع هو العواء الكئيب لمئات من أبناء أوى في الجزيرة على الضفة المقابلة وصوت الغوص المتكرر لسمكة كبيرة في النهر. لقد مرّ وقت طويل منذ أن تركنا مخيم عنزة، والآن تعتبر العلامة الوحيدة للحياة البرية إضافة إلى مخيمي الصغير، هما الخيمتين المنصوبتين قرب قاعدة التل.

وفي الصباح التالي، بعد نوم ليلة هادئة، غادرنا في الساعة السادسة نشق طريقنا عبر سهل مزروع هنا وهناك على شكل قطع متفرقة. وبعد مسيرة ساعة، وصلنا ثانية إلى منحدرات هي الآن من الجبس والمرل (طين غني بكاربونات الكالسيوم)، يُشاهد على قممتها برحاً مستديراً، ربما يكون الأثر الوحيد المتبقي من جامع مهدّم، وأعلى منه قليلاً هناك اثر آخر. وهذا الموقع هو أبو هريرة الذي رأبته في اليوم السابق من منطقة الشيخ غنى. ربما تكون الزراعة التي رآيتها من أعمال (ولد العرب) كما يذكر إينسورث. إلا أن السيدة آن بلنت قد شاهدت هنا آثار أكواخ طينية، بنيت على أنها من أعمال أحد الباشوات الرواد الذين أرادوا حث بعض أفراد عنزة للتوطن هنا كفلاحين. ويبدو أن التجربة قد فشلت.

وفي خلال نصف ساعة، سررت بإلقاء نظرة على القلعة الجميلة المسماة قلعة جابر على الجانب الواقع في بلاد وادي الرافدين. لهذا الأثر، مظهر لافت للنظر فهو يحتمل منحدرًا منعزلاً مربع الشكل كما قد أراه، بينما يكون الجانب المقابل إلى النهر شديد الانحدار عند القمة. تعلو المنارة العالية فوق التحصينات وتقع بين قاعدة المنحدر والنهر غابة من الأشجار الخفيفة.

لقد ذكر كل من بنيامين التودولي عام ١١٦٢م وأبو الفداء في القرن الرابع عشر قلعة جابر. ويبدو أيضاً أنها ذكرت بتواريخ متعددة بأسماء مثل دوسر ودوسرا من

قبل (ستيفن البيزنطي) ودوسوس وداباناس. لقد ارتبطت عدة أحداث تاريخية بهذا المكان، وبذكر إينسورث أن هذه المقاطعة تضم قلعة جابر واثر أبي جابر القريب منها ودير الحارز (الذي يذكره بنيامين التودولي باسم سبلا ملبارا ويصفه بأنه يضم في زمنه ٢٠٠٠ من اليهود) وأبي هريرة الذي كان في وقت معين مركزاً لتجمع سكاني كبير.

وبعد انعطافنا حول قاعدة هذه المنحدرات، دخلنا إلى الصحراء تاركين النهر بنزولنا إلى وادي فسيح، والواضح أنه كان في أوقات معينة مجرى لسيول جارفة، وأثناء مروري في هذا المكان، شاهدت ركانز حجرية مستديرة وشبه مستديرة كالتى نصادفها في الأرياف التي تكثر فيها المستنقعات بشمال إنكلترا أو اعتقد أن عمرها يمتد إلى عصور سحيقة في القدم. من غير المحتمل أن تكون هذه الركانز ذات أصل عربي، ولكن عمرها واستخدامها مسألة تقديرية. ثم مررنا عبر ركن من الصحراء، والذي كان صخرًا ووعرًا جدًا وهناك القليل من الشجيرات النامية فيه وفي غضون ساعة ونصف عدنا ثانية إلى السهل الذي يمر به النهر حيث حصلنا ثانية على الحليب بكرم من مخيم لبعض العرب الذين يدعون أنفسهم بعرب (الرايح). فهناك عدد كبير جدًا من الأغنام حول خيامهم، إلا أننا لم نشاهد أي خيول.

كنا نمر خلال النهار بين الحين والآخر بعدد قليل من القرويين. وقد حيا رجالى الثلاثة بحرارة أحد الرجال الذي كان يرافق مجموعة صغيرة من الرجال مع بغال قليلة، ويبدو أن هذه المجموعة هي عبارة عن مسافرين متجهين إلى حلب، حيث عانقوه رجالى وقبلوه على خديه مخاطبين إياه على أنه عمهم. وهو يشبههم من حيث أنه عربي يعمل مع القوافل، وهو من أهالي بغداد. وبالقرب من هذا المكان، رأيت على الجهة اليمنى على أرض مرتفعة، رجلين يبدو لي من خلال زيهما أنهما من الأوروبيين.

ولسوء الحظ، كنت أسير في جزء سبى من الطريق بحيث لا أستطيع أن أترجل عن تختي أو حتى إيقافه، لهذا تركناهم خلفنا في الحال. على أية حال، علي أن اعترف بأنني قد ارتكبت خطأ إذ أنني لم التقى بأي قافلة على الطريق.

يقع الجزء الأخير من مسير هذا اليوم في أرض صخرية وعرة حيث يمتد الطريق عبر روابي وتلال تكسر استواء الصحراء عند حافة السهل النهري. إن السير بتخت على هذا النوع من الأرض يعتبر أمراً غير سار، حيث يتدحرج شاغله سبى الحظ بلقطة واحدة إلى مؤخرة العربة، ثم تجده بلقطة أخرى ينزلق إلى الأمام بقوة عندما تصعد البغال مرتفعاً صغيراً وتنزل من منحدر حاد على الجانب المقابل. ويشبه تناول الغذاء داخل التخت تحت مثل هذه الظروف تناوله والراء يسير في خليج بسكاي باستثناء أنه لا توجد في التخت أدوات لوقاية الأواني من الانزلاق عن المائدة كما هي في السفن. وعند الساعة الواحدة والنصف، تم نصب خيمتي في مكان جميل بالقرب من النهر يسمى (الحمام) رغم أننا لم نشاهد أمامنا لا خيمة ولا بناءة من أي نوع. تأخذ الأرض من هنا بالارتفاع بشكل منتظم بينما تكون حافتها الأخرى الواقعة على مسافة قصيرة من النهر عبارة عن منحدر منخفض. وقد وجدت أثناء تجوالي على الأقدام العديد من أحجار الصوان المصنوعة دون إتقان (ربما تكون من آثار ذلك العصر الحجري للدهش الذي يبدو أنه موجود في كل مكان)، وكانت الأرض مغطاة بازهار السحلب الزرقاء الجميلة وعند عودتي، جاءني (الدرك) جميل الذي رافقني من حلب، قائلاً أنه سوف لن يرافقني خلال ما تبقى من الطريق، وقد جلب لي بديله، وعريف لا أعرف من أين، إلا إذا ظهرت الشرطة التركية في الصحراء كالقفاريت، وقد أثرت اهتمامهم جميعاً بعرض خرائطي ومسدسي أمامهم. يحمل الشرطة أنفسهم مسدسات جيدة رغم أن جميعها من صنع أمريكي. كان الرجل الجديد شيخاً عربياً وسيماً، دون اثر لزي رسمي عليه ويبدو مظهره باستثناء المسدس الذي يحمله أكثر شبهاً بإبراهيم أو هارون منه

برجل شرطة. كانت خزانة حفظ اللحوم العائدة لي فارغة ولا شيء من الدجاج أو اللحم يمكن الحصول عليه في الطريق، لهذا عليّ أن أقنع نفسي بمعلبات سمك السلمون للعشاء. لا شيء في العالم قابل للأكل أكثر بغضاً من معلبات سمك السلمون، إلا أنني أكلت ما استطيعه ثم ضيعت مذاقه بشرب جرعة من اللبن، حيث استطعت لحسن الحظ أن أشتري إناءً منه. يعتبر اللبن شرباً منعشاً ورائعاً بعد مسيرة طويلة في يوم حار. كانت خطتي دائماً أن أشتري إناءً منه قدر المستطاع، وبعد أن أضع جانباً ما يكفي لاحتياجاتي الآنفة، أصب المتبقي منه في مندبل وأعلقه في حبل الخيمة، كي أترك الماء يسيل. والنتيجة تكون حصولي على بديل ممتاز من الزبدة يجعل مذاق الخبز الجاف غير المستساغ والذي تم خبزّه قبل أكثر من أسبوع، مذاقاً لذيذاً مستساغاً. تشكل التمور وزبدة اللبن غذاءً غنياً يليق بملك.

✱

✱

✱

الفصل السادس

تواصل الرحلة

رحيل عرب عنزة - اليهودج - الزي والسلاح - مشاهدة الرقة - العرب على الجلود المنفوخة -
المدير افندي - عويل درويش - زوار غير مرحب بهم - الاسلحماج في المياه العكرة للنهر
وحصول نتائج سيئة - ضرب الخياج في منطقة اللصوص - الوصول الى الدبر - الخان - وصف
المدينة - فقرها - زراعتها - روم - السكان العرب - اهميلها السياسية - ظهور رجل انكليزي -
لقيمه لنفسه ومزياه - جمع وقود الخشب - ظهور شخص يدمى اللون - الصحراء المروعة -
الزوار - وصول الباشا - بطن حجي محمد المنلخة - طلبة ساتقي البغال

لأن مسيرة اليوم التالي هي مسيرة طويلة، لهذا قوضنا مخيمنا وبدانا الرحيل في
الظلام عند الساعة الرابعة والنصف. حاولت ان اعد لنفسي كوبا من القهوة، ولكوني
نصف نائم، فقد قلبته في الظلام على سريري، وحالما غادرنا، ارتدبت معطفي ولففت
بطانية حولي، سرعان ما غططت في النوم ثانية، وبعد استيقاظي من نوم ساعة،
وجدت اننا نسير في جزء مرتفع ومستو من الصحراء. وفي غضون ساعة اخرى دخلنا
الوادي ثانية. وقد سرنا مدة خمس ساعات عبر سهل فاحل وفسيح جدا، وعلى مسافة
معينة على يميننا كانت هناك المنحدرات الكلسية. إلا أن مسيرنا لم يكن مضجرا،
كون السهل يعج بحركة دؤوبة لعنزة وهي ترتحل. حيث تمر من حولنا بتواصل

مجاميع من الخيالة على ظهور خيولها العربية النشيطة وتجري عند كعوب العديد منها مهورها، وهم يحملون على اكتافهم رماحاً، ويسوقون امامهم قطعانا كبيرة من الجمال غير المحملة. ثم تاتي بعد ذلك اثنان أو ثلاثة من الجمال الكبيرة التي تحمل الهودج المثبت على ظهورها كبناء فوقي كبير يشبه عارضة الشراع في السفينة حيث يمكن تركيب واقى من الشمس عليه في الجو الحار، يجلس في هذه الهودج النساء والأطفال. تلبس النساء، والتي يتسم بعضهن بالجمال الفائق، حلقات في انوفهن ويصبغن شفاههن السفلى بلون أزرق غامق أو أسود. وجميعهن غير محجبات. وقد اشبع غروري بالاهتمام الكبير الذي أبدينه بخصوص معداتي الخاصة بالسفر. لم يكن هناك أي تقيد لحريتهن من أي نوع، ورغم أنهن يعشن حياة عمل قاسية بين قطعان الحيوانات، إلا أنهن يشعرن بالسعادة والرضا وفي جميع الأحوال تقريباً كن يتسمن بالبساطة. تعتبر بنية جميع الرجال صغيرة، إلا أنهم نشطاء كالقطط، ولديهم قدرات كبيرة على التحمل. والوانهم في بعض الأحيان سمراء إلى حمر ما، إلا أنه تضيء وجوههم أسنان ذات بياض باهر. ولأنهم لا يستخدمون منظفات الأسنان الخاصة بالحضارة الحديثة وغذاؤهم هو من النشويات إلى حد كبير، من الصعب معرفة كيف يحافظون على مثل هذا الترتيب الجميل، لدى العديد من هؤلاء الرجال جدائل مظفورة طويلة تتدلى على جانبي وجوههم وجميعهم يرتدون كوفية مانشستر. وازياؤهم مختلفة. العديد منهم يرتدي فقط أسماً سوداء قليلة، بينما يمتلك آخرون العباءة البغدادية المطرزة. ويحمل العديد منهم بنادق ذات زناد حصون ومسدسات مثبت عليها نقوش من الفضة وسيوف ذات مقابض كالصليب. وآخرون يحملون فأساً صغيرة غريبة الشكل، لها طرف كالكلاب على الجانب المقابل للشفرة أو النصل أو يحملون قضيباً مكوناً من عصا مستقيمة ذات عقدة ثقيلة من القار المركب على طرفها الذي يضرب به الخصم. ولا يعتبر أي من السلاحين سلاحاً مخيفاً. إلا أن الرمح

يعتبر السمة المميزة للقبيلة العربية الكريمة، بينما يكون انتشار استخدام البندقية بينهم اقل مما هو لدى القبائل الأصغر على ضفاف الفرات.

ورغم انني لم اكن اعلم بذلك، فقد مررنا في وقت معين من هذا الصباح بآثار سورية وهي مدينة (Thipsach) او (Thapsachus) او كما يصفها إينسورث (ممر الموت) ولأن الموقع الذي ضربت فيه خيامي يقع على بُعد عشرين ميلاً شرق قلعة جابر، فقد تصورت أنه نتيجة سيرنا المبكر، لابد أن نمر من امامها قبل أن ينكشف الظلام. يقال أنه لم يبق سوى القليل من هذه المدينة القديمة التي اعطانا السيد إينسورث موجزاً رائعاً عن تاريخها. يقود طريق ذكر في الواح ثيودوس وأوغسطان من (Auranitis) ثم تدمر إلى هذا الموقع، وعلى الجانب الآخر من مخاضة النهر، فإنه يستمر إلى Edessa (اورفه) عن طريق حران (Carrhae). يشير إينسورث إلى السلسلة الغربية من الكوارث التي تلت عبور هذه المخاضة من النهر من قبل العديد من الحملات مثل حملة زوكسيسز الأول وسايروس الصغير وداريوس كودومان، وحملة الإسكندر الكبير نفسه الذي وجد (Nicephorium) الرقة الحالية على مسافة قصيرة إلى الجنوب مع النهر. وسار في إثرهم كراسوس وجوليان وكالريوس وكورديانوس، وفي كل حالة كان يعقب عبور المخاضة عاجلاً أم آجلاً كارثة كبيرة. كان قدراً غريباً، فبعد عبور بعثة وادي الفرات هذا الموقع، تحطمت الباخرة دجلة بإعصار وغرقت وقد فُقد (١٩) شخصاً في هذه الكارثة.

وعند الساعة التاسعة، وصلنا إلى الرقة على جانب بلاد وادي الرافدين من النهر. إنها تقع قرب مصب رافد الفرات المسمى نهر بالك وقد أسسها الإسكندر الكبير باسم (نسفوريوم) وأصبح اسمها كالينيكوس عندما كانت تحت سيطرة الرومان والرقة الاسم الشهير عندما كانت تحت سيطرة المسلمين. كانت حصناً لهارون الرشيد، الذي

بنى هناك قلعة وقصرًا ومباني أخرى. والكان حاليًا هو عبارة عن أطلال ومنذ سنوات قليلة فقط، كان سكانها هم من العرب الذي يعيشون في الخيام. مع ذلك لا تزال أجزاء قليلة من العمارة الشرقية قائمة.

وعندما كنا نسير على امتداد السهل، شاهدت آثار قناة قديمة، وبعد مشاهدتنا للرقعة بوقت قصير، رأينا أمامنا مباشرة تلاً منعزلاً غريبًا، يسميه رجالي (منخر)، وهو مؤشر في خارطة كبرت بأنه (تل المناخر) ويقع على الجانب المقابل من النهر. ولأنه منعزل تمامًا ويتمتع بارتفاع أعلى مما يجاوره، فإنه يشكل معلمًا بارزًا على بُعد أميال للمسافرين. يتجه المجرى العام للفرات من بضعة أميال غرب قلعة جابر إلى الرقة نحو الشرق. بعد ذلك يتخذ اتجاهًا جنوبيًا شرقيًا، ويحافظ على هذا الاتجاه مسافة حوالي (٥٠) ميلًا، استدلالًا بطيران الغربان، ثم ينعطف شرقًا ثانية حتى يصل إلى مدينة عانة. قضينا فترة بعد الظهر ونحن نسير في أرض وعرة ذات تلال وعدد لا يحصى من الوديان الصغيرة المشابهة للجزء الأخير من رحلتنا في اليوم السابق. حاولت أن أتناول غداًني من سمك السلمون المملح وقد افلحت في إراقعة الزيت الموجود في العلب على كل ملابسي، مما ولد عليها رائحة سمك وزيت جعلتني أشعر بالغثيان. وعند الساعة الثالثة وبعد مسيرة شاقة وطويلة لمدة عشرة ساعات ونصف، توقفنا لقضاء الليل في مكان يدعى الشيخ قريب من حصن للشرطة ذو أبعاد أكبر مما سبق أن رأيته. وقد حاول رجالي نصب خيمتي دون إشراقي، حيث خلقوا فوضى كبيرة، واضعين الأوتاد في المكان غير الصحيح وأحنوا المسامير الكبيرة في أعلى الأعمدة. والعربي أخرق بشكل غير طبيعي لأي نوع من العمل يكون جدينا عليه.

يكون تيار النهر في هذا المكان سريعًا جدًا، وقد شاهدت لأول مرة رجالاً يطوفون في النهر على جلود اغنام منفوخة بنفس الطريقة التي مثلتها المنحوتات الآشورية

القديمة. ونتيجة لسرعة التيار، ينطلق هؤلاء الملاحون أسفل النهر بسرعة مذهشة، ومن الصعب مشاهدة كيف يستطيعون تحت مثل هذه الظروف الاحتفاظ بسيطرة كافية لقيادتها. وقد زارني عند وصولي المدير افندي، رئيس الشرطة هنا، كان تركياً كبيراً ذا منظر هادئ. وقد وجدت حديثي معه صعباً بسبب قلة معرفتي بالتركية، إلا أنني قد أثرت اهتمامه بعرضي عليه بعض الصور لبواخر إنكليزية كنت أحملها معي. وبعد العشاء رددت زيارته بزيارة من قبلي له. كان محل سكنه عبارة عن زريبة مهدمة في الحصن الطيني والتي اعتبرها لا تليق بحصان جيد. إلا أن الرجل الوقور قد أكرمني واستضافني بتهديب عالي لتركي من المدرسة القديمة. وقد أعد لي بعناية فوهة بيديه وعندما غادرت رافقني لغاية وصولي إلى خيمتي، وقد وجدت أنه أرسل لي هدية للترحيب بي عبارة عن نصف دربنة من البيض الطازج. كان لطفه العالي شيئاً استثنائياً لدى أفراد الشرطة التركية الذين اتصلت بهم على طول الطريق.

وقبل العشاء مباشرة، جلب انتباهي ضحيج غريب على بُعد مسافة خلف خيمتي وعند النظر إلى الخارج لعرفة السبب، وجدت اثنين من الرجال راكعين باتجاه مكة. كان أحدهم، وهو رجل بانس كأنه فزاعة مهلهلة، درويشاً يصرخ ويولول، وكل جسده يترنح بقوة من جانب إلى آخر، كان يكرر اسم الله بنوع من اللهاث الأحش مع كل تارجح لجسده. وقد اتخذ لنفسه وضعا بحيث أن أي تكرار لاسم يجعل كل جسده يهتز بعنف. وأخذ لهائه يرتفع تدريجياً إلى صوت يشبه نباح الكلب ثم أخذ ينخفض تدريجياً إلى نوع من قباع الخنزير المحتضر، وعندما أرهق بالكامل، أخذ يمشي على قدميه مترنحاً رغم أنه غير قادر على الوقوف، ثم تلاشى، بمساعدة رفيقه، وهو لا يزال يلهج لاهناً بالاسم المقدس، في ظلام الصحراء.

وعند الليل زارني ضيوف غير مرحب بهم بشكل قسوا، فقد أبقظتني الأولى من وضع الاستلقاء الذي اتخذه، كي تفتش سلتى، التي كانت تحوي بعض لحم الدجاج البارد وهو غدائي لليوم التالي. وعندما راتني استيقظ في فراشي، رحلت بحذر. والثانية وهي قطعة كبيرة، أطلقت حال دخولها صوت (ياو) عند شمهأ لرائحة الطعام. وفي الحال امسكت عصاي، التي كانت لحسن الحظ تحت متناول يدي، وسددت إليها ضربة عنيفة على الرأس حيث فرت مسرعة معتذرة عن زيارتها في الوقت غير المناسب. والثالثة اكتشفت فجأة أنها واقفة على أقدامها الخلفية ورأسها في سلة أخرى، وهي تلحس المندبل الذي يحتوي زبدة اللبن. وقد صحت عليها بقوة، ورغم أن قوة صوتي لم تصبها بالذعر كما في المثال السابق إلا أن اللص اختفى ولم يظهر ثانية.

هطل في الليل مرة أو مرتين وأبلاً غزيراً من المطر، وعندما غادرنا في الساعة السادس إلا ربعاً كان الصباح غائماً. كان رجالي لسبب أجهله مبتهجين جداً واستمروا بمزاحهم وغنائهم ولعبهم كفريق من الأطفال الكبار. كان الطريق طيلة النهار رتيباً للغاية، كونه يمر كل الوقت وسط سهل مستو، والجزء الذي مررنا به في بداية الصباح مكسو بقصار الشجر بينما كان الجزء الآخر من السهل خالياً، في الجزء الأول من الطريق صادفنا مجموعات كبيرة أكثر من عنزة وهي تترحل. وأثناء سيري، جاءت ثلاث بدويات من بعض الخيام التي مررنا بها، واسترقن النظر بفضول من شباك التخت حيث طردهن محمد بعيداً وهن يقهقهن. كن يعتقدن أن في التخت سيدة أوروبية، ليس لدى الفتيات الصحراويات أدنى خجل لأي شيء من الحياء الزائف الذي تتمتع به نساء المدينة. إنهن أكثر تحرراً من الفتيات الإنكليزيات.

توقفنا عند الساعة الواحدة بالقرب مما كنت أعتقد الفرات، إلا أنني قد اكتشفت بعد ذلك أنه مجرد ماء راكد. وقد حصل شجار مع رجالي الذين أصروا على

نصب الخيمة على قمة تل قرب حصن من الطين. كان المكان قذراً، ولم تتوقف فيه قوافل أخرى، وعندما امرت الرجال بنقل المخيم على حافة الماء، رفضوا وبسبب مقنع هو أن الماء راكد وأن النوم عند حافته سيؤدي إلى خطر الإصابة بالمalaria، إلا أن هذا لم أكن أعرفه في حينه، لذلك أخذت أسب واشتم الرجال لعدم طاعتهم لي. بعد ذلك، ذهبت واستحممت في الماء متصوراً أنه جزء بطيء الجريان من النهر. وقد أدى ذلك في الصباح التالي إلى إصابتي بهجمة ابتدائية من مرض الديرنتريا، والذي قُدر علي أن أعاني منه بقسوة قبل وصولي إلى بغداد. وبعد الحمام، أخذت أتمشى نحو ربوة على الصحراء المرتفعة خلفي. وهنا لاحظت في الحال أن الماء لم يكن جزءاً من الفرات بل ماء راكد لا يرتبط في ذلك الوقت مع النهر، ولكن عندما يصل الأخير إلى أعلى ارتفاع له فإنه قد يرتبط به. اعتقد أن كبيرت قد أشار إلى ذلك باسم (بحيرة مكله)، ويبدو لي أن أصلها اصطلاحياً وليس طبيعياً. وخلال تجوالي رأيت بالقرب مني لأول مرة زوجاً من القطا الجميلة. وقد شعرت بالأسف أنه لم يكن معي بندقية، إذ أنه بالرغم من التاكيدات بأنه يمكن الحصول على أي كمية من المون في الطريق، إلا أنني في الأيام الستة الأولى من الرحلة لم أستطع شراء سوى دجاجة واحدة. وعند النظر من هنا إلى الاتجاه الشمالي الغربي، فإن جبل منخر لا يزال بشكل علامة بارزة، وعلى يساره، شاهدت دخاناً كثيفاً يرتفع من السهل، ولم أستطع معرفة سبب ذلك.

خلال الليل، كان علي الاستيقاظ والطلب من محمد بأن يرفع هذه الأجراس عن البغال لأن ضجيجها المتواصل لم يدعني أخذ قسطاً من الراحة، وعندما غادرنا مخيمنا بحلول الفجر، وجدت نفسي بحالة سيئة، مع ألم داخلي حاد، وغير قادر تماماً على الأكل. وقد عزي رجالي سبب ذلك إلى الاستحمام، ولم أصدق هذا في حينه لأنهم قد أكدوا لي أنه ماء صالح للشرب، ولتعرضي لإصابة قاسية ومطولة بالمرض بعد أيام قليلة من استحمامي في الفرات، فإني أخذت أميل إلى تصديقهم، واحذر هنا المسافرين

من الاستحمام في مياه الفرات الباردة قبل حلول الليل وبعد مسيرة يوم حار وطويل. وعند الساعة التاسعة حاولت أن أقوم بجولة قصيرة على قدمي، وقد وجدت أننا في جزء مجذب لكن جميل من الصحراء، وفيه بعض التلال المرتفعة أكثر مما أراه على اليسار، وعلى اليمين تتكسر الأرض إلى منحدرات واطئة. ومن بين النباتات القليلة النامية هناك، توجد العديد من نباتات الخشخاش الحمراء الجميلة، التي لها اثر فاتن في الصحراء. وبعد ذلك بوقت قصير، كنا نسير ثانية في السهل ذو الشجيرات الخفيفة وعلى يميننا منحدرات واطئة من الحجر الرملي، يمتد الحجر الرملي هنا على أرض من الحجر الطيني الكثير الحصى وهو يقع في أماكن هشة جدًا. وبعد شعوري بالتحسن بعد الظهر، قمت بجولة قصيرة أخرى على قدمي. وبينما كنت في الخارج، سقط بقوة إلى الأرض البغل الصغير الجريء بفعل الحرارة وحمله الثقيل، وكان علينا إنزال حمولته قبل أن يستطيع الوقوف ثانية على قدميه. وقد أجفنت مرة أخرى الكثير من طيور القطا، ولكوني لا أحمل بندقية، لم أستطيع أن أملا خزائني لحفظ اللحوم كونها فارغة الآن تمامًا. وعند حوالي الساعة الواحدة، وصلنا إلى موقع قررنا التخييم فيه، وهو مكان شاعري جميل على منعطف من النهر واسفل رأس بري ذي منحدرات صحراوية رمادية. وتتخلل هذه المنحدرات الممتدة إلى النهر عدد من الوديان الصخرية المليئة بالشجيرات الخفيفة، واحدها يمتد مفتوحا ليصل بالقرب من خيمتي. ليس هناك علامة لأي نوع للاستيطان البشري في هذا الموقع، إلا أن المنطقة مكتظة بالعرب، ولا يسمح لي رجالي بالقيام بنزهة قصيرة في المنحدرات خلفنا، حتى وعدتهم بأنني سوف لن أذهب بعيدًا، وبئنت لهم بأنني أحمل معي مسدسًا. ومن على القمة شاهدت هناك منظرًا رائعًا. فالجزء الذي انظر له من النهر له اتجاه عام نحو الجنوب، إلا أنه يتخذ في مجراه عدة انعطافات كبيرة، ليشكل دائرة كاملة تقريبًا إلى حد أن الانحناءات في بداية ونهاية الحلقة ترتبط مع بعضها تقريبًا. وبعيدًا عن النهر، وفي غيوم

بيضاء مهيبة، تمتد سلسلة من جبال وادي الرافدين، يومض فوقها أثناء حلول الليل ضياء غير منقطع. وخلفي، على جهة الجزيرة العربية، تمتد سلسلة أخرى على مسافة معينة. كان المشهد كله مقفراً وكالْحَا إلى حد بعيد. وعند عودتي وجدت عدداً من العرب المسلمين بالكامل ويبدون كالبهائيين، وهم يستفسرون من رجالي الذين كانوا يرغبون في التخلص منهم. وقد أخبرني حجي محمد أيضاً في اليوم التالي، أنه لم يجرؤ على النوم وقضى الليل بطوله يطوف حول الخيم للنظر في محيطه، وهو كلام استقبلته بما يستحقه من الشك. وقالوا أيضاً أنه طالما أن علينا أن نصل الدير في اليوم التالي، فمن الضروري تماماً أن نبدا بالرحيل مبكرين. ولأنه ليس لدي فكرة عن المسافة إلى المدينة وكونهم قد أخبروني أنها تستغرق مسير (١٠) ساعات، فقد أذعنت إليهم بالطبع، وبعد نوم لحوالي أربع ساعات، تم تقويض الخيمة وغادرنا سريعاً بعد منتصف الليل. وقد اكتشفت بعد ذلك أن مسيرنا الفعلي كان ست ساعات فقط، وأن تلك كانت مجرد حيلة لقضاء كامل اليوم في الدير. كان هذا درساً لي لأرفض جميع الرحلات المبكرة السخيفة في المستقبل. وتلك بالطبع العقبة الرئيسية أمام أي اتفاق مع سائق بغال ليقلك من مكان لآخر في الشرق. إذا لم يلزمه أي اتفاق مسبق، فإنه يعتقد أنه يستطيع أن يملئ عليك زمان وسرعة السير أثناء السفر، وفي الواقع يكون ميالاً لمعاملة المسافر الذي يقله وكأنه بالة بضائع. عندما يكون لديك قراراً حاسماً وتصميماً، فمن المؤكد أنه سيذعن إليك بدرجة معينة، ولكن إذا كان المسافر قد اشترى أو استأجر الحيوانات على أساس اليوم أو الأسبوع، فإنه سيجد نفسه سيداً لسائق البغال وحرراً في اختيار زمان وسرعة السير وأن يمكث في الزمان والمكان والكيفية التي يرغبها.

لهذا جرى معظم الرحلة إلى الدير في الظلام، ولشعوري بأننا نسير فوق أرض وعرة عرفت أننا نسير معظم الوقت في الصحراء. وعندما انبجح الضياء وجدت أحد بغالي السكينة يمشي اعرجاً، ولم يكن عليه أي حمل سوى الخرج. وعند حوالي الساعة

السادسة، دخلنا إلى شوارع الدير الضيقة والبائسة ونزلت في خان قرب مركز المدينة، وهو مبنى صغير متوسط الجودة من طابقين يحيطه فناءً داخلياً. ليس في هذا الخان محلاً أو طعاماً للحيوانات، لهذا ذهب رجالي وبغالي إلى مكان آخر على الجانب المقابل من الطريق. وقد اثار وصولي الكثير من الفضول وامتلا الفناء بالناس لمشاهدة الرجل الإنكليزي. اعطاني صاحب الخان افضل غرفة في المبنى، إلا أنها كانت قدرة بحيث قمت بكنسها قبل الإقامة فيها. إلا ان ذلك لم يبدد النمل الذي تعج به ارضية الغرفة ولا الذباب الذي غزى غرفتي بأعداد كبيرة. وتحت هذه الظروف اول الأشياء التي عملتها هي إعداد سرير (ليفنج) لتأمين نوم ليل هادئ. الأشياء الأخرى التي لاحظتها حول الخان هي الحجم الكبير للعصافير الواقفة على سطح الدار، والسمة البدائية للمرافق الصحية للخان المسمى (ادب خانة) أو المرحاض وهو السطح المستوي للبناية، والذي لو لم يخصص لهذا الغرض، لكان أجمل صالة استراحة لقضاء الأمسيات.

لقد بُني الدير على مرتفع بسيط، يقال أنه اطلال نسخة سابقة من نفس المدينة. ومن الصعب فهم أسباب بناء نسخة لاحقة من هذه المدينة، كما أن سوء الحظ لم يمكنني من مشاهدة حفرة عميقة كبيرة. لقد بنيت المدينة على ضفة الفرات الذي تقسمه في هذا المكان جزيرة وتقع في وسط صحراء ترابية مقفرة، ليس فيها سمة واحدة من سمات الجمال. فليس هناك غابة من نبات الطرفاء ولا منحدرات قرب النهر، وهذا الأخير هو ليس الفرات المهيّب، بل مجرد فرع صغير غير مهم. تتكون المدينة نفسها من شارع طويل يمتد بموازية النهر وتتفرع منه شوارع جانبية عديدة تؤدي إما إلى ماء النهر على الجانب الشرقي أو المقابر التي تسد منفذ المدينة من الجانب الغربي. بيوت المدينة مبنية من الطين وهي بائسة إلى حد بعيد. والأسواق كذلك قدرة وليس فيها بضائع كافية

- لإعطاء فكرة عن بؤس هذه المدينة التي يبلغ عدد سكانها (٢٥٠٠) شخص والواقعة على ضفاف نهر عظيم، عليّ أن أقول بأنني لم أستطع ما يلي:
- أن أبدل عملة ناهليون واحد.
 - شراء سمك من أي نوع.
 - شراء سلة أو صندوق صغير.

كذلك لم أستطع الحصول على أي نوع من المؤن المحفوظة أو المعلبة. ربما عليّ ألا أتوقع وجود مثل هذه المؤن، ولكن عدم وجود المواد السابقة يبدو أمرًا سخيفًا. إلا أنه يمكن شراء التمور والبرتقال هنا، فالأولى تأتي من بغداد بينما الثانية من بيريجه. ولأول مرة منذ مغادرتي لحلب، وجدت نفسي ثانية وسط جزيرة زراعية. تشاهد أشجار نخيل قليلة، إلا أنها من فصيلة متقدمة وهزيلة، كانت الجزيرة التي يربطها بالمدينة جسر خشبي متزعزع مزروعة بشكل كثيف وتزرع هنا الذرة والرز وباقي أنواع الحبوب وهناك نثار متفرق من أشجار الفاكهة منها بشكل رئيسي التفاح والرمان، واسطة الري المستخدمة في الجزيرة هي (الكرد)، وهي آلة بدائية تستخدم بكثرة أيضًا في بغداد. وهي تتكون من هيكل خشبي مدلى على حافة النهر. وهناك في هذا الهيكل بكرتان مربوط بهما بحبال يتدلى منها جلدي ماء كبيرين فيهما خراطيم أو أنابيب جلدية. وقد جرت تسوية الأرض بشكل منحدر من الضفة. ويربط على هذه الآلة حصانان أو بغلان. وعند مشيهما إلى أسفل المنحدر يتحرك الدولاب ويرفع الجلود من الماء. وعندما تصل الأخيرة إلى ارتفاع معين، ينسكب الماء من الجلود إلى الأسفل من الخراطيم نحو خندق أو مجرى ماء، الذي يحمله إلى الأرض المزروعة. تدور بعد ذلك الحيوانات، وتصلد المنحدر وتعود الجلود إلى الماء لتمتلئ من جديد. ربما يكون الكرد

أكثر بدائية من الشدوف^(١) الشائع الاستخدام في مصر، لأنه يتطلب حصانا ورجلاً لأداء نفس العمل الذي يؤديه في ذلك البلد رجل لوحده رغم أنه يرفع في كل مرة كمية أكبر إلى حد ما من المياه.

لا يعتبر سكان النهر، كسكان معظم المدن في تركيا الآسيوية، خليطاً من الأجناس. فالمقيمون فيها بالكامل تقريباً من العرب ولا يشاهد الزي السوري هنا، وتشير الكوفية على رؤوس الرجال وحلقات الأنوف، وشفاة النساء المصبوغة إلى المسافر، أن سكان المدينة في الحقيقة ليسوا سوى عرباً من الصحراء مالوا إلى الاستقرار والتوطن للاستفادة من مزايا التجارة. بالإضافة إلى ذلك هناك عدد قليل من المسيحيين وبالطبع عدد من الموظفين الأتراك في السراي وبعض القوات التركية. يسمى النهر مقر السيطرة على الصحراء. وهو في الواقع النقطة التي اختارتها الحكومة التركية على نهر الفرات الأعلى للسيطرة على القبائل العربية على جانبي النهر. وقد وصفت السيدة أن بلنت في كتابها للمتعمق "قبائل الفرات البدوية" أسلوب الحكومة التركية في تنفيذ سياستها، ورغم أن أخلاقية هذا الأسلوب في السيطرة على هذه الأرواح المتمردة عن طريق زرع الشقاق بينها بشكل متواصل وبذلك يتم كسر شوكتها، يثير الكثير من الشكوك، إلا أنه لا يمكن الإنكار بأنه قد حقق نجاحاً كبيراً. ودليل ذلك هو الأمان النسبي لطريق وادي الفرات. فالنهر قد دخل تحت السيطرة العسكرية للحكومة التركية في عام ١٨٦٢م فقط، وأصبح الفرات الأعلى ثانية جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، وقبل هذا التاريخ من الشكوك فيه أن يستطيع أوروبي بمفرده أن يمر في هذا المكان كما أفعل حالياً، دون غطاء، ودون أن يرافقني عملياً أي حراس لأسافر من حلب إلى بغداد. مع ذلك فهذا

(١) آلة تتكون من عمود طويل مركّز على محور فيه دلو بأحد أطرافه ودقّل في الطرف الآخر. ويستخدم في الشرق الأدنى لرفع المياه وسقي الأراضي، (لترجم).

الطريق، وبعد ذلك التاريخ ايضا ليس آمناً تماماً للأوروبيين وليس عرب الصحراء هم الوحيدين الذين يخشاهم المرء، والذي يثبت ذلك انه في عام ١٨٧٤م، قد تم قتل اثنين من الألمان من قبل سكان الدبر أنفسهم وضمن مسيرة يومين من المدينة^(١) وذلك لغرض الاستيلاء على حصانتهما. ولا اعلم ماذا فعلت السلطات التركية في هذه المناسبة لمعاقبة القتلة.

لا يُعرف الكثير عن تاريخ الدبر. والمعنى الاعتيادي للاسم هو "صومعة الرهبان" او "دير الرهبان"، وقد ذكر المؤرخ الإدريسي انه سمي بـ (دير أبونا)، وهو الدبر الذي كان قائماً في هذا المكان، وان النبي نوح كان يقيم هنا بعد تركه الأرك وقد دفن هنا ايضاً^(٢).

حالياً تمكنت من الحصول على سكن لي، جاءني شخص من بين الزحام كان منشغلاً بشدة في مراقبة تجهيزاتي الخاصة بالسفر، واخبرني ان هناك رجلاً في المدينة يتحدث الإنكليزية. ولاعتقادي انه قد يكون ذا فائدة لي، ارسلت إليه ان يأتي ليراني. وفي غضون عشرة دقائق، ظهر شخص ضعيف البصر يرتدي طربوشاً وحذاءً ومعطفاً إنكليزياً وحياتي بحرارة، "صديقي العزيز، كيف حالك؟". كان يبدو على الرجل الفسوق، مما جعلني اشك في الحال انه سكران، ورغم انه كان يوشح إنكليزيته المتعثرة بدعواته المتكررة بطلب الرحمة من الرب، واتهام جميع زملائه من سكان المدينة بأنهم للصوص العرب، إلا أنني رايتُه ذا شخصية غامضة، يفضل عدم الارتباط معها بأي عمل. لقد أخبرني ان اسمه (التون)، وانه مسيحي، وانه قد عمل بوظيفة معينة في

(١) انظر القبايل البدوية على الفرات المجلد (١) صفحة ١٠٢.

(٢) انظر انيسورث: منكرات شخصية عن بعثة الفرات.

غرفة المحركات على ظهر باخرة إنكليزية. وقال أيضا ان لديه أشقاء يعملون في بومبي وبغداد وليفربول. وانه قد زار المكان الأخير ولكنه لم يزر إنكلترا" ويريد ان يعرف المسافة بينهما. كان يرغب بشكل خاص ان يذهب معي إلى بومبي أو السويس كمترجم وحماية، مؤكداً ان البلاد التي اسير عبرها بلاندا محفوفة بالخاطر ومن المستحيل على رجل إنكليزي أن يسافر فيها دون حماية رجل شريف (مثله). وقد دعاني بكرم لشاركتة الطعام في منزله أو على الأقل ان اسمح لزوجته بطبخ عشاء وإرساله لي. وقد رفضت هذه الدعوات، وأرسلت محمد إلى السوق ليشتري لي بعض الكباب كعشاء بسيط لي. مع ذلك، فقد أخبرت الرجل انه إذا كان يرغب بمرافقتي داخل المدينة بصفة مترجم، فساكون مسروراً لخدمته. وخلال فترة بعد الظهر، قمت بزيارة هذا الوجيه في بيته، كي أجعله يوضح لمحمد بعض الأشياء التي لم تجعلني معرفتي الناقصة بالعربية قادراً على توضيحها له. وجنته يجلس في غرفة صغيرة وسط أسرته. وقد عرفني بهم ملوحاً بيده في الهواء نحو زوجته التي يدعوها بأشكال مختلفة مثل (امراتي) أو (زوجتي) ثم نحو عجوز شماء تجلس القرفصاء في ركن الغرفة وهي أم زوجته، وكما يسميها بتهذيب: "العجوز". وهناك أيضاً عدة أطفال عبارة عن أجساد بدينة صغيرة بعيون سوداء، يبدو والحق يقال انه مولع بهم. كان أيضاً في الغرفة صهره الذي يبدو شاباً جديراً بالاحترام. وقد عزز التون شكوكي حول شخصيته وذلك بقيامه في الحال بإخراج قنينة شراب وأقداح ويرجوني كاخى العزيز ان اشاطره الشراب. وقد رفضت ذلك وأخبرته بانني لا أشرب مطلقاً أية مشروبات مسكرة خلال رحلتي، وهذا في الواقع صحيح في حالتي الراهنة، حيث لم أجلب معي خلال الرحلة سوى قنينة براندي، احتفظ بها لحالة المرض. وقد تأثر السيد التون كثيراً برفضني هذا. لقد جعلته يخبر محمد أنني سوف لن اسمح مستقبلاً ان نبدا سفرنا عند الفجر إلا في حالة الضرورة القصوى، كون سفرنا المبكر السخيف في الليلة الماضية

كان مجرد حيلة لقضاء وقت أطول في الدبر^(١). لقد أقسم حجي محمد أن المكان الذي كنا نخيم فيه يعج باللصوص وأنه لم ينم مطلقاً، وقد أمضى الليل بحراستي وهو يتمشى حول خيمتي. وحسب رايه، أنه ليس من الحكمة البقاء هناك لمدة أكثر مما هو ضروري لأخذ قسط بسيط من الراحة. ورغم أن حديثه يبدو معقولاً، إلا أنه ما يستشف من أحاديثهم أن هذا دون شك هو ليس السبب الحقيقي.

عندما غادرت منزل التون، عرض عليّ صهره مرافقتي في نزهة على الجزيرة، عبرنا جسراً متداعياً، أخبرني دليلي بأن النهر قد يحمله في وقت لاحق من هذا الشهر إلى مكان بعيد عندما يذوب جليد أرمينيا ويرتفع منسوب الماء في النهر إلى ارتفاع ثلاثين قدماً. كان الجسر مزدحماً بالأولاد وهم منشغلين في مسك قطع الأخشاب الطافية التي يجلبها النهر من الغابة الواقعة على ضفتي النهر، كون منسوب الماء فيه أخذ بالارتفاع، ولفعل ذلك، كان لديهم حبل طويل وأداة مصنوعة من قطعة من الخشب لها أربعة أشواك أو قرون من الخشب متجهة إلى الخلف. عندما تأتي قطعة الخشب طافية، يرمى هذا الكلاب أمامها ببراعة عالية، ثم يسحب، حيث تمسك القرون بهذه القطعة ويتم سحبها. واعتقد أن هذه تشكل الوقود الوحيد لأهالي الدبر، ويبدو الأولاد مشغولين باستمرار في العمل.

وبعد مروري في حقول الذرة المتوجة، وهو منظر جميل بعد الأرض القاحلة التي كنت أسير فيها وصلنا إلى مكان فيه الكثير من الكروود وهي في حالة اشتغال، حيث راقبتها بالكثير من الاهتمام والمتعة. كان مرافقي شاباً مسيحياً ذكياً من الموصل، إلا أنني وجدته يكره العرب ومدينة الدبر التي يصفها بأنها (بلد الخنازير) أو قرية البهائم.

(١) لقد قال النبي، ثم يسفرك عند حلول الظلام، فراجع الأرض لا تظهر ليلاً، انظر بروتون - مكة والمدينة -

ولسوء الحظ، تبعنا التون نفسه وظهر إلينا الآن مسلماً بقنينة شراب واقداح وترافقه ابنته الصغيرة. وفي الحال بدأ برواية قصة طويلة عن شقيقه (قبطان البحر الإنكليزي) وتحديث بأسلوب عدائي معنوه بأنني قد تركته ومنعته هو وصهره من مرافقتي ورفضت دعواته المتكررة على الغداء. عند عودتي، وجدت أنه من المستحيل أن أبدا رحلتي في اليوم التالي، كون الحيوانات كانت متعبة ولا يزال البغل سيئ الحظ أعرجاً. لم أكن أسفاً على قضاء يوم راحة ثاني في الدبر. إن السعادة التي أحصل عليها من خلال تمكيني من خلع ملابسي وقضاء ليلة مريحة أخرى بين ملاءات سريري (الليفنج) النظيفة نسبياً، يعتبر ترفاً لا يمكن الترفع عنه. كانت هاتان الليلتان هما الوحيدتان خلال رحلة الثلاثة أسابيع التي لم أنم فيها بملابسي. ورغم عدم الشعور بالراحة، لا يفضل دائماً خلع الملابس ليلاً في رحلة برية في تركيا إذ أنه في أي لحظة قد يضطر المرء للخروج من خيمته إما لمشاهدة الكلاب اللذعورة عند حبال الخيمة أو ربما حتى مقابلة بدوي مخادع. كذلك تكون ليالي الربيع باردة بحيث يكون أي إجراء يحول دون الإصابة بالزكام أمراً ضرورياً.

يشير الرعب الذي تحلته البرية أو الصحراء المحيطة بالمدينة في نفوس سكان المدينة والسلطات إما إلى أن القبائل الموجودة في هذا الجزء هي قبائل سلبية ومتعمدة، وهو أمر لم أجد سبباً يؤيده، أو أنه ينم عن قدر كبير من الجبن من طرفهم، وهو ما يلاحظ عليهم. حيث سافرت مدة ثلاثة أسابيع على ضفاف الفرات ولم تواجهني أية مشكلة من التي ذكروها عن العرب. وفي الصباح الثاني من إقامتي في الدبر ذهبت في نزهة قصيرة على الجانب الصحراوي من المدينة، وقد جلست على مسافة حوالي ميل واحد منها. نادراً ما كنت أفعل ذلك، حيث تبعني جندي أو شرطي وجاءني مهتاجاً ليخبرني أن المكان غير آمن للتوقف فيه وأن عليّ العودة حالاً إلى المدينة أو إلى جانب النهر. ضحكت عليه، إلا أنه أصرّ بأن لديه أوامر من السلطات بأن عليّ العودة وليس

هناك من خيار امامي. انا كان هناك بالفعل خطراً قريباً بهذه الدرجة من مدينة، مزدحمة السكان وتوجد فيها حامية عسكرية، ليس لدي المزيد من القول عن الحكومة الصالحة لهذا المكان. إن الرعب الذي تحدته الصحراء في نفوس جميع العرب المستقرين وحتى الموظفين الأتراك هو شائع جداً ويبدو سخيلاً تماماً، لأنهم بمواجهته باستمرار في هذه البلاد. فأي طريق صحراوي قصير يبدو بنظر العرب من سكان المدينة لمثل رعباً حقيقياً. وهكذا لا يفكر من يعيش في هذه المدن غير الصحية والمزدحمة السكان كالدير أو الحلة في القيام بنزهة في هواء الصحراء المنعش الطلق والواقعة أسفل أسوارها. إن فكرتهم عن المتعة هي إقامة (كيف) أو نزهة إلى بستان ندي على حافة النهر لقضاء ثمان أو عشرة ساعات في التدخين وشرب القهوة والنوم.

عند عودتي وجدت محمد في حالة شديدة من الترقب مخافة انني ربما قد تعرضت للاختطاف. وقال "الحمد لله، انك سالم، ما الذي دفعك للتنزه داخل الصحراء بهذه الطريقة دون حرس؟".

لم أرى المزيد من صديقي التون باستثناء أن صهره قد شرفني بزيارة. بعد ذلك جاء طبيب ارمني يتحدث الإنكليزية بشكل جيد وقضى بعض الوقت في امريكا. لقد سمع ان إنكليزيا قد وصل إلى الدير، وكان هناك خبرين، الأول بأنني (الباليوس) أو القنصل الإنكليزي واني بطريقي إلى بغداد، والثاني بأنني طبيب. كان الأرمني يود معرفة أي الأمرين هو الصحيح، وإذا كان الأخير هو الصحيح، ما الذي اطلبه منه بخصوص امراض العيون. وقد ابلغته بلطف بأنني مجرد سائح عنيد ولا احمل لا صولجان القنصل ولا عصا الطبيب. واخبرني أن الإنكلو - هنود يعودون إلى أوروبا حالياً وفي المستقبل عن طريق الفرات، إلا أن المسافرين الإنكليز قليلون للغاية. إن وصول أي منهم يطلق في الواقع السنة جميع سكان المدينة بالقبيل والقال لبعض الوقت. بعده زارني

رئيس المسيحيين في الدبر، وهو كلداني محترم يتحدث الفرنسية. وبعد انتهاء مراسيم الزيارات هذه، سمعت ضجيج خيول ورنين أجراس في الشارع الممتد أمامي، وبعد النظر من الشباك، شاهدت قافلة كبيرة تملأ الشارع. كانت تلك قافلة الباشا والطبيب اليوناني الذين سبق أن أعددت نفسي جزئياً لمغادرة حلب معهم، جاء الباشا، وهو رجل ذو مظهر لطيف، وصعد السلم بحث الخطى، وبينما كان يجري تنظيف الغرف لاستقبال الزائرين الجدد، دعوتهم للدخول إلى غرفتي. كان الباشا لا يتحدث سوى التركية. ومن خلال الطبيب اليوناني، عرفت أنهم قد غادروا حلب بعدي بيومين، لهذا فإنهم أمضوا نفس الفترة في الطريق، كان يرافق قافلتهم، حرس عسكري كبير وكان الباشا وصهره والطبيب مدججين جميعهم بأقصى طاقتهم بالسيف والمسدسات كما لو أنهم بعثة عسكرية تسير في أرض معادية وليس في رحلة سلمية عبر أراضيهم الوطنية، ومجمل القول شعرت بالسعادة لأنني قد سافرت وحدي بدلاً من هذا اللوكب المرعب.

جاءني حجي محمد في المساء، وتملاً وجهه ابتسامة الرضا، وهو يربت على بطنه ويقول أنه لأول مرة منذ مغادرته حلب يشعر أن بطنه (مشدودة) أو منتفخة. وقد هنأته على هذه الحالة، لأنني أفهم جيداً ما يقول. من اللئيم للدهشة كيف يستطيع سائقي البغال أداء هذا الكم الكبير من العمل على طعام بئس. والحقيقة هي أنهم لا يبدون بحاجة إلى طعام. ليس لديهم شيئاً يأكلوه قبل الرحيل، إلا أنهم بدورهم يشربون بشراهة على معدة فارغة من كيس الماء الكبير الذي يحملوه معهم. عند الساعة العاشرة، يخرج بخيت ثلاثة قشور من الأربعة القدرة ليُشكل ذلك إفطاره وغداءه. وفي المساء يتناولون فيما بينهم خليطاً صغيراً من الرز. ورغم هذا الغذاء التافه، فإنهم يمشون على أقدامهم معظم الطريق ولديهم جميعاً حملاً واحداً يتناوبون الركوب عليه، ولا يذهبون للنوم إلا بعد أن أنام. وإذا ما استيقظت أثناء الليل، أجدهم

مشغولين بشكل عام في أداء بعض الأعمال بين البغال. هم دائما متاهبون للحركة امامي. لقد كنت اتناول الطعام بكفاية تامة (الكفاية التي تسمح بها خزانتي الخاصة بحفظ المأكولات) ثلاث مرات في اليوم، مع ذلك اشعر اني جائع بنسبة ثلاثة ارباع، استنتج من ذلك ان المعدة البريطانية تتجاوز معدة العربية من حيث الضخامة.

✱

✱

✱

الفصل السابع

من الدير إلى عانة

مفادرة الدير - السرايب - قلعة الرحبة - رحوبوت على النهر - ميادين - المزيد من القطط - إجليلز
الصلاحية - ماصفة رملية - اصوات البغال - طقس باره - الدرويش الملجلون - المرافق البدوي -
ابو كمال - الخنفساء الماهرة - انار واسمة - القائم - غزو منزلة - ستلت فيما إذا كنت احب
قطع عنقي - خطر على الطريق - الاصابة بالمرض - وديان الصدراء - الخنزير البري - إجليلز
الرحوة - الوصول إلى عانة

غادرت الدير مبكراً في صباح يوم ٢١ من الشهر، وكنت مرتاحاً جداً لقضاء
يومين من الراحة هناك. كانت حالة البغل الأعرج المسكين كما هي في السابق، ويبدو
لي من المشكوك فيه أن يصل إلى بغداد سالماً. وقد رفضت بخيت استبداله بواحد آخر في
الدير. كان عليّ الوصول إلى بغداد، ولا أستطيع أن أجلس في الصحراء لحين شفائه.
تبلغ حيوانات قافلتنا حالياً حوالي (٢٠) حيواناً، حيث انتهر العديد من الأفراد الفرصة
لبداء رحيلهم معنا في نفس الوقت. كان من بين هؤلاء ثلاثة من (الأشراف) أو سليلي
الرسول، وكانوا يرتدون عمامم خضراء زاهية، وكذلك كان يسير بمحانائنا اثنان
من الخيالة العرب برماحهم الطويلة.

وفي جنوب الدير تماما خلف البيوت مباشرة، كانت هناك مرتفعات ومنخفضات كبيرة يبدو أنها بقايا قناة قديمة. وبعد هذا دخلنا إلى أرض غير مزروعة عبارة عن سهل فسيح من التراب الخفيف مع قليل من الحياة النباتية. تبعد تلال الصحراء عدة أميال إلى اليمين. رغم أن الصباح كان غائماً، وحاراً إلى حد ما، إلا أنه كان هناك قدرًا كبيراً من السراب، وهي ظاهرة غريبة يرجعها البعض إلى الامتدادات للمستوية للأرض. يمكن مشاهدته بشكل عام عند منتصف النهار عندما تكون الشمس عالية، وما يؤيد أنه لا يعتمد على ضوء الشمس، هو وجوده بقدر كبير غير اعتيادي في صبيحة هذا اليوم الغائم. وشكله الاعتيادي هو ظهور ما يشبه بحيرات راكدة واسعة قرب خط الأفق. وفي بعض الأحيان يقطعه مرتفع أو تل قديم على وجه الصحراء ليظهر على الأفق وهو منفصل تماماً عن بعضه. كذلك تظهر قافلة الجمال من مسافة معينة بشكل صغير جدًا بحيث تبدو وكأنها اغنامًا، في حين يظهر قطيع من الأغنام وكأنه جمالاً. ويبدو صف منخفض من الشجيرات القصيرة في أرض قاحلة وكأنه غابة على حافة بحيرة شاسعة، حيث تنعكس صورة كل شجرة بشكل واضح على سطح ما يبدو أنه ماء. وفي بعض الأحيان يبدو تل أو بناية بأنه مرتفع جدًا وكبير ليظهر بأنه قريب للغاية، في حين أنه في الواقع بعد مسافة كبيرة. وفي إحدى المرات، أثناء سيري من بغداد إلى بابل، رأينا آثار بئر يقع على مسافة مائتي ياردة بصورة مشوهة بحيث أنني واحد أهالي بغداد الذين كانوا معي قد أشرنا إليه بنفس الوقت بأنه آثار عكر كوف الكبيرة قرب بغداد، التي يبلغ ارتفاعها (١٣٠) قدمًا وتبعد عنا حوالي عشرين ميلاً أو أكثر.

سرنا خلال مدة ثلاث أو أربع ساعات جنوب الدير على كميات من الفخار للهشم، كان الأكثر شيوعاً بهنّها قطعاً باللون زرقاء وخضراء واحمر قائم كالزهريات الموجودة لدينا حالياً، وكانت هناك أيضاً قطعاً من الزجاج العادي. تغطي

كسر الأواني الخزفية هذه مساحة كبيرة، إلا أنه لا توجد تلال، وليس لدي فكرة عن التاريخ الذي يعود إليه هذا الموقع، كذلك يوجد في جوار ذلك قطع من الصوان المشغول. وقد لاحظت كذلك أن هناك مساحة من اللون الأحمر الخفيف على أجسام السحالي في هذه المنطقة مما لم أشاهده من قبل، رغم أنها رمادية وتوجد بقع على سيقانها ورأسها وجسمها كالتي شاهدها في شمال هذه المنطقة. كذلك لاحظت بازًا أبيضًا. ولم أشاهد أي من أفراد عنزة، إلا أنه مررت في الصباح أمامنا قافلة من الجمال وبعدها بوقت قصير مررت قافلة كبيرة من البغال والخيول من اثنين من التخوت، التي تحمل أحد الباشوات مع حريمه وهم متجهين إلى حلب. كان أحد التخوت يضم اثنان إن لم أقل ثلاثة من الأشكال البدينة. بعد أن تناولت غدائي لححت من مسافة شينا أسودًا، وعندما اقتربنا وجدنا أنه بغلاً أسودًا ميتًا ربما يكون أحد بغال قافلة الباشا. تفحصت حيواناتي جثة الحيوان بلا مبالاة ويبدو أنها قد تالفت تعليمًا إسلاميًا صحيحًا بالإيمان بالقضاء والقدر وترى أنه من المؤكد تقريبًا أن مصرها الأخير سيكون عاجلاً أم آجلاً مشابهاً لمصره. في هذه النقطة على الجانب المقابل من النهر، يلتقي نهر الخابور بالفرات.

وعند الظهيرة، كنا على مرأى من قلعة جميلة، يسميها رجالي (الرحبة)، ولكون قرية ميادين التي سنقضي الليل فيها، تقع على مسافة معينة على اليسار من هنا، فقد تركت رجالي يسرون، بينما أخذت أتمشى مع الشرطي المرافق لي نحو القلعة.

وبعد مسير ساعة تقريبًا عبر سهل مستو وعشبي مليء بقطعان الأغنام مع رعاتها، وجدنا أنفسنا بالقرب من قاعدة تل صخري كبير، تقع عليه هذه القلعة. وهنا التل الصخري قريب جدًا من منحدر صحراوي، وتفصله عن الصحراء هوة عميقة. وتوجد قرب القاعدة أجزاء صغيرة من سور مهدم، وتنتشر حولها قطع من القرميد يظهر أنها أقدم من القلعة نفسها التي يرجع تاريخها إلى العرب.

وتصميم القلعة هو عبارة عن ميدان مستطيل غير نظامي يمتد إلى الشمال والجنوب وحوله أسوار خارجية متينة بنيت على حافة التل الصخري وتحيط بحصن داخلي كبير له نفس الشكل.

يواجه السور الخارجي الشمالي، الذي يعتبر أحد جوانب المستطيل القصيرة، السهل الصحراوي، وهو ذو بناء بسيط، ربما يكون قد جرى ترميمه في وقت متأخر أكثر من الأجزاء الأخرى. وعند الركن الشمالي الغربي هناك آثار برج. يتكون السور الغربي من حجارة مربعة كبيرة، وجزء منه مهدم. بينما تحافظ الأجزاء الأخرى إلى حد ما على وضعها. ثم فتحت ثغرات في هذا السور لإطلاق النيران، وتوجد فوقها شبابيك صغيرة ذات أقواس. كان النصف السفلي من السور مبنياً بالقرميد وهناك نموذج مشكل بالقرميد على هيئة مفتاح. يعزز الطرف الجنوبي برجان حيث بُني الأول للوجود في الزاوية الجنوبية الغربية بشكل قطري إلى هذه الزاوية، بينما كان الآخر مربعاً.

وأسفل هذا السور، تم تعزيز التل الصخري بسائر من البناء، وهناك آثار منه على الجوانب الأخرى. كان الجانب الشرقي غير منتظم ومدمر تماماً ويبدو أن فيه سور مزدوج.

ولأنني لم أجده إشارة إلى المدخل الصحيح إلى القلعة، فقد تسلقت التل الصخري ودخلت من خلال فتحة في هذا الجانب إلى داخل الحصن. وقد وجدت الأخير عبارة عن مستطيل متوازي الأضلاع زاويته الشمالية الشرقية مقطوعة وبذلك أصبح شكلاً خماسياً وقد تم فتح ثغرات دائرية صغيرة غريبة في أسواره يتضح أنها للإضاءة. وعلى الجانب الشرقي هناك بئر مبني بالقرميد. يمتلئ هذا الحصن من الداخل، إضافة إلى الفراغات التي تفصله عن الأسوار الخارجية بآثار الغرف المبنية بالآجر وهي مهتمة تماماً. وكانت خارج الحصن قرب الزاوية الشمالية الغربية آثار مقابر.

كان جزء من السور الخارجي الشمالي مبنياً بطريقة خاصة. ففيه ثلاثة صفوف من الشبابيك. تكون شبابيك الصف الأعلى صغيرة ذات أقواس مستدقة الأطراف قريبة من بعضها. وأسفلها شبابيك مشابهة ذات حجم أكبر وتكون أكثر بُعْداً من بعضها. وأسفلها أقواساً مستدقة واسعة وفيها فتحات صغيرة نسبياً.

ومن فوق هذه الآثار يمكن مشاهدة منظر جميل للسهل الأخضر، ويقع على مسافة معينة فيه النهر وقرية ميادين. يبدو أن الأجر الذي بُني منه جزء من القلعة، وربما الحجارة أيضاً قد تم جمعها من موقع أكثر قدماً. يعزو العرب هذا البناء إضافة إلى الآثار الأخرى على الفرات الأسفل إلى نمرود. بينما يعين إينسورث الموقع بأنه (رحوبوت) الواقعة على النهر والواردة في سفر التكوين، وبلغت الانتباه إلى حقيقة أنه يجب ألا تختلط بـ (روحوبوت أور) التي تقع على نهر دجلة. وهناك أيضاً على مسافة قصيرة إلى الجنوب على النهر تقع (رحية المالك بن طاقوق) التي تسمى الآن الصلاحية.

يصفها الرحالة إليزابيثي راوولف بأنها: "مدينة كبيرة جميلة" إلا أن بالبي الرحالة البنديقي يقول في عام ١٥٧٩م، بأنه قد وجد فقط بقية ضئيلة من مدينة قديمة حيث يوجد عدد قليل من السكان ينتشرون بين الحطام. كما أنها كانت في وقت معين أسقفية مسيحية، إلا أن الموقع في الوقت الحاضر مهجور تماماً.

وبعد مسيرة مدة ثلاثة أرباع الساعة، وصلت إلى مدينة ميادين الصغيرة. هناك بقعة أرض كبيرة مزروعة حول هذا المكان، ووضعها العام للمشابه تماماً لقرية على النيل، ورغم أنه ليس كبيراً بما يكفي لاعتباره سوقاً، إلا أن ميادين تتباهى بوجود عدة حوانيت فيها وجامع ذو منارة مائلة قليلاً، ومركز شرطة كبير حيث وجدت خيمتي منصوبة تَوّاً في الجهة للمقابلة له.

تشكل القطط في هذا المكان إزعاجًا كبيرًا، حيث أنها تصعد باستمرار على فراشي لتصل إلى سلة المؤن العائدة لي، وفي الآخر، اضطرت إلى تعليقها على الرافدة الأفقية للخيمة. إلا أنه حتى هذا لم يبهز الإزعاج، حيث أخذت يأتين للنظر إليها، وتحاول بعض المخلوقات الغامرة الأخرى التجمع خارج الخيمة.

وبسبب ذلك، سوية مع أجراس البغال التي رفض بخيت رفعها، نمت تلك الليلة نومًا قليلًا. غادرنا عند شروق الشمس، وكان الصباح شديد البرودة. وقد أخذ النهر، الذي كنا بمحاذاته، يجري بسرعة بعد مغادرتنا مباشرة. وفي غضون ثلاثة ساعات مررنا بتلال على اليسار يسميها رجالي (الإشارة) وهي قرية قديمة غير مأهولة. ربما تكون على بُعد ساعة من الطريق. وقد تكون نفسها العشار التي ذكرها إينسورث في هذا المكان. وقبل حوالي ساعة من الظهيرة، وبعد أن كنا نسير لبعض الوقت في سهل مجلب مماثل للسهل الذي كنا نسير فوقه في الصباح الماضي، وجدنا أنفسنا بالقرب من منحدرات، وهي مكان ذو ارتفاع كبير مكون من حجر الكلس مع طبقة سميكة من معدن من نوع السيتار^(١٠) أقدر أن ارتفاعه حوالي (٢٠٠) قدم. نشاهد أعداد من الطيور على وجه هذه المنحدرات، منها بشكل رئيسي الحمام الأزرق والغربان وأنواع مختلفة من الصقور. بعد ذلك مباشرة تركنا النهر واندفعنا إلى عمق الصحراء المفتوحة خلف المنحدرات. الصحراء هنا عبارة عن سهل حجري مغطى بنباتات متفرقة ذات لون خاص من الأخضر الفاتح. ولدة حوالي ثلاث ساعات ونصف تابعنا سيرنا على هذه البرية الحجرية حيث رافقنا خلال الجزء الأخير من هذه المدة بطريقة تثير الشكوك إلى حد ما أربعة من خيالة عنزة برماهم الطويلة. حاولت أن أتحدث مع هؤلاء الأصدقاء،

(٥) يهين إينسورث في كتابه بحوث عن بلدان آشور وبابل وكلدان أن التكوينات هي من الجبس واللرن يملوها طين أحمر وصخور كلسية، للأولف.

(١) السيتار معدن لعان يتقشر بسهولة إلى رقائق، (لترجم).

ووجبتهم غاية في البساطة والبراءة. في نفس الوقت مررنا على آثار كبيرة على يسارنا، وتبدو كاسوار مدينة لها برج ومدخل في مركزها المقابل إلينا. كانت تلك مدينة الصلاحية وهي مدينة مهدمة وقد كانت حصنا لصلاح الدين وهي تعرف أيضا في وقت معين بأنها حبة المالك بن كاوق. وقد اسفت كثيرا لأنني لم أزر هذا الموقع، لأن رجالي أسوة بكل الشرقيين يكذبون من أجل المتعة المجردة في فعل ذلك، قد أخبروني بأن الموقع الذي سوف نخيم فيه يبعد عنا مسافة عدة ساعات، وليس من المناسب التوقف، بينما كانت الحقيقة هي أنه لا يبعد عنا سوى مسافة مسير ساعة واحدة تقريبا وكنت أستطيع أن أذهب إلى هذه الآثار ثم اتبعهم فيما بعد نحو المخيم سيرا على الأقدام.

وبعد ذلك مباشرة، نزلنا بطريق منحدر نحو وادي كبير ثم دخلنا إلى سهل تنتشر فيه خيام عديدة. وهنا انعطفنا لنصل إلى المكان الذي نخيم فيه الذي يسمى أيضا الصلاحية حيث يوجد فيه مخفر للشرطة. وقد حدث أن كنت انظر نحو المنحدرات التي غادرناها تواء، وقد تملكنتي الدهشة لرؤيتها تختفي في ظلام كثيف. عندما كنا في ذلك المكان. كان الجو هادئا تماما، ولكن في غضون دقيقة غمرتنا العاصفة. فقد ادركتنا امطار ورياح عاصفة مخيفة تحمل امامها غيوما هائلة من الغبار اعمت كل الفريق (باستثنائي حيث كنت جالسا جافا ومرتاحا ادخن بهدوء داخل تختي)، وتخططنا حيث حجب تماما عن نظري مراءى البغال الامامية التي تسير على بُعد ثمانين ياردة إلى الامام قبل أن تنقشع. كانت الريح التي ادركت فريقنا قوية بما يكفي لأن تجعل التخت يتأرجح وخشيت أن البغال قد لا تستطيع نقل اقدامها. وقد تبع ذلك عواصف أخرى بنفس السمات إلا أنها ليست بنفس العنف. وعند نظري إلى الخارج أستطيع أن اتبين أربع أو خمس عواصف رملية منفصلة تجتاز السهل، وعندما وصلنا إلى المكان الذي نخيم فيه بعد مسير لمدة تسع ساعات، ورغم هبوب

الرياح العاصفة والطر الغزير، فإنه حالما تم نصب خيمتي وبصعوبة كان الجو مشرقاً ومشمساً. تكررت عواصف أخرى خلال الليل، إلا أنه لحسن الحظ أحمد المطر الغبار^(١).

لقد أكلت بإصرار على أن تنصب خيمتي على مسافة ليست قريبة من البغال، وبهذه الطريقة استطعت الحصول على قسط مناسب من الراحة أثناء الليل رغم عواء لبناء أوى التي كانت تدوي على جانبي النهر ورغم البغال التي كانت ضجرة وكثيرة الضجيج بشكل استثنائي بفعل العاصفة والشيء بالشيء يذكر يتميز صوت البغل بأنه صوت ذو طبيعة خاصة. فهو مزيج من صهيل الحصان ونهيق الحمار. فهو يبدأ بشكل عام بصرخة حادة، وهو محاولة في البداية يمكن أن تصفها بأي شيء عدا أنها شيء سار، يتبع ذلك أحياناً صوت مماثل لما يصدر من الحصان في نهاية صهيله. ويتبعه بعد ذلك نهيق قصير. ونتيجة هذا المزيج هو صوت غريب كرهه إلى حد بعيد.

كان الصباح التالي والذي يصادف ٢٢ آذار شديد البرودة حيث قوضنا الخيمة للرحيل. لم اتمالك ان اهنئ نفسي لأنني قد تركت طريق ديار بكر، لأنه إذا ما عمت موجة البرد هذه تلك البلاد المرتفعة على ذلك الطريق، فستكون تلك عودة لقسوة الشتاء الإنكليزي. فهنا على الفرات، وفي نصف المسافة تقريباً إلى بغداد، يعتبر ارتداء معطف ثقيل خلال الساعات الأولى للصباح أمراً لا غنى عنه. وبعد مسيرة ساعة واحدة، وصلنا إلى نهر صغير يجري بين شجيرات خفيفة نحو النهر. لم نعره بل اتجهنا غرباً، ولأننا لم نعد نراه فاعتقد أنه انتهى ليصب في هور صغير. إنه النهر الوحيد الذي رأته على طول الطريق وهو يجري فوق السهل باتجاه نهر الفرات. كانت هناك خياماً عديدة تنتشر في هذه الغابة، إلا أنني لم أستطع التأكد عن القبيلة التي تعود إليها هذه

(١) على مسافة سير يوم واحد فقط جنوب هذا المكان، غرقت الباخرة (دجلة) بفعل عاصفة سيئة من هذا النوع.

وكانت تابعة إلى بعثة الفرات في عام ١٨٣٦م.

الخيام. وبحدود الساعة العاشرة مررنا على بُعد ميل على يميننا بتل كبير على شكل قمة بركان. وبسبب موقعه المنعزل تمامًا، فإني أعتقد أنه تل اصطناعي رغم أنه يبدو من مسافة معينة بأنه تكوين طبيعي.

وبعد ذلك مباشرة، التقينا بمجموعة غريبة مكونة من حوالي اثني عشر شخصًا كالشياطين الغاضبة ولهم خصل شعر متشابكة كأنما شبكها الجن ومنظر طائش مفرع بشكل عام يختلف تمامًا عن منظر البدوي المتغطرس أو عرب القوافل الذين التقينا بهم في الطريق. ولكونهم متسخين ومرهقين بفعل السفر فإنهم يمشون بتناقل على طول الطريق دون أن تكون لديهم حيوانات حمل من أي نوع، فأمتعتهم الوحيدة هي أواني وقدور قليلة معلقة على أكتافهم أو حول أعناقهم، إنهم مجموعة من الدراويش المتجولين في طريقهم من بغداد إلى حلب. تعج بلاد فارس والبلاد العربية الخاضعة للأتراك بهؤلاء المتشردين الغرباء. إنهم شيء بين المتسولين لدينا والفجر وفي العديد من الأحوال إنهم أنصاف مجانيين. وغالبًا ما يكونون دجالين، يتاجرون بإحسان أو حماقة الأفضل منهم حظًا، مع ذلك لا أستطيع إلا أن أشعر بنوع من العطف الخفي نحو هؤلاء الدراويش المتجولين، لأنهم سواء أكانوا دجالين أم حمقى أم متعصبين، فإن أسلوب حياتهم المتسم بالزهد والتشرد قاسي إلى حد يصعب تصوره.

أخذ يرافقنا مرة أخرى أربعة من أصلقائنا ذوي الرماح الطويلة، وهذه المرة يركبون جمالاً بدلاً من الخيول. وقد طلب مني أحد الأوغاد الرشيقين، الذي أسنانه كاللؤلؤ شيئاً من التبغ، حيث أعطيته في الحال. وبعد دقائق قليلة ظهر بجانبه معه قطعة قماش مليئة بالتمر. وبالطبع قبلتها ومضغتها بشيء من الرضا الكبير الذي في الواقع لم أشعر به، لأنه قد تم إخراجها توتاً من سرج جمال قديم وكثير اللسم، وهو في الواقع ليس نظيفاً. لم أرغب أن أجرح مشاعر صديقي الأسمر عن العالم الخارجي، وقد

أوما برأسه بسعادة وابتسم وبانت أسنانه الرائعة عندما أخبرته أن التمر كان ممتازاً وهو غذائي المفضل.

ورغم النزاهة البائنة والودية الواضحة على محيا هذا الرجل، إلا أن حجي محمد قد جاءني بعد ذلك مباشرة بحكاية مفادها أنه قد استفسر منه فيما إذا كنت أحمل الكثير من الذهب معي وقال لو سنحت لي الفرصة فإني سأسرقه. وهذا جانب واحد فقط من الجبن وعدم الثقة الذي يكنه كل عربي من سكان المدينة نحو البدو، والموضوع يعتبر بعيد الاحتمال جداً، لأنه بعد تبادل الهدايا هذه (رغم صغرها)، لا يمكن لأي فرد ينتسب إلى عنزة حقاً أن يضمّر مثل هذه الأفكار الخيانية. أخبرت محمد بأنه أحمق، إلا أنه رغم هذا، يبقى ينظر باهتمام نحو الأفق ليتحقق من احتمال أي ظهور آخر للعرب.

وعند حوالي الظهر، وصلنا إلى مخفر للشرطة وإلى زحام من الأكواخ المبنية من العيدان المظفورة، والتي تسمى قرية (أبو كمال). هناك أيضاً مساحة كبيرة من الأراضي المزروعة بالذرة، وتسقى بالعديد من الكرود. وقد طلب مني أحد الموظفين في الحال تذكري وتفحصها بعناية، ربما يكون ذلك بدافع الحصول على البقشيش أكثر منه بدافع آخر، وإذا كان هذا صحيحاً، فإنه لم يفلح في الحصول على ما يريد.

وبسبب حرارة الشمس اللافحة، التي أصبحت الآن خلال النهار أكثر شدة، قمت ثانية بحماقة بالاستحمام في النهر، كان الماء بارداً كالثلج، والمساء بارداً أيضاً وعاصفاً وبسبب هذا الاستحمام، أصبت بالديزنتريا، حيث عانيت منها خلال اليومين اللاحقين، والتي أوهنت صحتي وجعلت الباقي من رحلتي عبارة عن معاناة قاسية بدلاً من كونها متعة. وعندما كنت ارتدي ثيابي، لاحظت مجموعة من فرسان عنزة تسير أمام القرية، وقد ذهلت لمشاهدتي جواً من الإثارة في أفعال هذه المجموعة مما لم أراه من قبل

لدى افراد عنزة بالقرب من حلب. والواقع أنهم يشقون طريقهم نحو ملتقى لشن غزوة أو حملة سلب ضد اعدائهم التقليديين شمر بلاد وادي الرافدين. وقد قُدِّر لي أن القي نظرة قريبة على هذه الغزوة في اليوم التالي.

لقد اخبرني سائقو البغال أن ابا كمال تقع في منتصف المسافة بين حلب وبغداد وهو خبر لم أشعر بالأسف لسماعه. وقبل أن اخلد إلى النوم، جاءني مرافقي من الدرك، وهو نوبي من أعالي الشلالات، وطلب مني شهادة مع البقشيش المعتاد، قائلاً أنه قد أنجز مهمته على أفضل وجه. وعندما كنت اكتب الشهادة سألته فيما إذا كان مصرياً، فاجاب، "الحمد لله"، وكان كل سن من اسنانه يلمع تحت محياه الأسمر، وهو يتذكر وطنه قائلاً: "هل تعرف اسوان؟" "والله".

كان الليل بارداً جداً، وقد غادرنا بموعدينا المعتاد في صباح اليوم التالي عند شروق الشمس، وقد كنت سعيداً لملاحظتي أنه بينما كنا نغادر مقر استراحتنا، شاهدت البغل الأعرج للسكين قد أصبح في الواقع أقوى من قبل وأنه يتحسن بالفعل. وبعد مغادرتنا مباشرة، تشاجرت مع محمد الأحقق لأنه اصّر على موازنة التخت بشكل خاطئ وذلك بتعليقه للمطارة الثقيلة أو قنينة الماء على الجانب غير المناسب من التخت. وعندها اوضحت له ان التخت قد أصبح مائلاً، وامرته بأن ينقلها إلى الجانب الآخر، استجاب لأمرى، ولكن بعد عشر دقائق، أمسكته وهو يقوم بتغيير مكانها بشكل سرّي. ويعود السبب الوحيد لكل هذا الهراء هو ان تعليق للمطارة على الجانب القريب يؤثر على المكان الاعتيادي لنارجيلتهم للقرقرة الكبيرة، وفي الصباح، وبينما كنت أتمشى خارجاً، شاهدت منظراً غريباً لخنفساء سوداء كبيرة. فقد كانت هذه الحشرة الذكية مشغولة لغرض معروف لديها وحدها في نقل قطعة من روث حصان أو بغل إلى مكان غير معلوم. كان أسلوبها في الحمل كالتالي: تسير هذه الحشرة نحو قطعة

الروث إلى الوراء. وبعد ذلك تضع قوائمها الخلفية عليها، ثم تدورها بعيداً بسرعة، وتنفع نفسها إلى الخلف بواسطة قوائمها الأمامية، وبذلك يكون رأسها على الأرض. لهذا تكون نتيجة عملها مشابهة تماماً إلى عمل صانع الجعة وبرميلها ماعداً أن وضع الدحرجة يكون مقلوباً. تكون كرة الروث مستديرة تماماً وذلك بسبب الحركة الدورانية التي تقوم بها الخنفساء حيث تحققت من ذلك عن طريق نخس الكرة وتغيير شكلها بعصاي وتركتها تعمل عليها ثانية حيث قامت بتدويرها مرة أخرى خلال لحظة. كانت السرعة التي يدرج بها هذا الحيوان الصغير كرة الروث كبيرة.

لا يوجد أي جبل على الضفة الغربية في المنطقة التي سرنا عليها في الصباح، ولكن كانت هناك على جانب الجزيرة سلسلة واطئة من التلال في الأماكن القريبة من النهر. كانت هذه المرة الأولى التي أشاهد فيها أرضاً مرتفعة قرب النهر على الجانب المقابل. كان الطريق يمتد في البداية عبر أرض حصوية مغطاة بأحجار الصوان، كان بينها الكثير من رقائق الأحجار التي ربما جاءت من صناعة الأسلحة الحجرية في العصور البدائية. وعند حوالي الساعة التاسعة، وصلنا وعبرنا وادي فسيح إلا أنه قليل العمق، ومن الواضح أنه عبارة عن مجرى ماء في الفصول التي يكثر فيها المطر. ويسمى هذا الوادي، حسب قول شيخ ديني (ملاً) من بغداد كان يسافر معنا من الدير، وادي الشيخ جابر، وجاء هذا الاسم من اسم تل كبير يقع في بداية الوادي قرب النهر ويسمى تل الشيخ جابر. وبعد ذلك مباشرة، وعلى مسافة حوالي ثلاثة أرباع الميل على اليسار، مررنا بأثار كثيرة، يطلق عليها مصدر معلوماتي اسم "السور"^(١). لقد كان هناك حسبما تبينت بناءً مهتماً لست قلاع، وأثار لسور مدينة على الجانب الصحراوي، وتبدو هناك أيضاً تلال كثيرة. لم أتمكن من مشاهدة هذه الآثار دون إجراء انعطافة كبيرة

(١) تعني (Sur) في العربية الجدران، وبهذا المعنى فقط استخدمها للآثار (المؤلف).

وإيقاف كل القافلة، التي يبلغ عددها الآن تقريباً ضعف عدد مجموعتي، إلا أنني أشعر بالأسف الشديد لأنني لم أفعل ذلك، كوني لم أستطع إيجاد الاسم الصريح لهذا المكان في الكتب التي قراتها. فقد أغفل ذكره إينسورث، الذي كان عادة دقيقاً ومتكاملاً في موضوع المواقع القديمة. وفي الواقع ذكر اسم قرية تدعى (الجبارية) أو (الجبورية)، إلا أن هذه القرية تقع على الجانب المقابل من النهر وإلى مسافة معينة أخرى إلى الجنوب. ولأن هذا المكان يقع بالقرب من الموقع الذي غرقت فيه الباخرة سيئة الحظ "دجلة"، فمن السهل إدراك لماذا فاتته ملاحظة هذا المكان.

وبعد هذا بوقت قصير، مررنا بوادي آخر بعد مسيرة حوالي نصف ساعة على أرض مرتفعة من الصحراء حيث دخلنا ثانية بين شجيرات هذا الوادي، وعند حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف توقفنا عند قلعة مبنية من الطين بالقرب من مجرى الماء تعرف باسم (الكايم) أو "القائم"، التي يرى إينسورث أنها موقع أكامنا (Agamna) التابعة للأسرة القولومية^(١)، وهو أول مكان تبلغ فيه طرق القوافل القديمة القادمة من جنوب سوريا ووسطها نهر الفرات. وعند هذه النقطة من النهر، الذي كان يجري لمسافة مائة وعشرين ميلاً في الاتجاه الجنوبي الشرقي، أخذ النهر يتجه نحو الشرق أو بالأحرى نحو نقطة إلى الشمال من الشرق حيث يبقى النهر يحافظ على هذا الاتجاه العام رغم الانحناءات العديدة فيه، إلى أن يصل إلى مدينة عانة.

وإثر اجتيازنا للقلعة الطينية، أدركت أن شيئاً غير طبيعي يجري. وبالقرب أو أمام المخفر وقفت عدة مجاميع من رجال الجيش والشرطة الذين كانوا يعكس حالتهم الاعتيادية الفاترة، يحملون الآن بنادقهم ومن الواضح أنهم في حالة كبيرة من القلق.

(١) الأسرة الحادية والثلاثين التي حكمت مصر القديمة وهم الملوك للعدونيين، (لترجم).

وعلى قمة المبنى، وقف حارس خفير وحربته مثبتة في بندقيته وحزامه مليء بالإطلاقات في حين يدور مشهد مثير على الضفة النهر إلى الأسفل منهم. فقد كان هناك حشدًا كبيرًا من رجال عنزة يشيرون ويصبحون، وهم منهمكون في إجبار الجمال والخيول العنيدة للدخول في المراكب النهرية، لغرض عبورها النهر إلى الضفة الأخرى. كان بعضهم عاريًا إلى محزمه في النهر وهو يسحب الحيوانات بينما يحاول الآخرون على الضفة دفع أو سحب الحيوانات الخائفة للدخول إلى المراكب. فقد رمت الجمال بنفسها إلى الأرض، بعد أن فقلت صوابها، وهي تجار وترغي بهلع، بينما تشق الزوارق الأخرى طرفها عابرة النهر بعد أن ملئت بالخيول، وهي تصارع وتكافح بحيث يبدو في كل لحظة أن الزورق سينقلب. وإلى الأعلى والأسفل من الضفة هناك أعداد من الحيوانات المقيدة والمربوطة قوائمها وهي تنتظر دورها. وبالإضافة إلى الرجال المنشغلين في النقل كان هناك العديد من رجال عنزة الآخرين وهم يقفون بجوارهم أو يأتون ويغدون على ظهور خيولهم، بينما كانت رماح جميع الرجال مغروزة في الأرض. في البدء لم أدرك معنى هذا المشهد المفعم بالحركة وذهبت إلى الجمع وتقدمت نحو تصوير هذه المجموعات في المنظر المثير الذي يدور أمامي. وقد اكتشفت بعد ذلك أنه يجري شن غزوة كبيرة ضد قبائل شمر العراق، الأعداء التقليديين لعنزة. كان جميع العرب في غاية الاهتمام لمشاهدتهم إياي وآلة التصوير. اعتقد أنه لو لم يكن رجال الشرطة حاضرين، فإن مركبتي وآلة التصوير وكل ما أملك ستصادر لتزين خيمة أحد مستبدي الصحراء. وقد حاولت الدخول في محادثة مع شاب وسيم، استنتج من خلال مظهره المحترم والسلطوي أنه شيخ شاب. وقد أبدى قدرًا كبيرًا من الاهتمام في جنسيتي وتجهيزاتي، وأراد أن يعرف الأسلحة التي أحملها معي، وتفحص مسدسي بفضول كبير، وفي الآخر سألني بجبين مقطب ينم عن التحدي كيف أود أن تقطع لوزتي في اليوم التالي.

وبما انه قد اوضح سؤاله بسحب اصبعه على عرض حنجرته، فليس هناك سوء فهم لما يعنيه، لهذا فقد ابتسم وابتسمت وقلت بأسلوب دمث وهادئ بما أستطيع، بأن دراستي الإنكليزية قد علمتني بأن قبيلة عنزة النبيلة لن تنحدر أبداً إلى سلوك بغض ومخز يلبق فقط بالسفاحين والأكراد وباقي الحثالات الأخرى. لا يبدو أن هذه الثقة المضمرة قد خففت من حنقه، وعندما تركته كان لا يزل مقطباً بتحدي نحوي، رغم انه قد رد تحيتي بلطف ملائم.

ويبدو أن الأمور تسير في الواقع بشكل غير مرضي، فعند انتهائي من عشائي وصل إلى خيمتي فجأة وفد مكون من رجالي والملا وشخص بعمامة خضراء ونصف دزينة الجنود وقالوا انه من الخطورة التامة السفر في اليوم التالي، كون الطريق سيكون مكتظاً بالغزاة الذين يبدو أنهم ينتشرون على مساحات شاسعة ويعبرون النهر على طول عدة أميال. وقالوا انه حتى في ذلك اليوم قد حصل قتال بين الجنود والعرب، الذين كانوا بسبب استعدادهم للحرب، هانجين ولا سبيل إلى السيطرة عليهم، وقد قتلت عدة بغال وجرح اثنان من الجنود. وكدليل على ذلك، قدموا لي شرطياً سيئ الحظ مغمماً بالأربطة وهو ينزف ويعاني من جرح بسبب ضربة رمح قاسية على رأسه إلا انه كان ينفض دخان نرجيلته الدائمة. وزعموا انه إذا ما توقفت هنا يوماً، فإن الجميع سيكونون قد عبروا النهر وبذلك يكون الطريق آمناً. طلبت مرافقاً لي. أجابوا أنهم يستطيعون الاستغناء عن اثنين من رجالهم، إلا أن مئة من الشرطة سيكونون عاجزين أمام أي حشد من العرب إذا ما تحول إلى حشد خطير. سألت بعد ذلك رفاق الدرب عن رأيهم، أجابوا انه ليس لديهم ما يخسروه، وإذا ما رغبت فإنهم سيباشرون الرحيل، إلا أنه لدي الكثير من الأمتعة، وتعتبر مخاطرة كبرى إذا ما تعرضت جميع هذه الأمتعة للسلب على أيدي العرب في وضعهم الهائج الراهن. قال بخيت ومحمد نفس الراي، لهذا ورغم شكوكي بقيام عنزة بمهاجمة قافلة رجل إنكليزي كونهم

بتعاطفون دون تردد مع امتنا، مع ذلك شعرت انه من الحماقة القيام بمخاطرة فقدان جميع ممتلكاتي في الوقت الذي يمكن فيه تجنب كل هذه الأخطار بسهولة. لهذا قبلت البقاء ليوم واحد. وبعد أقل من نصف ساعة، جاءني بخيت ليقول بانه قد اكتشف انه لا يوجد علف للبالغ هنا، وأن علينا الرحيل صباح غد كالعتاد، حيث أعطيت موافقتي في الحال على ذلك. وفي الليل شعرت بالمرح في بطني لم أتمكن من تمييزه وعندما غادرنا في الساعة الخامسة صباحاً، كنت لا أزال أعاني بشدة وأشعر بالإرهاك بفعل الأيام القاسي الذي عانيت في الليل. ورغم أن تعداد جميع رجال القافلة يبلغ حوالي أربع عشر رجلاً، كنت أنا والشرطي المنفرد الوحيدين الذين يحملون سلاحاً، وإذا ما حصل الغزو، فسنكون في حالة يرثى لها. عند وصولنا في المساء السابق، دخل خيمتي اثنان من رجال الشرطة وبطريقة سمجة طلبوا شرباً. وقد صرفتهم في الحال وأبلغت محمد بالا يسمح لأي شرطي بدخول خيمتي. ولا شك عندي انه نتيجة ذلك رفضوا أن يخصصوا لرافقتي أكثر من شرطي واحد، رغم أن الطريق حسب تقديراتهم بأشد ما يكون من الخطورة. وقد دارت في ذهني خواطر غير مريحة تماماً عندما غادرنا، وذلك بانه سوف لن يكون هناك شيئاً أكثر سهولة لديهم، إذا ما اضمروا الحقد عليّ بسبب رفض طلبهم، من أن يرسلوا جماعة من العرب لمهاجمتي. انطلقنا مباشرة نحو الصحراء ربما لأنها تمثل المكان الأكثر أمناً إذا كان جميع أفراد عنزة يتواجدون قرب النهر. وفي الحال مررنا عبر شعب صغيرة مليئة بالأحجار والصخور الكبيرة على جانبيها ومعظمها تعتبر مواقع مناسبة لنصب كمين معين. كان أحد أفراد مجموعتنا يمشي أمامنا بمسافة طويلة لغرض تحذيرنا في حالة مشاهدته أمراً ما إلا أن كل شيء كان صامتاً كصمت القبور.

وبعد عبورنا لوادي فسيح قليل العمق، مررنا بالسهل المعتاد، وجاءني حجي محمد يسأل فيما إذا كان مسدسي جاهزاً كون العرب خلفنا. كنت في حالة من

الإنهاك الشديد الذي يعود جزء منه إلى الألم الذي أعانيه والجزء الآخر حسبما أتصور يعود إلى الأفيون الذي يحتويه مسحوق دوفر الذي تناولت منه كمية كبيرة نوعاً ما في محاولة لتسكين ما أعانيه من الآلام، بحيث اني لم استطع ان ارفع نفسي لألقي نظرة. وعندما فعلت، رأيت اثنين من الخيالة العرب وهم يعدون خلفنا في السهل، وقد وقف الشرطي المرافق لي بثبات وبندفيته في يده في طريقهم. ماذا دار في حديثه معهم، هنا ما لم أعرفه، إلا ان العرب قفلوا راجعين. كان هؤلاء وشخص آخر التقيناه فيما بعد، هم العرب الوحيدون الذين رأيناهم خلال اليوم لأن جميع افراد المجموعة الغازية قد سبق أن مرّوا من هنا. تشبه صفات الصحراء التي نسير عليها الآن صفات صحراء شمال مصر. وعند حوالي الساعة التاسعة، مررنا بأنف جبل متجه نحو النهر لينتهي بتلين مخروطيين كبيرين. وفي الساعات الثامنة والنصف والتاسعة والنصف والعاشر والرابع والعاشر والنصف، عبرنا وديان جافة، يُسمى الأخيرين منها وادي حفرة ووادي زلة على التوالي. ويعتبر الأول نموذجاً جميلاً من الوديان وتقطعه عدة قنوات وتحاذيه منحدرات بارزة وتلال وعرة، وعند نقطة انفتاحه على النهر، توجد آثار ناعور قديم لا يستخدم حالياً وجزء منه مهدم.

تشكل هذه الوديان مناظر جميلة إلى حد ما، رغم أنها على العموم لا تحمل عمقاً كبيراً، ويوجد في معظمها اعداد لا بأس بها من الشجيرات النامية على الجانبين بسبب الرطوبة المتبقية فيها بعد فصل الأمطار. وفي آذار تجف جميعها رغم ان القليل منها يحتفظ ببرك راكدة. واعتقد انه لا تمتلئ جميع هذه الوديان بالمياه الجارية او الراكدة في أي وقت من السنة. لهذا فإنها يجب أن تكون قد جاءت بفعل عواصف محلية عنيفة جداً. كان الناعور هو الأول الذي رأيته منذ غادرنا حلب، رغم أن النواعر تنتشر على طول النهر في غلة والقرى الأخرى إلى الجنوب منها. وعند الساعة الواحدة إلا ربعاً كنا بالقرب من منطقة الناحية حيث أمضينا الليل هناك قرب مخفر

آخر، كانت المنحدرات هنا كلسية تعلوها طبقة من الحصباء، يشاهد أيضاً هنا عدة نواعير، إلا أن واحداً منها فقط كان يعمل. أبلغني حجي محمد أنه من الضروري البدء برحلة مبكرة في اليوم التالي لأن عانة تقع على مسافة مسيرة ثماني ساعات، لهذا القيت نفسي على فراشي دون عشاء لأنني كنت مرهقاً ولا أستطيع تناول الطعام، ولم اتحرك على فراشي لغاية الساعة الثانية والنصف من صباح اليوم التالي.

وبعد الساعة الرابعة كنا مرة أخرى على ظهر الطريق، ولأن الشمس لم تكن قد اشرقت بعد، فقد كان الجو بارداً جداً. رأينا ثلاثة خنازير برية تعدو على طول ضفة النهر، وقد انطلق الشرطي المرافق لي بهياج كبير خلفها ليطلق عليها نيران بندقيته حيث فعل ذلك على مسافة مائتين وخمسين ياردة دون أن يصيبها بالطبع. وباستثناء السحالي كانت هذه الخنازير هي الحيوانات البرية الوحيدة ذوات الأربع التي رايتها على طريق الفرات. توجد الغزلان بالطبع، إلا أنني لم أرى أي واحد منها، وأسد بابل الذي كان يوجد إلى وقت قريب جداً على ضفتي النهر، إلا أنه قلما يسمع عنه شيئاً حالياً. لقد سررت بكون البغل الأعرج للسكين قد أخذ يتحسن الآن كثيراً بحيث أنه يستطيع نقل حمل أكثر ثقلًا.

وبعد الساعة الخامسة عبرنا وادي آخر ذا حجم كبير وبعد حوالي ساعتين قادنا إلى جبل كوشكا، وهو جبل ذو شكل مختلف عما سبق أن رأيناه. وبدلاً من النجد المستوي الذي يحاذي منحدر حاد عند السهل الذي يجري فيه النهر، شاهدنا مساحة من الأرض لا يختلف محيطها عن محيط مستنقع اسكتلندي. وهي تأخذ في الانحدار من أرض مرتفعة نحو منحدر خفيف وشفير واخودود حتى تصل إلى السهل، يسمى الوادي الصغير الذي ينحدر منه نحو النهر وادي خوشكا. ومن خلال النواعير العديدة المنتشرة على النهر، أدركنا أننا نقرب من منطقة أكثر كثافة بالسكان وفي نفس هذه

الرحلة رايت للمرة الأولى أناسا يبحرون في النهر. فقد كان يطفو على سطح النهر قاربان من جلود منفوخة وهما يتجهان ببطء نحو أسفل النهر ويقودهما رجال لديهم اعمدة (مردى) او مجاذيف كبيرة. وبعد ذلك بوقت قصير، التقينا بمجموعة من الرجال والنساء على ظهور الحمير، وهي تقريباً المرة الأولى التي نرى فيها الحياة خلال اليومين الماضيين. كانوا يرتدون ملابس غريبة، فقد كانت الغُفْل أو العصابات التي بثبت بها الرجال كوفياتهم ذات عرض غير اعتيادي وكان جميع الرجال مسلحين بالبنادق. لم أتمكن من التعرف عليهم. ثم مررنا بعد ذلك بضريح مهدم لأحد الشيوخ والتقينا بالكثير من القوافل كان في أحدها امرأة محلية تمتطي حماراً ثم و"الحمد لله" وصلنا إلى قرية الرحوة على الجانب الآخر من النهر التي تنتصب وسط بستان من النخيل، وهو منظر يبعث على السرور حقاً للمسافر القادم من حلب والمرهق في النظر لأيام طويلة في صحراء مروعة وأشجار قصيرة. وفي أعلى قرية الرحوة هناك قلعة كبيرة بناها مدحت باشا حاكم بغداد الكفاء لحماية هذا الطريق.

تقع الرحوة على جانب منحدر، يلتف النهر حول نهايته مشكلاً لساناً برياً طويلاً وزاوية مختلفة تماماً عن الزاوية التي كان يسير فيها النهر. وبعد مرورنا بالوادي صعدنا بالتدرج وشاهدنا عند أقدامنا هذا اللسان الذي تقع فيه مدينة عانة وسط ما يبدو بستان لا نهاية له من النخيل. لا أستطيع وصف شيء سوى شعوري بالسعادة لهذا المنظر. كانت البغال تهز رؤوسها وتحث صليلاً بأجراسها. مشى حجي محمد بخطوة مضاعفة، وانطلق حمادي من أعماق روحه باغنية في مديح عانة. من المؤكد أن المنظر كان ساحراً. عندما كنا نصعد التل، كان المكان يبدو وكأنه زمردة في حلبة من الذهب، كان في غابة الخضرة وسط التلال الصفراء للصحراء. شققنا طريقنا على طول زقاق ضيق على يمينه جرف منخفض وعلى يساره بساتين جميلة مسيجة لسوء الحظ

باسوار مبنية من الطين. كان هذا الطريق الذي يعتبر الطريق الرئيسي والوحيد للوصول إلى المدينة، ضيقاً للغاية بحيث أننا اضطررنا إلى التوقف فيه لأكثر من مرة بسبب خروج الجمال من المدينة. سرنا بعد ذلك عبر شارع موحل حيث احتشد على أبوابه النساء والأطفال لمشاهدة وصولنا، وفي الآخر توقفنا في مكان مفتوح على ضفة النهر مُعد خصيصاً للقوافل، لأنه رغم أن عانة تعتبر مكاناً كبيراً، إلا أنها تفتقر إلى أي خان.

*

*

*

الفصل الثامن

من عانة إلى بغداد

عانة - مدنها على الطراز العربي - المرض - وادي فهمين - نزاج - حديثة - وادي البغداد -
عانة - ماضية - المدينة - ميسون القار - رمضان - رجالي يقبضون
على اثنين من اللصوص - قلعة الرمادي - الاتصال بالحضارة - المرور بين الأهوار - بغل يصاب
بالإرهاق - حصول حادث للخنق - قارب الفرات - قوارب الكوفة - الفلوجة - مسير ليلي -
ضالنا للطريق - القنوات البابلية - مكر كوف - منظر بغداد - المزيد من المسلتحات
والمصاطب - الوصول إلى بغداد

تعتبر مدينة عانة مدينة مميزة من بين مدن الفرات الأخرى وتشغل موقعاً
قريباً وممتعاً. فالنهر الذي يجري شمال المدينة، يلتف حول منحدر كلسي تقع عليه
قرية وقلعة الرحوة التي ورد ذكرها آنفاً وبعد ذلك، يتشكل لسان بري وعرة طويلة.
تقع على الضفة الغربية منه (أو بالأحرى الجنوبية كون النهر يتجه هنا شرقاً)
المدينة. يعتبر تصميم عانة لافتاً للنظر فهي تشغل شقة ضيقة من الأرض الزراعية التي
يبلغ طولها ليس أقل من ستة أميال. أخبرني رجالي أن الأمر يستغرق ساعتين للمرور
خلال المدينة ووجدت ذلك صحيحاً. ورغم ذلك فعدد سكانها ليس كبيراً كون المدينة
ضيقة إلى حد بعيد حيث يحدها من أحد الجوانب الصحراء ومنحدر واطن ومن

الجانب الآخر النهر. وعلى خلاف معظم المدن العربية، فبدلاً من أن تكون البيوت مزدحمة فإن جميعها تقريباً مبنية في بساطينهم الخاصة. إنها في الواقع شكلاً من مدينة السدنهام^(١) على الطراز العربي. فالشارع الطويل الممتد على طول المدينة تقطعه قنوات تنقل الماء من الناعور إلى البساتين ولأن القنوات المنصوبة على هذه القنوات تكون بمستوى أعلى من مستوى الطريق، فإن المرور وسط عانة سواءاً أكان بواسطة تخت أم على ظهر حصان يعتبر أمراً ممتعاً لأن المرء يصعد باستمرار على حذب هذه القنوات.

وقد لاحظت أن سكان عانة يتميزون بميزات لافتة للنظر والتمثلة بمظهرهم الذي ينم عن الصحة وعاداتهم اللطيفة. تلبس معظم النساء والأطفال حلقات الأنوف على النمط الصحراوي، وفي الواقع أن حدود الكثير منهم تكون وردية وهو شيء غير اعتيادي تماماً في البلدان العربية. لأن الأولاد يشاهدون طول اليوم في الدير وهم يجمعون الخشب الطافي على سطح الماء حيث يفعلون ذلك ببراعة متناهية. يدعي الكثير من مسلمي عانة أنهم سليلو الخلفاء الأمويين وقد حكمهم في العصور السابقة شيخ منهم مستقل. يقول ابن حوقل أن اسم هذا الأمير في زمنه هو عباس بن العمار الغني. وقد وجد تاشارو^(٢) في بداية القرن السابع عشر أن حاكمها هو الأمير أبو ريشة الذي امتدت سلطته عبر الصحراء إلى تدمر^(٣). وقد ذكر بعض الرحالة هذا الاسم بطريقة مغايرة، وكتب السيد رالف فنتش الذي زار المنطقة في نهاية القرن السادس عشر ما يلي: "على نهر الفرات من البيرة إلى الفلوجة، هناك بعض الأماكن عليك أن تنفع فيها رسوماً.. لصالح أبناء عربو رايز (Arborise) الذي يعتبر ملك العرب وجميع الصحراء

(١) Syddendam هي منطقة سكنية تقع في قصبة لويشام الإنكليزية، (الترجم).

(٢) Teixeira هو بادرونا شارو المتوفى عام ١٦٤٠ وهو مستكشف برتغالي واحد الرحالة الأوائل الذين وصلوا إلى الأفرون في عام (١٦٢٧-١٦٢٨)، (الترجم).

(٣) انظر لينسورث.

الكبرى ولديه عدة قرى على النهر". ومرة أخرى يقول جاسيارو بالبي الذي اجتاز النهر في عام ١٥٧٩م: "يعيش في قلعة عانة الشبيهة بقلعة ديانا (عربورايز) ملك العرب".

من خلال الأعداد الكبيرة من ذوي الأردية والعمائم الخضراء، يتضح أن هناك العديد من السكان الذين يدعون أنهم من نسل النبي، إلا أنه يقال أن هناك أيضًا أعدادًا كبيرة من المسيحيين واليهود.

تقع قلعة عنانا أو عناثو التي اشتق منها اسم عانة وفتحها الإمبراطور جوليان، على أحد الجزر في النهر.

ازدادت حالتي الصحية خلال الليل سوءًا. فقد تغلب عليّ الزحار الذي جاء بسبب استحمامي الطائش في الفرات وكان الألم الذي عانيت به بالغا. ورغم حرارتي العالية والمليح، لم أتمكن من تناول أي دواء لأن قفل حقيبتي قد أصابه العطب وكنت عاجزًا عن فتحه لمدة يومين. وقبل ساعتين من حلول الفجر، جاءني اثنان من رجالي الذين كانوا رفاقًا طيبين إلا أنهم لا يفهمون قلولي ولا يتعاطفون مع معاناتي القاسية، وابلغوني أنه حان وقت الرحيل وبدأوا يحلّون حبال الخيمة. وقد وجلت أن هذا قد جاء بناءً على أوامر بخيت الذي كانت لدي معه مشكلة لنفس السبب، والذي يعتقد الآن بأنني ضعيف إلى درجة لا تمكنني من مقاومة إزعاجه حيث كان يرغب لسبب معين أن يصل إلى بغداد مبكرًا، لهذا كان يود أن يكون سيرنا على مراحل طويلة. ولأنني كنت منهكًا بفعل المرض، فقد شعرت أنه ليس من المناسب لي السفر في الطقس البارد الذي يسبق شروق الشمس ولا أن أسمح بمثل هذا الأمر، لهذا نهضت وقبل أن يصل الأمر إلى تهديد الرجال بمطرقة أوتاد الخيمة، توقفوا عن عملهم.

عند شروق الشمس، غادرنا الخيم وذهبنا نتخطى إلى الأعلى والأسفل في الطريق الذي تقطعه قنوات المياه. وقد مضت ساعة ونصف قبل أن ننتهي تمامًا من آخر بساتين النخيل والبيوت المتفرقة، وبعد ساعة دخلنا في وادي يضم بركة ماء راكد طويلة حيث تتطلب الاستدارة حول رأسها التفافاً كبيراً، لم أتمكن من معرفة اسم هذه البركة، إلا أنها تبدو في نفس موقع بحيرة تلبس التي يشير إليها كبرت في خارطته الكبيرة. وقد شربت جميع البغال الماء في هذا المكان وتمت إعادة تعبئة المطارة بالماء لأننا ننتظر مسير يوم طويل في الصحراء. وما هو غريب حقاً، أن العرب يفضلون شرب الماء الصافي إلا أنه راكد وربما فاسد على شرب مياه النهر المضطربة العذبة. ولو كنت معتاداً على فعل ذلك، فإني سأعزي مرضي إلى هذا، إلا أنني باستثناء مرة أو مرتين كنت قد تذوقته، وكنت دائماً حريصاً على الحصول على ماء النهر.

وبعد مرور ساعة أخرى، كنا نسير على سهل خصب إذ توجد جنوب عانة ساحات كبيرة من الأراضي المزروعة، ثم بعد ذلك دخلنا في الصحراء وكانت عبارة عن أرض مرتفعة مملة وقد سرنا عليها مدة ست ساعات. وفي الصباح شاهدنا خيام بعض الرعاة العرب، وباستثناء ذلك لم نرى أي أثر للحياة. وعند حوالي الظهر وصلنا إلى طرف وادي خطير وعرجنا يدعى فهمين. ورغم أنني كنت بشكل عام أترجل عن البغال عند مرورها في الوديان الوعرة وذلك لتسهيل سيرها، وقد كان رجالي يصرون دائماً على أن ذلك غير ضروري، إلا أنهم جاءوني هنا للمرة الأولى وطلبوا مني فعل ذلك. كان المنحدر عندما نظرت إليه يبدو لي مشابهاً تقريباً إلى صخور وحفر شلال لودور في كميرلاند، ويبدو مستحيلًا إلى حد ما محاولة دفع البغال بمحففتها للسير على مثل هذا المكان، مع ذلك، فقد سارت بإقدام عليه، فهي تهبط بذلك من سلسلة الصخور التي يبلغ ارتفاعها ثلاثة أقدام رغم الأوزان الثقيلة التي تحملها، وتصد على وبين الصخور الكبيرة والجلاميد، ويعتبر هذا عملاً مخيفاً بالنسبة لهذه الحيوانات المسكينة، إلا أنها

تستجمع قواها معاً رغم احمالها الثقيلة التي تعيق حركتها. وفي الآخر، وصلت بأمان وسلام إلى الجانب الآخر، رغم أن كل عضلة فيها ترتجف بفعل الإجهاد الشديد والتمايل أثناء السير. لقد دبرت البغال التي تحمل الأمتعة أمرها بذلك شاقة طريقها وهي تتسلق الصخور وكأنها هرراً صغيرة أكثر منها من رباعيات الأرجل ذات الحوافر، تبع ذلك أيضاً وديان أخرى مشابهة إلا أنها أقل وعورة. وبعد ذلك مباشرة نشبت مشاجرة حادة بين الشرطي المرافق لي وبخيت حول تحديد أي قرية سنتجه إليها، حيث يؤكد بخيت أنه لا يوجد علف للحيوانات في القرية الأقرب التي يريدنا الشرطي أن نتجه إليها، بينما يقول الشرطي أن تلك مسافة طويلة غير معقولة من عانة وحتى الآن ورفض مرافقتنا إلى مسافة أبعد. شعرت أنه ربما يكون حديث بخيت كذبة، خاصة وأنني أعرف أنه على عجلة تامة للوصول، إلا أنه من جانب آخر مما له أهمية مماثلة بالنسبة لي كوني مريضاً أن أقصر قدر الإمكان المسافة إلى مقصدي الأخير، لهذا أعطيت الرجل الهدية المعتادة وتركت له لحال سبيله.

شاهنت على قمم التلال من حولنا اعمدة كبيرة من الأحجار، تبدو وكأنها شواهد قديمة لقبور، لم أستطع أن اتخيل ماذا يمكن أن تكون هذه، إلا أن العرب ينكرون هذا الرأي. لقد وصلت الآن إلى مسافة بعيدة نحو الجنوب بحيث بدأنا نشعر بتبدل الجو وكانت الحرارة والجفاف ثقيلة الوطأة، فقد كانت الشمس ولا تزال منذ بضعة أيام قوية بحيث أنني شعرت أن القبعة لا تكفي لحماية رأسي حتى لو لف حولها لفاقاً للوقاية من الشمس، ووجبت أنه من الضروري استخدام المظلة عند السير.

نزلنا إلى السهل الذي يجري فيه النهر عند حوالي الساعة الثالثة، وبعد قرابة ثلاثة ساعات وصلنا إلى حديثة. وعندما اقتربنا من هنا المكان الجميل، شاهدنا العديد من أضرحة الشيوخ التي تعلوها قمم مستدقة بدلاً من القباب الشائعة الاستخدام في

بغداد، إلا أنه لا يشاهد مثلها في مصر. كذلك مررنا بمقالع الحجارة، حيث جرى استخراج الكثير من كتل الأحجار الكلسية ووضعها في حالة الانتظار لغرض نقلها عن طريق النهر إلى بغداد. بُني جزء من حديقة على جزيرة، ويفترض أنها مدينة قديمة، رغم أنه لا يبدو أن تم تعيينها بشكل مقنع في الخرائط وكتب الرحلات. وحالاً تم نصب خيمتي، فتحت قفل حقيبتني بالقوة للحصول على الدواء، لأنه لم تظهر أي علامة لشفائي من المرض، وكنت عاجزاً عن تناول أي شيء باستثناء بيضة أو بيضتين مع قليل من الرز حيث أجبرت بلعومي على ابتلاعها، وكان الطعام يسبب لي شعوراً بالقرف. سافرنا على مرحلتين، ربما نكون قد قطعنا خلالها مسافة تراوح بين أربعين إلى خمسين ميلاً. لقد كبح الدواء الذي تناولته (وهو قرص مضاد للهيضة) تفاقم المرض إلا أنه لم ينهه، ولكن رغم هذا ورغم عراق الكلاب بين حبال خيمتي وزيارة مفاجئة لإحدى القطط إلى خيمتي ليلاً ورأسها في وعاء الحليب، إلا أنني تمكنت من الحصول على قسط من النوم. بعد ذلك شعرت أن شيئاً يتحرك أسفل وسادتي، وبعد إضاءة شمعة لمشاهدة ما يجري، خرج فار صغير جميل من أسفل حقيبتني وأخذ ينظر نحوي دون خوف تاماً، كان رمادياً وأكبر من الفار الإنكليزي وله زوج من العيون السوداء الرائعة مما لم أشاهد مثلها من قبل. كان اليقاً للغاية فهو يجري فوق جسدي ثم يندفع أسفل حقيبتني وخلف وسادتي ثم يخرج ثانية ويسمح لي أن أرفعه إلى أعلى بين يدي، فهو رفيق صغير غير مؤذي. لهذا تركته معي وأطفأت شمعتي، وبعد ذلك مباشرة سمعته يقرش قطعة من البسكويت.

وفي صباح يوم ٢٢ آذار، اليوم الثامن عشر من بدء رحلتي، بدأنا المسير في حوالي نفس الزمن المعتاد، وفي غضون ساعة دخلنا إلى الصحراء وبعد ذلك عبرنا وادي ذا ماء راكد وبعد قرابة ساعتين، وصلنا إلى وادي آخر يسميه رجال وادي سفيدان، ومنذ هذا الوقت حتى الظهر كان الطريق يمر عبر أرض رتيبة ممتلئة بمائلة للتي سرنا عليها

في اليوم السابق. كان الهواء ثقيلًا يقبض الصدر وهناك بعض العلامات عن هبوب عاصفة. مع ذلك سقطت زخات قليلة من المطر خلال ذلك اليوم. وبعد حوالي ساعة، اقتربنا من النهر حيث سرنا أسفل منحدرات كلسية تتأخمها سلسلة من الوديان التي تنتهي بأرض منحدرية من الصخور التي يجب أن تشكل شلالات كبيرة في مواسم الأمطار. كان سطح المنحدر مليئًا بالشقوق والثقوب والكهوف الصغيرة التي يبدو أنها جاءت بسبب تآكل الأجزاء الرقيقة من الصخور أثناء جريان النهر بمستوى أعلى. وبعد ذلك مباشرة، نصبنا خيامنا في مصب وادي جميل يدعى البغداد، ورغم أننا لم نشاهد أي خيمة أو بيت من أي شكل، إلا أنني اعتقد أننا في مكان قريب من جامع وقرية تحمل نفس الاسم والتي أورد إينسورث ذكرها. كان المكان مقفرًا ومنعزلًا إلى حد بعيد، ولو كنت بصحة جيدة وقادرًا على تناول الطعام (حيث لا أزال غير قادر على ذلك)، لكانت تغذيتي سيئة، إذ أنه لم يعد يتوفر لدي أي طعام باستثناء بعض الرز والتمور. كنت منهكًا للغاية بحيث أنني قد انطرحت ونمت لقراءة اثنتي عشرة ساعة دون انقطاع، ولكن عند بقظتي وجلت نفسي مرتاحًا ولكن بعد قليل فقط. عند شروق الشمس سرنا إلى مسافة قصيرة أعلى الوادي ثم صعدنا خارجين منه إلى الجانب الجنوبي. لم يكن هناك أي مطر في الليل، ولكن عندما خرجنا إلى السهل، وجدنا السماء ملبدة بالغيوم الداكنة إلى الجنوب حيث كان هناك أيضًا الكثير من البرق. وبعد ذلك بوقت قصير، تكاثفت الغيوم بسرعة، وبعد وميض للبرق وقصف للرعْد الذي يبدو وكأنه يتحول من جانب السهل إلى الجانب الآخر، أخذ المطر بهطل بغزارة. إلا أنه استمر بالهطول لفائتق معدودة، لكنه قد رطب الجو بشكل كبير وملأ كل أخاديد الطريق بالماء كزقاق إنكليزي في شهر كانون الأول. واخنت مجاري صغيرة من المياه تجري أسفل المنحدرات الصخرية مشكلة أودية صغيرة لذاتها. عندما يكون لوابل ربيعي من المطر مثل هذا الأثر، من السهل إدراك كيف تملأ العواصف المطرية الكبيرة مجاري

المياه الكبيرة. لا يبدو على الرجال توخي الحذر من المطر مطلقاً. وقد أدهشني ذلك كشيء غريب حيث يكون المطر في هذه البلاد أمراً غير متكرر الحدوث. اعتقد انه في جو حار كجو البلاد العربية، يعتبر ترفاً كبيراً البقاء أطول مدة في حالة من البلى.

تعتبر الصحراء في الطقس الغائم بأشد ما يكون من القبح. ولكن في حالتها الاعتيادية تحت الشمس المشرقة البهية، فإن لها جمالها الخاص، ولكن دون ذلك تعتبر شيئاً مملاً ومثيراً للسأم إلى حد بعيد، جاءني حجي محمد مكتئباً يقول بأنه يشعر بأن بطنه على غير ما يرام. ولحسن الحظ تبين أن حالته غير خطيرة، وبعد أن أعطيته جرعة من ملح كالرلزياد قال أنه الآن على ما يرام.

وبعد وصولنا إلى النهر، مررنا ببعض المنحدرات التي تتميز طبقاتها بالتموج وهي المرة الأولى التي أشاهد فيها مثل ذلك منذ مغادرتي حلب حيث طبقة الصخور ليست افقية. عبرنا كذلك الكثير من الوديان والبرك واجتزنا بعض النماذج الغريبة من احجار الكلس المتعرضة للتعرية حيث تقي الطبقة ذات الصخور الصلبة التكوينات الأقل صلابة مكونة بذلك اشكالاً غريبة تغطي وجه السهل.

وسرعان ما أصبحنا على مرأى من هيت الواقعة على بُعد حوالي ميل واحد من الجبل وعلى سهل أسود مشبع بالماء، وتعود خاصيته المتميزة هذه إلى الملح والقار، حيث تلاحظ هذه في هذا المكان الفريد. وعلى الجانب الأيمن مررنا بعدة أضرحة لشيوخ، كان من بينها ضريحاً كبيراً بحالة مهدمة يسميه حجي محمد (الزار).

أقيمت المدينة بمعظمها على السهل، حيث بنيت على تل يحيطه خندق والذي يبدو إلى حد ما بأنه تل اصطناعي وشبيه بقلعة حلب. ويوجد فيها منارة واحدة وبالقرب منها مزارع نخيل حيث معظم الأشجار قصيرة وصغيرة العمر.

وعند حوالي الساعة الواحدة سرنا في فضاء مفتوح على الجانب الجنوبي من المدينة وبالقرب من دار الحراسة، يغطي الأرض في كل مكان القار الصلب وهو شبيه بالإسفلت إلى حد بعيد مما جعل من الصعب علينا نصب الخيمة. إضافة إلى هذا كان المكان مليئا بفضلات القوافل الأخرى ونتنا بشكل مقبته بحيث أنني فكرت في الذهاب إلى الخان القريب منا على قمة التل. كانت رائحة الأرض الكريهة تبدو لي أهون الشترين، وقد تم نصب خيمتي بصعوبة بالغة، حيث جرى أولاً فتح ثغرات للأوتاد في الإسفلت بواسطة مخارق حديدية كبيرة. لقد جعلت حقيقة كون المكان يقع خارج المدينة الوضع غير مريح البتة، حيث أصر حشد كبير من الفتيان والرجال على الدوران حول الخيمة وهم ينظرون بتطفل إلى داخلها ويقومون بأعمال بهلوانية على الحبال. وبعد وقت قصير، أرسل المدبر أفندي شرطياً لإبعاد الناس وحراسة الخيمة خلال الليل.

كانت المدينة التي يعود تاريخها إلى عصور قديمة مبنية كما سبق أن اوضحنا على ما يبدو أنه تل قديم^(١). يبلغ عرض الشوارع حوالي خمسة أقدام وفيها مجاري مفتوحة تجري نحو الوسط وتفوح منها روائح كريهة ونتاجاً. بنيت الأكواخ الخربة التي تشكل المدينة من الطين وهي كما أستطيع أن أرى نتنة كالشوارع. قمنا بجولة وسط هذا الفردوس ورغم أن سكان المدينة لم يوجهوا لي في الواقع أي إهانة، إلا أنهم أظهروا استياءهم من وجودي.

وجنوب المدينة هناك أكوام هائلة من الخرائب يظهر أنها بقايا مدينة (IS) القديمة التي ذكرها هيرودوتس والتي يجب أن يكون تل هيت يمثل قلعتها. وتنتشر على هذه الخرائب العديد من الأفران المبنية على شكل خلايا حيث يجري فيها حرق الكلس لغرض تصديره إلى بغداد.

(١) تم فتحها من قبل أحد قادة عمر في عام ٦٣٧ م. (المؤلف).

أخذت أتمشى بعد ذلك نحو عبون القار الواقعة إلى غرب المدينة بمسافة حوالي نصف ميل تقريباً. إن هذه الظاهرة اللافتة للنظر هي التي اكتسبت هيت سابقاً اسم "نهر الجحيم" فالنفط يفور من الأرض وبعد تعرضه للهواء يصبح قاراً وبترولاً. أما الماء فيجري نحو منخفضات أو برك مربعة صغيرة حيث تتشكل كميات كبيرة من الملح بعد تبخره. يتميز الماء في هذه المنخفضات بكونه فاتر الحرارة وفي بعض الأحيان يكون ذا لون أصفر فاقع. يكون للملح في بعضها على السطح بينما يكون في أخرى تحت الماء أو على الحافات فقط. ومنظره يشبه إلى حد بعيد منظر صقيع متجمد. والماء هنا ذو طعم غير مستساغ، ويبعث المكان نفسه رائحة كريهة كريهة.

لقد جرى تمجيد عيون القار هذه في الماضي، وقد شاهدها الإسكندر الكبير وتراجان وسفرس وجوليان. يقول هيرودوتس أن قار (IS) قد استخدم كسمنت (أو رابط بين الأجر) في أسوار بابل. ويستخدم في الوقت الحاضر كوقود أو لطلاء القفف أو الزوارق الدائرية الصغيرة المستخدمة في النهر إضافة إلى الأنواع الأخرى من المراكب ويقال أنها تستخدم أيضاً لتبطين مجاري المياه لري البساتين والأراضي الزراعية. ويصنر القار والبتروك بكميات كبيرة إلى بغداد ولكن لا هذه ولا تجارة الملح أو الكلس قد أضفى على المدينة مظهر الازدهار أو الرخاء^(١). وقد شاهدت في النهر في هيت عدة مراكب غير

(١) للمزيد من المعلومات عن عبون النفط في هيت يمكن مراجعة كتاب اينسورث (بحوث في بلاد آشور) صفحة (٨٥) و"مسرد شخصي عن بعثة وادي الفرات" المجلد I صفحة (١٢٣)، وكتاب كراتون كيري (رحلة عبر تركيا الآسيوية) المنشور عام ١٨٧٨ المجلد II صفحة ١٧.

تعتبر كتابات الرحالة الأوائل دائماً مثيرة للمتع. يقول جاسبارو بالي، "وصلنا إلى (أبت) التي يوجد بالقربها نافورة تغلي من الزيت حيث يهني الأهالي بيوتهم منه إذ يطلون الأغصان لقطوعة من الأشجار بهذه المادة بحيث تبدو لها من الزيت أكثر مما تبدو بأنها من الأخشاب، يستطيع كل فرد أخذ ما يريد من هذه المادة مجاناً. ولو لم ينهل الفرات الفيض هذا الزيت بعين، فإنهم يقولون أنه ستشكل تلال منه". -

متقنة الصنع ذات نهايات مربعة، جرى بناؤها بغية استخدامها لنقل احمال القار إلى البصرة. تعتبر النواعير هنا اكثر إتقاناً في الصنع من النواعير التي سبق أن شاهدتها وبعضها فيها ثلاثة او اربعة من دواليب المياه.

كان اليوم التالي هو اول ايام رمضان وهو شهر الصوم في الإسلام، وعندما أويت إلى فراشي كان الناس في جميع انحاء المدينة يطلقون النيران احتفالاً بالمناسبة. ونتيجة لذلك، رأى رجالي انه من المناسب إقامة ليلة خاصة بهم، فقد بدأ حمادي يغني كالقنبرة حتى ساعة الصباح. وبين هذه الأشياء التي تقطع النوم وعراك الكلاب والرجال الذي يسوقون حميرهم من فوق حبال خيمتي وتنزع الشرطي المرافق لي وبصافه خارج المدخل والرعد والبرق والعواصف، لم أتمكن من أخذ سوى قسط قليل من النوم. وعند حوالي الساعة الواحدة خرجت ورايت منارة الآجر الطيني الكبيرة مضاءة باجمعها وسمعت بوضوح صوت تراتيل المؤمنين التي تعتبر في صمت الليل شيئاً مؤثراً ورائعاً.

غادرنا مبكرين وقطعنا لبعض الوقت تلالاً حصبائية واطئة قرب النهر. وقد شاهدنا في احد الأماكن عودة شجيرات الطرفاء وهو منظر كان غائباً عنا لبضعة ايام. بعد هذا مررنا ببقعة أرض مرتفعة من الصحراء تغطيها قطع متألئة من نوع

وكتب رالف هيتش الذي زار المنطقة في عام ١٨٨٢ ما يلي: «على نهر الفرات وعلى مسيرة يومين من بابل وفي مكان يدعى (لبت)، هناك شيء غريب يمكن مشاهدته في موقع قريب منها وهو عين تنفث الزيت الغلي باستمرار إلى الهواء ورائحته كريهة حيث يسيل الزيت ويغطي مساحة كبيرة مليئة به. يقول للسلمون انه نقر الجحيم. وبسبب وجود كميات كبيرة منه، يطلي الرجال في تلك البلاد قواربهم بهذه المادة بسمك إنجيين او ثلاث إنجات كي لا يدخل أي ماء إلى داخل القارب. تسمى قواربهم (الدائق)».

كذلك يتضح من خلال كتاب تاشارا تاريخ مركوند، انه قد استخدمت فنور مليئة بالغاز والنفط المشتعل ليام الخلفاء في المعارك، وهو سلاح غير ماض، لأنه إذا ما هبت الريح في الاتجاه العاكس، فإن الرماة هم الذين سيحرقون بدلاً من الأعداء.

معين من معدن السبار. ليس هناك أي نوع من الأعشاب النامية في هذا المكان. وبعد ذلك مباشرة، هبطنا في أرض ملحية موحشة وهي ندية بالرطوبة إلى حد يصعب المشي عليها، رغم أنها خالية من الماء. وتمتد على جزء من هذه الأرض سدودًا لقناة قديمة، هي الأولى التي نشاهدها من شبكة القنوات البابية. وتتألف هذه السدود من سدين أو استحكامين يمتدان بشكل متوازي عبر السهل.

وعند حوالي الساعة الحادية عشرة، نهضت فجأة بسبب توقف التخت ونظرت إلى الخارج حيث شاهدت بخيت وحجي محمد وحمادي وهم ينطلقون وعصبيهم في أيديهم بأقصى سرعة على الأرض خلف ثلاثة أشكال تعدو بسرعة بالغة. لم تكن لدي أي فكرة في البداية حول ما يجري، ولكنني رايتهم يلحقون بالفزاعات الهاربة ويدركونها بشدة. تفرقت الفزاعات، إلا أن محمد قد أمسك بأحدها وطرحها أرضاً، ولحقه الآخرون وأخذوا يضربونها بشدة. وعندما ركضت نحو ما يبدو أن يكون مسالة قتل بالعنف، كف الرجال عن الضرب وهجم حجي محمد على المسكين وأخذ يلكمه بتواصل. ثم اعتقلوه بعد ذلك وجلبوه، كان رجلاً بانساً مسكيناً ذا وجه مأكراً. يبدو أن ثلاثة رجال قد ظهوراً فجأة وحاولوا سرقة أحد البغال. انطلق الشرطي الذي كان يسير وراءنا خلف أحدهم عندما تفرقوا وجلب أحدهم وكان بانساً كالأول. لا شيء يمكن فعله إزاءهم، والواقع أن الأول قد عوقب بقسوة لمحاولته السرقة، لهذا حذرتهم وطردتهم بعد أن زرعت الهلع في نفوسهم وذلك بتصويرهم.

ونتيجة لهذا التأخير البسيط، لحقت بنا المجموعة التي كانت تسير خلفنا. كانت تتكون من رجل مع زوجته والأطفال، والجميع يمتطون الحمير. سارت النساء التي إحداهن جميلة جداً أمام شباك التخت وألقت نظرة فاحصة داخله. وسرعان ما

لاحظ الرجل ذلك، حيث كان يسير والجموعة بكاملها أمامه كقطيع من الأغنام، وفي الحال استخدم عصاه لتحافظ نساؤه الصالحات على مسيرهن الحسن في المقدمة.

وبعد قليل وصلنا إلى (ولي)^(١) أو ضريح شيخ يدعى الشيخ وبس، الذي يبدو أن له قداسة محلية خاصة. جاء الرجل الكبير الذي يتولى العناية بالمكان وطلب هدية، وهو شكل من أشكال الضريبة المفروضة على جميع المسافرين. وفي حوالي الساعة الثانية، قابلنا أحد خيالة عنزة، وهو الأول الذي شاهدناه منذ بضعة أيام، هناك أماكن في هذه المنطقة قد تمت زراعتها بكثافة، إلا أن هناك العديد من بقع الأراضي المستوية الطينية الملحية للملة، تقطعها هنا وهناك تلال رملية.

وبعد مرحلة طويلة من السير لمدة عشرة ساعات ونصف وصلنا إلى الرمادي أو قلعة الرمادي وهو مكان ذو أهمية بالغة، كونه يقع وسط النخيل. خيمنا في ميدان كبير حيث يوجد بناء ضخم على أحد الجوانب وصرح مهيب، اعتقد أنه السراي على الجانب الآخر. لقد بنى كلا المبنيين مدحت باشا عندما كان والياً على بغداد. وقد خرج معظم سكان المدينة كالعتاد لمشاهدة وصولي، وكان الجميع فضولياً بشكل مقبوت وبعضهم غير متمدنين البتة. سمعت حمادي يشرح لهؤلاء القوم بأنني القنصل، وهذا يفسر سبب الإشاعة التي سبق أن وجبتها منتشرة في المدن التي زرتها. سألني أحد الأشخاص فيما إذا كنت أتحدث الفرنسية، ورغم جوابي له بالإيجاب، فإن الحديث التالي لذلك لم يكن متواصلاً لأن هذه الكلمات هي الوحيدة التي كان يعرفها السائل. حضر رجل شرطة وتفحص أوراقتي ورحل بعد أن سال فيما إذا كانت سلة القناني البرينة التي كانت تحتوي قننيتين أحدهما مياه معدنية مسهلة والأخرى شراب

(١) يعني الولي في الواقع المحبوب أو الفضل من قبل الرب، إلا أن هذه للفردة تطلق باستمرار على أضرحة القديسين، (نؤلف).

براندي للأغراض الطبية هي للحصول على المتعة أو "الكيف". يتميز سكان قلعة الرمادي بأنهم ذوو بشرة فاتحة ولهم عادات سكان المدن بحيث يختلفون جدًا عن الزهو الصريح للبدو الذي أراه دائمًا أو حتى عن عادات سكان الدبر وعانة. إلا أن الطربوش الذي يعتبر شائعًا جدًا في حلب، غير شائع الاستخدام هنا. لا تقع قلعة الرمادي على ضفة النهر مباشرة، والماء الوحيد الذي يحصلون عليه هو من عين في بستان مجاور ومجرى ماء. قمت بالاستحمام للعتاد فيه وهذا ما أصاب البستاني بالدهشة. ورغم أن قلعة الرمادي مكان كبير إلا أنني لم أستطع أن أحصل على قطرة من الحليب فيه.

لبيان جشع بعض العرب، علي أن أذكر حكاية باني قد قدمت لرجالي القليل المتبقي من الرز (كوننا سنصل بغداد بعد يومين) واشترت لهم دجاجتين كهدية. لم أكد أفعل ذلك، حتى جاء محمد إلى خيمتي وطلب مالا لشراء الوقود لغرض الطبخ. ابلفته أن عليه أن يخجل من نفسه وتركني وهو يشعر بالاستحياء.

في الليل وعند الساعة السادسة، أطلقت النار، فخرجت واستطعت أن أرى شخص المؤذن وهو يرتدي البياض وتسطع عليه الأضوية والمصابيح ويقف على منارة صغيرة أو سقف بيت عالي وعبر هواء الليل الساكن يصل إلي ترتيله الجميل. تختلف التلاوات الليلية لهذا الشخص خلال رمضان عنها في الأوقات الأخرى من السنة.

وفي الصباح التالي غادرنا الرمادي وشعرت أننا نعود إلى الحضارة حيث تبعنا خط أعمدة التلغراف التي تربط هذا المكان ببغداد. وقد جاءني محمد بحكاية مفادها أنه سمع بأن القنصل البريطاني قد غادر بغداد وأن عليّ مقابلته ذلك المساء في القلوجة. وقد تبين أن هذا الخبر غير صحيح. وقال أيضًا أننا سوف نسير خلال النهار في أرض يصل وحلها إلى الصدر وهو توقع رائع يتطلع إليه المرء خلال مسيرة يوم كامل.

تختلف طبيعة البلاد التي سرنا عليها في الصباح عما أراه الآن. فالسمة الأساسية لها هي تلال الأوحال التي ترتفع على سطح السهل على نحو خطر. يبدو على هذه التلال مظهر الطمي أو الغرين، إلا أنني غير متأكد من ذلك لأنني شاهدت معدن السيار يتلألأ على جوانبها. وبعد ساعتين من مغادرتنا مررنا بآثار قناة قديمة أخرى، التي يجب أن تكون تلك التي ذكرها إينسورث بأنها توجد في مدينة (صوره) التي تبعد أربعة أميال جنوب الرمادي والتي عرفها الرومان باسم (نهر سارس) ويسمونها التولوميين باسم (مارسارس) أو (سارس المسلمين). وبعد وصولنا ومغادرتنا النهر سرنا لحوالي ساعتين بين الأراضي المزروعة وتلال الأوحال حتى أصبحت الساعة العاشرة حيث وصلنا إلى النهر ثانية الذي تتاخمه هنا مستنقعات من الأوحال. ورغم الأرض السيئة، إلا أننا سرنا بسرعة أكبر من المعتاد وهذا إجراء قاسٍ جدًا على البغال بعد رحلة طويلة كهذه.

كنت مستاءًا للغاية من تصرف بخيت خلال مسيرة الصباح. كان هناك شيخًا كبيرًا يتبع القافلة ومعه مهر بغل صغير قوي غير مروض. لدى هذا الشيخ المسكين خرجًا ثقيلًا، إلا أن الحيوان لا يحمله، والواقع أنه من الصعوبة أن تجعله يمشي بنفسه، وفي كل مرة يسعى العجوز لوضع الخرج على ظهره، يندفع الحيوان ويرمي الخرج بعيدًا، ومما يثير الإشفقة أن ترى الرجل العجوز وحمله على كتفه وهو يسحب البغل العنيد الذي يتخلف في السير عن الآخرين وبذلك يضيف عشرة أضعاف لأعباء سيده. طلبت من بخيت مساعدته بوضع الخرج على أحد بغالي لبرهة من الزمن، إلا أن قاسي القلب رفض ذلك تمامًا قائلاً أن لدى الرجل حيوانه الخاص وأنه أي بخيت مستاجر لتقلي وامتعتي فقط. وهنا عمل فظ قلما شهدته لدى العرب الذين يتميزون بشكل عام بأنهم محسنين وكرماء نحو الكبير أو العاجز.

عند حوالي الساعة العاشرة وصلنا إلى مستنقع موحل قدر مليء بالمياه الراكدة، وبعد مسير متخطط لمدة نصف ساعة في هذا المستنقع المثير للجزع، ضللتنا طريقنا، إلا أننا وجدناه بسرعة لحسن الحظ. وقد حلت بالبغل الرمادي الصغير المسكين كارثة في بركة ماء، فكان علينا إنزال حمولته وسحبه وسط الكثير من الصباح والإيماء. وبعد تخليصه من هذا المازق في غضون نصف ساعة، دخلنا في أرض نصفها مزرع والنصف الآخر يسكنها رعاة عرب حيث تشاهد خيامهم وقطعان أغنامهم وأبقارهم في كل مكان. شاهدت في الأرض الزراعية محراثا خشبياً بدائياً يجره حصانان. وعند حوالي الظهيرة وبينما كنا نعب على جسر صغير يمتد على مجرى ماء للري، شعرت بدرجة مفاجئة وبدا التخت يتأرجح على الجانبين، خرجت على أي حال ووجدت البغل الخلفي ساقطاً في الماء ورأسه بارز إلى الأعلى. لقد انسحقت قوائم هذا الحيوان المسكين أسفله، ومن الضروري نزع العدة المركبة عليه ورفع التخت كي يتخلص من محنته. كانت صرخات وصيحات المكاري والسائس في هذه اللحظة مروعة. ولحسن الحظ لم يصب البغل بأي أذى واستأنفنا رحلتنا دون تأثير سيئ لهذا الحادث. وبعد هذا دخلنا في أرض مستنقعية حيث كانت خضرتها بعد ثلاثة أسابيع من السير في الصحراء أمراً يسر الناظر. وفي أحد الأماكن، كان علينا أن نخوض في بركة ماء راكد كبيرة بحيث دخل الماء إلى بطن التخت. وبعد خوض الماء في أهوار أخرى من نفس النوع، وصلنا إلى نقطة يتم عبور النهر فيها بواسطة القوارب إلى الفلوجة. يقطع النهر هنا جسراً من الزوارق الرديئة عندما يكون تيار النهر بمستوياته الاعتيادية، إلا أن طوفان الماء أخذ بالارتفاع بسبب ذوبان الجليد في أرمينيا، وقطع الجسر إلى نصفين، وبقي كل نصف ثابت على الجرف من أحد أطرافه. سرنا على طول ممر ضيق جرى ترتيبه لصد مياه نهر الفرات (ربما يقاس نجاحه من خلال المستنقعات التي قطعناها)، ونادينا على أحد القوارب. وبينما كنا ننتظر، وجدت على حافة المستنقع سلحفاة ميتة

كبيرة طولها حوالي قدمين ونصف وذات درع رقيق. وقد شاهدت هنا واحد أو اثنان من قوارب القفف الغربية التي تعتبر شائعة الاستخدام في بغداد في نهر دجلة. لقد تمت صناعة هذه القوارب من اغصان قوية صغيرة ومجدولة وتم إكساؤها من الخارج بشكل سميك بالقار. شكلها دائري تمامًا وقطرها من ستة إلى تسعة أقدام. تستطيع القفة الكبيرة أن تحمل عشر ركاب أو أكثر ويقال أنها لا تنقلب أبدًا. يقودها شخص واحد بمجناف حيث يدفعها ويقودها مع مجرى تيار النهر. أما رحلة العودة فتتم بواسطة سحبها على طول الضفة. وتستخدم هذه للنقل عبر الأنهار فقط. وهذا النوع من القوارب كونه يشاهد دائمًا ذو ماضٍ سحيق حيث وجدت صورة في بعض النقوش البارزة الآشورية^(١).

وبعد صباحنا عبنا لبعض الوقت، وصل إلينا مركب مربع يقوده عربي كبير لطيف قوي البنية ذو لحية بيضاء، تبين أنه عم محمد. صعدنا مع البغال على ظهر المركب وأخذت البغال أماكنها بثبات مما يدل على أنها سبق أن صعدت على هذه المراكب من قبل. تم وضع جميع أمتعتي في القفة وتم عبورنا بسلام. كان مجرى التيار هنا قويًا بحيث اضطر سائقو المركب إلى سحبه بقوة عكس التيار لغاية قطعه أكثر من نصف المسافة عندما تركوا المجاذيف وانساق المركب بسرعة مع مجرى التيار ونحو نقطة على الضفة الشرقية من النهر مقابل مكان صعودنا. وقد لاحظت أن التيار هنا الذي كان قويًا جدًا بشكل في فواصل معينة للقائقي معدودة دوامات كبيرة في وسط النهر يمكن سماع صوت هديرها بوضوح على ضفتي النهر، يتخذ المركب أثناء عبوره للضفة الغربية نفس خط السير إلا أنه معكوس إذ يجري سحبه إلى مكان يقع إلى الجنوب من مرسى المركب ثم يسحب ثانية متوقفًا بالضفة. وبعد الوصول أجرى

(١) وصف هيرودوتس قوارب مماثلة مستخدمة في نهر الفرات وقال أنها مكسوة بطبقة من الجلود ومصنوعة في أرمينيا، (لؤلؤ).

الركب رحلة ثانية لغرض تعبير التخت الذي وصل مهشما بأكثر مما كانت أتوقع. بلغت الأجرة الكاملة لتعبير التخت وست بغال وحمار وثلاثة رجال وأنا مجيدي واحد وبقشيش من نصف مجيدي إلى سائقي الركب. كانت الفلوجة مكانا بانسا. جرى نصب خيمتي في مكان صغير مفتوح مقابل أحد المقاهي.

تعتبر المسافة من الفلوجة على الفرات إلى بغداد على دجلة مسافة كبيرة. والواقع أنها تستغرق مسير يومين إلا أنه يجري قطعها غالباً في يوم واحد، ولأنني كنت تواقاً للوصول إلى بغداد، وافقت على السير المضاعف. وبعد نوم لمدة أربع أو خمس ساعات غادرنا بسرعة بعد الساعة الثانية. ورغم أن رجالي قد ساروا قرابة عشرة ساعات في اليوم السابق كان الجزء الأكبر منها سيراً على الأقدام وامامهم الآن مسير لمدة أربع عشرة ساعة، إلا أن النوم يبدو إليهم شيئاً غير ذي أهمية، حيث كانوا يتحدثون ويغنون معظم الليل. واستمر الجو مظلماً لعدة ساعات بعد أن بدأنا المسير ولم أتمكن من رؤية البلاد التي نمر فيها. وعندما انكشف النهار وجدت أننا نسير في سهل عشبي جميل خالي تماماً من السمة الصخرية الوعرة للصحراء العربية. تقع على يسارنا بحيرة أو مستنقع كبير نشاهد على سطحه أسراباً هائلة من الطيور التي تدور حوله. والواقع أن السهل يعج بالطيور وبعيداً فوق رؤوسنا تحلق أعداداً كبيرة مما يبدو أنه إوز بري كان الشرطي يسميها "سقافلس".

بسبب الطريق غير الواضح الذي نسير فيه والتوقيفات العديدة التي أجريناها، شعرت أنه من المؤكد أننا قد ضللنا الطريق في هذه العتمة. والواقع أنه ليست هناك أية علامة دالة على الطريق وسط السهل العشوشب الذي نجتازه حالياً. أنكر رجالي بالطبع أنهم قد أضلوا طريقهم، ولكنني قررت مراقبة سيرنا بالخرطة والحك. ولحسن الحظ سرعان ما التقينا برجل مسلح ببندقية والذي أدلنا على الطريق حيث بلغناه بسرعة

وكان بأقرب من سهل مزروع كنا نسير بجانبه على جهة اليمين، وكان بمستوى أقل من مستوى السهل غير المزروع الذي نجتازه حالياً. هناك أيضاً عدد قليل من الشجيرات القصيرة، وكان الطريق مليئاً بالبرك بسبب الأمطار الأخيرة، حيث يظهر أنها سقطت بغزارة هنا، وبعد ذلك بوقت قصير، شاهدنا تلالاً تدل على وجود قناة قديمة تقطع السهل، بعد ساعة ونصف اجتزنا ما لا يقل عن خمسة من هذه السدود الكبيرة التي تظهر الآن بأنها تقطع السهل في جميع الاتجاهات وتقطع بعضها البعض بزوايا مختلفة. وقد شاهدت قرب السد الثاني منها تلالاً واطئة وكسراً من الفخار. كان كل شيء يدل على أننا دخلنا إلى شبكة كبيرة من أعمال الري القديمة التي استطاع البابليون من خلالها رفع كفاءة أرضهم من حيث الخصوبة وغزارة الإنتاج. تحولت ضفاف القناة الأقرب إلينا دون نظرنا إلى ضفاف القنوات الأبعد في الوقت الحالي. في نفس الوقت الذي وصلنا فيه للقناة الأولى، شاهدنا أمامنا مباشرة شيئاً غريباً يذكرني برج ساعة ويست ونستر كما نشاهده من تل هارو. كان هذا هو البناء الفخم من الأحجار الواقعة في السهل الذي يبعد مسافة ستة أو سبعة أميال غرب بغداد ويعرف لدى العرب باسم تل نمرود أو عكر كوف. كان هذا النصب الغريب الراسخ الذي يرتفع لأكثر من مائة قدم بشكل دائماً مشكلة محيرة للرحالة ودارسي الآثار بوصفه برس نمرود. كان الرحالة الأوائل يعتبرون بأنه برج بابل نفسه، يكتب بالبي في عام ١٥٧٩: "وقبل شروق شمس اليوم التالي، سرنا بين هذه الآثار وجعلناها على يسارنا حيث شاهدنا قطعاً من الأسوار الكبيرة المهدمة وأحد القطع من برج بابل الكبير حتى وصلنا إلى مكادون، حيث شاهدنا أبراج بغداد أو بابل الجديدة. وابتداءً من الفلوجة كانت الأرض صالحة للزراعة إلا أننا لم نشاهد شجراً أو عشباً أخضراً ولا بيوتاً أو قلاعاً، بل كان الفطر هنا رائغاً بحيث أن المسلمين يأكلونه طازجاً". ويقول

رالف فيتش الذي سافر على نفس هذا الطريق بعد عدة سنوات: "بني برج بابل على هذا الجانب من نهر دجلة، على جهة الجزيرة العربية من المدينة. (وهي بغداد التي بصفتها بشكل واضح إلا أنه يسميها بابل)، وتبعد سبعة أو ثمانية أميال حيث البرج مهدم من كل الاتجاهات وقد كوّن سقوطه جبلاً صغيراً لهذا ليس له أي شكل منتظم على الإطلاق حالياً. لقد تم بناؤه من الآجر المجفف بواسطة الشمس ووضع بين الآجر عيدان وأوراق شجر النخيل. ليس هناك أي مدخل يمكن الدخول منه لمشاهدة داخله. وهو ينتصب في سهل فسيح بين نهري دجلة والفرات". ربما يكون الأثر الوحيد الباقي لمدينة بابلية (قد تكون أكد)، التي اختفت منها الآن جميع الآثار القديمة، والتي ربما تكون قد هدمها الخلفاء لغرض بناء بغداد. يلاحظ كرانوف كيري^(١) أن اسم عكر كوف^(٢) يطلق على المكان أكثر منه على البناء الذي يسميه الأهالي دائماً نمرود. والمراجع منقسمة أيضاً حول ماهية هذا البناء بالفعل، هناك نظرية مقبولة من قبل الكثيرين بأن هذا البناء يشكل جزءاً من معبد بيلوس. ويعتقد بكنكهام وهو رحالة ذو ذكاء مفرط، أنه يجب أن يكون جزءاً من بناء شبيه إلى حد ما بالأهرامات المصرية، وهذه فكرة مقبولة إلى حد ما، بعد رؤية أن الآثار المتبقية هي عبارة عن بناء أصم كبير من الآجر.

كان الصباح مشمساً يهب فيه نسيم ضعيف، إلا أنه ليس حاراً، وكانت الأرض التي نسير عليها تعج بالحشرات النطاطة الكبيرة من النوع الذي يعيش على الأعشاب.

(١) انظر كتاب "رحلة عبر تركيا الآسيوية"، عام ١٨٧٨، (المؤلف).

(٢) تقع هذه المنطقة على بُعد (٢٠) كم غرب بغداد، وهي تمثل بقايا للمدينة التي بناها الملك الكيشي كوريكالزو (١٢٣٨-١٢١٢ ق.م) واتخذها عاصمة له سميت بعده دور كوريكالزو وبقيت للمدينة مأهولة حتى العصر العربي. لبرز معالها زقورها الأعلى في العراق التي لا تزال ترتفع إلى قرابة ٥٧ متر. يعتقد أن ارتفاعها كان في الأصل حوالي (٧٠) مترًا، لها ثلاثة سلاسل. تشاهد فيها أيضًا بقايا القصور الملكية والمعابد وأحياء السكان، (الترجم).

كان يرفرف ايضاً في المنطقة المحيطة جراد اصفر كبير، حيث يطير بالاتجاه العاكس لأي شيء يعترض طريقها ثم تستقر على الأرض بشكل مفاجئ على نحو غريب خاص بهذه الحشرة. وبين الحشرات والطيور، يبدو أننا قد دخلنا في أرض جديدة تماماً منذ ان عبرنا الفرات واخذ تل نمرود الذي نقرب منه الآن يتغير من حيث الشكل باستمرار ويبدو انه والأرض التي يستند عليها تنفصل تماماً عن باقي السهل بفعل السراب. كان منظر الأثر غريباً جداً وهو ينتصب بعزلة تامة وسط السهل القسيح بحيث اني لا اصاب بالدهشة إذا ما عرفت انه الموطن الأصلي لبعض الجن والعفاريت التي فرانا عنها في قصص ألف ليلة وليلة.

وبعد اجتياز هذه واجتياز الكثير من القنوات أصبحنا عند الظهيرة تقريباً على مرأى من كرة متألئة تحيطها منتصبية أربع مسلات. كانت هذه القبة المذهبة والمنارات هي ضريح الإمام موسى الكاظم، التي تسمى عادة (الكاظمين). وبعد عشر دقائق ارتفع في الأفق صف واطن طويل من اشجار النخيل وهو بمستوى تام متصل غير منقطع كالذي نراه في وارنكتن. كان هذا هو المشهد الأول لبغداد، مدينة الخلفاء ودار السلام والتي اخذت أتامل وافكر باعاجيبها التي ذكرها السيد لين في ألف ليلة مدة اكثر من ساعة وأنا متجه نحو الشمال الخالي من الشمس. وعند هذه المناظر رفعت البغال، التي يبدو انها قد عرفت دار السلام بنففس السرعة التي عرفها بها رفاقها من البشر، أذانها إلى الأعلى واخذت تحت خطاها. تقدم حمادي إلى امام واخذنا نسرع بطاقة متجددة باتجاه المدينة التي لا تزال تبعد مسافة أربعة أو خمسة اميال. إلا ان مصاعبنا لم تنته تماماً وفي غضون ساعة، وصلنا إلى سطح مائي كبير كونه النهر وتحيطه الأهوار وليس من السهل عبوره. فقد انغرزت سريعاً قوائم البغل الأول الذي حاول عبوره في الوسط وكان علينا إنزال حمولته وإعادةه إلى الخلف للمحاولة ثانية. ثم اخذنا نبحث عن مكان صلب التربة وقليل العمق لعبور التخت حيث وجدناه في

الأخر وجري العبور. تم حملي بعد ذلك لحوالي مئة ياردة عبر مستنقع مائي جالساً فوق اكتاف حمادي وسافني على كل جانب من جوانب رقبته كشيوخ البحر ولكن دون الثقة التي تميز ذلك الرجل الكبير المتصوف، حيث كنت أشعر في كل لحظة بانني سأسقط في وسط المستنقع. عندما وصلنا الجانب البعيد، قال حمادي كسندباد "انزل على مهلك"، لم أرفسه بقدمي كما يفعل سندباد المسكين ولكني تراجلت بسرعة. طلب حمادي بقشيشنا بحجة أنه يريد إقامة وليمة من لحم الضأن لزوجته بمناسبة العيد عند عودته. وقد أحبته على ذلك "بكري" لأن غداً يبدأ توزيع الهدايا قبل نهاية الرحلة. وبعد هذا دخل بغل سيني الحظ في الضفة الموحلة للنهر وانغرزت قوائمه حتى اباطله، وكان علينا أيضاً إنزال حمولته ودفعه كالأخرين، كان كل هذا مثيراً بما يكفي من الإزعاج وبقيت امامنا ميلين لنصل إلى الكاظمين والأمر يبدو أشبه بالوصول إلى بابل (أو بالأحرى بغداد) على ضوء شمعة كما تقول القصيدة. بالإضافة إلى هذه المشاق، لم يكن لدي ماءً عذبة طيلة تسع أو عشرة ساعات ولم تكن لدي الجرة لأشرب من البرك الراكدة التي نمر بها، ازداد طول بساتين النخيل وأصبحت مدخنة معمل الخبز تزداد ارتفاعاً ودخل على مرمى البصر بناية أو بنايتين صفراوين طويلتين وهيكل مستدق غريب الشكل هو ضريح الملكة زبيدة. وبعد ذلك مباشرة كنا في الضواحي الغربية للمدينة، تركنا قافلة الحيوان، حيث قال رجالي أنه سيحصل هناك شيء من التأخير عند عبور الجسر، تبعته محمد عبر متاهة لا تنتهي من الأسواق والحوانيت والجوامع الصغيرة والشوارع الفرعية وكلها مزدحمة بكثافة بناس ذوي ملابس غريبة، حتى وصلت إلى طرف جسر من القوارب شبيه لجسر القلوجة. وهنا صعدنا في قفة حيث سارت مع مجرى تيار النهر نحو دار الإقامة البريطاني، وقرب مكان النزول انطلقت فتاة صغيرة ذات شعر أشقر نحو ذراعني محمد وقد غمرت العواطف

للحظة هذا العربي الخشن الكبير الذي يعمل مع قوافل الحيوانات ويدخن الغليون. وعندما انتهى العناق الأبوي، قبل هذا الشيء الصغير يدي وأعطيته البقشيش، استقبلني العقيد موكلر القيم البريطاني بلطف وعرض علي الاستضافة وخلال فترة قصيرة كنت استكن في غرفة نوم رائعة مزينة على الطراز الفارسي بينما اعد الخدم الهنود حمامي وانزلوا امتعتي. لقد سرنا مسافة لا تقل عن اربع عشرة ساعة منذ انطلاقتنا في ذلك الصباح، لهذا لا عجب ان رميت نفسي هالكا من التعب على كرسي وهي المرة الأولى التي اجلس فيها على كرسي منذ ثلاثة أسابيع.

*

*

*

الفصل التاسع

بغداد

موقع المدينة - مزايا الموقع - أسوارها وبواباتها مهمة حالياً - المدافع القديمة في الثكنات - الشوارع - البيوت - فن العمارة لدار المقيم البريطاني - السرايب - المقاهي - الأسواق - اللبضع في بغداد - المال - الجماع - ضريح السيدة زبيدة

رغم وصولي إلى بغداد في الثاني من نيسان وكوني لم أغادر إلى الخليج العربي حتى يوم ٩ نيسان، فقد بقيت في بغداد مدة عشرة أيام فقط، كون الرحلة إلى بابل وكربلاء قد استغرقت سبعة أيام. قضيت طيلة هذا الوقت في المدينة، وبقيت صحي ليست على ما يرام، وكنت منهكاً للغاية بحيث أنني كنت عاجزاً تماماً عن إجراء جولة في المدينة كما كنت أرغب. والواقع أنني كنت في بعض الأيام منهكاً بحيث بقيت في غرفتي في دار الإقامة وأنا عاجز تماماً عن استجماع قواي للقيام بجولة وسط مشاهد ومناظر بغداد كما كنت أود ذلك. ونتيجة لذلك لم تكن الملاحظات التي دونتها غزيرة وأرجو من القارئ أن يمنحني العذر عن فقر المعلومات المقتضبة عن المدينة. وبالنسبة لي يعتبر ذلك خيبة الأمل الأكبر أن أجد نفسي عاجزاً لهذا الحد في وقت الذروة لكامل رحلتي.

تقع بغداد أو بالداش كما يسميها ماركو بولو^(١) وبغداد كما يسميها الرحالة الآخرين الأوائل على نهر دجلة على بُعد حوالي خمسمائة وسبعين ميلاً من الخليج العربي إذا كان السفر في مياه النهر، إلا أنها أقل من ذلك بالقياس المباشر. لقد جرى اختيار موقعها بشكل جيد، إذ أنها تقع على ذلك الجزء من النهر الذي يقترب من نهر الفرات بحدود ثلاثين ميلاً ويرتبط معه بقناة ملاحية تسمى قناة الحكلاوية وهو النهر الملكي الوارد ذكره في التلمود. وبهذا السبيل تسيطر على تجارة النهرين العظيمين في غرب آسيا، اللذان رغم أهميتهما القليلة في الوقت الحاضر، إلا أنهما كانا في العصور السالفة في غاية الأهمية، وبقي أثرهما قائماً حتى عند تأسيس مدينة بغداد على الأقل، وابتداءً من هذا الموقع باتجاه الجنوب يبتعد النهران عن بعضهما حتى يلتقيا ثانية في نقطة تبعد حوالي مئة ميل من البحر، حيث يجريان بعد ذلك في نهر واحد كبير غير متفرع.

ولموقع بغداد مزايا أخرى أيضاً، فقد ارتفعت المدينة وبنيت من وفي وسط آثار لمجموعة من المدن القديمة، التي أدى خرابها واستلزم وجود مراكز سكانية كبيرة. تقع مدن بابل وسلوقية وطيسفون وأكد (التي بقي منها فقط آثار عكر كوف) على شكل آثار واسعة في السهل المحيط ببغداد، وكان أمام القادمين الجدد مستودعاً هائلاً من المواد في متناول اليد لبناء مدينتهم.

تمتد بغداد حالياً على جانبي النهر (حيث يبلغ عرضها من هنا ثمن الميل) رغم أن الجزء الواقع على الجانب الشرقي هو الأكبر بشكل كبير والواقع أنه بغداد الأصلية.

(١) ماركو بولو (١٢٥٤-١٢٩٤) رحالة بنهلي وصل إلى الصين. رافق عمه وخاله في بعثة للشرق عام ١٢٧١. عاد للبنهية عام ١٢٩٥. دون تجاربه في كتاب يعتبر المصدر الرئيسي للمعلومات عن الشرق في عصر النهضة، (المترجم).

يربط هذين الجزئين من المدينة جسر متزعزع من القوارب، يبدو للعين التي اعتادت على الهندسة الغربية أن العبور عليه غير مأمون. ويقطع هذا الجسر غالباً عند حلول فيضانات الربيع حيث يجري عبور النهر بواسطة قوارب القفف أو بواسطة زورق بخاري صغير الذي يديره خلال الفترة التي تمت بها زيارتي مهندس طاقة فرنسي. وفي جميع أوقات السنة هناك ساعات معينة من اليوم، يفتح فيها الجسر لمرور المراكب النهرية.

كان يحيط المدينة في السابق والتي تمتد على جانبي النهر، سور من الحجر، جرى تفكيكه أو بالأحرى تدميره باستثناء برج أو برجين وجزء عند الطرف الشمالي المحيط بالقلعة والتكنات أيام مدحت باشا عندما كان والياً والذي أحترت حماسته لإدخال التحسينات الأوروبية المدنية بنفس القدر الذي أفادتها. وقد بقي لدينا عن هذا السور وصف فقط له في كتابات الرحالة الذين سبقوا عصر مدحت باشا. يقول بكنكهام أنه "قد بُني بالكامل بالأجر من أنواع مختلفة حسب العصر الذي تم البناء فيه" يجري الدفاع عن السور بواسطة "أبراج إسطوانية كبيرة في الزوايا الرئيسية مع أبراج أصغر على مسافات قصيرة من بعضها البعض في المسافات الفاصلة بين الأبراج الأكبر". كان على هذه الأبراج الكبيرة في وقتها حوالي خمسين متغصناً من البراص. وفي الوقت الحاضر يمكن القول أنه لا يوجد أي دفاعات من أي نوع في المدينة. تميز مواقع هذه الأبراج اكوام من الانقاض. هناك حوالي ستة أبواب إجمالاً إلا أن معظمها قد اختفى تماماً أو جزئياً. والواقع أن هناك بقايا أحدها في جنوب المدينة إلا أنه في وضع بائس، ولكن يقال أن أحدها يوجد في الجانب الشرقي بحالة أفضل. مع ذلك يعتبر الباب الشمالي الغربي هو الباب الرئيسي. يذكر إينسورث أيضاً أن أحدها يدعى باب الطلسم الذي بناه الخليفة الناصر ودخل منه مراد عندما فتح المدينة. وقد جرى إعادة بناء هذا الباب وهو لا

يستخدم حالياً، وقد وصف بكنكهام بناءً جميلاً يحيطه برجان طويلان، مزين كل منهما بحجاب مستطيل على نفس الطراز الذي بنيت فيه بعض بوابات القاهرة القديمة، إلا أنه لم يعطى أي اسم لهذا.

وخارج الأسوار هناك خندق واسع وعميق لا يزال بالإمكان مشاهدته والواضح أنه لم يقصد من ورائه الاحتفاظ بالماء رغم أنه في الجانب الجنوبي قد أصبح على شكل مستنقع مليء بالضفادع في وقت الربيع عندما يفيض دجلة. مع ذلك، كان الحال بهذا الوصف في هذا الوقت من السنة.

تحيط هذه اللغاعات بمساحة كبيرة من الأرض أصبحت في الوقت الحاضر مملئة بالمباني ويقال حقاً أن أكثر من نصف هذا الفضاء المسور هو أرض خلاء وغير مستغلة أو تشغلها كما هي في الجانب الجنوبي بساتين النخيل. وقد ساهم هذا الوضع في تشبيه بغداد بولاية مسورة كابل التي يقال عنها ذلك، وهو تشبيه غير صحيح، لأن الفضاءات المفتوحة داخل أسوار بغداد تعود دون شك إلى تدهور التجارة وتضاؤل حجم المدينة بسبب الغارات والأوبئة المستمرة التي انقصت سكانها، ولم تكن أبداً ضمن التصميم الأساس للمدينة. والواقع لا أحد يشهد تماماً عن طور السبات الذي تمر به دار السلام وقلعة القديسين أكثر من هذه البرية المقفرة داخل أسوارها. لقد انكمشت المدينة كنواة جوزة جافة عتيقة.

يتألف الجزء المأهول من الحي الرسمي والسراي والثكنات والأسواق أو الجزء التجاري والشوارع الخالية من الحوانيت. لقد تم بناء هذه دون استثناء من الحجر، حيث لا يستخدم الحجر لأغراض البناء في بغداد. اخنت اتمشى في أحد الأيام نحو الثكنات والقلعة التي لا تزال محاطة بسور قديم فيه بعض الأبراج الصغيرة الواهنة، وقد وضع برج كبير أمام السور كجزء من التحصينات الخارجية. وفي المدينة مستشفى وسجن

وثكنات تضم في ذلك الوقت عدة بطاريات من اللدعية (اعتقد انها ثلاثة). وقد جلب انتباهي مجموعة غريبة من اللدعية القديمة ومدافع مورتر البرونزية. كان أحدها يبدو بحجم كبير جداً ويظهر انه فارس قديم وهو مزين في مؤخرته المستوية بخطوط كتابية طويلة، بينما تحوي الأجزاء التي تعرف فنياً باسم المسند والماسورة أشكالاً لرجل يقود حصاناً وأسدًا تم صيده. يقال ان هذه القطع القديمة، قد تم الاستيلاء عليها من الفرس بعد فتح المدينة على يد مراد الرابع في عام ١٦٢٨م.

تعتبر شوارع المدينة مثيرة للسأم إلى حد بعيد، فهي ضيقة ومتعرجة وغير معبدة وقذرة ومغلقة من أحد اطرافها بسور اصم من القرميد وخالية من المنافذ المريحة للنفس باستثناء الأبواب التي يتم منها الدخول إلى المنازل والتي تبدو مظلمة. ورغم وجود القليل من العربات في بغداد، إلا ان طرقها ضيقة لا تسمح بمرورها ونات رائحة كريهة وفاسدة لا تسمح بالمشي فيها، لهذا فإن إغراء الاستكشاف ليس كبيراً. وهناك بعض الشوارع المهمة كالشارع المؤدي إلى السوق من ناحية الجنوب، أقل إضجاراً إلى حد ما لأنها واسعة تتخللها بين مسافة وأخرى مقاهي، وفيها بعض البيوت التي تعود لمسيحيين موسرين وحتى لأوروبيين وهي حسنة التهوية حيث تحوي جدرانها شبابيك ذات أبواب. إلا أن معظمها خالية من فن العمارة والتشويق. وعند المرور بهذه الشوارع تستقطب العين بين الحين والآخر منارة صغيرة خضراء وزرقاء من الآخر، إلا ان البلاء سيحل بعابر السبيل الذي يرفع ناظريه للتمتع بمنظرها لأنه في كل الاحتمال ستعثر قدمه إما بكلب ميت أو يحتضر أو يعصره إلى الجدار حمار محمل بجلود المياه المتسخة من الخارج.

لم أرى من البيوت كوني رجل غريب سوى القليل. هناك عدد كبير منها مبني على الطراز الفارسي وتحيط بفناء داخلي. تعتبر دار الإقامة البريطانية الواقعة على نهر

دجلة في الجزء الجنوبي من المدينة مثلاً جميلاً لهذا الطراز مظهرها الخارجي بسيط وغير جذاب ويتم الدخول إليها عبر باب ينفتح مباشرة على الشارع الضيق يجد الزائر الداخل نفسه وسط فناء جميل يحيطه مبنى بارتفاع طابقين. يشغل الآن الطابق السفلي الخدم وبعض الدوائر ومكتب البريد البريطاني. وفي الطابق العلوي شرفة مفتوحة تدور حوله تدعمها أعمدة خشبية جميلة برؤوس مزخرفة. الغرف المفتوحة على هذه الشرفة هي غرف الاستقبال وبعض غرف النوم وبعضها ذات ديكورات جدارية من النمط الخاص ببغداد وبلاد فارس. كانت الغرفة التي شغلتها هي غرفة النوم الرسمية في هذا المكان وتستحق قليلاً من الوصف. تصميمها الأساسي على شكل حرف T وحوالي نصف ارتفاع الجدران مبيض بحجر التبييض وفوقه جزء مزخرف. وعلى الجدران من جميع الجهات هناك أواوين مزخرفة بين كل واحدة وأخرى هناك مرآة صغيرة، جرى نقش إطارها على الجدار بحجر التبييض بشكل جميل. وفي الأعلى في الجزء المتقاطع من الشكل T تغطي الجدران بشكل تام مرايا صغيرة جرى وضعها بترتيب في لوحات وفي الأواوين، في حين كان جدار الطرف البعيد من الشكل T فوق الجزء المزخرف مبني من الحجر وعليه بعض تشكيلات المرايا التي يمكن تمييز بعضها بكونها زهريات ونجوم ولفائف زخرفية. جرى تزيين السقف بالكامل بتشكيلات المرايا التي فيها بشكل رئيسي النموذج المعيني مع حافة مزخرفة من المرايا. يدعم الجزء الأمامي من الغرفة المقابل للجدار عمودان من الحجر بتيجان من نفس الوصف. كان الانطباع الذي يتركه هذا التشكيل أحياناً جميلاً فمظهره هادئ بشكل ساحر وهو يليق على نحو رائع بجو كجو بغداد. اعتقد أن الدار ليست قديمة البناء، إلا أن أسلوب التزيين هنا متميز للغاية ومن المتع معرفة تاريخ بداية تبني هذا الأسلوب. كذلك يجب ملاحظة سمتين أخريين من سمات بيوت بغداد، وكلاهما موجودان في دار الإقامة. وهاتان السمتان هما السرايب والسقوف المستوية. إنهما في هذا الجو تعتبران من

الضروريات الأساسية. فالأولى هي غرف معيشة مبنية تحت الأرض تقريباً رغم أن فيها بشكل عام شبابيك عليا لمرور الضوء بنفس أسلوب شبابيك المجاز في البيت اللندني. تعتبر الحرارة في بغداد من شهر آذار إلى أيلول كبيرة إلى حد أن الأهالي يضطرون في النهار للعيش في غرف تحت الأرض، في حين أنهم ينامون في الليل على سطوح الدار المستوية. ويحتم هذا بالطبع، البقطة المبكرة في الصباح إذ أن الجو يكون حاراً للغاية يستحيل فيه البقاء هناك وقت ارتفاع الشمس فوق خط الأفق وعلى النائم العودة السريعة إلى داخل السرايب. وإذا كان مقياس درجة الحرارة يرتفع بعض الأحيان في فصل الصيف إلى أكثر من (١٢٠) درجة فهرنهايت في الظل، فيمكن الفهم بسهولة ضرورة مثل هذه الترتيبات. وعلى النين يودون الغامرة والخروج فعليهم فعل ذلك إما مبكرين في الصباح أو متأخرين في المساء. إن لشمس بغداد لسعة ربما لم يصل إليها أي جزء آخر من العالم، مع ذلك فإن الثلج والجليد موجود في فصل الشتاء.

عند الطرف الجنوبي من المدينة، يشرف على النهر عدد من أفضل البيوت في بغداد. بعضها يعود إلى تجار أوروبيين أثرياء، ورغم أنها حديثة البناء، إلا أنها مبنية على الطراز الرباعي الزوايا القديم. يوجد في العديد منها حدائق جميلة على ساحل دجلة لهذا لا بد أنها تعتبر أماكن ممتعة للعيش فيها لأنه لا تستطيع أي إدارة سيئة تركية أن تحيل هذا النهر المهيّب إلى قباحة وقذارة. كقاعدة عامة يمكن تمييز البيوت الأوروبية من أنافتها العالية أكثر من بيوت الأهالي، ومن حقيقة ظهور فن الصباغين على أبوابها وشبابيكها.

لقاهي بغداد سمة خاصة، فهي تماثل بطريقة معينة نوادي لندن وهي توجد في كل مكان. يقع العديد منها بشكل جميل على ساحل دجلة وهي تشرف عليه في حين توجد الأخرى في الأسواق أو في الشوارع الرئيسية الكثيرة المارة. بينما تقع الأخرى،

والتي يرتادها الباحثون عن الهدوء خارج المدينة وقرب حديقة أو بستان نخيل هادئ في ضواحي بغداد. وجميعها مبني تقريباً بتصميم متشابه. فهي عبارة عن صالات طويلة مفتوحة من الأمام، تستند على أعمدة خشبية بتيجان مزخرفة اعتيادية. وبداخلها دكات أو مقاعد خشبية طويلة ذات ذراعين وظهر عالي تتسع لأكثر من شخصين حيث يجلس عليها المرفصون المخلصون وهم يدخلون نارجيلاتهم ويرتشفون قهوتهم ويناقشون بوقار شؤون هذه الحياة. وفي شهر رمضان حيث يصوم المؤمنون نهاراً تتوهج هذه المقاهي بالإضاءة ليلاً، ويمكن مشاهدة مجاميع منهم عند غروب الشمس وهم جالسين مستعدين وغلايينهم في أيديهم ينتظرون غروب الشمس لإشعالها والبدء بمرحهم المعتدل.

ورغم أن الأسواق ليس لها ما يميزها، إلا أنه من الضروري التحدث بعض الشيء عنها. تقع الأسواق في الجانب الشرقي وتمتد إلى الشمال والجنوب وهي تشكل في الحقيقة الشوارع الرئيسية في المدينة فهي أسواق طويلة بشكل غير معتاد في مدينة عربية وهي متسعة ومستقيمة. غالبيتها مغطاة بسقوف من العوارض الخشبية والقماش والحصران كحالة عامة، إلا أن هناك بعضاً منها مسقفاً بأقواس من الآجر المعقود. ورغم عرضها الواسع، إلا أنها تتميز بشيء من القذارة التي لا تشاهد في حلب والقاهرة. فمظهرها في الواقع رث. وكحالة عامة، هناك بعض الأسواق المخصصة لتجارة من نوع معين. فهناك أسواق متعددة للنعالات والسروج وقد شاهدت أحد الشوارع الصغيرة تعرض فقط الأحزمة التي يرتديها الرجال والنساء والأولاد واعتقد أن هذه سمة خاصة ببغداد. وهناك بعض الأحزمة رائعة جداً إذ تمت حياكتها بدقة بخيوط ذهبية أو فضية وهي تكلف حوالي سبع أو ثمان شلنات للقطعة الواحدة. بينما تكون الأنواع العادية غير مكلفة ويضم شارع آخر مستودعات صغيرة لا تحوي سوى الأعمدة الخشبية ذات التيجان المزخرفة التي سبق أن ذكرت أنها مستخدمة في دار الإقامة البريطانية وفي

العديد من القاهي. ولأن بغداد على اتصال جيد مع العالم الخارجي، يستطيع المرء أن يجد كميات كبيرة من السلع الأجنبية في أسواقها. فهناك السلع الهندية التي تأتي عبر الخليج من بومبي، وتشاهد أقمشة مانشستر شائعة التداول في الأسواق كما في حلب. كما تستورد أيضاً المرايا والمصابيح والأدوات المعدنية وكميات كبيرة من قطع السكر التي اعتقد أن جميعها قد جاء من فرنسا. ليس هناك حانوتا أوروبيا تماماً في بغداد، وهذا شيء غريب إلى حد ما لأنه يوجد في بوشهر ببلاد فارس على الخليج حانوتا ممتازا من هذا النوع. إلا أنني وجدت حانوتا في شارع فرعي يديره أحد أبناء الشام يعرض سلعا أوروبية فقط وفيه كمية من المشروبات الروحية والبيرة. هناك أيضاً قسم لا بأس به من حوانيت العطارين إلا أنها ليست كثيرة كما في القاهرة وهي جميعها تبدو في وضع سيئ. يعتبر التبغ احتكاً حكومياً خالصاً إلا أن السعر المفروض أعلى من سعر الحكومة الأصلي لأن التبغ الجيد يأتي عادة من سامسون^(١) حيث يجب إضافة كلفة الشحن على السعر. تشاهد أيضاً بعض المنسوجات الشرقية الجميلة، ولكن على المشتري أن يعرف أين يذهب وماذا يدفع قبل أن يغامر بالشراء. وهي معظمها فارسية.

وطالما أنني اتحدث الآن عن موضوع الأسواق والتبضع، من الجدير أن أذكر الصعوبات التي قد تواجه الرحالة غير المطلع الذي يود التبضع في بغداد. في الوهلة الأولى، هناك حلقة منتظمة ضد جميع المسافرين الأوروبيين، وحالما تظهر قبعة أحد هؤلاء الضحايا في مدخل السوق، حتى يرتفع سعر كل شيء من باون الزبدة إلى الرقم البابلية. فالمسافر الذي يحلم أن يذهب إلى السوق في بغداد متصوراً أنه سيحصل على مشتريات رخيصة، يجب أن يسجل على أنه حمار، لأنه سيخرج دون ريب كشاة بعد

(١) ميناء تركي على البحر الأسود وهو مركز لصناعة التبغ وسوق زراعي، (الترجم).

الجزر. والواقع انه إذا اردت أن اعطي أمي نصيحة حول الموضوع، فيجب على أي شخص عدم التبضع بمفرده في "دار السلام وقلعة القليسين". وإذا ما رغب المسافر أن يشتري، سواء كان تحفة نادرة أو سجاد أو غيرها، فالطريقة الأفضل هي مرافقة أحد أهالي المدينة أو الأفضل إرسال شخص بمفرده إلى السوق لتلقيق السلع بشكل سريع، والتي على أية حال يجب عدم شرائها في موقع بيعها، بل أن يرسل عليها ثانية لتجلب إلى بيت المشتري بعد يوم أو يومين. يمكن الحصول بهذه الطريقة على الأشياء بسعرها الحقيقي تقريباً، ولكن أن تظهر وتشتري شخصياً في موضع البيع فهذا أمر مدمر لأن لأصحاب الحوانيت في كافة أنحاء المدينة تعريفة عالية منتظمة للمسافرين الأوروبيين. هناك تاجر واحد فقط يتعامل بالتحفيات هو علي الكردي حيث زرت حانوته وخانه مرات عديدة وقمت بشراء بعض الحاجات القليلة غير المهمة منه. لديه العديد من الآثار والتحفيات المتنوعة المخزونة والتي حصل عليها من آثار بابل كما أن لديه أسلحة ومنسوجات فارسية والواقع لديه كافة أنواع التحف الشرقية. لقد اشترت منه شيئاً مهماً واحداً فقط ذلك هو إسطرلاب فارسي جميل ومنقوش بشكل رائع يعود إلى القرن الماضي (أي الثامن عشر) وهو الوحيد الذي حصلت عليه بسعر رخيص لأن علي يجهل فائنته. وكما هو معتاد لدى تجار هذه البضائع، فهو لم يعرض أمامي أفضل حاجاته، لأنه قد وجد بأنني أعرف شيئاً (رغم أنه قليل جداً) عن أسعارها. كانت غنيمته سائناً أمريكياً ثرياً له عين جامع التحف وجيب مليونير.

تعتبر العملة مصدر مشكلة أخرى للوافد الجديد الذي عليه أن يجري عدة تعاملات تجارية في الأسواق. في الوهلة الأولى، هناك العديد من الفئات والكثير منها معلني، بحيث يصعب الإلمام كلياً بالموضوع، بعد ذلك هناك معدلان للتصريف، سعر السوق والسعر المقبول في دوائر الحكومة ولا أحد يعرف ما المطلوب. وفي الآخر، يجد

المسافر القادم من الشمال نفس الأسماء للعملات التي تم تحويلها. فثلاثة ونصف من عملة معدنية صغيرة بآنسة تساوي في حلب (إذا جمعت صحيحاً) (كرش) واحد أو بنيرا وتسمى هنا (ميتالك) ويشرفونها باسم (كرش) نفسه. بينما ترفض جملة وتفصيلاً فئات أخرى متداولة في الشمال وتتهور قيمتها يومياً. ونتيجة لذلك لا اعتقد ان للمسافر الاعتيادي سيرم صفقة من اي نوع دون ان يكون ضحية للغش بشكل أو بآخر، يجري معظم المقيمين الإنكليز الذين جميعهم من الإنكلو - هنود، جميع تعاملاتهم بالرُبية الهندية التي تعتبر مقبولة في كل مكان. يتداول أيضاً الذهب الأوروبي وكذلك قدر كبير من الأموال الفارسية.

ربما تكون جوامع بغداد هي الأشياء المخيبة للأمال أكثر من غيرها لأن المرء يتوقع أن يجد آثار جلال أيام الخلفاء بينما هي في وضعها الحالي من البناء. قد يقال في الحال انه لا يوجد في بغداد جامع أو بناية واحدة تستحق الحديث عنها حقاً، وهي حقيقة تلفت النظر عندما نرى الشهرة العظيمة للمدينة في العصور السالفة، لا يصلح هنا أي تفسير بالقول أن الهزات الأرضية المستمرة كما في حلب هي السبب في الافتقار إلى المباني القديمة. لا ريب أن السبب الرئيسي يعود إلى الاستخدام الثابت للأجر القابل للهدم بدلاً من الحجارة غير القابلة للهدم في ندرة الآثار القديمة.

يعطي الرحالة المتأخرون أرقاماً متباينة عن عدد الجوامع في المدينة. لاشك أنها كانت في زمن معين بأعداد كبيرة، ولكن في الوقت الحالي، من المشكوك فيه أن يكون هناك أكثر من عشرين أو ثلاثين جامعاً مهماً. لاشك أنه بجانب هذه، هناك عدد من الحرم الأصغر غير المهمة وغير المميزة في معظم الأحوال بالقبة أو المنارة.

بتميز الديكور الخارجي لجوامع بغداد بأنه على الطراز الفارسي. فالقباب والمنارات مكسوة بأجر ملون على شكل أطواق زرقاء وخضراء وبهضاء أو أشكال معينة

أو خطوط كتابية. يكون الأثر الذي تركه هذا الأشكال بهيجاً وجميلاً، ولكن بما أن القباب والمنارات المزخرفة هي ليست بشكل عام أنيقة ولا حتى متناسقة الأجزاء، فقد ضاع هذا الفن تقريباً وسط ذلك. العديد من المنارات غير دقيقة الاستقامة بشكل كبير، بحيث أن الناظر يفاجأ في الحال بذلك، وهي سمة لا يمكن لها باي حال أن تزين مظهر الجامع، وهذا ربما يعود إلى سوء المهارة اليدوية في البناء.

تنتصب قرب السوق منارة هائلة إلا أنها غريبة إلى حد ما، هي كل ما تبقى من جامع سوق الغزل، الذي يقال أنه كان في العصور السالفة الجامع الرئيسي في بغداد. إنه مبني من الحجر وهو حالياً غير مزخرف بالحجر الملون من أي شكل حيث يتضح أنه قد جرت إزالته بشكل كامل. يعطينا بكنكهام وصفاً مفصلاً تقريباً عن هذه المنارة ولنهبور كتابة عليها كتبها أحد اللالي تسجل أنه تم بناؤها من قبل الخليفة المستنصر ٦٣٣هـ. يصعد الأوروبيون غالباً على هذه المنارة ليلقوا نظرة على المدينة، وفي أحد الأيام مررت عليها برفقة ضابط إنكليزي شاب بقي في بغداد بعد ذلك وكوأس القنصل وخادمي، وقد أعربت عن رغبتني بالصعود عليها، حيث أعرب مرافقي أن ذلك ممكن تماماً وذهب الكوأس للبحث عن الحارس للحصول على المفتاح، وأثناء ذلك تجمع حشد كبير حولنا، وبحالة من الهياج الكبير الذي يتحول في أوقات معينة إلى عنصر خطر أعلن لنا بصراحة بأن علينا ألا نصعد. وفي الآخر وصل الكوأس قائلاً أن الحارس لا يتجرأ أن يسمح لنا بالصعود طالما كان الحشد هناك، لهذا تم التخلي عن فكرة الصعود. من الصعب فهم لماذا عارض الحشد صعودنا على هذه المنارة التي ليس لها جامع والتي يسمح عادة للأوروبيين بصعودها.

في الميدان أو الفضاء المفتوح في الجزء الشمالي من المدينة هناك جامع جميل وكبير يسمى جامع الميدان.

ومن بين الجوامع الأخرى، تعتبر الجوامع الرئيسية هي الخاصكة والرحمية والوزير (قرب الجسر) وعباس القادر، يوجد وصف لها في كتاب بكنكهام (رحلات في بلاد الرافدين).

على الطرف الشرقي من جسر القوارب تقع البقايا المهمة مما كان يعرف سابقاً بالمدرسة أو الكلية التعليمية المسماة المستنصرية. لا شيء بقي منها الآن يمكن رؤيته عدا أجزاء من كتابة طويلة بالخط الكوفي تسجل بأن بناءها قد تم من قبل الخليفة المستنصر عام ٦٣٠هـ. تبدو المدرسة أشبه ما تكون ببناء كلية الجامع الأزهر الكبير في القاهرة.

زرت ما يسمى بضريح السيدة زهيدة زوجة الخليفة المشهور هارون الرشيد بعد وصولي بغداد في يوم واحد. فقد عبرت النهر برفقة أحد كوآسي دار الإقامة وبعد المرور وسط الأسواق والشوارع المزدحمة الواسعة كالتى في الجانب الشرقي، وصلت إلى هذا البناء الفريد الواقع في فضاء مفتوح، يمكن مشاهدة أضرحة أخرى حوله ومعظمها ذات بناء متواضع. يتكون الضريح من بناء مثنى من الأجر المكسو بالجص مزين كل جانب منه بأربع ألواح مربعة، تحتوي الألواح السفلى أواوين مقوسة ومزخرفة بالآجر المصنوع بأشكال هندسية.

ومن قمة هذه القاعدة يرتفع شكل مخروطي غريب بارتفاع حوالي سبعين قدماً. لقد سقطت قمته، ولكن الجزء الرئيسي الباقي مزين بزخارف من نوع خاص لم أرى نظيراً لها في أي مبنى عربي. يتم الدخول إلى المبنى عن طريق رواق خارجي مسقف عبر بوابة لها أقواس. يفتح داخله إلى قمة الشكل المخروطي المزينة بالزخارف أيضاً. وعلى الأرض ثلاثة أضرحة من بناء بسيط من الأجر أحدها يضم حسبما يعرف من الكتابة رفات زوجة المدعو حسين باشا التي دفنت هناك في ١١٣٦هـ، حيث تم ترميم

الضريح في ذلك الوقت من قبل حسين المذكور آنفاً. هناك أيضاً شباكان صغيران في المخروط لإضاءة المبنى.

قادنا سلم دوار شديد الانحدار إلى الخارج على قمة القاعدة التي يظهر أنها تبلغ نصف الارتفاع الكلي للمبنى. يحيط القبة ممر، إلا أنه الآن في حالة سيئة من الإهمال، ومن هنا للكان، استطعنا أن نلقي نظرة واسعة على الإقليم المحيط بما فيها تلال عكر كوف والكاظمين والعبد من قباب ومنارات بغداد.

إذا كان هذا حقاً نصب زبيدة التي توفيت حوالي عام ٨٣٠م حسب تاريخنا، فإنه في الواقع مثير حقاً، ولكن كما رأينا، فقد جرت عليه عملية ترميم في عصور حديثة ومن المحتمل أن هذا قد تكرر لأكثر من مرة. وقد يلاحظ أن أعمال الزخرفة الشائعة الاستخدام في جميع المباني العربية في العصور المتأخرة لا يبدو أنها قد استخدمت في المباني الأقدم. لا يوجد في جامع ابن طولون في القاهرة، الذي تم بناؤه بعد سنوات لاحقة من نفس القرن، أي أعمال للزخرفة باستثناء موضع الحراب المتجه نحو مكة، وربما تكون تلك إضافة متأخرة. توجد على هذا الجانب من النهر أضرحة أخرى ذات أشكال مخروطية مشابهة وكان أحدها المستدق أكثر من غيره موضوع فصل في كتاب كراتون كيري "رحلة عبر تركيا الآسيوية"^(١). من الصعب تصديق بأن هذه الأبراج المستدقة النحيلة غير المتينة البناء، قد بقيت كما هي لآلاف عام في حين اختفت جميع الآثار الأكثر متانة في بغداد القديمة. على العموم، من المحتمل أكثر أن يعود

(١) هارون ذلك أيضاً بضريح ما يسمى بربيعان ابن يعقوب أو رواح علي قرب نهر الكارون. جاء وصف له في كتاب كيرزون (بلاد فارس) المجلد الثاني ص ٣٢٤. يصف بكنكهام في كتابه (رحلات في بلاد الرافدين) مباني مماثلة في الحلة، (المؤلف).

ضريح زبيدة (إذا كان حقاً يضم رفات هذه السيدة الجميلة) في شكله الحالي إلى فترة متأخرة جداً وهو لا يستحق الاهتمام الذي نوليه له^(١).

علت إلى القنصلية بواسطة قارب القفة، ولغرض المرور بسلام أسفل الجسر، من الضروري لنا جميعاً أن نجثم في قارع القارب لتجنب ضرب رؤوسها بالألواح الخشبية للجسر كون التيار يحملنا عبره بسرعة.

✱

✱

✱

(١) يعود هذا الضريح الذي ينسب خطأ من قبل العامة إلى الست زبيدة زوجة هارون الرشيد التي دفنت في واقع الأمر في مقابر قريش في منطقة الكاظمية إلى السيدة زمرد خاتون زوجة الخليفة المستضيئ بأمر الله حيث بنته ككفيل لها قبل عام ١٢٠٢م خلال حكم ولدها الخليفة الناصر لدين الله، (الترجم).

الفصل العاشر

المزيد عن بغداد

الكاظمين - لرامواي بغداد - جامع الامام موسى الكاظم - مناراله وقيابه المفهبة - سكان بغداد - الوباء - العرب - اليهود - لقييع بنيامين اللوهولي عن اليهود - الارمن - الكنائس المسيحية - المناخ - الصادرات - الوضع الراهن - رمضان - فندق بغداد - حبة الممر - يوسف انليكا - الاسلامداد للرحلة الى بابل وكربلاء

لا ريب ان المكان الأكثر جمالاً ومتعة بجوار بغداد هو قرية الكاظمين، بجامعها المهيّب الذي يعتبر واحداً من ثلاثة أماكن مقدسة للحج عند الشيعة المسلمين غرب دجلة. يقال، انه هنا يرقد رفات الشهداء الإمام موسى الكاظم أو الصبور والإمام التقي. الكاظم هو الإمام السابع وقد قُتل على يدي الخليفة هارون الرشيد بسبب مؤامرة مزعومة عام ٨٧٥هـ. يسكن القرية بشكل رئيسي والتي نمت حول المرقد، الشيعة الفرس وهي ترتبط مع بغداد بواسطة الترامواي وهذا المشروع هو أحد تحسينات مدحت باشا وباستثناء احواله الغريبة من الركاب ومحيطه الفاير، فإن عرباته تشبه عربات خط الترام الإنكليزي. تبعد القرية عن بغداد مسافة حوالي أربعة أميال لهذا تعتبر تلك نعمة عظيمة لسكان الكاظمين. رغم أن القيام برحلة بمفردك لهذه المسافة في بغداد تحرز نجاحاً تاماً. تشتهر الكاظمين، كمشهد الحسين ومشهد علي بالتزمت الشديد والحقيقة

ان الشاعر في هذه المناطق الثلاثة آخذة بالتفاؤل. صحيح انه حتى هذا اليوم، لا يسمح للمسيحيين أو الأوروبيين أو غيرهم بالدخول إلى هذه الصروح المقدسة ولا ينصح في الواقع لأي مسيحي أن ينظر بإمعان من الخارج على جمالها. إن السائح الإنكليزي أو الأمريكي الذي يقف أمام هذه الجوامع ويفتر ملاحظاته أو دفتر تخطيطاته بيده، قد يتلقى أي شيء عدا المعاملة الطيبة. وفي وقت معين في الماضي، حاول أوروبي تصوير مشهد الحسين في كربلاء، حيث تلقى ضرباً مبرحاً بسبب ذلك، ورغم هذا فالإنكليزي الذي يتصرف بدرجة اعتيادية من الفطرة السليمة، سوف لن يتلقى سوى اللطف من الأهالي سواء كانوا من الشيعة أم من غيرهم. وحقيقة الأمر أن الشاعر القديمة المناونة للمسيحيين وللإفرنجيين، خاصة في أوساط الشيعة آخذة بالبطء في الانحسار. وهذا يعود إلى عدة أسباب. منها الحكم البريطاني للهند حيث هناك الكثير من أفراد طائفة الشيعة، وإلى التعامل المتزايد بين الشرق والغرب، وبشكل خاص يعود ذلك إلى البصيرة النافذة لفرس الطبقة العليا أنفسهم، الذين توضحت لهم حقيقة أن أوروبا المسيحية وليست آسيا الإسلامية هي الآن منبع الحقيقي للحضارة والتقدم والتجارة نفسها.

زرت الكاظمين برفقة الدكتور شو الذي تم إلحاقه بدار الإقامة البريطانية ببغداد فيما بعد. عبرنا على جسر القوارب واخذنا مقاعدنا في أعلى إحدى عربات ترامواي مدحت، حيث وجئنا هذه المقاعد الحديدية ساخنة بشكل مؤذي بفعل الشمس. يمتد الطريق بمحاذاة ضفة النهر وبعد حوالي نصف ساعة دخلنا إلى بساتين نخيل. وبعدها مباشرة، ترحلنا وسرنا وسط سوق مزدحم كان فيه العديد من السكان الفرس بشكل واضح. قادنا الكوأس إلى بيت شخص يعود إلى الكاتب السابق في دار الإقامة، حيث استطلعنا من فوق سطحه أن نلقي نظرة على الجامع. وقد استقبلنا هنا بلطف صاحب الدار ورجل فارسي يدعى سيد حسن الذي تعرفت عليه في دار الإقامة والذي عرض استضافتي بكرم بالغ في بيته بكربلاء عند زيارتي المرتقبة إلى هناك، التي

سأقوم بها بعد وقت قريب. تم إيصالنا إلى السطح المستوي للدار حيث وقع نظرنا على منظر رائع على نحو استثنائي.

لجامع الإمام موسى الكاظم الذي يقع امامنا، سور عالي متين البناء يضم سبعة مداخل او بوابات، يواحنها مباشرة الجزء الأعلى من أحدها (الذي اعتقد أنه الرئيسي). كما استطيع ان أرى، فهو بناء جميل مهيب مكسو بشكل رائع بالأجر الملون الذي يضم آيات قرآنية وزخارف أخرى وفي أعلى المدخل نفسه هناك زينة من الأصناف.

وخلف هذا ترتفع قبتان جليلتان وأربع منارات طويلة وبجانبيها أربع منارات أصغر على نفس الزوايا من المنارات الرئيسية. والقباب هي بالشكل الذي ترتفع فيه فوق الموضع الذي تبدأ منه على القاعدة الدائرية التي تستند عليها. وقد كسيت هذه القباب بشكل تام بصفائح مربعة من النحاس المطلي بالذهب، لهذا فهي تتلألأ تحت أشعة شمس الشرق البهية بوهج آخاذ. وكسيت المنارات أيضا بطريقة مماثلة. وأسفل موضع وقوف المؤذن، جرى تزيينه بالأجر الملون إلا ان شرفة هذا الموضع الذي تسنده أعمدة متوجة مذهبة كالعمود الذي فوقها والجوزة المحززة التي يسندها، ترتفع هذه المنارات أعلى بكثير من القباب وذات أناقاة عالية. إلا ان أحدها كالعديد من المنارات في بغداد ذات انحناء بسيط باتجاه موضع المؤذن. يُشكل مجمل المجموعة منظراً فائق الروعة والجمال لا يفسده سوى برجى ساعة بشعين، تم نصبهما مؤخراً أمام وعلى يسار القباب كما نراها الآن.

أخبرني مضيفي بهذه المناسبة وبعد ذلك في كربلاء ان الصفائح المعدنية التي تم تزيين هذه الجوامع بها مصنوعة من الذهب الخالص. في ذلك الوقت لم أشعر سوى بالشك حول هذا الأمر لأن كلفة تذهيب هذه المساحات الكبيرة ستكون ببساطة خرافية. وقد لاحظت في الواقع هنا وهناك صفائح من المؤكد أنها ليست من الذهب

بل تم طلائها بشكل سيئ، لأنها تبدو سوداء وسط اللمعان المحيط بها. ربما جاء هذا نتيجة لعمل حرقٍ محتال. كان السيد (سي) الذي سافرت معه بعد ذلك إلى كربلاء، يناقش هذا الموضوع أكثر من مرةً معي، وأخبرني أنه قد وجد جوامع مماثلة على طول طريق رحلته إلى طهران. وفي تلك العاصمة استفسر من بعض المعنيين بخصوص الموضوع وأبلغوه أن جميع هذه الجوامع دون استثناء سواء في بلاد فارس أم في البلاد العربية قد كسيت بصفائح من النحاس، ثم طلائها بسمك ثمن الإنج بالذهب الخالص. لقد أخبروه أن صفائح الذهب ستكون مكلفة إلى حد هائل. وهذا دون شك هو الصحيح وربما تعود المعلومات التي وصلتني إلى خلط في الكلمات العربية بين الذهب والتذهيب^(١). وبعد إمتاع عيوننا تركنا الكاظمين وعبرنا دجلة عن طريق جسر القوارب إلى قرية العظم (الأعظمية) (Madaham) وهي ضاحية في بغداد ومنتجع صيفي لسكانها. يبعد هذا المكان حوالي نصف ميل عن بغداد وتحيطه أشجار النخيل ويضم جامع سنّي جميل هو جامع أبو حنيفة. وعبر الفناء الخارجي لهذا الجامع، قادنا مترجمنا الذي كان في السابق بستانياً في هذا المكان، دون انزعاج، وبعد ذلك بقليل وجدنا أنفسنا في عربية متداعية، أخذت تقعقع بنا على طول الطريق والتي يقال أنها الوحيدة في بغداد لتقودنا نحو المدينة.

إن أعداد السكان، التي تناقصت كثيراً بسبب الخسارة في التجارة، هي أيضاً متقلبة كثيراً، بسبب الغارات الوحشية للأوبئة التي كانت متفشية بشكل خاص

(١) كانت القباب في مشهد ببلاد فارس مذهباً أيضاً كالرافد العربية. وقد رأى كاردن في عام ١٦٧٢م، كيف تصنع هذه الصفائح في أصفهان. فقد قال، كانت الصفائح من النحاس بأبعاد ١٦×١٠ إنش وسُمك قطعتين من الكراون. في الجانب الداخلي منها عمودين متقاطعين لتأمين تثبتها. كانت كل قطعة مذهب بثلاث أوقيات وربيع من التذهيب. وتصل قيمته إلى حوالي عشر كراونات. انظر كرز (بلاد فارس) والسالة (الفارسية)، (المؤلف).

خلال المائة سنة الأخيرة، ففي زمن عظمة المدينة وراثتها، فإن عدد سكانها لابد أن كان كبيراً للغاية رغم أنه لا يمكن الاعتماد مطلقاً على الأرقام التي يعطيها المؤلفون العرب. لقد سبق أن أشرت إلى الفضاءات المفتوحة الكبيرة التي لا تزال موجودة ضمن أسوار المدينة. لم يكن هناك أي شكل من أشكال الإحصاءات الرسمية، لهذا لا يستطيع الكتاب الأوروبيون ولا المحليون سوى أن يقدموا تخمينات لها. في عام ١٧٧٤م، هاجم وباء الطاعون مدن بغداد والبصرة، وعلى وفق سجلات دار الإقامة البريطانية، فقد فنى الجزء الأكبر من السكان بهذا الوباء. الزيارة الثانية ذات الأهمية لهذا الوباء كانت في عام ١٨٠٤م، يقدر بكنكهام الذي جال في بلاد وادي الرافدين في (١٨١٧-١٨١٨م) عدد السكان في هذا الوقت بثمانين ألف شخص. ومرة أخرى عاد البلاء في عام ١٨٣١م مهلكاً في بغداد نفسها حسب أحد التقديرات ثلثي سكانها وحسب تقدير آخر مئة ألف مواطن. كانت حالة المدينة خلال هذه الأوبئة يرثى لها. فقد توقفت التجارة، وأغلقت الأسواق وظلت جثث الضحايا التعساء غير مدفونة. وقد وجد السيد ساوث كيت، وهو مبشر أمريكي كان في بغداد عام ١٨٣٧م، أن المدينة تستعيد عافيتها ببطء، وحسب تقديراته لم يكن سكان المدينة يتجاوز في ذلك الوقت أربعين ألف فرد. وفي عام ١٨٧٧م، كانت هناك هجمة أخرى للوباء إلا أنه يقال أنه قد افنى أعداد صغيرة نسبياً تبلغ خمسة آلاف شخص بهذا الوباء. يتراوح عدد السكان في الوقت الحالي بحدود ثمانين إلى مائة ألف شخص ولكن الرقم الأول هو الأكثر احتمالاً.

يعتبر سكان بغداد مجتمعاً خليطاً كما هو في باقي مدن الشرق. إلا أن العرب يشكلون الجزء الرئيسي وأن لغتهم هي المستخدمة بشكل رئيسي في المدينة. وبعد عدد العرب يأتي اليهود، الذين يقال أن عددهم يبلغ حوالي عشرين ألفاً في بغداد. يحتل الأتراك بالطبع المواقع الرسمية ولكن قلماً يشاهد أترك المدرسة القديمة. بينما تكون أعداد الفرس والهنود متقلبة، حيث استقر بالإضافة إلى الحجاج الذين كانت أعدادهم

كبيرة في اوقات معينة، بعض القيمين هنا وشغلوا مواقعهم لأسباب إما دينية أو سياسية أو تجارية. ثلث مجموع السكان المسلمين في المدينة هم من الشيعة. يتكون المسيحيون من الأرمن، والكاثوليك الأرمن والكلدان والكاثوليك السوريين، سوف أتحدث عنهم وعن كنائسهم في موقع آخر. بالإضافة إلى هؤلاء يلتقي المرء في السوق ببندو من مختلف القبائل ومن مختلف أنحاء الصحراء وكذلك الكرد من كردستان والمصريين من دلتا النيل ومخلوقات غريبة من براري آسيا الوسطى.

من بين هذا المزيج، يستحق العرب طبعياً الاهتمام الأكبر. لا ريب أن أعدادهم هذه تأتي باستمرار من اوساط القبائل العربية الذين تجذبهم بين فترة وأخرى حياة المدينة، يغريهم أمل الكسب أو بآية حال الحصول على دخل دائم أكثر. ونتيجة لذلك تتنوع اصناف سكان المدينة، فالقادمون المتأخرون يتميزون لكونهم من البدو بالبساطة والنقاء، بينما يتميز الأفراد الذين ينحدرون من أسر مستقرة في المدينة منذ اجيال بالبشرة الصفراء ولهم مظهر لا يدل على الصحة أو الذكاء. وعلى العموم، لا يمكن مقارنة عرب بغداد بمصريي القاهرة الذين لم يتخلصوا من الدماء المدهشة لبناء الأهرامات والمعابد. لا تجد دمانة المصريين المتسمة بالابتسام في اوساط البغداديين، إلا انه يمكن مقارنة الأخيرين على نحو مناسب بالحلبين. إن الوجوه التي تنم عن الذكاء والأجسام النشيطة تجدها منتشرة وسط السكان الأكثر فقراً وبعضهم كرجال القوافل العرب شديدي القدرة على الاحتمال إلى أقصى الحدود ويستطيعون تحمل أكبر المصاعب والمشاق دون تضرر. ترتدي الطبقات العليا العمامة البيضاء ولكن تنتشر الكوفية وسط الطبقات الأدنى. وترتدي جميع الطبقات العباءة البغدادية، النوع الأكثر شيوعاً منها الحاككة من الصوف والسمراء التي لها اشرطة بيضاء وتكلف (بآية حال للأوروبي) بحدود نابليون واحد. في حين يكون النوع الآخر المصنوع من مادة أكثر رقة ومطرزة بالخبوط مكلف جداً. اللغات الشائعة الاستخدام في بغداد هي بشكل رئيسي

العربية والتركية. الأولى هي لغة الأسواق وهي تختلف كثيرًا عن العربية المصرية أو السورية وبنفس الطريقة أيضًا اعتقد أنها تختلف عن لغة اليمن أو مكة. إنها تعتبر محرقة إلى حد كبير وهي غير محبة إلى الأذن إلى حد ما. العديد من كلماتها هي كلمات فارسية واعتقد أيضًا تركية قد تسلت إليها، وقد يتطلب الأمر للمسافر الذي يجيد التحدث بالأشكال النقية للغة ممارسة كبيرة قبل أن يستطيع التحدث بطلاقة بهذه اللغة.

يعتبر اليهود في بغداد جالية متزايدة، ولم يجد الحاخام بنيامين التودولي، الرحالة الشهير في القرن الثامن عشر، سوى ألفًا فقط، إلا أنه كما يذكر كانوا يتمتعون بالسلام والرفاهية والاحترام في ظل حكومة الملك العظيم. يقدر بكنكهام أعدادهم قبل قرابة ثمانين سنة خلت بأنهم عشر أضعاف هذا العدد، ويقال أنهم بحدود عام ١٧٤٠م حوالي خمسة عشر ألف شخص. ويقدر في الوقت الحالي أن عددهم يتراوح بين عشرين إلى خمسة وعشرين ألف شخص وهي نسبة عالية جدًا من المجموع الكلي للسكان. يعتبر التقرير الجدير بالاهتمام الذي كتبه بنيامين التودولي عن كلياتهم وزعمائهم ورؤسائهم والرئيسي دانيال (ابن كسدي) أو (هاسدي)، الذي كان يلقب بالأمير أو (المرشد في الأسر) ويمتد نسبه إلى داوود ممتعًا للغاية. إن موقع هذا الزعيم الذي ثمر سلطته ويصادق عليها بالختم من قبل "ملك المسلمين" الخليفة نفسه تبين أن اليهود لم يكونوا جنسًا مضطهدًا ومقموعًا في بغداد في القرن الثاني عشر أكثر منه في الوقت الحاضر. من الجدير بشكل خاص ملاحظة أنه لا يتوقع من اليهود وحدهم تحية "ملك الأسر" بالاحترام المستحق، عندما يظهر علنًا، بل يفعل ذلك مسلمي المدينة أنفسهم، لا يخضع اليهود في الوقت الحاضر لأي شكل من أشكال القمع وهم يشكلون في الواقع جزءًا مهمًا جدًا ضمن السكان. يمتلك بعضهم

ثروات طائلة ويعمل الكثير منهم في التجارة وأعمال الصيرفة. ويلاحظ المسافر في الشوارع الكثير من اليهود ذوي المظهر الجليل والمحترم. إنهم يرتدون غالباً أردية حريرية صفراء وعمائم زهرية.

يعتبر الأرمن الجزء الأكثر أهمية في الجالية المسيحية. فهم أفراد نشطاء وأذكياء في التجارة والأعمال بكافة أشكالها وحسب أحد التقارير، فهم ليسوا شديدي الوسواس أو حذيرين بالثقة. ويفترض أن نساءهم في غاية الجمال، ويُعرف أن الأوروبيين المستقرين في بغداد لأغراض التجارة يعقدون زيجات لهم باستمرار من أوساط هؤلاء المسيحيين. وقد زرت الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية ووجدتها عبارة عن بناء بسيط مستطيل الشكل حديث البناء وفي غاية القبح والإهمال الشديد ومليء بالعصافير، وهناك عدد لا بأس به من الصور المعلقة على الجدران. وسألت عن عدد رعايا هذه الكنيسة وقيل لي أنهم مئة شخص. وعندما سألت فيما إذا كان لدى الكنيسة كتباً أو مخطوطات قديمة، جلبوا لي لمشاهدتها أعداداً كبيرة من المجلدات المطبوعة في روما باللغة الأرمنية. كان عمر هذه الكتب لا يزيد عن مئة سنة إلا أنها تحوي بعض للطبوعات الإيطالية القديمة الجيدة. ولدى الكلدان أيضاً (النساطرة البابويين)^(١) كنيسة، إلا أنني لم أتمكن من الدخول إليها، قيل لي أن عدد أفرادهم يبلغ حوالي ألف وخمسمائة شخص، وهو رقم لا يمكنني تصديقه. وللكنائس السوريين الذين يبلغ عددهم مائة وثلاثين أسرة كنيسة خاصة بهم بنيت قبل حوالي ثلاثين

(١) النسطورية، مذهب مسيحي أسسه نسطورا الرعشي أو نسطوربوس بطريرك القسطنطينية ويقول أن في المسيح القنومين (أي طبيعتين) إلهية وبشرية لا القنوم واحد وتكر بكاراة العذراء وأنها لم تكن أم الله. اعتبر للذهب هرطقة وانفصلت كنيسته عن الكنيسة الميترنطية عام ٤٣١م. وهو ينتشر في العراق وإيران وسوريا. (المترجم).

سنة في موقع كنيسة قديمة وصغيرة، والمبنى الحالي هو عبارة عن صالة مربعة كبيرة تسندھا ثمانية أعمدة خضراء مزينة من الأعلى بزخارف.

أما الكنيسة اللاتينية فهي عبارة عن مبنى جميل من الأجر عمره خمس وعشرون عامًا. من الداخل هي عبارة عن مبنى قبب صليبي الشكل مع قبة في الوسط وثریات زجاجية عديدة. وفي الخارج هناك كنيسة بشكل سرداب خاصة بالأطفال، ويلحق بالكنيسة مدرستين للأولاد تضم الواحدة منهما في وقت زيارتي مائة تلميذ. بينما تضم مدارس البنات أربع مائة تلميذة يبلغ عدد رعايا هذه الأبرشية ألف شخص وخمسة قساوسة.

لقد اشرت في السابق إلى جو بغداد، إن أشهر الشتاء أو الأصح الأشهر من تشرين الأول إلى نيسان، هي كل الأشهر المفضلة في السنة. يمكن أن يوجد الجليد والصقيع في شهري كانون الأول وكانون الثاني، ويرى بعض المسافرين أن السفر برًا في هذه المناطق في هذا الوقت هو سفر شتوي غير محبب، يجلب نيسان الدفء، وفي بعض الأحيان كما جربت ذلك بنفسي، تكون الحرارة شديدة على المسافر القادم من شمال أوروبا. أما مارس فهو حار حقًا، ولكنه في بغداد البعيدة عن مناطق الرياح الموسمية لا يعتبر الشهر الأكثر مشقة كما هو في بومبي. تعتبر أشهر حزيران وتموز وأب هي أشهر الصيف، ويمثل هذا الصيف للأوروبيين بل حتى للسكان المحليين مصدر قلق وهلع. حيث يجري في هذا الوقت استخدام السرايب وسطوح البيوت ويهجر البيت تقريبًا حتى شهر أيلول أو تشرين الأول. ولغرض تقديم صورة عن بغداد في هذا الوقت من السنة، كتب بكنكهام أنه عندما كان هناك في تموز قرأ مقياس الحرارة أدنى حد له عند الفجر يصل إلى (١١٢) درجة فهرنهايت وعند الظهيرة (١١٩) درجة وقبل الساعة الثانية بقليل بلغت قراءته (١٢٢) درجة وعند الغروب (١١٧) درجة وعند منتصف الليل

(١١٤) درجة. إن درجة الحرارة المخيفة هذه هي ليست أمراً استثنائياً في البلاد ويحل أحيانا طقس أكثر حرارة، ولغرض المقارنة، أود أن أوضح بأنني لم أرى في يومي في شهر مارس من عام ١٨٩٢م، وهو الشهر الأشد حرارة في تلك المدينة الملتهبة، درجة الحرارة في المقياس فوق درجة ٩٩ رغم أنه تسجل بالطبع درجة حرارة أعلى في المراكز الداخلية من الهند.

تصنر بغداد الصوف والقطن الرديء والصمغ والحبوب وبعض المنتجات الأخرى. تأتي بعض كميات التمور المصدر إلى أمريكا وإنكلترا من بغداد إلا أن الكميات الأكبر تأتي من البصرة^(١). تباع هنا أيضاً الخيول العربية، إلا أنها ليست من السلالات الأصلية وهي أرخص بكثير من أسعارها في السوق الهندية. إن الخيول التي تشاهد بكثرة في بغداد هي حيوانات جميلة من سلالات فارسية أو نصف فارسية. يمكن فقط الحصول على الخيول العربية الأصلية من القبائل التي تربي الخيول^(٢). تختلف ميزات الخيول العربية عن ميزات الفارسية بشكل واضح تماماً.

لا أستطيع قول شيء عن الأوضاع السياسية أو الاجتماعية في بغداد في الوقت الحالي، لأنه لم تسنح لي الفرصة لملاحظة ذلك كما أنني غير مؤهل للحديث عنها. يقول أحد التقارير الموثوقة أن وضع المدينة فاسد كباقي المدن التركية. فقد لاقت إدارة واليها الطموح مدحت باشا من لدن بعض الكُتّاب استحساناً غير محدوداً بينما لاقت استهجاناً شديداً من آخرين. من المؤكد أننا نجد آثار هذه الإدارة في كل مكان، إلا أنها تأتي لتمثل شاهداً على طموح وحماس هذا المصلح الذي كانت آراؤه بأية حال صائبة على الدوام والذي جاءت إصلاحاته حيثما حلت، قبل أوانها. لهذا نرى أنه لا

(١) انظر كراتون كيري (رحلة عبر تركيا الآسيوية)، المجلد الأول، ص ٢٤٣.

(٢) انظر لبيدي أن بلنت (القبائل البدوية)، المجلد الأول، ص ٢٠٦.

يستطيع باشا تركي طموح ورجل شريف لوحده أن يخلق مدينة متحضرة من أسوار بغداد المهذمة أو مصابيحها الزيتية القذرة وغير الضيئة، كما أن سنونو واحد لا يخلق صيفاً. فالمرء يقرأ في كل خطوة ابتداءً من المشي التزل للجنود غير المرتبين في الشوارع، وفي الأسواق ذات الرائحة النتنة والجوامع المهذمة، في جسر القوارب المززع ومكتب البريد الغير البانس أن لعنة فتور الهمة التركية تحل بقوة بل وبقوة أكثر من باقي المدن التركية على هذه المدينة التي كانت يوماً ما مزدهرة وعظيمة. فالطاعون قد أباد المدينة والتجارة تخلت عنها جزئياً، وقد ساهم الفرات نفسه، الذي يعزى له تاريخ وثروة البلاد، في هذا العمل وذلك بانفجار ضفتيه وإحالة غرب البلاد إلى منطقة أهوار وبذلك جلب الحمى وسوء الحالة الصحية والنحس إلى المدينة. لقد ذهب مجد مدينة الخلفاء. فهل سيعود؟

استدعيت بخيت وحجي محمد وحمادي امامي في أول صباح بعد وصولي إلى بغداد وأجريت معهم تسوية حسابية عن الرحلة. فقد أعطيت محمد الذي خدمني بأقصى جهده بتفاني خلال الأسابيع الثلاثة، ورغم أن خدماته ليست كخدمات طباط أو خادم مدرب، إلا أن تقديتي لابد أن تكون سيئة بدونه. وقد أعطيت الآخرين هدية بسيطة وغادر الجميع وهم راضون تماماً ويودون لو أرسلت عليهم ثانية إذا ما أردت القيام برحلة على الحيوانات إلى هابل. ذهبت بعد ذلك إلى مكتب البريد، حيث أرسلت برقيات إلى الوطن وإلى حلب مع أبناء بوصولي سالماً. والشيء بالشيء يذكر، لا يستخدم البريد التركي كثيراً من قبل المواطنين الإنكليز المقيمين في بغداد وخاصة فيما يتعلق بالطرود البريدية إذ أن البريد الهندي عبر البصرة وبومبي أكثر أمناً رغم أن الوقت الذي يستغرقه هذا البريد أطول بكثير من البريد التركي عبر القسطنطينية. توجد في بغداد والبصرة وموانئ الخليج العربي مكاتب بريد تديرها الحكومة الهندية من خلال موظفين يتحدثون الإنكليزية. ترسل الرسائل أو الطرود من إنكلترا إلى مكان معين

بنفس الرسوم التي ترسل بها إلى الهند. يقع مكتب البريد البريطاني في بغداد في دار الإقامة وعندما يصل البريد تشاهد ازدحاماً كبيراً في فناء الدار. حيث يشاهد بشكل عام اليهود والمسيحيين المحليين بأعداد كبيرة وبفضل المقيمون المسلمون دائماً استلام بريدهم عبر هذا الطريق^(١).

جاء مكوثي في بغداد خلال شهر رمضان حيث تكون حياة الشارع في الشرق ليست بجالتها الاعتيادية. كانت الأسواق خلال النهار هادئة. العديد من الحوانيت مغلقة أو بآية حال تغلق مبكراً في النهار. فهناك جو عام من الفتور يعم كل شيء. فأصحاب المحلات يغفون فوق قراينهم، ولا تشاهد من طرف الشارع الطويل لطرفه الآخر أي غليون أو سكاراة يجري تدخينها. وعندما يقترب المساء وتغيب الشمس في الغرب، يمكن مشاهدة مجاميع الناس في المقاهي وغلايينهم جاهزة بانتظار ضرب النفع لغرض إشعالها أو كسر صيامهم بفنجان من القهوة والردشة المعتادة. يمكن مشاهدة في الأسواق كميات كبيرة من اللحوم والخبز وباقي أصناف المأكولات التي يمكن أن تستهلك خلال الليل.

وبعد غروب الشمس مباشرة، تبدأ الحياة تدب في المدينة. حيث تصدح الموسيقى في كل الاتجاهات، وتشاهد مجاميع المشعوذين والسحرة تجوب الشوارع ليقوموا بأعمالهم أمام المقاهي الزدحمة وفي وقت متأخر من المساء يمكن سماع مجاميع النهمكين بالمرح وهو يضحجون بالفناء أثناء مرورهم في الشوارع بطريقهم إلى بيوتهم.

(١) كانت إحدى نتائج عمل بعثة وادي الغرات هي تسير برید بالجمال بين بغداد ودمشق الذي استمر للفترة من ١٨٢٨م إلى ١٨٨١م. كانت تبهره دار الإقامة البريطانية في بغداد وتموله إلى حد كبير الحكومة الهندية. يجري نقل البريد من قبل عرب عكيل الذين يقطعون هذه المسافة البالغة حوالي خمسمائة ميل بعشر إلى أربع عشر يوماً.

تضاء الأسواق والشوارع والمقاهي في شهر الصوم خلال الليل وتفتح الجوامع وتردحم بالمؤمنين.

قام أحد الغامرين الشرقيين مؤخرًا بافتتاح مشروع على ضفة النهر يحمل اسم (إذا كنت أتذكر بشكل صحيح) الفندق الأوروبي. استفسرت بخصوصه بعد وصولي، إلا أنه لا يبدو أن أحدًا كان يستطيع أن يمتدحه لي ولم يسمع أي أحد بأن هناك أي مسافر قد أقام في هذا الفندق. مع ذلك قمت برفقة السيد سي بزيارة المكان الذي يبدو أنه مكان صغير لطيف مبني على الطراز الإيطالي ويقع بشكل جميل على ضفة النهر. جلسنا في حديقته وانغمسنا في متعة احتساء قنينة من بيرة لاكر وقنينة ماء الصودا حيث كلفتنا "حفلة السكر هذه" روبيتين. مع ذلك، يظهر هذا الفندق في قائمة السادة (Cook & Sons) "للفنادق الشرقية". لا أستطيع أن أتصور كيف يحافظ هذا الفندق على وجوده لو لم يعش على عوائد احتساء المشروبات من قبل المسلمين (الصيام).

لا يرى المرء في بغداد كما في القاهرة وفي كل انعطافة الجمل الذي يسير بتناقل، ولا يضايق باستمرار كما في تلك المدينة بأن يحشر إلى الحائط بالحمل ذي الرائحة الكريهة لذلك الخلق المفيد والأخرق إلى حد ما. والواقع أن المرء يستطيع التجول في شوارع بغداد لفترة طويلة دون أن يرى جملاً على الإطلاق. واعتقد أن هذا يعود بشكل رئيسي إلى أن القوافل تتجه دائمًا إلى مراكز معينة في المدينة حيث يوجد فيها خانات ومحلات للسكنى. إلا أنه نشاهد في بغداد قدر ضئيل من الحمير البيض الكبيرة الحجم المسرحية والجاهزة للاستئجار كما في القاهرة. إلا أنها بالمقارنة معها تعتبر قليلة. وهذه الحيوانات كبيرة بل وأكبر مما هو موجود في القاهرة ويقال أنها سهلة القيادة جدًا.

تبدو القرحة البشعة المعروفة في بغداد بأنها "حبة العمر" مشابهة تمامًا لحبة حلب التي سبق وصفها. وهي شائعة ومشوهة بطريقة مماثلة. والحقيقة أنها تنتشر في كل مكان، من رأس الخليج العربي إلى حلب وماردين وديار بكر.

لقد كنت منهكًا جدًا عند وصولي إلى بغداد بحيث اني قررت ان أخذ قسطًا كبيرًا من الراحة قبل ان ابدأ رحلتي إلى بابل وكربلاء التي رغم انها تبعد مسافة مسير سبعة ايام على ظهر الخيول، إلا انني اشعر ان الرحلة ستكون قاسية علي في وضعي الصحي هذا. لقد دفعني وصول السيد سي إلى دار الإقامة وهو ملازم في فوج إنكليزي متمركز في الهند كان يرغب في إجراء نفس الرحلة، إلى الشروع بها بأسرع وقت ممكن، لهذا قمنا باستئجار الخيول وقمنا بالرحلة معًا. لقد أرسلت عند وصولي في الحال على مترجم سمعت عنه في حلب هو المدعو يوسف أنتيكا وهو مسيحي كلداني كان حسب معلوماتي المترجم المحترف الوحيد في بغداد وغبل من قبل بشكل متكرر مع مسافرين إنكليز. جاء يوسف دون إبطاء، وبعد أن أطلعني على سلسلة من البيانات المتأخرة عن قدرته اللغوية، شغلته معي لأغراض الرحلة وللقيام بالتبضع خلال عدة ايام من أسواق بغداد وإعداد التجهيزات. كان رجلًا قصير القامة مربوعًا. افطس الأنف، كريم النفس وصاحب محبة يدل على الدهاء يخفي دائمًا تكشيرة فكاهية تجعل كل من يتحدث إليه ينطلق في الضحك. ورغم أنه تعوزه الوسامة، إلا أنه أثبت أنه رجل ذو تجربة ومدير ممتاز. وفي الحقيقة أنه الخادم الشرقي الأكثر كفاءة مما لم أرى مثله من قبل. فقد ارتحل في بلاد فارس والهند وفلسطين ويعرف بالطبع جميع الطرق في وادي الرافدين، لقد تعلم الإنكليزية بطريقة غريبة وبدرجة معقولة في بغداد، ولا أستطيع ان أفهم سبب عدم انتقاله إلى بيروت أو دمشق حيث يستطيع بواسطة قدراته المتنوعة ان يتقاضى رواتب عالية كمترجم مرتحل. يرتدي في بغداد

عباءة فاتحة اللون ذات تطريز ذهبي مع طربوش، وهو زي يناسبه تمامًا، إلا أنه ارتدى خلال الرحلة زياً أوروبياً غربياً يتكون من قطع متنوعة من الملابس حصل عليها من مسافرين آخرين، والذي يضفي عليه مع الكوفية العربية مظهرًا مثيرًا للضحك المفرط حيث كان لنا مصدر تسلية رائعة خلال مجمل الرحلة. وعلى خلاف معظم الشرقيين، تتميز أفعاله واحاديثه بالسرعة والحيوية ويتمتع بذاكرة جيدة. بالإضافة إلى هذه الخصال الجيدة فإنه طباط ماهر. ومع يوسف وسي وأنا تجولنا في الأسواق واعدنا لرحلتنا التجهيزات الاعتيادية الضرورية للقيام برحلة في الشرق. كان لدى سي، الذي تنتظره رحلة أخرى في بلاد فارس، سرجه الخاص، حيث لم أزد بمثل هذه الوسيلة المريحة. لقد شددوا علي النصيحة بأن لا آتمن سرجًا محليًا والذي يعتبر بشكل عام أداة مرهقة ومزعجة للغاية لن لم يعتد على استخدامه. ولحسن الحظ استطعت أن أعثر في السوق على سرج إنكليزي جيد بسعر باونين، وعندما اقتنعت بشرائه قام يوسف بلطف بانتزاع نصف هذا المبلغ من يدي وأعطاه للبائع. وقد تولى يوسف أيضًا موضوع البحث عن حيوانات للقيام بهذه الرحلة وقبل يوم من البدء بالرحيل، تم جلب هذه الحيوانات إلينا لغرض تدقيق حالتها. كان لدينا بشكل عام خمسة خيول ثلاثة لنا وليوسف واثنين لحمل الأمتعة والخيمة الضرورية لحملها معنا. هناك خادمان للاعتناء بهذه الحيوانات والمكاري وهو شخص خسيس ومثير للشغب ووغد مما لم أزمثله من قبل ورجل شاب. كانت الخيول هزيلة بل وربما أسوأ من ذلك، وقد قررنا أن يحضر الجميع عند الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، السادس من نيسان لغرض الشروع بالرحلة.

✱

✱

✱

الفصل الحادي عشر

عرض تاريخي عن بغداد

اللايس - الخلفاء الاوائل - البويهيون - انحطاط الخلافة - الظهور الاول للالراك - انتقال بغداد الى الضفة الشرقية منجلة - جنكيزخان - المسلمون - هولاء - نهاية المباسين - اضطهاد المسيحيين - ليمورلك - الشاه اسماعيل - اسلاطنة الممانيين ملك المدينة

تأسست بغداد في عام ٧٦٢ م على يدي أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني الذي يمتد نسبه إلى العباس عم محمد. كانت هناك، على أية حال، قرية في نفس الموقع قائمة منذ فترة سابقة طويلة أسسها دون شك الفرس، كما يدل على ذلك اسمها^(١). خلال المئة والخمسين سنة الأولى من هذا الوقت كان تاريخ الخلافة عصر عظمة مطردة، رغم أنه لم يكن عصر رخاء بسبب الصراعات التي لا تهدأ الناشئة لأسباب دينية وغيرها وبسبب الهيمنة العسكرية التركية التي اقحمت في الدولة منذ وقت مبكر. كانت الإمبراطورية تضم في عصر هارون الرشيد (٨٠٩-٨٢٦م) العراق وسوريا والجزيرة العربية وبلاد الرافدين ومصر وشمال إفريقيا وبلاد فارس وكرمان وخراسان وأرمينيا وبلاد الأناضول وجورجيا وشركاسيا، حيث قسمت عند وفاته

(١) دي هربلو (تاريخ مكنوند) تاشارا، (لؤلؤف).

بين ابنائه الثلاثة. وقد تم في عهده عزل والقضاء على وزرائه البرامكة أصحاب النفوذ. تنازع الأمين الذي خلف أباه في بغداد مع شقيقه المأمون حيث زحف قائد قوات الأخير وحاصر المدينة في عام ٨١٢م. امتد الحصار لعام صاحبه معاناة كبيرة للأهالي وانتهى بالتدمير التام للمدينة. قُتل الأمين واحتل المأمون موقعه، ولكن حدث بعد ذلك اضطرابات داخلية أخرى حيث وقعت المدينة خلال جزء من زمن هذه الاضطرابات تحت رحمة رجال الجيش، وقد رافق حكمه الذي كان زاهراً من جوانب أخرى عدة أعمال تمرد اثارها الحركات العلوية. في زمن المستعصم (٨٣٣-٨٤٢م) بدأ زمن انحطاط الخلافة وذلك بتجنيده مرتزقة من الأتراك سرعان ما أحرزوا تقدماً رغم مرور وقت طويل قبل أن يخفت البهاء الخارجي لبلاط الخلفاء. وخلال أيام المستعين والمعتز والمهتدي (٨٦٢-٨٧٠م) كانت المدينة مسرحاً للحصار وأعمال الشغب والفوضى، وفي كل مرة يخلق الخليفة أو يقتل من قبل الأتراك المتمردين. مع ذلك يوصف البلاط في عصر خلافة المقتدر (٩٠٩-٩٣٢م) بالبهاء البالغ. يقال أن ألف خصي يعيشون في القصر. هناك في قاعة المقابلات شجرة من الذهب عليها طيور من معدن نفيس وهي ترفرف بأجنحتها المتألئة وتغني^(١). في عام ٩١٧م، اغتصبت أسرة بويهية أسسها ثلاثة من الأشقاء الفرس البلاد الواقعة بين بحر قزوين والخليج العربي، وفي زمن استلام الرازي للعرش عام ٩٣٤م، انحسرت الخلافة تقريباً إلى ولاية بغداد فقط. فقط أعلن الأمراء وحكام الولايات الذين كانوا في السابق يعترفون بسلطة خليفة بغداد عليهم، استقلالهم وسمحوا فقط بالسلطة الروحية له. وفي عام ٩٤٠م، ترك وباء الطاعون والجاعة العاصمة ضعيفة وخالية من السكان جزئياً وبعد ست سنوات، طلب الخليفة بعد أن رأى المدينة محاصرة بأعدائها وقطعت عنها الإمدادات حماية الزعيم البويهي. كانت تلك بداية النهاية. وبعد وقت قصير، أقصي الخليفة وسملت عيناه (كسلفيه اللذين لا زالا في ذلك الوقت

(١) يجب النظر إلى الإحصاءات والأوصاف الواردة في المصادر الشرقية بشك كبير، (المؤلف).

على قيد الحياة) وتم تنصيب آخر مكانه. قبل عهد الراضي، كان الخليفة على الأقل هو امير المؤمنين الحقيقي والملك الديني نوعاً ما، إلا أنه عين رئيساً للوزراء الذي يسمى امير الأمراء حيث وقعت في يدي الأخير هذه الصلاحيات. وقد شغل البويهيون هذا الموقع وقتلوا الأمير في مكتبه واحتلوا موقعه تحت لقب السلطان معز الدولة. ومنذ تلك اللحظة كان سقوط الخلافة تاماً، وبدلاً مما كان الخلفاء في يوم ما هم رأس اعظم حكم شرقي مطلق انحدر الخلفاء إلى وضع عبيد اذلاء لوزرائهم إذا صبح تسمية البويهيين بذلك. ولم يمر وقت طويل حتى أعلن أحد البويهيين هو عضد الدولة لقب شاه نشاه أي ملك الملوك. لقد وصل هذا العضد وهو شقيق البويهي الأول، إلى الرئاسة بدحره وقتله بختيار ابن سلفه وفي عام ٩٨٠، أعاد بناء المدينة وأسس مستشفى عظيمًا.

لقد عين هؤلاء البويهيون وزراء هم الخاصين، في حين كان للخلفاء سكرتيرين فقط. في بداية القرن الحادي عشر، حاصر محمود سلطان غزنوي أو خراسان بغداد وفرض على الخليفة القادر غرامة هائلة. وبعد ذلك بسنوات قليلة (عام ١٠٢٧م) ظهر الأتراك على مسرح الأحداث وقاموا بنهب المدينة، وخلال السنوات التالية، أبقي الجنود الأتراك الذين ظلوا في المدينة، بحالة دائمة من الفوضى بسلوكهم المتعمر. وفي حوالي عام ١٠٣٧م، قادوا تمردًا ضد الأمير البويهي وأحرقوا بغداد، وفي عام ١٠٤٠م، حسبما ورد في تاريخ مركوند سقط في بغداد صقيع بلغ عمقه على الأرض ثلاثة اشبار وتجمد دجلة مدة أكثر من اثني عشر يومًا، وهي حالة في غاية الغرابة، إذا ما صدقنا ذلك. في عام ١٠٥٥م، دخل طغرل بيك، الذي طلب الخليفة القائم مساعدته ضد السلطان مسعود، المدينة ونهبها ودمرها^(١). تم إسقاط الزعامة البويهية، وأعلن طغرل بك بعد أن تزوج من ابنة الخليفة، سلطانًا على إيران ولكن ليس خليفة. وقد قدر للأسرة العباسية في

(١) تختلف المصادر في ذلك، فمنهم من يقول أنه قد استقبل استقبالاً حافلاً.

الواقع أن تبقى في حالة الانحطاط هذا لقرنين تالين من الزمان. مع ذلك، ورغم أن الخلافة تحتضر، إلا أن المدينة لم تكن كذلك. والواقع أنها استطاعت تحت ظل حكم هذه الأسرة الجديدة أن تأخذ لها فرصة جديدة للحياة، لأنه في زمن الخليفة المستنصر (١٠٩٤-١١١٨م) والسلطان برقوق تم نقل مدينة بغداد التي كانت تقع في أول الأمر في بلاد الرافدين على ضفاف دجلة، ولكونها قد دمرت بفعل فيضان النهر، إلى الجانب الآخر منه الذي يتسم بأنه ملائم أكثر^(١). يدل موقع ضريح الملكة زبيدة الكائن على الجانب الغربي من النهر^(٢) على هذا، ولكن قبل أن يتم نقل المدينة بوقت طويل، كانت توجد ضاحية تدعى الرصافة على الضفة اليسرى من النهر. يقول إبنسورث إن ابن المؤسس المنصور قد بنى مدينة تسمى المهدي على هذا الجانب وأن اتحاد المدينتين قد شكل بغداد، إلا أنني لا أعرف مصدره.

وقد ترك لنا بنيامين التودولي عن هذه الفترة وصفاً ناطقاً عن حالة بغداد كونه قد رآها في القرن الثاني عشر. فقد كتب: "عند قصر الخليفة في بغداد على رقعة مساحتها ثلاثة أميال فهو يضم مساحة كبيرة مليئة بكافة أنواع الأشجار المثمرة أو اشجار الزينة وكافة أنواع الحيوانات إضافة إلى بركة ماء يصل إليها الماء من دجلة".

وأضاف: "لا يغادر الخليفة قصره طيلة السنة. إنه رجل ورع وكريم، وبنى المباني على الجانب الآخر من النهر وعلى ضفاف ذراع من نهر الفرات يجري في أحد جوانب المدينة"^(٣).

(١) ترجمة تشارا الكتاب تاريخ مرسكوند الذي كتبه الكاتبون جون ستهفن، عام ١٧٥٥م.

(٢) الصحيح أن الضريح على الجانب الشرقي من النهر وليس الغربي، (الترجم).

(٣) انظر (رحلات قديمة في فلسطين)، رابت ام. كي. مكتبة بون للمخطوطات القديمة.

تبين هذه القطعة الجميلة أنه رغم أن المدينة وقصر الخليفة يقعان على الجانب الشرقي فإن الضفة الغربية لم تهمل وكانت عمليات البناء جارية هناك. لا بد أن يكون ذراع الفرات هو قناة العكلاوية أو العقلاوية أو فرع يربط هذا النهر بدجلة عند نفس المكان.

في زمن الخليفة الناصر "ازدهرت بغداد كثيرًا"، إلا أنه في هذه الأوقات المضطربة حيث كان جنكيزخان يعيثُ خرابًا في آسيا، ورغم أنه دخل في تحالف مع التتر ضد محمد سلطان خوارزم إلا أنه وجد متسعا من الوقت لبناء وترميم أسوار العاصمة هذه الأسوار التي بقيت صامدة حتى تدميرها بتاريخ ١٢٣١م، وهي أقدم بناء عتيق في بغداد^(١).

إلا أن الضربة الأخيرة كانت على وشك التسديد. في عام ١٢٢٧م، خلال عهد خلافة المستنصر، شن جنكيزخان، منتهكًا اتفاقه مع الناصر، وبعد أن دمر بلاد فارس غارة على بغداد. كان للمستنصر بارعا كعادته وممثلا جديرا عن الخلفاء الأوائل. فقد قام بحشد جيش وأجبر الطاغية على التقهقر. خلال فترة الإنقاذ القصيرة التي تلت ذلك، تم بناء المدرسة المستنصرية الشهيرة. لقد ظل قائما حتى الآن جزءا صغيرا من مبنى هذه المدرسة الذي يرجع إلى عام ١٢٣٢م، وبقائه بقيت الكثير من البيانات. كان يدرس فيها بانتظام أربعمئة تلميذ حيث يتم إكساؤهم وإطعامهم. هناك أربعة استاذة فيها وطبيب مع صيدلي. ولكن حلت النهاية الآن، فقد جلس في محل الحاذق المستنصر، المتخنت والجبان المستعصم. رفض هذا الأمير المتفسخ، مهملا تحذيرات أصدقائه اتخاذ أي إجراءات دفاعية ضد التتر. لم ينتظر هولاكو وحشوده الموقعة بالدماء طويلا. وفي الآخر، تم حشد جيش صغير، حيث جرى سحقه بخيانة يقول البعض أنها من قبل الوزير نفسه. لقد جرت محاولة للدفاع عن المدينة، إلا أنه تم

(١) انظر بكتكهام "رحلات في وادي الرافدين".

الاستيلاء عليها بسهولة، واكتسحت موجة الغول المتعطشين للدماء "دار السلام" وقتل آخر الخلفاء في ١٣ شباط عام ١٢٥٨م، وعلى وفق بعض المصادر يقال انه قد وضع في كيس وسجل عبر شوارع المدينة حتى مات. لقد تعمقت الأسيرة الجديدة بالدم البشري، ويقال انه في المذبحة التي تلت ذلك، ذبح مليون ونصف المليون من البشر في المدينة والضواحي المحيطة، وهكذا انتهت الخلافة العباسية التي دامت لخمس قرون ونصف، شغل العرش خلالها سبعة وثلاثون خليفة.

بحدود هذا الوقت زار ماركو بولو المدينة وترك لنا تقييماً عن ثروة المدينة التي لم تسجل جيداً مع حكايات سفك الدماء والسلب التي يقوم بها الفاتحين التتر. "في بلدك أو بغداد الكثير من صاغة الذهب وصناع الحرير، فهناك الأقمشة المخملية والدمشقية التي عليها صور مختلف المخلوقات، تأتي كل لآلئ العالم المسيحي من هذا المكان. يوجد في تلك المدينة جامعة حيث تدرس فيها شريعة محمد والطبوعات وعلم الفلك وكشف الصالح. إنها المدينة الرئيسية في هذه الأنحاء"^(١).

وحسبما يذكر ماركو بولو، إن الاستيلاء على بغداد قد تم بخدعة حربية. "كان أولان (أي هولاكو) يمتلك جيشاً جراراً من مائة ألف فارس إضافة إلى المشاة. وقد اتبع سياسة بأن أخفى الجزء الكبير من جيشه، واستدرج الخليفة بقتال مزعوم نحو كمين وأسره واستولى على المدينة، حيث وجد فيها خزيناً هائلاً من الثروة بحيث أنه قد صندم بذلك. أرسل بطلب الخليفة وقام بتأنيبه قائلاً أنه لم يزود نفسه بهذه الحرب بالجنود لغرض الدفاع وأمر بأن يحبس مع خزائنه دون أرزاق".

(١) انظر رحلات بتكوتون.

ثم يستمر الكاتب ويخبرنا عن قصة حول الخليفة تبين أن مسيحيي بغداد في ذلك الوقت كانوا يتعرضون للاضطهاد. هنا اقتبس ما يقول: "يبدو هذا حكمًا عادلاً من ربنا يسوع المسيح عليه، لأنه في عام ١٢٢٥م، وهو يحاول تحويل المسيحيين إلى الديانة المحملية واستغلال هذه الآية من الإنجيل: "إن من لديه الإيمان يكون قادرًا كبنرة الخردل على إزاحة الجبال". فقد استدعى المسيحيين والنساطرة والبعقوبيين واقترح عليهم إزاحة جبل معين في غضون عشرة أيام أو أن يتحولوا إلى الإسلام أو أن يقتلوا لأن لا أحد من بينهم يمتلك القليل من الإيمان. لهذا أقاموا الصلاة لثمانية أيام متواصلة بعدها تم اختيار صانع أحذية، بناءً على إلهام حل على أحد الأساقفة للقيام بهذه المهمة. لقد حقق صانع الأحذية هذا، الذي تملكته الرغبة الجنسية لمرأة شابه عند ارتدائها لحنائها، بحماسة ما قاله الإنجيل، وأدار نظره عنها. إنه الآن في اليوم المحدد مع باقي المسيحيين وهم يتبعون الصليب ورفع يديه إلى السماء وصلى إلى الله بأن يرحم شعبه ثم وبصوت عالي أمر الجبل باسم الثالوث الأقدس أن يتحرك، حيث وبهلع كبير من الخليفة وشعبه ترحل الجبل في الحال، وأصبح هذا اليوم والمساء الذي يسقه منذ ذلك الحين مقدسًا بالصوم".

وبما أن ماركو بولو قد بدأ رحلاته في عام ١٢٥٠م، فهو ربما يكون في بغداد بعد وقت قصير من استيلاء هولاكو أو أولان كما يسميه هو. لهذا يعتبر وصفه للأوضاع في هذا العهد ذا قيمة، فهو يميل لإثبات أن البيانات حول تدمير المدينة هي بيانات محرفة بشكل كبير قد يشك القارئ الحصيف بمدى صحة حكاية الجبل بسبب أن الأرض المحيطة بالمدينة ولمسافة أميال عديدة هي عبارة عن سهل مستو، ولكن الجواب الواضح لهذا هو أن عدم وجود أي تل يثبت صحة هذه الحكاية. وعلى وفق ما جاء في تاريخ مركوند (المؤلف من قبل تاشارا)، فقد تم بناء المدينة بعد وفاة هولاكو من قبل أحد وزرائه بموجب تعليمات تركها له سيده.

ولمدة مائة وأربعين سنة ظلت المدينة تحت سيطرة أسرة هولوكو، وبعد ذلك ظهر على مسرح الأحداث الفاتح تيموريك أو تيمورلنك سلطان سمرقند. وقد سقطت بغداد في يديه مرتين. الأولى في عام ١٣٩٢م حيث أخضع البحر والبر من هرمز صعوداً إلى نهر دجلة. وقد تركها للتفرغ إلى ميادين جديدة للفتح، فقد خرب التتر الطامحين تركستان والكبيراك (الكومان) وجنوب روسيا وجزءاً من الهند وفي عام ١٤٠٠م، وبعد أن نهب حلب ودمشق، عاد إلى بغداد حيث وجد أن حاكمها السابق قد استعاد سلطته، لهذا زحف عليها وأخضعها ونهبها ونصب على حكامها هرمناً من تسعين ألف رأس لمواطنيها الذين جرى ذبحهم.

ومنذ هذا الوقت، استمر الصراع بين الأجناس المتقاتلة والأسر التركمانية والفارسية لفترة طويلة. وقد سادت هذه الفترة الحشود التركمانية المتعطشة للحروب المسماة الخرووف الأبيض والخرووف الأسود، حيث خضعت بغداد لسلطة كل منهما عدة مرات. وفي عام ١٥٠٨م، استولى الشاه إسماعيل الصفوي أو الصافي^(١) على المدينة. ولكونها قد تمزقت بسبب هذا التيار المستمر من الحروب، فمن المؤكد أن المدينة قد تدهورت إلى حالة من الانحطاط. إلا أنها ظلت مدينة كبيرة ذات تجارة واسعة وبقيت الأوصاف التي تركها لنا الرحالة، تبين ثروتها في تلك الأزمان. فقد وصفها ماستر رالف فيتش في عام ١٥٨٢م بدقة، إلا أن ذلك كان تحت اسم بابيلون.

“ليست بابيلون مدينة كبيرة جداً، إلا أنها كثيفة السكان ولها تجارة واسعة مع الأجانب لأنها ملتقى الطرق إلى بلاد فارس وتركيا والجزيرة العربية، ومن هنا تنطلق القوافل نحو هذه الأماكن والأماكن الأخرى. تعتبر المدينة مستودعاً ضخماً للبضائع القادمة من أرمينيا عن طريق نهر دجلة...”

(١) الأصح هو إسماعيل الصفوي، (الترجم).

كانت بابلون في الماضي تابعة لمملكة فارس، إلا أنها تخضع الآن للأتراك، وإلى الشمال مقابل بابلون، هناك قرية جميلة، يمكن العبور منها إلى بابلون على جسر من القوارب المربوط إلى سلسلة كبيرة من الحديد التي تسهل المرور السريع على جانبي النهر. وعندما تريد بعض القوارب المرور إلى الشمال أو الجنوب عبر النهر، يتم رفع بعض قوارب الجسر حتى تمر هذه القوارب".

يقصد بهذه المدينة هي بغداد وليست الحلة أو بابل وما يدل على ذلك هو المقطع التالي، "بني برج بابل على هذا الجانب من دجلة المواجه للجزيرة العربية على بُعد سبعة أو ثمانية أميال من المدينة، والبرج مدمر من جميع الاتجاهات وقد كُون سقوطه جبلاً صغيراً في الموقع لهذا فإن ما تبقى لا شكل له. إنه مبني من الحجر المجفف تحت الشمس وعيدان معينة وسعف أشجار النخيل الموضوع بين الحجر. وهو ينتصب في سهل فسيح بين نهر الفرات ودجلة".

تشير الجملة الأخيرة بشكل قاطع إلى آثار عكر كوف الواقعة بين الفرات ودجلة باتجاه الجزيرة العربية، في حين أن برّس نمرود أو برج بابل يقع كما يشير معظم الرحالة الأوائل غرب الفرات.

وفي عام ١٦٢٤م و١٦٣٠م حاصرها الأتراك إلا أنهم فشلوا، وفي عام ١٦٣٨م سقطت أمام مراد الرابع بعد حصار دام شهرين تقريباً، ومنذ ذلك الوقت أصبحت أرضاً تركية وعاصمة للجزيرة العربية (كما يقال) الخاضعة للأتراك. وقد وصفها الكساندر هاملتون في بداية القرن الثامن عشر: "بأنها مدينة كبيرة هائلة وهي مقر بكرلي بك، الذي يحكم ولاية كبيرة جداً".



الفصل الثاني عشر

من بغداد إلى بابل والحلة

مفادرة بغداد - خان الزباد - خان المحمودية - قافلة الحاج - الكاجوية - خان بير يونس - الوصول إلى خان الحصوة - فن المماراة للخانانة الفارسية - النوم في أحد المقاهي والقلق من البراغيث - مفادرة خان الحصوة - منظر إناز بابل - مقابلة إننين من الأمريكيين - الوصول إلى الأناز - بابل - المجلية والقمر - عمران بن علي - المفادرة نحو الحلة - إصابة امرأة كبيرة

بعد الساعة السادسة مباشرة، وبعد أن أصبحت جاهزاً، ظهر يوسف في غرفتي بخبر يفيد بأن الخيول وصلت الفناء وأن كل شيء أصبح جاهزاً للرحيل. كان لباس يوسف عملياً على نحو ملائم فهو يرتدي معطفاً جلدياً مناسباً للركوب، وينطال لابد أن فصاله قد جرى على رجل بطول ستة أقدام، وجوارب واحذية عالية الساق. ولولا كوفيته الحمراء وعقاله لظن المرء أنه رجل ضئيل رحيم من أهالي المدينة ناهب لصيد طائر الطيهوج. ثم نقل امتعتنا إلى الفناء ثم بدأت الجلبة المعتادة للاستعداد الشرقي للرحيل. فقد صرّح الكترجي (الكاراي) في الحال أن امتعتنا كثيرة جداً ولا يمكن حملها بواسطة الحصانين اللذين تم استئجارهما، ورفض المباشرة بالرحيل إذا لم نستأجر حصاناً آخر. كانت تلك كذبة، فالسبب الحقيقي لفعل الكترجي هذا هو أنه كان يرغب أن يضع حملاً خفيفاً على أحد الخيول، كي يستطيع ركوبه. على أية

حال، رفض الوغد التفاهم، ولأننا كنا نرى أن استخدام حيوان ثالث سيمنكنا من السفر بسرعة اكبر، استسلمنا لمطالبه. والحقيقة هي انه لم يكن لدينا خياراً آخر، لأننا لا يمكن أن نشرع بالرحيل من دونه. وفي الآخر، وعند حوالي الساعة السابعة وعشرين دقيقة، تم تحميل الحقائب والخيمة والفراش والمؤن، وبعد ان غادرنا دار الإقامة، سرنا ببطء عبر الأسواق الهادئة وعبرنا جسر القوارب.

وبعد مرورنا بشوارع الضاحية الغربية لبغداد، التي تضم عدد لا بأس به من الناس، وصلنا خلال ساعة وعشرين دقيقة إلى جسر آخر وعبرنا حسبما ابلغوني فيما بعد أنه مجرى ماء مرتد من النهر، إلا أنه في الحقيقة حسبما اعتقد هو مصرف لقناة العقلاوية العظيمة التي تربط دجلة والفرات. عبرت مجموعتنا الصغيرة ببطء هذه القناة وتوقفنا على الجانب الآخر للذبح الرسم وتلقينا بسرور من صاحب الخان المسمى خان الخر فنجان قهوة.

كانت البلاد التي دخلناها الآن عبارة عن سهل مستوي فسيح لا نهاية له على امتداد البصر، ذو أرض صلبة تحت الأقدام أثناء السير وهو يمتد لأميال عديدة في المساحة التي تفصل بين النهرين العظيمين، والتي كانت ثروة عظيمة في فترة من الفترات تحت إدارة حضارة نشطة رغم أنها غير متحثة. إلا أنه الآن، وتحت إدارة حكومة شرقية عاجزة، فهو عبارة عن سهل قاحل ومجلب كالقطب الشمالي. مع ذلك، من الغريب أنه أثناء تقدمنا بالسير شاهدنا أحدث اختراع للعالم الغربي وأكبر عمل يتعلق بأحد معتقدات الإسلام، كان على أحد الجوانب الخط التلغرافي الممتد من بغداد إلى كربلاء والحلة والنجف والبصرة، وتسير على طول الطريق بالقرب منه مجاميع الحجاج من بلاد فارس والهند والخليج جميعها متجهة نحو أو عائدة من مرافد مشهد علي ومشهد الحسين التي يأتي الحج إليها بالنسبة للمسلمين الشيعة بالمرتبة

الثانية بعد حج مكة، لم نشاهد إلا القليل من الحيوانات البرية. كانت تطير فوق رؤوسنا بين الفينة والأخرى أسراب كبيرة من طيور القطا ونرى بشكل متكرر على خطوط التلغراف طيور خضراء جميلة من فصيلة الرقراق التي تعيش على ضفاف الأهوار البابلية.

وبعد مسير لمدة أربع ساعات وصلنا إلى أول خان على الطريق هو خان الزاد وهو بناء كبير شبيه بابنية الجوامع مبني من الحجر، ومن المثير للدهشة، لم نشاهد هناك أي كائن وخلال سير في المدخل، علمت أن المكان غير مأهول وفي حالة كبيرة من التدهار. يبدو أن هذه الخانات التي بنيت بإحسان من بعض رجال الشيعة الأثرياء الاتقياء، كثيرة العدد الآن باكثر مما ينبغي على الطريق. فقد أسس خان جديد وبني على وجه السهل. وأحرق الحجاج بتجه إليه، وهجر الخان المجاور واخذ في التهدم. فخان الزاد الذي وجده باكنكهام "مزدهماً جداً بالحيوانات وراكبها بحيث لم نستطع شق طريقنا بينهم إلا بشق الأنفس" و"هو قادر على إمداد ما لا يقل عن خمسمائة شخص بالسكن والطعام". ويصفه لبارد بأنه "صالح للسكنى"، قد هجر الآن لصالح خان الحمودية الواقع على مسافة أبعد من الآن بمسير ساعة ونصف وهو ولكونه لم يذكر من قبل أي من الرحالة الأوائل، ربما يكون بناءً حديثاً. يعتبر خان لزاد مبنى كبيراً من الحجر ذا تصميم مربع من جميع الجهات. ومن منتصف أحد الجوانب يرتفع بناء مربع يضم المدخل وأربع أواوين، جرى تزيين اثنين منها مع المدخل بأعمال زخرفية. يضم السور الخارجي المواجه إلى الطريق عدداً من الأواوين ذات الأقواس غير مستدقة الطرف والتي يستطيع للمسافر إذا ما امتلأ الداخل أن يأوي إليها وينام. كذلك هجرت الأكواخ العربية القليلة المحيطة بالخان.

وبعد مسير لفترة ساعة ونصف أخرى، وصلنا إلى خان الحمودية الذي كان مشابهاً للؤلؤ، ويقع قبالة مقهى حيث توقفت خيلنا فيه وترجلنا بينما أنزل يوسف الغداء واخذت حيواناتنا تجر علفها الجيد. وعندما كنا نجلس حول مائدة غدائنا المؤلف من لحم الدجاج البارد والخبز العربي وشراب كركوك الممتاز، كان يمر امام نواظرنا تيار متواصل من قوافل الحجاج القادمة أو المغادرة.

كان الفرس ذوي المنظر البدائي وخصل الشعر المتشابكة (كتلك التي نقشت على فئة العملة للإدوارديين الأوائل)، ينزعون طاقياتهم السوداء والبيضاء ويأتون مجهدين نحو الخان وهم يقودون أو يجرون بغالهم المنهكة التي تحمل على ظهورها (الكاجاديه) الثقيل أو سلتين كبيرتين تحويان احمال العيشة. يتكون (الكاجاديه) من صندوقين يعلوهما إطار مقوس بستائر يستندان بعد ربطهما معاً على جانبي سرج حمولة كبير. لقد شاهدت رجلاً وطفلاً يرقدان في أحدهما وامرأة وطفل في الجانب الآخر، وهو حمل قاس لأحد الحيوانات، إن الحمل الاعتيادي هو اثنان من الكبار، إلا أن الشخص الذي يسافر وحده عليه أن يحشو الجانب المقابل بوزن مساوٍ له من الأمتعة كي يتوازن الكاجاويه.

تجلس نساء بملابس وسراويل زرقاء وبراقع بيضاء عالياً على سرج كبير كصخرة خرفاء وتبدو كما لو أنها ستقلب بأية لحظة، وتشكل جزءاً لا بأس به من مجاميع الحجاج هذه. فالبغال التي تقعقع بأجراسها، والحمير المغمورة بشكل تام بالقدر والأواني المنزلية وأشكال وهيئات ملطخة بوعاء السفر من البشر والحيوانات، يسحبها جميعاً مغناطيس العتق الديني من أقصى أصقاع الشرق للالتحاق بمزيج لا لون له إلا أنه رائع عند بوابات مشهد الحسين ومشهد علي^(١).

(١) تقطع معظم هذه البلاد فنوناً قديمة تربط الفرات ودجلة. يفترض أن تكون بقايا أحد هذه الفنون العربية من الحمودية هي نهر مالكة الذي شقه البابليون وتعتبر القناة الرئيسية حتى في عصور الخلفاء. (المؤلف).

وبعد توقف لمدة ثلاثة أرباع الساعة كنا خلالها محط قدر كبير من الفضول من جانب الأهالي. امتطينا خيولنا وانطلقنا ثانية، وبعد مسير لمدة ساعة وثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى خان كبير آخر غير مأهول يدعى بير يونس أو كما يقول بعضهم بنر يونس أو البئر الذي توقف عنده النبي يونس لغرض اخذ قسط من الراحة. لا نستطيع أن أخاطر بأي تخمين عن مدى صحة هذه النسبة، إلا أن الاسم يلفظ وكأنه واحد بير يونس.

وعندما اجتازنا المكان وصلنا إلى خان بعيد آخر والذي أخبرنا يوسف بأنه سيكون محط استراحتنا في الليل. لهذا نخسنا حيواناتنا وعدونا بخطوات أسرع بينما كان يوسف في مؤخرتنا يبحث فرسه الهرمة للحاق بنا ويدفعها لزيادة سرعتها بمزيج من الشتائم الإنكليزية والعربية. وقد قدّم منظراً مضحكاً للغاية في زينة النائي للمعقول مع خرجه الصغير الذي يضم واحدة أو اثنتين من حاجاته الأساسية الملحة الخاصة بالسفر هو يتقدم متعثراً صعوداً ونزولاً ويضرب الخاصرة النخيلة لفرسه. كان يتبعنا المكاري الكبير السن وحيوانات حمل الأمتعة التي تركناها خلفنا، تسير على مهلها، ولأن حرارة الشمس أخذت بالخفوت، والسهل ذو أرض صلبة وملائم للسير عليه، كان الجري يمثل تغييراً جميلاً لو لم تكن قد سرنا مدة سبع ساعات على سرج تحت شمس لاهبة أرهقتنا في مقاعدنا. إلا أن الخان كان أبعد مما يبدو وكانت الساعة الرابعة والنصف قبل أن نعدو باتجاه باب الخان حيث ظهر كل السكان في القرية العربية التي تتغير، لاستقبالنا. نلنا من خيولنا وكنا متعبين ومتيبسين بفعل الركوب، والقينا أنفسنا على دكة خارج المقهى بانتظار وصول الأمتعة. كان علينا تأمين سكن هذه الليلة، وبعد النظر إلى داخل فناء الخان الذي وجدته يعج بالأغنام والعجول والخيول، اتفقت مع القهوجي صاحب القهوة بأن نبني هذه الليلة فيها مقابل مبلغ صغير وهذا ما آمن لنا نوعاً من العزلة، إنها بالطبع بنفس قذارة الخان أو تقترب منها وهي تتكون من صالة مظلمة

طويلة تفوح منها رائحة دخان موقد القهوجي ومليئة بالبراغيث. وعلى جدرانها المحيطة مجموعة من التجاويف المقوسة تقطعها دكات بارتفاع اثنين أو ثلاثة أقدام من الأرض. وعندما وصل الكاري، فرشنا فرشنا على اثنين من هذه الدكات وعندما كان يوسف يُعد عشاءنا، القينا نظرة حول المكان ورمينا أجسامنا المتيبسة على الدكات التي أمام المقهى وأمام انظار الجمع العجب.

بين بيرونس وخان الحصوة، حيث نحن الآن، ينقسم الطريق، فالطريق المتجه نحو اليمين أو الغرب يقود إلى المسبب وكربلاء والنجف وهو يعتبر في الواقع طريق الحج. بينما يقود الطريق المتجه نحو اليسار إلى الحلة، ويوجد على كلا الطريقين بعد تفرعهما بقليل خان أو نزل. ورغم أن هناك مسافة معينة تفصل بين الطريقين، إلا أنهما يقعان على مرأى من أحدهما الآخر، ومن خان الحصوة نستطيع أن نرى بوضوح مبنى خان الإسكندرية الشبيه بالحصن.

تقول الروايات المتناقلة، بتطرفها المعتاد أن السكندرية أو الإسكندرية هي موقع ضريح القائد المقدوني، رغم أنه يمكن بسهولة دحض هذه النظرية، إلا أنه من المحتمل أن يكون الاسم يؤرخ حادثة معينة في حملة هذا البطل. وفيما يخص الخان الآخر الحصوة، فإن انيسورث يشير بوضوح إلى خان باسم (كوناسا) أو (كوناسوا)، وهذا أمر يتطلب معرفة واسعة أكثر مما لدي، كي أتمكن من مناقشته، رغم أن علي أن اعترف أن تمييز الكلمة العربية (خان) من المقطع الأول لاسم قديم هي عملية لا تبدو لي محتملة، واعتقد أيضا أن اسم الإسكندرية قد جاء من اسم مؤسس ورع معين له، رغم أن بكنكهام يروي أن هذا النزل قد تم بناؤه في القرن الماضي على نفقة محمد حسين خان أمير الدولة لملك فارس، ربما يكون هذا ببساطة مجرد إعادة بناء.

قامت بجولة داخل خان الحصوة وأخذت أنفحص باهتمام ترتيبات السكن فيه. لا تحمل الخانات التي رأيتها في شمال سوريا والفرات أي شبه ولو ضئيل مع المبنى الذي أقف فيه الآن. تتكون الخانات الأولى والتي سبق أن وصفتها من مبنى خشبي أو حجري فيه قليل من الغرف، يلحق بها فناء بانس لاستقبال الحيوانات.

يشبه خان الحصوة الذي أقف فيه الآن جميع الخانات الكبيرة في السهول البابلية. إن طرازه فارسي وهو يعتبر المكان أو النزل المعتاد للضيافة العامة في كل أنحاء البلاد. وبعد المرور بالدخل الشبيه بالبرج، يدخل المرء إلى ساحة مربعة كبيرة مبنية جدرانها من الآجر، وعلى الجوانب الداخلية من الجدران المحيطة هناك أووين مقوسة عميقة حيث يستطيع المسافر المتعب أن يفرش فراشه عليها، وبذلك يتجنب وطء حشود حيوانات القوافل المربوطة بأوتاد قوية. وفي وسط هذا الفناء هناك دكتان مرتفعتان ومستطيلتان مبنيتان من الآجر وبينهما ممر. وتؤدي هذه الدكات نفس أغراض الأواوين ويستطيع النوم عليها في الليل أو الاستراحة عليها بعيداً عن روث وقش الحيوانات. وفي الصيف بالطبع، حيث يجري السفر عادة في الليل، تعطي الأواوين المقوسة ملائاً من الشمس اللاهبة لهذا بفضل استخدامها كاستراحة نهائية ولكن في الفصل البارد حيث يجري السفر نهاراً، فإنها لا تفيد سواءاً جرى النوم تحت قوس الفجوة أو في العراء المجرد، وتمثل هذه الدكات وسائل استراحة إضافية. توجد على الدكات في بعض الخانات قضبان لربط الخيول وبعضها فيها موضع منعزل أو إسطل مسقف يدور خلف الأواوين يمكن الوصول إليها من الزوايا الأربع. تتسع خانات بهذا الوصل من خمسمائة إلى ألف ضيف.

ما بين زعيق البغال ونهيق الحمير وعراك الكلاب وشخير الحجاج الشديد والهجمات المتواصلة للحشرات الطفيلية، لا يمكن توقع أن يقضي المسافر الإنكليزي ليلة

نوم هانئة في أحد هذه الخانات، إلا إذا كان معتادًا تمامًا على هذه المناظر والأصوات والضجة المميزة لها، وعندما تركت المبنى، هنأت نفسي بأن المقيم المريح قد تم حجزه. كان يوسف مشغولاً وقد جرى كنس المكان وإخماد النار، إلا أن الرائحة الخائفة التي ظلت في المكان غير مريحة البتة. كان العشاء ممتازًا، وبعد أخذ غليون، لففنا أنفسنا في اثنين من هذه الفجوات غير النافذة وخلصنا إلى النوم.

ورغم كنسها بعناية، إلا أن هذه "المقهى الصغيرة المريحة" لم تكن غرفة نوم مريحة أبدًا. فقد كانت تعج بالحشرات، وقد علمتني التجربة أن مجاميع قائدة منها تأخذ مواقعها على مواضع مختلفة من جسدي، ومن هنا تقوم برحلات وجولات بقيادة أدلاء كفوفين إلى المواضع الأكثر متعة لها في أنحاء جسمي. وبعد هذه الجولة، تعود إلى ملتقاها الخاص، وبعد توقف قصير للانتعاش والرقاد، تنطلق ثانية للبحث عن نقطة جنب جديدة. يبدو أن أفضل رحلات لها كانت نحو ركبي وساعدي وترقوتي، حيث تنظم بشكل منسق نزهة كبيرة إلى مؤخرتها.

مصدر الإزعاج الآخر هو المكاري الكبير السن الذي حسبما علمت بصورة مفاجئة أنه قد اتخذ موقعه على أرضية المقهى. وبما أننا قد حجزنا المقهى بشكل خاص لخلوتنا نهضت وأنا في الفجوة كآلهة غاضبة وأمرته بحدته أن ينصرف. لم يبالي الرجل الكبير السن ولم يخرج إلى أن أوقعت نفسي من الفراش مع الأمتعة وبناطيل الركوب كي أخرج. أبدى يوسف أيضًا خوفًا كبيرًا من اللصوص واضطجع على بطنه عند الباب حيث قال ليس من السلامة الخلود إلى النوم. وقد وجبته مرة أو مرتين في ساعات الليل القليلة عندما كنت مضطرًا للجلوس لإبعاد وجبة كبيرة من الحشرات عني، وهو يدخلون بنهم سيكارة كبيرة في نفس وضعه. قال أن تلك السيكارة هي لمعالجة سعال

شديد لازمه، وبالتأكيد أنه الآن يقوم بقدر كبير من "النباح"، ولكن كيف يمكن لسيكارة أن تشفيه، هذا ما لا افهمه.

رغم أنني لم أرى شيئاً من اللصوص، إلا أن يوسف قد أكد لي في الصباح التالي أن الشرطة قد قبضت على أحدهم وهو يحاول الدخول إلى المقهى خلسة لغرض السرقة. كان هذا أحد قطاع الطرق الذين تلاشوا والذين يسمع عنهم المرء كثيراً ولا يراهم عند السفر في أنحاء الشرق.

بين هذا الشغب والصخب وعراك الكلاب المعتاد، لم نكن بكامل نشاطنا عندما امتطينا خيولنا في الساعة السادسة إلا ربعا من صباح اليوم التالي. كان الجو بارداً ولطيفاً في تلك الساعة من الصباح لذلك اندفعنا بسرعة معقولة لتوفير أكبر وقت ممكن لقضائه في أثار مدينة بابل. عند حوالي الساعة السادسة والنصف، مررنا ببعض الخيام التي قال عنها يوسف أنها تعود لقبائل عربية تدعى (البعاج) وبعد خمسين دقيقة وصلنا إلى خان آخر يدعى الناصرية وهو اسم ربما تكون له دلالة معينة بمدينة النصار التي كانت توجد في السابق قرب الكوفة على قناة الهدية. وبعد مغادرتنا لها وصلنا إلى مستنقع موحل نتن شكّل لنا معضلة عند عبوره حيث كان علينا أن نختار بحذر طريقاً على أرض صلبة وقد تطلخنا بالوحل مع خيولنا. قانداً هذا الطريق نحو خان المحاويل الذي يبعد مسافة مسير أحد عشر ونصف ساعة من بغداد وحوالي ساعة ونصف من تلال بابل، والتي في الواقع شاهدتها لأول مرة من خلفه. لغرض إراحة أنفسنا وحيواناتنا، وغبّرنا بعض الأحيان من إجراءتنا إذ نترجل ونقود خيولنا مسافة ميل أو بحدوده، ليس لدى الحيوانات المسكينة سوى طاقة قليلة على المسير، وقد أوجد يوسف ما يناسب هذه الحالة وهو عبارة عن منخسين استطعنا بأحدهما أنا وسي أن نحث الخطى. إنها حقيقة محزنة هي أن هذا المنخس يعتبر في هذه

الأنحاء ضرورة لا غنى عنها للمسافر إذا ما أراد أن يسير فرسه المنهكة بسرعة معقولة. وبعد مغادرتنا للمحاوليل مباشرة، عبرنا قناة وأصبحنا على مسافة ثلاثة أو أربعة أميال وعلى مرأى من أول تل بابلي كبير وهو الذي يسميه ريتش ويكنههم (محب) وإينسورث بابل. ومن هذا الطريق يمتد نحو اليمين صف طويل من أشجار النخيل، على ضفاف الفرات الغربية، كما اكتشفنا ذلك فيما بعد. وبالقرب منا على جانبي الطريق، شاهدنا تلالاً صغيرة غير ذات أهمية يبدو من المحتمل أنها تقع ضمن أو تشكل جزءاً من الحدود الشمالية للمدينة العظيمة. وقد قابلنا عند وصولنا هذه التلال مباشرة وهو ما يثير الدهشة اثنين من الأمريكيين وهم عائدین إلى بغداد من بابل. وبالطبع توقفنا لتبادل الحديث معهما حيث أخبرونا بأفضل الطرق للوصول. وبعد افتراقنا، خببنا الخيل واجتازنا خلال الطريق بقايا القنوات القديمة، التي كانت بمجملها يابسة. يرى بعض الرحالة أن هذه القنوات هي بالأحرى خطوط الشوارع القديمة أكثر منها مجار لمياه الري، وهي نظرية ليس لها سوى حظ قليل من الصحة كون هذه الآثار لا تختلف نوعاً ما عما شاهدته بين الفلوجة وبغداد التي لا يمكن أن تكون سوى قنوات مائية. وعند حوالي الساعة العاشرة إلا عشر دقائق، كنا مقابل التل، ولكن نظراً لوجود قناة مليئة بالمياه إلى الشرق منه، كان علينا أن نسير مسافة قصيرة حولها ثم نعبها بواسطة جسر، يسمي يوسف هذه القناة (نهر النيل)، والتي يظهر من خلال ما تركه الجغرافيون العرب من كتابات عنها أنها قناة كبيرة أو نراع من النهر يمتد من الفرات ويجري بين التل المسمى بابل والآثار الواسعة الأخرى إلى الجنوب.

يبدو أن النيل البابلي كما يشير إينسورث هو النهر الذي أشار إليه هيرودوتس، بأنه يقطع بابل ويفصل بين معبد بيلوس والقصر الملكي. ليس لدي الرغبة أو المؤهل

بان ادخل في القضية الحيرة بتعيين المواقع المختلفة، لهذا سوف أقنع نفسي بالوصف الموجز للتلال المختلفة التي يشاهدها المسافر القادم من الشمال باتجاه الحلة.

وبعد عبورنا للقناة، اتجهنا إلى الوراء وصعدنا على ضفاف قناة أخرى واخذنا نسير على أرض مستوية واقتربنا من التل الكبير من جهة الجنوب.

تبدو هذه الآثار الواسعة للناظر غير المتعلم انها مجرد كم لا شكل له من التراب والمباني المهدمة. إلا انها مع ذلك، أكثر تنظيماً مما تبدو كونها عبارة عن مستطيل متموج يبلغ طول الجانب الشمالي والجنوبي مائتي ياردة تقريباً، بينما الجانب الشرقي مئة وثمانين ياردة والغربي مئة وأربعين ياردة، وهي تختلف بشكل كبير من حيث درجة ارتفاع اجزائها، فأعلى جزء منها يبلغ ارتفاعه مئة وأربعين قدم فوق مستوى الأرض. وبعد الصعود على السطح الوعر لهذا التل، وجدت في أحد المواقع أو اثنين منها غرف تم الكشف عن جزء منها اثارنا عن طريق الحفر. في إحداها شاهدت الطراز الخاص من البناء الذي يوجد أيضاً في عكر كوف حيث تفصل بين طبقات الآجر طبقات من حصران القصب. وقد شاهدت ثعلباً نحيلاً يتوارى في وحاره وليس ببعيد عن ذلك، ركلت ارنباً صغيراً ممتلئ الجسم، ويبدو ان الثعالب تتوالد هنا وتشاهد بشكل عام وهي تطوف في هذه المواقع القديمة^(١). وتوجد أيضاً من خلال البحث والتنقيب قطع من الآجر تحوي كتابات مسمارية وقطع صغيرة من البرونز.

إن هذه الكتلة الكبيرة الواقعة بعيداً عن كل التلال الأخرى كامتداد عضوي لها قائم نحو الشمال، هي المجلب أو القلب أو المقلوب كما يسميه ريتش وبكنكهام.

(١) "بل تربض هناك وحوش الغفر ويملاّ اليوم بهوتهم وتسكن هناك بنات النعام وترقص هناك معز الوحش وتصيح بنات أوى في قصورهم والذئاب في هياكل النعم ووقتها قريب الجيء ولها ما لا تطول". سفر اشعيا الإصحاح ١٣، آية ٢١، (الولف).

بينما يؤكد إينسورث أن العرب يسموه بابل، وهو الاسم الذي جرى تبنيه على نطاق واسع وتحولت مفردة (الجلب) إلى موضع آخر، يبدو غريباً، إلا أنه من الواضح أن تلك هي الحالة، وهو أن العرب يحولون ويغيرون الأسماء من تل إلى آخر كيفما اتفق. وقد وجد رخالة متأخر أن اسم هذا التل الشمالي هو (انانا) وهو الاسم الذي يطلق حتى اليوم على بعض الآثار الواقعة على الضفة الغربية من الفرات، لهذا ولغرض الحيلولة دون وقوع الالتباس، سوف اتبنى هنا الاسم الذي أطلقه إينسورث.

يميل بيتر ودي فالي وريتش وآخرون إلى أن هذا التل يضم برج معبد بيلوس وآخرون يرون أنه يمثل آثار القصر أو الجنائن المعلقة. بينما يبدو أن العرب يعتبرونه يمثل آثار البرج الحقيقي لبابل. ومهما يكن، فإنه اثر رائع، ولا بد أنه كان في زمن ما أحد المواقع الرئيسية في بابل القديمة، ويظهر أن تنقيبات لبارد وآخرون تثبت أن جميع الغرف والأضرحة الموجودة أو المكتشفة على قمة التل لا تعود إلى المبنى القديم بل إلى فترة حديثة نسبياً. إن الركائز والأسوار المبنية من الآجر الموجودة في أسفل البناء من جميع الجهات، تثبت أنه قد تم تشييد صرح أو أكثر من الصروح الضخمة في زمن ما على هذا السهل المستوي، ولا نرى في هذه الآثار الهائلة سوى بقايا منهاراة من المنشآت المذهلة للزمن الغابر.

وعند النظر إلى الجنوب من قمة بابل، نشاهد الخط المتموج لتلال بابل الأخرى الواقع أحدها خلف الآخر بعدد يصعب إحصاؤه. وبالنسبة إلى عين الزائر الجديد، فإنه لا يستطيع إدراك أي نوع من النظام أو التنسيق في هذه المجموعة المتموجة غير الجميلة، ولكن يمتد على طولها من ناحية الغرب، نهر الفرات الذي يأخذ بالتموج وسط بساتين النخيل المتمايلة، ويتقلص عرضه الآن ليصل إلى مائتي قدم فقط بسبب القنوات ومجاري المياه المتعددة القديمة منها والحديثة التي تأخذ المياه منه لسقي الأراضي

الواقعة إلى الغرب والشرق منه بين الفلوجة وهذا الموقع، تبدو بقايا المجد القديم مرعبة ومقفرة، ولكن الطبيعة المحيطة به تشكل منظرًا ساحرًا.

تركنا تل بابل وامتطينا خيولنا وسرنا مسافة ميل واحد بجانب النهر حتى كنا قبالة التلال الوسطى. وفي هذا المكان جلسنا تحت ظل شجرة كبيرة لتناول الغذاء بينما يجثم حولنا بعض العرب من القرية المجاورة وبأيديهم قطعًا أثرية لغرض البيع. وقد اشتريت من هؤلاء القوم عدة ألواح منقوش عليها كتابات مسمارية، إلا أنه لم تكن لدي الفرصة حتى الآن للتحقق فيما إذا كانت أصلية أم لا. إذ أنه من المعروف جدًا أنه يجري صنع مثل هذه الأشياء لبيعها إلى المغفلين على أساس أنها أصلية وليس بعيننا عن الاحتمال أنها ربما قد أعطيت إلى سكان الريف لهذا الغرض. ولكن يبدو أن سعرها التافه الذي يرغبون ببيعها فيه يستبعد إمكانية كون هذه الأشياء من هذا الصنف. فالألواح الاثنان أو الثلاثة التي اشتريتها لم ادفع بالواحدة منهما أكثر من روبية واحدة، ولا بد أن الأشياء الأخرى كانت بنفس السعر، كذلك عرضت علينا عدة اختام اسطوانية لا جدال في صحة أصالتها. أخذ سي لكونه منهكًا بفعل الركوب والشمس، إغفاءة هادئة على الأرض بينما جلست ادخن وافكر مليًا في هذه الأماكن حيث تزدهم في ذهن الرء من تلقاء نفسها أفكار غريبة عن صور من العهود الأكثر شهرة في عالمنا الكبير الذي نعيش فيه. يطفو بمهل نحو الجنوب في النهر ويحمله التيار الأشهر تاريخًا في العالم ويدفعه نسيم ربيعي رقيق، قارب عربي بشراعه المثلث الكبير. كان طاقمه يخني أثناء سيرنا، ولم يفعل هذا الزورق الرشيق والجميل سوى أن يزيد من جمال المنظر. كم سيكون حجم التباين لو استطاع الرء للحظة واحدة أن يصور مظهر هذا المكان بشكل حقيقي عندما كانت بابل في عر مجدها. لا بد أن تشكل أساطيل السفن النهرية وصفوف أرصفة الموانئ والسدود المزدهمة بجشود الناس المنشغلة بأعمالها والجسور الفخمة وكتل أبراج المعابد والقصور، صورة رائعة مذهشة للثروة

والنفوذ. إلا أن كلمات النبي قد تحققت فعلاً. بعد الغداء، سرت بصحبة واحد أو اثنين من العرب نحو التلّ المقابل للمكان الذي كنا نستريح فيه. إنه القصر الذي ذكره ريتش وإينسورث و(مجلية) أو (مجلب) الذي ذكره لابارد. إنه كتلة غير منتظمة أو مستوية من بناء مهدم من الحجر شبيه بتلّ بابل ومساحته حوالي سبعمائة ياردة ويبعد أكثر من ميل إلى جنوب التلّ الشمالي. ينتشر على سطحه حجر لامع عليه كتابات إلا أن الشينيين الرئيسيين اللذين يستحقان الاهتمام، هما الأسد الحجري الكبير الذي لا يزال ملفوفاً إلى النصف في الرمال، وهو معلم يثير الأسى من المدينة القديمة. الأثر الآخر الأكثر إثارة يوجد في بقايا مبنى من الحجر ينطبق عليه بشكل صحيح أكثر اسم (القصر)، وهو الجزء الوحيد من المبنى الذي بقي محفوظاً من كل هذه الآثار. لقد جرى وصف هذا الأثر الصغير المهم من قبل كثيرين، إلا أنني هنا سأقتبس وصف لابارد الموجز والدقيق:

“في المنتصف تقريباً، تقف كتلة صلبة من البناء، كاملة غير منقوصة، حتى إنها لا تزال تحتفظ بأثار الزخرفة المعمارية، بارزة من ركام الرمال، نستطيع أن نرى ركانز ودعامات وأعمدة ذات تيجان وقاعدة، إلا أن الدمار كان تاماً بما لا يدعنا نقرر فيما إذا كانت هذه تتبع داخل أم خارج القصر. وقد بحثت عبثاً عن مفتاح لحل لغز التصميم العام لهذا الصرح. كان الحجر ذا لون أصفر خفيف وليس هناك في آثار مدينة بابل الأخرى حجر يفوقه في الصنعة. تم ربطه مع بعضه بإحكام بواسطة أسمنت أو (لاصق) جيري جيد شبيه بما موجود في برس نمرود.

وقد ختم على كل آجرة تقريباً بشكل واضح وعميق اسم والقباب نبوخذنصر وقد وضع الوجه الختوم دائماً إلى الأسفل، كان المقطع العجيب هذا من البناء كاملاً

جدا وزاهي الألوان ويبدو كما لو أنه غمّل الأسر رغم أنه يعتبر دون شك جزءاً من مبنى كان ينتصب وسط بابل القديمة^(١٠).

ليس بعيداً عن الاحتمال أن يكون هذا التل كما يدل على ذلك اسم (القصر) إلى قصر نبوخذنصر. وما يلاحظ هو أن كل الأجر الموجود فيه هو من النوع الأكثر جودة، لهذا السبب تعرض إلى أسوأ أعمال التدمير حيث بنيت أجزاء كبيرة من الحلة وحتى من بغداد من منتجات هذه الصناعة السيئة الحظ، وسواء كانت مفردة (المجلية) أي (موطن الأسرى) أو (القلب) أي (الساقط) صحيحة أم لا، فليس لهذا الأمر أهمية كبيرة، لأنه لا يمكن استنتاج أي شيء من الاسم كونه يطلق على أجزاء عديدة من سلسلة التلال هذه.

عدنا إلى ضفة النهر وامتطينا خيولنا استعداداً لاستئناف رحلتنا. يمتد الطريق عبر شكل من أشكال الوديان مغلق من جهة اليمين بتل طويل أو سد يمتد بمحاذاة النهر، ومغلق من جهة اليسار بتل آخر يترك الزاوية الجنوبية الغربية من تل القصر ويرتبط بعد مسافة حوالي ربع ميل مع التل الجنوبي الكبير، الذي يسميه العامة عمران بن علي، على اسم ضريح شيخ مبني فوقه. يستمر هذا الطريق الواسع، والذي يبلغ عرضه في بعض الأماكن ربع ميل، بالدوران حول الجانب الجنوبي من تلال عمران، حيث يمتد من الزاوية الجنوبية الشرقية له سد آخر ويستدير ليصبح بالقرب من تل بابل الشمالي، وربما يكون هذا أحد الأسوار الثلاثة التي يقال أنها تحيط بالقصر وبالجنانن المعلقة. هناك خطوط داخلية لسدود، ربما تمثل الأسوار الأخرى.

(١٠) انظر "نينوى وبابل" ١٩٨٢، ص ٢٨٧. وما يلاحظ أن الصور التي وردت في هذا الكتاب ذات مقياس غير صحيح وذلك لوجود جمل صغير في صدر الصورة مما جعل الأثر يبدو أكبر من حجمه الحقيقي بعدة مرات. (المؤلف).

(١١) هذا الأثر هو بوابة عشتار للوجود أصلها في متحف برلين. (لترجم).

يعتبر تل عمران، الذي يسمى أحيانا الجمجمة، على اسم قرية عربية تقع إلى الجنوب منه، غير منتظم الشكل، وحسبما يذكر بكنكهام، يبلغ طوله ١١٠٠ ياردة وعرضه ٨٠٠ وارتفاعه في أعلى نقطة له هي بين (٦٠-٧٠) قدم. من خلال موقعه وارتفاعه، يعتقد بقدر كبير من الاحتمالية، أنه يمثل موقع الجنائن العلقة الشهيرة. ويبدو أن تنقيبات لبارد تثبت إلى حد ما هذا لأنه لم يجد أي نوع من البناء في هذا الركام. وعلى أية حال، فقد استخدم هذا التل لأغراض الدفن وأغراض أخرى بعد تحطمه بوقت طويل، ومن بين الأشياء التي تم العثور عليها بعض الأثرية عن الاحتلال السلوقي والإغريقي. بالإضافة إلى هذه التلال الرئيسية الكبيرة، هناك تلال أخرى ذات أحجام كبيرة إلا أنها ربما تكون أقل أهمية، من بين هذه التلال، هناك تل متموج ذو ارتفاع واطئ قليلاً يقع بين تل بابل والقصر، أطلق عليه إينسورث مرة أخرى (الجلبة) أو (القلب) حيث يبدو أن هذا الاسم قد ألحق بكل تل من الآثار، إلا أنه قد تم التخلي عنه فيما بعد.

تبلغ الأبعاد الكلية للمساحة المسورة كما يورد ذلك ريتش، ميلين وستمائة ياردة عرضاً وميلين وalf ياردة طولاً من الشمال إلى الجنوب. لهذا يتضح أن المساحة المسورة هي مساحة صغيرة رغم أنها مهمة، وتبلغ ربع المدينة، التي وصفها هيرودوتس بأن محيطها يبلغ ستين ميلاً وأن أسوارها بارتفاع ثلاثمائة وخمسين قدماً وبسمك سبعة وثمانين قدماً وتستطيع ست مركبات ذات عجلات أن تسير عليه جنباً إلى جنب.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار، احتمال الخطأ واحتمال المبالغة الشرقية، إلا أنه لا شك أن بابل كانت تغطي مساحة كبيرة من الأرض وأن أسوارها كانت بحجم كبير. وقد انشغل الرحالة بكنكهام في البحث عن هذه وتحمل مسيراً شاقاً وطويلاً تحت حرارة

شمس تموز وبعد مسير لمسافة عشر إلى اثني عشر ميلاً نحو الشرق، وجدنا تلاً غربياً بمحيط يبلغ ثلاثمائة إلى أربعمائة قدم وبارتفاع يحدود سبعين قدماً. ووجد على قمته كتلة من الجدار الصلب مهدمة ومحطمة إلا أنها لا تزال بحجم كبير، ويبدو أنها حقاً من بقايا السور العظيم إذ لا يوجد فيها أي مبنى على شكل غرفة. ومن المجموعة الوسطية الكبرى إلى هذه النقطة، تغطي الأرض بقايا آثار قديمة، ولكن عند النظر من القمة باتجاه الشرق بأقصى ما يصل إليه النظر، لا يُشاهد أي أثر لقناة أو تل. ومن هذا استنتج نظريته بأن هذا التل (الأحيمر) هو في الواقع جزء من سور المدينة العظيم. ومن الجدير بالأهمية، أنه إذا كنا لا نستطيع اقتفاء أي أثر منه نحو الشمال أو الجنوب، كما تبدو الحالة، أو بكلمات أخرى، إذا كان هذا هو حقاً جزءاً من السور، فإننا لا نستطيع اقتفاء أثره نحو أي اتجاه، إلا أن من يعارض هذا التعيين، عليه أن يعترف أنه من غير الاعتيادي أكثر لو لم نعرثر على أي أثر للسور مطلقاً. تعتبر المسألة ذات أهمية عالية، ولكن ولحين ظهور أدلة أخرى، فإنها يجب أن تبقى معلقة^(١).

(١) تقع بابل على مسافة (٩٠) كم جنوب بغداد و(١٠) كم شمال الحلة. ورد ذكرها في الكتاب المقدس وفي كتابات الرخالة ولؤلؤرخين الأوائل واشتهرت بثروتها وعظمتها. تعتبر أسوارها وجنائنها العلفة وبرجها أحد عجائب الدنيا السبع في العالم القديم. كانت بابل في العصور الأكمنية بحدود (٢٢٥٠ ق.م) قرية صغيرة إلا أن أهميتها أخذت تزداد حتى أصبحت عاصمة الملك الشهير ومشرع القوانين حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م). ثم عادت للنهوض مرة أخرى في زمن ملكها نبوخذنصر (٥٦٢-٦٠٥ ق.م) حيث أعاد بناؤها ثانية لتصبح من أجمل مدن العالم في زمنه.

يخترق الفرات للنبنة من الشمال إلى الجنوب، يحيطها خندق وسور مزدوج. كان طول السور الخارج ١٦ كم والداخلي ١٨ كم، تتخلل للنبنة شوارع واسعة ومستقيمة جميعها معبّدة بالأجر والقار. أهمها هو شارع اللوكب الذي يبدأ من بوابة عشتار وينتهي في البرج المدرج. لا تزال تشاهد إلى اليوم آثار التعميد بالقار. يقع القصر الجنوبي الذي أبعده ٢٠٠×١٩٠ م على الجانب الغربي من هذا الشارع وهو مؤلف من خمس صالات واسعة محاطة بصالات أصغر وغرف أحدها هي صالة العرش. تعتبر الجناان للعلة التي لا يزال بالإمكان حالياً رؤية أثارها، جزءاً من هذا القصر، يقع في الجانب الشرقي من شارع اللوكب معبد نتماخ. وتشاهد شماله آثار القصر الرئيسي حيث يوجد أسد بابل. وعلى الجانب الأيمن من الطريق إلى بابل يقع المسرح المدرج، الذي يعود إلى زمن الإسكندر الكبير الذي جعل بابل عاصمته لبعض الوقت، وتوفي فيها عام ٣٢٢ ق.م. (الترجم)

وعندما خرجنا من الآثار، تبعنا موكب من النساء والأطفال العرب المساكين بمسبحات من الخرز وبعض القطع الأثرية التي وجدوها في موقع الآثار. كان الجو في هذا الوقت حارًا جدًا، كما هو عندما كنا نسير بين التلال. وبعد نخس خيولنا، انطلقنا بعدو سريع نحو بساتين نخيل الحلة. كنت أسير بجهد في المؤخرة محاولاً اللحاق بسي الذي كان حصانه يمشي بخطى أوسع من حصاني، عندما ظهرت فجأة امرأة كانت تسير مع مجموعة من العرب الفقراء على الطريق، واعتزضت مباشرة طريق سير الحصان، وفي الدقيقة التالية كانت رأساً على عقب في التراب. وفي الحال توقفت وناديت على يوسف بالعودة، كانت المرأة ترتجف فقط وتمالكت نفسها، ثم اخذت تبكي بفجع، رغم أنه يبدو أنها تبكي بسبب الخوف أكثر من أي شيء آخر. قلت ليوسف أن يبلغ الرجال عن أسفي لهذا الحادث وأرجو أن لا تكون المرأة قد أصابها أذى، إلا أن تلك كانت غلطتها. كان يوسف مبالغاً للاستخفاف بكل القضية، واعتقد أن ترجمته لكلامي كانت ماذا تقصد امرأة فلاحه عربية من وراء اعتراضها لطريق رجل إنكليزي. كان الرجال مهتمين أكثر بموضوع توقف مسيحي ونظره إلى امرأة مسلمة (رغم أن نظرتي لها كانت نظرة عطف) أكثر من موضوع الأذى الذي يمكن أن يكون قد أصاب المرأة. وبموجب ذلك، دفعوها خلفهم ورجوني أن أسير، إذ تركتهم بعد أن دفعت لهم بقشيشاً لتغطية الأضرار، حيث لا يسمح بالطبع للسيدة أن تستلمه شخصياً.

✱

✱

✱

الفصل الثالث عشر

الحلة وبرس نمرود

الوصول إلى الحلة - سيده حسن - الحلة - بداية برس نمرود - مظهر فريد - اللقاء برحالة روسي - البرس - وصف الأثر - نظرة من الأعلى - لقيى بنيامين اللوهولي - نظريات من أصله - بور سيبا - النبي إبراهيم والإروايات العربية الملوأنة - إخفاء مظللتي - نفوة الاسم البريطاني - المودة إلى الحلة - زولر - حطان يوسف بكبس اللحم - الطريق إلى المسيب - أولاد مسلم - الوصول إلى المسيب

عند مدخل الحلة، التقينا برجل عربي وقور، هو صديق سيد حسن، حيث حللنا ضيوفاً عليه. لقد تبين أن الشخص، الذي كان يرتدي أفضل ما لديه من ملابس بهذه المناسبة، هو أحمد بن سعد حبة، أحد تجار المدينة. وقد سرنا برفقته وسط بساتين النخيل في الجانب الشرقي من المدينة نحو جسر من القوارب كان مخلفاً أكثر من جسر بغداد. وبعد عبورنا النهر، اجتزنا أسواقاً، مماثلة إلا أنها أقل مستوى من أسواق بغداد، ثم انعطفنا في شارع فرعي وترجلنا عند الدار التي سنعضي بها ليلتنا. ظهر السيد بعد ذلك مباشرة، وحيثما بجرارة من المؤكد أنها ليست زائفة، رغم التصنع والشكلية التي تغطي على الأخلاق الفارسية بشكل عام. كان سيد حسن رجلاً فارسياً موسراً، وبيته في كربلاء. لست متأكداً تماماً إن كان البيت الذي استضافنا في الحلة

يعود إليه أم وضع تحت تصرفه لهذا الغرض من قبل صديق أو قريب له. على أية حال، تصرف معنا هنا بأهلية المضيف بل واکرم منه، مما لم نجده من قبل. يعتبر السيد كما يشير إلى ذلك لقبه، سليلًا للنبي من فاطمة ابنته الوحيدة وزوجها علي. وهذا اللقب معادل للقب (الشریف) عند المسلمين السُّنة، كان مظهره وسلوكه ينم عن النبل والاحترام بدرجة كبيرة. كانت ملامحه ذكية ودقيقة وذو هيئة ارستقراطية شبيهة بالنسر، وجبين عالي يرتدي فوقه بشكل حسن عمامة كبيرة خضراء داكنة. ورغم انحداره من النبي، إلا أنه لا يحتفظ مطلقًا بأية مشاعر للتعصب ضد المسيحيين، ويشير لطفه وكرمه لأكثر من رخالة إنكليزي إلى الشاعر التي يكنها نحو امتنا. وقد عرض علينا بفخر عدة رسائل تلقاها من السيد كرزن مؤلف كتاب "بلاد فارس والقضية الفارسية" والعقيد تويدي المقيم الأخير في بغداد ورجال إنكليز آخرين. استضافنا في غرفة مريحة مجهزة بأرائك في كل طرف من اطرافها، وقد استمتعنا كثيرًا بعمل خدم السيد وقيامهم بجلب الكرسي تلو الآخر، والتي اظن من خلال اشكالها المتنوعة والعتيقة، أنه قد جرى جمعها من مختلف أنحاء الحلة كتكريم لإرضاء ذوقنا الإنكليزي. بعد ذلك جاء لزيارتنا بعض وجهاء الحلة. كانوا تشكيلة متنوعة، فمنهم شخص أسود قال يوسف أنه قاض محلي وواحد أو اثنان من الموظفين الأتراك. كذلك طلبت من يوسف أن يسأل السيد فيما إذا كان هناك أي شخص لديه قطع أثرية من بابل ليبيعها، وبموجب ذلك، ظهر يهودي ثري وجيوبه مليئة بالرقم والاختام الاسطوانية والحلي الصغيرة والبابلية. كذلك عرض علينا جوهرة تاج ذهبية عظيمة تعود لأحد الأباطرة الرومان، هو كومودس^(١)، إذا كنت انتذكر بشكل صحيح، إلا أننا لم نتوصل إلى اتفاق معه لشرائها. وعندما غادر هؤلاء الرجال،

(١) كومونوس (١١١-٩٢م) هو إمبراطور روماني (٨٠-٩٢م) ابن وخليفة ماركوس أورليوس. كان فاسفًا وغطًا ومزهوًا ببنيته الجسمانية، وفي الآخر قُتل، (الترجم).

انتهزنا الفرصة للاستحمام، وقد كان سي لحسن الحظ يحمل معه خيمة مطاطية هندية تستخدم كحمام. وبينما كان يجري الاستحمام، كان يوسف يقف كحارس عند الباب، خشية ان يصل بعض وجهاء المدينة ويقتحموا مكان الاستحمام غير الإسلامي هنا. وبعد الانتهاء من ذلك، تم تجهيز المائدة (حيث وضعت عليها السكاكين والشوكات استجابة لرغبة سي بان لا يأكل بأصابعه)، وتم وضع عشاء فاخر امامنا، وقد اعتذر مضيفنا رغم لطفه وكرمه عن مشاركتنا الطعام، لا اعتقد ان رفضه مشاركتنا الطعام قد جاءت لسبب آخر عدا ميوله الشعبية بعدم تناول الطعام مع المسيحيين. وتدبر عمله هذا بالطبع بأن الوقت هو وقت رمضان وانه لا يستطيع الإفطار إلا بعد غروب الشمس، ولكن بعد مضي فترة قصيرة، قبل سيطرة قُدُمَت إليه، وقد برر هذا على أساس ان بإمكانه التدخين لأنه على سفر كونه قد جاء في الواقع إلى بيته من بغداد إلى كربلاء. بعد ذلك تركنا، ولم نستطع مقاومة إغراء إخراج قنينة شراب كركوك اللذيذ، والتي تعتبر بعد رحلة يوم طويل مطلوبة جدًا، كما اننا لم نكن نرغب بإخراجها أثناء تناولنا طعامه الفاخرة، لأننا لا نريد جرح مشاعره الإسلامية. ولسوء الحظ، عاد بسرعة بعد ذلك، حيث تم إخفاء القنينة تحت المائدة بكثير من الضجة، شعرت بالضبط وكاني طالب مدرسة مشاكس وقد قبض عليه وهو يمارس التدخين. لا اعرف فيما إذا كان السيد قد شاهدنا أم لا، إلا انه سال يوسف لماذا لا يحتسي ضيوفه الشراب. إنه بالطبع لا يستطيع تقديمها لنا، إلا انه يعرف ان الإنكليز يحتسونها، ويحملونها معهم. وقد رجانا بان نتصرف كما لو اننا في بيروت. لا ننتهك الإنكليز أبدًا التقاليد المتبعة كالأتراك. وقد جعلنا هذا نشعر باننا أكثر نفاقًا، إلا اننا ادعنا بالرصانة المعهودة للأمة البريطانية، وقد جعلنا يوسف نقوم بحيلة مشعوذة وذلك بإخراجه قنينة شراب من خروجه ووضعها على ارتفاع قدمين. وبعد اداء هذا بركة، تناولنا البيلاف والكباب واللبن مرّة أخرى وسارت الأمور بهجة كما لو

انها حفلة عرس. وبعد العشاء عاد السيد مرّة أخرى لتبادل الحديث، حيث تم ذلك بشكل رئيسي من خلال يوسف كانت لغته الأم هي الفارسية التي لا يجيدها اي متا. كما انه يعرف العربية، إلا أن معرفتي بها ليست كافية لتبادل حديث طويل. وقد اتضح لنا فيما بعد أن له معرفة قليلة باللغة الهندستانية حيث استطاع سي تبادل الحديث معه بهذه اللغة. لقد اكتشفنا من خلالها أن الحكم التركي غير محبوب من اهالي الحلة. وكذلك هي الحالة في كربلاء. ليس هناك حب متبادل بين العرب من سكان هذه المدن والأتراك، وإذا ما تركنا جانباً العداء التقليدي بين الفرس والترك، فإن سيطرة الآخرين على العتبات الشيعية المقدسة لشهد علي ومشهد الحسين، تعتبر شوكة قاسية في خاصرة الفرس. كنت اود القيام بجولة في الحلة بعد وصولي، إلا أن السيد لم يكن يرغب بذلك. فقد قال: "بأن الحلة مكان بائس ليس فيه ما يستحق المشاهدة، والناس هنا غلاظ الطبع ولا تستطيع أن تسير دون مرافقة احد، انتظر حتى تصل كربلاء، حيث هناك الكثير الذي يستحق المشاهدة". يبدو لي ان الحلة لا تحمل ميزة حسنة خاصة بها، وقد قال بكنكها بحق: "إن اهل الحلة يقتلون حكامهم ويقتالون احدهم الآخر دون عقاب".

تقع الحلة، التي يمكن أن تسمى الوريث الحالي لبابل القديمة، ضمن الحدود القديمة لبابل وتم بناؤها من الأجر الماخوذ من أطلالها، وهي مكان ذو أهمية بالغة وتقع على ضفتي نهر الفرات، الذي يبلغ عرضه الآن أقل من مائتي ياردة وتياره معتدل. تقع المدينة بشكل جميل وسط بساتين نخيل ويحيطها سور هزيل مبني من الطين أو الأجر. فيها أسواق على جانبي النهر، إلا أن الأسواق الواقعة على الضفة اليمنى أكثر اتساع، والجزء الواقع على تلك الجهة هو الجزء الرئيسي منها. يبدو أن سكانها في تزايد وبشير لبارد أن عددهم يبلغ حوالي "ثمانية أو تسعة آلاف" بينما يقول كرانون

كيري عام ١٧٧٨م أن عددهم في هذا الوقت يقدر بعشرين ألف، أعتقد أن الرقم الأخير يعتبر تقديرًا عاليًا. السكان هم من العرب بشكل رئيسي، إلا أن هناك جماعة كبير من اليهود، إنها حقيقة مثيرة في الواقع، إذ ومنذ الأسر البابلي استوطن هذا الجنس بأعداد كبيرة في المناطق المجاورة لبابل القديمة. يقول الحاخام بنيامين التودولي، الذي تضم كتبه للرحلات إحصائيات عن أعداد السكان اليهود في المناطق المختلفة التي زارها، "يعيش عشرون ألف يهود داخل منطقة تبعد عشرين ميلاً عن هذا المكان أي "بابل" ويؤدون عباداتهم في كنيس دانيال، الذي يرقد بسلام". وقوله الأكثر إثارة للدهشة هو: "تضم الحلة حوالي عشرة آلاف يهودي وأربعة كنيس". وهو عدد ربما يساوي ثلثي مجموع السكان. كما أنه يقول أن بغداد تضم ألفاً من اليهود، بينما يقول بكنكهام أن هذا قلب تام للحالة في عصره، حيث يقدر عدد اليهود في بغداد بعشرة آلاف شخص ويهود الحلة بالف شخص، لهذا كما يقول: "يبدو أنه قد حصل هناك مجرد تغيير في الأماكن دون زيادة أو نقصان في الأعداد الحقيقية في كلا المدينتين".

وعند الصباح التالي، نهضنا مبكرين واتجهنا نحو برز نمروء. لقد كتبه تحت اسم (برز) لأن ذلك هو اللفظ الوحيد الذي سمعته سواءً في الحلة أو في الموقع ذاته. ليس هناك أي رخالة أو كاتب عرفته قد كتب الاسم بغير كلمة (برز)، لهذا تظهر مسألة غريبة هي هل تغير اللفظ المحلي مؤخرًا. لا تحمل كلمة نمروء، التي تطلق في مناسبات عدة، معها أي دليل أكثر مما تحمله عندما نطلق على الأثر الموجود قرب بغداد المسمى نمروء أو عركوف. وبعد خروجنا من سور الحلة مباشرة شأهنا على الطريق الممتد بالاتجاه الجنوبي الغربي، مرتفعًا على وجه الصحراء التل الذي نقصد. إنه يبعد مسافة خمسة أو ستة أميال عن الحلة، ومن هذه المسافة يبدو

كانه هرم مهذم أو ربما اطلال برج بنفس الأبعاد بحيث يجعل هذا من السهل فهم كيف أخطا العديد من الرحالة باعتباره على أنه يمثل برج بابل الحقيقي. وعندما كنا نعدو باتجاهه على سطح هذا السهل القاحل، أخذ حجمه يزداد ويكبر أمام أنظارنا مشكلاً منظراً غير اعتيادي حقاً وسط هذه الأرض. لم يكن في قرارنا أن نمضي إلى مسافة أبعد من ذلك، حيث تصبح الأرض موحلة ومستنقعية، وعلينا الآن أن نقوم بانعطافة كبيرة لتجنب بحيرة واسعة تشكلت بفعل فيضان نهر الفرات، أو بشكل أصح، فرع من ذلك النهر الذي يسمى قناة الهندية أو نهر بوريسيا. كان يجري في الأزمان الماضية ضبط هذه الأهوار المستنقعية إلى حد ما والتي تتكون في الشتاء والربيع بين الحلة والبرس، بواسطة شبكة منتظمة من القنوات والتي تحمل الماء الفائض بعيداً وتستفيد منه في إنتاج الحبوب والزراعة، وقد جفت معظم قنوات نهر الفرات حالياً، واخذت مياهه تغزو البلاد وتحيل الطرق الممتدة على السهل إلى طرق موحلة يصعب السير عليها.

وبعد الاستدارة حول هذه البحيرة، اتجهنا في الآخر نحو الغرب، وسرنا باتجاه مقصدنا، والذي لا يبعد عنا الآن سوى مسافة قصيرة. وهنا اعترضتنا ثانية عدة قنوات صعبة الاجتياز، حيث كانت عميقة وتصل مياهها إلى بطون خيولنا عندما نخوضها. وهنا التقينا بواحد أو اثنين من العرب الفقراء الذين أخبرونا بأن هناك عدد من الأوروبيين، بعضهم قال أنهم فرنسيون وآخرون قالوا إنكليز، يقيمون في هذا الأثر. رغم أننا لم نكن نتصور هوية هؤلاء، إلا أن هذه كانت أخباراً سارة وانطلقنا بسرعة للتعرف عليهم.

وبعد أن استدرنا حول قاعدة التل الكبير الذي يقع شرق البرس الحقيقي ولا يرتبط به، وصلنا إلى قضاء فسيح مفتوح يقع بين الاثنين. هنا شاهدنا خيمة وزحاما

من الناس، الذين يتضح انهم مجموعة من الرحالة الأوروبيين الذين سمعنا عنهم تواتراً. وبعد سيرنا باتجاههم وجدنا انه رغم ان الساعة الآن الثامنة والنصف، إلا ان المجموعة كانت تستعد للرحيل. كان يقف بجوارهم عشرون بغلاً بأحمالها او يجري تحميلها، وهناك حشد من سائقي البغال والخدم والمترجمين وهم يضجون ويشيرون بالطريقة المألوفة للرحيل الشرقي. في وسط هذا الحشد، كان يقف اثنان من الروس وهم يرتدون باناقة قبعات شمسية وبناطيل ركوب أنيقة وأحذية جميلة لأعنة مع سكاكر معطرة بين شفاههم، ويبدون كما لو انهم قد خرجوا تواتراً من بين صفوف اشجار مدارية بدلاً من اطلال مدينة قديمة من وادي الرافدين تبعد سبعين ميلاً عن أي مكان. كم شعرت اني غير نظيف وغير مرتب في ملابس المتسخة وحذائي غير الملمع وأنا احدث فرسي المسكينة على المسير امام هؤلاء المسكوفيين الواسمين. ترحلنا لتبادل الحديث معهما وجدناهما يتكلمان الإنكليزية، وكان الأكبر، الذي ربما يكون بارونا أو أي شيء آخر يتحدثها بطلاقة وبدقة عالية. لقد سبق أن التقاهم صديقي سي في الهند، لهذا تم تجديد التعارف القديم. قالوا لنا انهم كانوا هنا لمدة يومين وانهم الآن يغادرون باتجاه بغداد ومنها ينطلقون إلى الموصل ثم عن طريق سنجار إلى الدير ودمشق. لقد تملكنتني الدهشة إلى حد ما من انهم إذا كانوا ينوون نقل جميع أحمال البغال هذه التي تضم الملابس الجميلة والشمبانها عبر صحاري بلاد الرافدين وسوريا، فإنهم سيكونون غنيمة رائعة لعرب شمر وعنزة. كذلك إنهم إذا كانوا يهفون القيام بهذه الرحلات عند الساعة التاسعة وعلى نفس الطرق، فإنهم سيتحمصون تماماً إلى حد الوجع تحت الشمس اللاهبة. لقد وجدناهم رجالاً طيبين ولطيفين، رغم افكارهم الخاصة عن الرحلات في بلاد الشرق. وقد سمعت بعد ذلك انهم عندما استأجروا حيوانات في بغداد للقيام بالرحلة، شكل سائقو البغال في تلك المدينة حلقة حصار ضدهم، لقد كانت ثروتهم معروفة بالطبع، وكان عليهم ان يدفعوا مبلغاً خرافياً تماماً لتجهيز قافلتهم.

وعندما تركناهم، شاهدناهم يمتطون خيولهم الثمينة، ثم اختفت المجموعة بكاملها وسط غيمة من الغبار، تاركين الرّس تحت تصرفنا دون إزعاج أحد. كان هناك شيئاً أبيضاً كبيراً ممدداً بالقرب منا. وعند الاقتراب منه وجدنا أنها جثة طائر بجع كبير اصطاده هؤلاء، وهذا شكل وحشي من أشكال الرياضة، كون أجسام هذه الطيور غير صالحة سواءاً للأكل أو لأي شيء آخر.

وصلنا الآن إلى الرّس من جهة الجنوب وبدانا نتسلق نحو القمة. كان شكل التل من هذا الجانب، وفي الواقع من جميع الجوانب الأخرى عبارة عن كتلة مهدمة غير منتظمة من مواد البناء، وليس من السهولة ملاحظة أي ترتيب أو تصميم محدد له. تشاهد هنا وهناك على اكوام انقراض الآجر كسر خزفية تحبث وسطوح بارزة لآجر التسوير تدل على أن هناك أجزاء من البناء داخله. من السهولة تسلق الجوانب الجنوبية والغربية والشمالية، إلا أنها شديدة الانحدار نوعاً ما، ولكن على الجانب الشرقي يمتد التل نحو اثر أقل ارتفاعاً يقع إلى الأسفل منه إلا أنه مرتبط بالكتلة الرئيسية. ترتفع على قمة هذا الخروط، الذي يقال أن ارتفاعه حوالي مئة وستين قدماً فوق مستوى الأرض، كتلة مهدمة من بناء الآجر التي اعتقد أنها ترتفع إلى أربعين قدماً وبسمك عشرين وبعرض ثلاثين^(٥)، إلا أنها مشطورة نصفين بصدع أو شق هائل. يبين وجه الآجر أنه جزء من السور الغربي، إلا أنه مقطع فقط متصدع من القمة والجوانب. وتقع إلى الغرب مباشرة أو خلف هذا، كتل ضخمة عديدة من مواد شبيهة بالخنث المصهور تبدو جميعها لتكون أجزاء من بناء مزيج أو متماسك بشكل كتلة صلبة بفعل حرارة شديدة. ولا يزال بالإمكان تمييز صفوف الآجر في هذا البناء. يوجد في الجزء الممتد من التل الواقع عند القاعدة الشرقية مجموعة من الغرف المبنية بالآجر

(٥) يبين لابلارد أن ارتفاعه (٣٧) قدماً وعرضه (٢٨) قدماً. أما بكنهام فيذكر أن ارتفاعه (٥٠) قدماً وعرضه ثلاثين. وسمكه خمسة عشر. (المؤلف).

والتي جرى التنقيب فيها حالياً. يبدو أن البرس قد بني من الحجر المشوي بالأفران، وقد كتب على كل آجرة اسم نبوخذنصر.

وعند الوقوف بجانب حطام الحجر على القمة، يمتد امام ناظر الرحالة منظرًا فسيحًا وملفتًا للنظر. فبعيدًا نحو الشمال تمتد البحيرة الخضراء الواسعة التي تشكلت بفعل فيضانات مياه الربيع القادمة من أرمينيا. وإلى اليسار أو الغرب، تجري على مسافة ليست ببعيدة قناة الهندية، والتي ولكونها مليئة بالمياه الآن، لا تبدو للناظر أنها أقل اتساعًا من النهر الأصلي نفسه. وإلى الشرق يقع تل الرمال الكبير الآخر، الذي ارتفاعه في الواقع أقل من الارتفاع الذي نقف عليه، إلا أنه بحجم كبير. وإلى الجنوب وعلى مسافة حوالي سبعة أميال، ترتفع من السهل مجموعة من أشجار النخيل التي تضلل ضريح حزقيال المسمى "الكفل" إذ يبدو أن هذه اللفظة هي اختصار لعبارة "كف إل يهودا" أي "ضريح اليهودي"^(١). ويمتد السهل في كل جانب على امتداد البصر، لا يقطعه أي أثر ضخ من الحضارة القديمة أو ضئيل من الحضارة الحديثة. كان هناك واحد أو اثنان من العرب الذين يبدوون كالفراعات يدورون حول الأثر ويراقبون تحركاتنا، واثنان من الثعالب يهربان خلسة عندما نظرت نحو الشمال، وباستثناء ذلك كان مجمل المحيط عبارة عن قفر وخراب^(٢). ونتيجة السمة المميزة لهذا الأثر، فمن الطبيعي أن يعتقد الكتاب الأوائل أن هذا الأثر هو برج بابل نفسه. تعتبر القطعة المميزة التي كتبها بنيامين التودولي، والتي اقتبسها جميع من كتب حول الموضوع، ممتعة

(١) يبين بكنكهام أن من بين الأشياء التي تشاهدها من القمة (المجلب) أي (بابل) في الشمال الشرقي، إلى الشمال على مسافة عشرة أميال ونشاهد مسجد الشمس والحلة إلى الشمال الشرقي ونحو الشرق على بعد خمسة أميال وتشاهد كف اليهود إلى الجنوب بمسافة سبعة أميال.. إلخ، (المؤلف).

(٢) تشاهد الطيور والحيوانات بكثرة حول البرس. فقد شاهدت طيور البجع، والإوز البري، والأرانب والثعالب خلال ساعات معدودة.

بما لا تستحق الإهمال. فقد كتب، "على بُعد أربعة أميال من هنا المكان (الحلّة) بنى الجيل المتشتت البرج، لقد جرى بناؤه من الطابوق المسمى (الأجر). يبلغ طول القاعدة ميلين، وعرضه مائتين وأربعين ياردة، وارتفاعه حوالي مائة فناً. وقد جرى بناء ممر حلزوني داخل البرج (بدرجات بطول (١٠) ياردات للواحدة) تؤدي إلى القمة، حيث يمتد أمام نواظرنا منظر على امتداد عشرين ميلاً تكون الأرض فيه فسيحة ومستوية تماماً. لقد شقت النار السماوية التي ضربت البرج، إلى أساساته السفلى".

لقد صاغ ريتش وبكنكهام نظرية، حظيت بالقبول بشكل واسع، بأن البرس يمثل بقايا المعبد البابلي أو برج بيلوس. لرج بيلوس ثمان درجات أو مراحل، أحدها خلف الآخر وكانها سلم ضخم. وقد أحصى بكنكهام أربعة على البرس، وقال أن المتبقي قد اختفى. وقد وافق اربرت ورولنسن على هذه النظرية وقدم لآبار تصوّرًا^(١) تخيلًا عن البرس على نفس الأسس ولكن دون محاولة تعيينها. وفي الآخر، يقول إينسورث أنه لا يتبع بابل إطلاقاً، بل هو بقايا مدينة مجاورة تدعى بوريسيا، وهي نظرية عززها السير هنري رولنسن تقريباً بعنوره على رقم اسطوانية طينية في الركاب تصف أعمالاً في بوريسيا. ومن هنا الاسم الذي يكتب بأشكال مختلفة، مثل بورسيف أو بورصف، أو بارسيتا أو بايرسيا، ربما جاء الأصل الحالي لكلمة برس. من المحتمل أكثر أن يكون هذا الأثر الغريب هو في الواقع بقايا معبد مخصص لبيلوس ومبني على نفس الأسس التي تم بها بناء معبد بابل. عندما زار بكنكهام المكان، استفسر من بعض العرب عن أثر يدعى بروسا أو بورسا حيث كان يتوقع أن يجد أثراً منفصلاً آخر، لأنه يعتقد أن البرس هو معبد بيلوس البابلي. أكّد العرب الذين استفسر منهم، باستثناء واحد، أن البرس وبورسا هما شيء واحد، "ولكن بطرق مختلفة للفظ نفس المفردة". بينما أكّد

(١) انظر (نهنوى وبابل)، مسرد عن البعثة الثانية لبلاد آشور. السور هنري لآبارد، لندن، عام ١٨٨٢م.

أحد العرب، الذي ربما كان يأمل الحصول على مكافأة، أن هناك اثر آخر موجود على بُعد مسير أربع ساعات بالاتجاه الجنوبي الشرقي، لم أتمكن من معرفة أي شيء عن هذا الموقع، لهذا ربما يكون هذا الخبر غير صحيح.

ومن الجدير بالذكر، أن بيرسيا أو بورسبها هي المدينة التي انعطف عليها الإسكندر عندما حنّره السحرة الكلدانيين بالأا يدخل بابل من الشرق، لهذا عبر الفرات بهلف دخولها من الغرب، إلا أنه اضطر إلى التوقف كونه قد وجد من المتعذر عليه عبور أرض مستنقعية هناك. وهذا كله يعزز نظرية بورسبها حيث تقع شمال البرس بقع شاسعة من الأهوار التي كونتها قناة الهندية والتي تمتد إلى شمال غرب الحلة على طول ما يفترض أنه الحدود الغربية لبابل القديمة.

كانت الحالة المميزة من البناء المنصهر تكفي لتجعل الرحالة الأوائل يعتقدون أن هذا الأثر هو بابل. من المؤكد أنه يبدو كذلك بعد أن تأخذ بالاعتبار السور المتصدع بفعل النار الإلهية أو البرق، حيث طرحت عدة نظريات حول الموضوع، ومن المطلوب حالياً إجراء فحص علمي دقيق عن هذا الأثر غير الاعتيادي.

وبعد أن تجولنا حول البرس وأنذرنا الفزاعات العرب الذين كانوا يدورون حولنا كالظل بالأا يحاولوا انتزاع أجر من الركّام وإكرامنا به، نزلنا إلى أسفل التل، وأبلغنا يوسف بأن ينقل الغداء إلى مكان مريح بالقرب من التل الآخر، وانطلقنا لتفحص الأثر الآخر. وعندما كان يوسف يقوم بهذا الواجب، سرنا عبر الفضاء الفسيح الذي يفصل التلين والذي قد يبلغ عرضه (حسبما أتذكر) حوالي ربع ميل. يشبه التل الثاني من حيث الشكل إلى حد كبير تل بابل وهو الأثر الشمالي لآثار بابل، أكثر من أي تل آخر كونه على شكل مستطيل متناسق الأضلاع. كان سطحه غير مستوٍ ومتموج وحجري يكثر فيه الأجر في بعض الأماكن ومغطى بالانقراض الصغيرة في أماكن

أخرى، مما يجعل من الصعب السير عليه. وقد صنعت فوقه، إلا أنني لم أستطع مشاهدة أي علامة عن بناء من الآجر رغم أن الأرض مكسوة في كل الأنحاء بالآجر وكسر الأواني الخزفية. يوجد على قمته خرمان عربيان صغيران، كان الأكبر عبارة عن مرقد صغير ذي قبة ومزدحمًا عند وصولي بالعرب. وقد علمت عند الاستفسار عن المكان أنه يدعى من قبل العرب باسم (النبي إبراهيم) الذي يُقدّس من قبل العرب في هذه الأنحاء، ويترددون عليه كشكل من أشكال أماكن الحج المفتوحة طيلة أيام السنة. والواقع أن لديهم حكايات متداولة عبر الأجيال بخصوصه، وفيما يلي بعض الأمثلة لها. وقد أخبرني سيد حسن عند عودتنا إلى الحلة، إحداهما أن نمرود، الذي كان عدو إبراهيم أو أبراهام، حاول قتله بإلقائه في النار. لهذا تم بناء محرقة ضخمة، وكان إبراهيم على وشك أن يقتل عندما تدخلت العناية الإلهية وبمعجزة تحول ذلك للهب الأكلول إلى ورود متبرعمة^(١). وقصة أخرى هي أن ملك هذا المكان قد أصدر (الذي يفترض حسب الحكاية العربية المحلية أنه نمرود الخالد) نتيجة تعطشه الشيطاني إلى الدماء، أوامر ببقر بطون جميع النساء الحوامل. لذلك هربت أم إبراهيم نتيجة الخوف من هذا الأمر الوحشي واخفت نفسها في هذا الموقع المقدس، وهنا وُلد الأب. إن هذه القصص ساذجة إلى حد ما وهي لا تساوي شيئًا وتشبه الأساطير الأخرى حول نفس الموضوع.

ينتمي العرب الموجودون في محيط هذا المكان إلى قبيلة خفاجة. وعند الضريح ودخله هناك العديد منهم، من الرجال والنساء الذين يبدو عليهم الفقر وهم من الطراز منحط التعليم بشكل عام. كان في داخل المبنى الصغير العديد من الناس وهم

(١) إن قصة إلقاء إبراهيم في النار موجودة في السورة (٢) من القرآن التي تسمى (الأنبياء). وقد اتخذ هذا العقاب ضده لأنه استخفّ باللهتهم. يقول المفسرون أن النار قد تحولت إلى مرج أخضر بهيج. انظر ترجمة سالي للقرآن، (لؤلؤ).

يصلون ويتلون شيئاً من القرآن، وقد شاهدت جدران المبنى نفسه مزينة بصور ورسوم بدائية. قام يوسف بإعداد غدائنا أسفل الجدار الغربي، إلا أن الغبار الذي أثارته ريح عالية في نفس الوقت، قد أحال لحم الدجاج والتمر والخبز إلى طعام غير مستساغ. وقد جذب المنظر واجتمع حولنا عدد من العرب الفقراء الذين لم يكن يبدو أنهم سيتناولون طعامنا، واحتشدوا تحت ظل حائط مكان العبادة على شكل مجموعة غريبة جذيرة بالازدراء، ولم يكن رفيقي في السفر يتفهم اهتمامهم هذا، رغم أنني قد شرحت له إذا جاء اثنان من قبائل الزولو وجلسا لتناول إفطارهم على اعتاب ضريح القديس بول، فمن المؤكد أنه سيتوقف بشكل منطقي تمامًا ليلقي نظرة عليهم إذا كان مروره على هذا الطريق. ورغم أنني قد دافعت عن هؤلاء القوم الساكنين، إلا أنني أشك بكونهم يستحقون هذا الدفاع، لأننا عندما نهضنا للرحيل، لم أعر في أي مكان على مظلتي التي اعتمد عليها واعتبرها بالنسبة لي كوني لا أملك أي خوذة شمسية ذات قيمة كبيرة. وقد جلست دون جدوى على حصاني وقطبت جبيني وصببت جام غضبي على جميع المحتالين والخونة، وقد جال يوسف والكؤاس عبثًا وقتشوا عنها تحت عباءات العرب وفي الشقوق الأثرية. وقد جلبوا أمامي دون جدوى الشيخ المسؤول عن الضريح مرتجفًا واستجوبوه وهددوه بالمحق السريع. وفي الآخر، ذهب صديقي إلى المقدمة مع ثورة كبيرة في عينيه وأمر حازم في نبرته وأبلغ الشيخ الخائر القوى بصوت كالرعد أنه إذا لم يظهر الجنهام^(١)، فإن الباشا في بغداد وبواسطة المقيم البريطاني سيتحرك، وستتقدم قوة مسلحة من الجنود الأتراك على البرس المقدس وساكنيه وستمحقه، وربما يسوى أيضًا موقع النبي إبراهيم وجميع ساكنيه مع الأرض بحيث لا يبقى حجر على حجر وسيلعن المكان جيلًا بعد جيل. وفي غضون لحظات، كان الجميع يتحركون بنشاط محموم، حيث أخنت الأجساد المرتجفة تسرع هنا وهناك وحتماً أن الوضع الإسلامي

(١) هو قمائن هندي يستخدم في صناعة اللطالات، (لترجم).

نفسه قد جرى تفتيشه. وفجأة، أطلقت إحدى الفزاعات من العرب صرخة النصر، وتم سحب مظليي المسكنة القديمة المشتراة من شارع أوكسفورد من تحت كومة قش قدرة، حيث جرى إخفاؤها قبل خمس دقائق فقط ولولا الحضور الذهني لصديقي، وعظمة الاسم البريطاني، لبقيت هناك كالحلة بهيكلها المعدني في صحراء بابل كبغل قافلة مرهق. ولكن ها قد أعيد اعتبار بريطانيا العظمى، ومع نصر يملأ قلوبنا وازدراء نحو خيانة بعض العرب يكسو حبيبتنا، غادرنا باتجاه الحلة.

قضينا المساء الذي كان ماطرًا جزئيًا في دار السيد. كان عشاءنا يتألف من اثني عشر صنفًا بما فيها الشورية والكبة والبيلاف وخضراوات متنوعة، وقد اعتذر السيد عنه قائلاً أنه بأسف كونه لم يستطع أن يقدم إلينا سوى هذا العشاء البسيط، ولو كنا في كربلاء (حيث بيته) لكان قدّم إلينا ضيافة تليق بنا أكثر. وبعد العشاء تبادلنا أطراف حديث طويل معه، ولا أستطيع سوى أن أعجب بالسهولة التي يضع فيها قدميه، رغم أنه يجلس على كرسي اعتيادي، على مقعد هذا الكرسي دون أي علامة للمضايقة أو الارتباك. دار حديثنا الذي جرى معظمه عن طريق يوسف، حول الحكومة التركية وحالة البلاد. سألناه لماذا لم يسافر ويزور إنكلترا فزيارتها سهلة كما هي حالياً، وذكر له سي في نفس الوقت، أن هناك مؤسسة في لندن تستقبل الشرقيين المعوزين والمشردين، إلا أنه لسوء الحظ ربط القضية والملاحظة واجاب بحزن، أنه "يشكر الله أنه غني بما فيه الكفاية، وأنه إذا ما زار هذا البلد العظيم، فإنه سيفعل ذلك مع حاشية من الخدم والتابعين، وإنه ليس بحاجة لمثل هذه المساعدة". ثم بعد ذلك أثرنا دهشته بأن وصفنا له سكة الحديد المعلقة وأخبره سي عن السفر بالنطاد الذي كان لديه شيئاً من التجربة معه. لقد دهش مضيفنا إلى حد كبير بهذه الأشياء، ورغم أنني اعتقد أنه لم يصدق الكثير مما قلناه إلا أنه كان من التهذيب العالي بحيث لم يقل لنا

ذلك، إلا أن يوسف كان أقل تهذيباً، ووجدنا من الصعوبة الاحتفاظ بهدوننا عندما ينهي ترجمته لحكاية أو نادرة فارسية طويلة معينة لمضيفه بتعليق من ذاته يقول "كفى هراء" أو "اعتقد أن الكل يكذب".

بعد ذلك، جاء رجلان من المدينة، وهما يرتديان زيًا فاخرًا، حيث كنا نعتقد في البدء أن زيارتهما لنا كانت رسمية، إلا أنه قد ثبت أنهما جاءا بسبب أنهما كانا يريدان رأينا حول قيمة ساعة اللانية يبدو أنها رديئة وبعترمان شراءها، أخبرتهما أن ثمن الساعة يعتمد على دقتها العالية في ضبط الوقت. إن ساعة أوروبية لا تعمل لا تساوي شيئاً كساعة شرقية في نفس الحالة.

إن الجزء الأكثر إرهافاً في تبادل الحديث مع شخص فارسي من الطبقة الأفضل، هو الشكلية خاصة عبارات الثناء الطنانة، التي ينبغي تلقيها وإعادتها بالوزن الذي تستحقه. حتى مع السيد، الذي لم يترك لطفه وكرمه شيئاً آخر نرغبه، وأقول دون تردد أنه كان لطيفاً وكرهماً خالصاً وإيثاريًا، إلا أننا وجدنا الحديث معه لفترة طويلة من الزمن شيئاً مرهقاً. كان آخر فقرة في برنامج المساء هي زيارة من أحمد والقاضي. وقد حافظ خمستنا على نوع من المباريات خماسية الأطراف من عبارات الإطناب في الثناء لمدة حوالي ساعة، لقد قدحنا سي وأنا زناد ذهننا لانتقاء أفضل الكلام إلا أنه لم يكن يجاري لطفهم وأدبهم، ثم بعد ذلك مباشرة، أكملوا المباريات مع أصدقائنا الشرقيين الذين كانوا في الواقع أكثر مهارة في هذا النوع من المباريات منا نحو السكسون المساكين البلبيين. وتدرجياً وعندما انقضت الزيارة، أصابنا الانهيار وشعرنا أن كل الأدب الموجود في طباعنا قد جرى امتصاصه في هذا الصراع العنيف في مجال السلوك، وكنا سنعطي ثروة العالم كله لمن يسمح لنا بالخروج إلى الشارع لنوجه الإهانة بالكلمة والفعل إلى أول من يصادفنا من الناس.

لم نتوصل إلى المقصد والسبب الحقيقي من وراء هذه الزيارة حتى الساعة التاسعة والنصف تقريباً عندما علمنا أن أحمد والقاضي هما وفد مهمته إخبارنا أن حاكم الحلة قلق إلى حد ما حول الغاية الحقيقية لوجودنا. يبدو أنه لا يفهم لماذا زار الكثير من الأوروبيين الحلة في السنوات الأخيرة، ويبدو أن تفكيره الضحل قد قاده للشك أن هناك وراء مظهر الاهتمام بالآثار غاية شريرة مخفية في زيارات الإنكليز إلى آثار بابل. اقترح القاضي أن نقوم بزيارة له، ولكن وبما أن الوقت كان متاخراً ومن الضروري أن نبدأ بالرحيل مبكراً صباح اليوم التالي، اعتذرنا عن ذلك وأرسلنا الكوأس له ليقدم له احترامنا ويوضح له هويتنا وسبب زيارتنا إلى الحلة.

وعند الساعة السادسة من صباح اليوم التالي ودعنا السيد، الذي كان متجهاً إلى كربلاء قاطعاً قناة وبحيرة الهندية، وخرجنا من الحلة باتجاه تلال بابل. عند الساعة التاسعة والنصف وبعد مرورنا بالقرب من هذه التلال، وصلنا إلى خان المحاول، حيث أجبرنا رعد ومطر غزير أن نستتر لمدة نصف ساعة تقريباً، فقد هطل المطر بغزارة بحيث وجدت أن معطفي الطويل كان ذا فائدة عظيمة لي. وحالما دخلنا إلى بوابة الخان، وترجلنا لارتشاف شيء من الدخان، تراجع حصان يوسف الذي كان يحمل خرجاً صغيراً فيه غداؤنا، يقصد نحو زاوية مظلمة وبدأ يتقلب على هذه الحمولة الثمينة، وهو فعل ماكر لا مبرر له البتة. اجتمع الناس المسؤولون عن الخان حولنا، وقدموا لنا تقييمهم للطريق الذي كان من المقرر أن نسلكه، ولم يكن التقييم مشجعاً. فقد قالوا، أن كل الطرق عبارة عن أحوال ومستنقعات، إلا إذا استخدمنا دليلاً ليرينا الطرق عبر الأشراك والأفخاخ التي تكتنفه، ودون ريب أننا سنغوص في الأحوال وستاكلنا طيور السماء وحيوانات البحر أو أننا سنغنى ونغرق كفرعون وضيئه بقوة اندفاع المياه. إضافة إلى هذا فإن الطريق يعج باللصوص العرب، العرب الحقيقيين الذين ليس لديهم ذمة أو رحمة ومعهم رماح بطول خمس ياردات ومتعطين برغبة

دموية للسلب لا يقف امامها اي شيء. وعلينا ان نأخذ حارسا معنا، هكنا قالوا، ولكن طالما لا يوجد حارس لناخذه معنا، فإننا أهملنا هذا المقترح، وانطلقنا حالما توقف المطر مع شاب عربي هزيل طويل عليه أن يقوم بواجب مزدوج وهو إرشادنا وسط متاهة الأهوار والقضاء على عصابات التسليب التي قد تخامر وتعرض طريقنا.

وبعد مغادرتنا للمحاوليل، انطلقنا نحو اليسار تاركين طريق بغداد، واتجهنا مباشرة نحو المسيب على نهر الفرات، حيث يجب أن نمضي الليل هناك. وقبل الحادية عشرة بقليل، وصلنا إلى أرض زراعية، موحلة ومستنقعية في بعض أماكنها، إلا أن السير عليها ليس شيئاً عموماً. كانت تنتشر حول الطريق الذي نسلكه، والواقع في كل مكان، أعداداً من أجساد الجراد الأخضر الذي قتلته حسبما يقول دليلنا، الغربان والطيور الأخرى. وطالما أن الحشرات لا تؤكل في معظم الأحوال، فقد كنت أميل للشك في صحة هذا التفسير. وبعد تناولنا الغداء في حقل أخضر بهيج، يعتبر تغييراً يثير الانتعاش بعد الخانات الغيرة التي تناولنا فيها غداءنا على طريق الحلة، انطلقنا ثانية، ووصلنا بحدود الساعة الواحدة إلى مخيم للعرب قال يوسف أنهم من فلاحين شمر الذين يفلحون الأرض الواقعة بين المحاوليل والنهر. كانت الأكواخ التي يستوطنها هؤلاء الناس مبنية من القصب ومسقفة بالحصران التي تمت صناعتها في البصرة. وقد رأيت للمرة الأولى لماشية ذات الحنية التي تماثل إن لم نقل من نفس الفصيلة الهندية. وبالقرب من هذه القرية، هناك ضريح شيخ يدعى محمد بن حسان، وأبعد قليلاً منه، مررنا بموقع أثري قديم يتكون من تلال وأطلال، لا يعرف عنها دليلنا أي شيء سوى اسمها (القصر). وبعد ذلك بقليل وصلنا النهر، حيث جريت نحو مخيم عربي من الصرائف على أمل الحصول على شيء من الحليب. تبين أن هؤلاء العرب هم من قبيلة النصيرية، وهم قوم من البدو، حيث جلبوا لنا عن طيب خاطر حليباً طازجاً ممتازاً ورفضوا استلام أي مقابل عنه. هل هؤلاء هم العرب الرعيون الذين نسمع عنهم؟

لديهم فرس كستنائي جميل من سلالة الصكلاوية. قال مالكها أنه على استعداد لبيعها لي، بينما عرض عليه يوسف ساخرًا مبلغ نصف كراون، وهي نكتة سمجة بعد هدية الرجل الودية من الحليب.

وبعد ذلك مباشرة، أصبحنا بالقرب من صف طويل من أشجار النخيل الذي تقع فيه المسيب. شاهدنا في أقصى يمين هذا الصف، قبتين زرقاوتين، دون أي منارة قريبهما. وبعد الاستفسار علمت أنهما بسميان (أولاد مسلم)^(١) أي (الفتيان المسلمين) كما أرى ذلك من خلال مظهرها وليس من أن قصة أو أسطورة معينة. إننا الآن بالقرب من المسيب وكانت الأرض التي نسير عليها طول النهار، عبارة عن سهل طيني تقطعه بين مسافة وأخرى قنوات كبيرة. كانت هناك أهوازًا موحلة، إلا أنه رغم التقويم الذي قُدم لنا في المحاول فلم تواجهنا أية مصاعب وربما يعود هذا إلى اتخاذنا للدليل معنا.

وبعد دخولنا إلى المسيب، كنا على وشك أن نضل طريقنا، حيث دخلنا إلى مواقع لصناعة الأجر، وشاهدنا هناك أجر مسطح كبير شبيه بأجر بابل القديمة تجري صناعته. بنيت مدينة المسيب من هذا الأجر، ويقال أنها تعتبر صناعة واسعة فيها، لهذا ربما من غير الصحيح القول أن جميع المدن الواقعة بين الفرات ودجلة قد بنيت من مواد تمت سرقتها من المواقع الأثرية القديمة. وبعد تقدمنا في السير قليلاً، مررنا عبر الجانب الشرقي من المدينة كونها كالحلة قد بنيت على جانبي النهر، ثم عبرنا جسر القوارب العتاد، ونصبنا خيمتنا الصغيرة مقابل مقهى صغير استمر مالكه بأداء عمله خارجه كتقدير لنا وأخلى بناية المقهى لنا.

✱

✱

✱

(١) هما أولاد مسلم بن عهيل اللذان قتلتهما الحارث الهمداني بعد عام واحد من واقعة كربلاء، (الترجم).

الفصل الرابع عشر

طريق الحج

المسيب - طريق الحج - ماصفة في الليل - مشهد الحسين - حصى كربلاء - لمصب - شهادة الحسين - قوافل الجنث - كربلاء - في زيارة نواب - الأسلسهاد بسبب البعوض - حادث مروج - إفتراقنا عن مضيفنا - مفادرة كربلاء - المسيب ثانية - ركوب غير امن - خان الإسكندرية - الوصول إلى بغداد - إشاعات من نورة مربية على حجلة - حلاق بغداد - إحدب البصرة - السفر على ظهر سفينة لجارية في حجلة

تبدو لي المسيب من اعجب الأماكن التي شاهدتها. من المؤكد أنها نتيجة موقعها الخاص واحدة من أكثر المدن متعة. فهي تمثل المرحلة الأخيرة على الطريق إلى كربلاء ويدهر مواطنيها العرب تجارة مزدهرة في جزّ الحجاج الهنود والفرس الفقراء والمتسخين بوغاء السفر، والذين تصل قوافلهم باستمرار أو تغادر عائدة أو ناهبة إلى كربلاء. ليست المدينة رغم أنها مبنية على جانبي النهر، ذات حجم كبير ولا بد أن عدد سكانها المستقرين صغير أيضاً، ولكن إضافة إلى ذلك هناك حشود متزايدة من الحجاج الموجودين بشكل دائم إما بأعداد كبيرة أو صغيرة، وأميل إلى الاعتقاد أن عددهم يصل أحياناً إلى الفان وثلاثة آلاف شخص. وهنا تخمين فقط، إلا أنني كنت في الليل في أحد الخانات وكان مكتظاً بالحجاج وأمامه فسحة واسعة مفتوحة تعج بقوافل

ومخيمات الحجاج. إن لهؤلاء السكان من الحجاج خصوصية لهم هي أنهم يتواجدون مجتمعين في الليل فقط. وإذا ما تجولت وسط المسيب في منتصف النهار. كما فعلنا ذلك عند عودتنا، فإن الخان والمدينة تبدو خالية تقريباً من السكان. تصل القوافل بعد الظهر أو في المساء، ثم تنزل حمولتها لقضاء الليل، وتغادر في المرحلة الثانية عند شروق الشمس. تبدو أكثر الأوقات ازدحاماً هي بين الثالثة والخامسة بعد الظهر، حيث تكون المدينة مفعمة بضجيج موسيقى أجراس القوافل القادمة. لقد سبق أن ذكرت الخان الكبير الذي خيمنا قربه على الجانب الغربي. وبعد أن نصبت الخيمة، اختلست النظر من خلالها لأجد المكان مزدهماً تماماً بالناس والحيوانات. فهناك أكشاك لبيع الخبز والتمور بأسعار غالية جداً، لأن كل شيء في المسيب غالي باقضى ما يكون. تجولت في شارع أو اثنين من الشوارع الفرعية ثم لمسافة قليلة على طول ضفة النهر. يمكن تصور الحالة الصحية للمدينة عند النظر إلى الشوارع وضفة النهر التي تمثل شاهداً بيناً على استخدامها كاماكن لقضاء الحاجة من قبل الحجاج. وعندما كان المساء يتقدم، كانت تصل باستمرار قوافل جديدة وعندما يمتلئ الخان، يخيم الحجاج لقضاء الليل في الفسحة المفتوحة في الأمام. لقد امتزجت الضوضاء اللامنتهية لصهيل ونهيق الحيوانات مع ضجيج الأجراس بينما تقاد قطعان البغال إلى ضفة النهر للإرواء، مع همهمة مئات الألسن التي تتحدث بنصف دزينة من اللغات المختلفة، جميعها تشكل مزيجاً غريباً للغاية للأصوات.

أخرجنا دكة وجلسنا عليها للنظر نحو هذا المنظر الغريب متعدد الألوان الممتد أمامنا. شاهدنا العنصر السائد في هذا الجمع وهو العنصر الفارسي. فهناك العديد من الأفراد الذين يبدو منظرهم كالبدايين مع خصل شعر سوداء متشابكة على رؤوسهم ويرتدون معاطف زرقاء طويلة تصل إلى ركبهم، ويلبسون أحياناً جوارب واحنية كبيرة. وقد وصلت إلى هنا مجموعة ترتدي القبعات الفارسية المصنوعة من

فرو الحملان، وربما يكونون من متقلدي بعض المناصب الرسمية في الحكومة الفارسية. وليس غريباً أن تشاهد رجالاً بلحي مصبوعة بلون أحمر قان لإخفاء حقيقة كونها ذات شيب أو بيضاء. كان هناك أيضاً زوجاً من (الكاجاويه)، يحتوي كل منهما على زوج من الصرر الزرقاء، التي تبين بعدما ترحلت، أنهن سيدات فارسية يرتدين السراويل والحجاب الأبيض. كما شاهدنا مجموعة من الهنود بعضهم يرتدي ملابس بيضاء أو معاطف سوداء طويلة ويحملون المظلات ومنظرهم يشكل مظهرًا أوروبيًا خادعًا يصد العين بغرابته في هذا المحيط من الإسلام الشيعي. وكان هناك أيضاً ثلاثة من الشخاذين الفرس بعصيتهم الطويلة وأيديهم الممدودة طلباً للصدقات. وكان هناك أيضاً شخصاً بدائياً آخرًا شبه عار وبهده برتقالة، من الواضح أنها كل أمتعته، وهو درويش يستجدي من خان لآخر، من مشهد البعيدة قرب بحر قزوين إلى مشاهد الأتمة في الصحراء العربية، ومجموعة أخرى من الحوريات الهنديات، وهن يرتدين بهرجة من ملابس الجوخ الحمراء القانية.

كان خلف المقهى جامعًا صغيرًا، وقد دعاني الملاً الذي كان يسكن في البيت المجاور له إلى سطح داره حيث يجلس، لإلقاء نظرة عامة على المكان. شاهدت أكثر قليلاً مما شاهدته وأنا في الأسفل ولأن يوسف كان يطبخ عشاءنا، لم أتمكن من تبادل حديث مطوّل معه، وسرعان ما نزلت. بعد العشاء، أصرّ يوسف على إعادة رزم كل شيء قبل الدخول إلى الخيمة، كونه كما يقول، يوجد الكثير من اللصوص المحترفين في هذا المكان. ومن المؤكد أننا سنفقد شيئاً ما هنا. ولأننا نتذكر الليلة الأخيرة التي قضيناها في أحد المقاهي، توقعنا أن نقضي ليلة أفضل في خيمتنا، وهو أمل لم يتحقق أينما ذهبنا، لأن ضجة المجموعة التي خرجت من المقهى توفيراً لراحتنا قد اصطفت في خمسة أو ستة صفوف طويلة أمام باب خيمتنا، ممتزجة بترانيم حشد من الأطفال كانوا يؤدون نوعاً من التواشيح الرمضانية، قد أبقتني يقظاً لفترة طويلة. وعندما

خفت هذه الأصوات واعتقد أن ذلك كان عند منتصف الليل تقريبًا، أخذت قسطًا من النوم، ولكن بعد ساعتين أيقظتني عاصفة من الريح والمطر هددت بإغراقنا لو تقوضت الخيمة. وثبت على قدمي وامسكت بقوة بعمود الخيمة كي أحافظ على بقائها في حالة ارتخاء أوتادها، وناديت سي بأن يفعل نفس الأمر بالنسبة للعمود الآخر. وقد فتح هذا الرجل، الذي اعتقد أنه لن يستيقظ حتى لو أطلقت نيران الفرع بعيد ميلاد الملكة في غرفته، عينيه بهدوء وقال لي بالا أحدث ضجة ثم أعاد إقفال عينيه وهجع ثانية. وما أثار اهتمامي أكثر هو أنني كنت سأعطي ثروة العالم كله لو وقعت هذه الخيمة المنقعة بالماء على جسده الهاجع، إلا أن العاصفة قد توقفت فجأة كما بدأت ولم يكن لدي أي خيار آخر غير العودة إلى فراشي متدمرًا. كان يوسف، الذي ثبت أنه كتاب مثل سي، يشتر أثناء النوم وادخل وجهه القبيح داخل الخيمة وهنا من روعي بتكراره القصة الأبدية بأنه لم يتمكن من النوم لأن هناك الكثير من اللصوص يحومون حول المقهى. أخبرته أن يبقي عينيه مفتوحة، ثم أخذت إغفاءة مرّة أخرى، ولم استيقظ إلا عند شروق الشمس بفعل ضجة القوافل المرتحلة.

عند الساعة السادسة، خرجنا من المدينة، وبعد عبورنا جسرًا مرتفعًا على أحد القنوات، حيث كان متموجًا وشديد الانحدار بحيث أننا نرجلنا عند عبورنا له، وجبنا أنفسنا وسط أهوار شاسعة يمكن مشاهدة أنواع مختلفة من الطيور المائية على سطحها. كان الطريق الذي يقطع هذه الأهوار عبارة عن ممر ضيق مرتفع، حيث التقينا عليه بمجموعة من عرب عنزة مع العديد من الجمال والخيول. ولأنني لم أرى أي من أفراد عنزة منذ فترة طويلة، وكنت أتصور أن مجمل القبيلة لابد أن تكون في هذا الوقت في الصحراء قرب حلب، استفسرت ماذا يفعلون هنا. كان الجواب أنهم بصدد نقل هذه الحيوانات إلى بغداد لغرض بيعها وأن عنزة تشكل جزءًا من الحراس الذين يرافقون قوافل بغداد المتجهة إلى مكة لغرض الحج.

كانت السماء صافية عندما غادرنا وعند الساعة السابعة والنصف أصبحت حارة جدًا. وقبل العاشرة بقليل وصلنا إلى ضريح شيخ يدعى (بني عون بن جافا)^(١)، والذي يبدو من خلال الأعداد الكبيرة من الحجاج المجتمعين في موقعه، أنه يعتبر مكانا له شيء من القداسة.

وبعد تقدمنا في المسير، واجتيازنا باستمرار لعدد لا يحصى من القوافل، وصلنا إلى بساتين نخيل حول كربلاء بحدود الساعة الحادية عشرة وتوقفنا لتناول غداءنا في مكان جميل وقد وجدنا هنا خادماً لمضيفنا يمتطي حصاناً وجاء لقابلتنا ومرافقتنا إلى داخل المدينة.

كانت الساعة الواحدة تقريباً عندما ذهبنا إلى بيت السيد الواقع في الحي الأكثر حداثة في المدينة وخارج الحدود المسورة التي تضم الجوامع المقدسة والأسواق. كان البيت، المبني على الطراز الفارسي، جميلاً وكبيراً، يشبه إلا أنه ليس منعقلاً لدار الإقامة في بغداد ويحيط بفناء رحب. حيناً مضيقنا بحرارة، ثم ادخلنا إلى غرفة أنيقة مؤثثة بالأرائك والكراسي ومنضدة تنن تحت حمل كبير من أنواع مختلفة من الفاكهة. قدمنا إلى ابنه الصغير المدعو السيد مهدي، وهو فتى جميل ذو وجه أبيض إلا أنه جتأب. وكان يرتدي عمامة خضراء كبيرة ملفوفة على كوفية ذات لون زاه. وقد امتعنا هنا الفتى بقدر كبير بعاداته القديمة الطراز للسلبية. لقد طوى نفسه على كرسي وبدا يحملق نحونا ونحو امتعتنا بكثير من الفضول. وبعد أن تناسبنا أن الوقت هو رمضان وتحذونا الرغبة بإقامة صداقة معه، عرضنا عليه برتقالة حيث رفضها بعجرفة وأبعدها عنه مصدراً صوتاً صغيراً خاصاً بطرف لسانه كالذي يصدره الإنكليز بشكل عام عندما يصابون بالدهشة قليلاً. وبعد استراحة قصيرة، قادونا إلى

(١) هو ضريح عون بن عبدالله بن جعفر الطيار، واه زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، (الزنجي).

سطح المنزل للإلقاء نظرة على الجوامع والمدينة. وقد شاهدنا من هنا المكان القبة الذهبية والمنارتين الخاصتين بمشهد الحسين. إنها تشبه الكاظمين إلا أنها ليست بجمالها حيث توجد في الأخيرة أربع منارات كبيرة، كما يوجد في الأول كالجامع الأخير برج ساعة حديث وقبيح. كما يمكن أيضا مشاهدة قباب الجوامع الأخرى، إلا أن قبة الإمام العباس المكسوة بالآجر الجميل هي الوحيدة التي تستحق الاهتمام. ثم بعد ذلك قمنا بتصوير السيد وابنه الصغير مهدي بكاميراتنا اليدوية، وهو عمل يبدو أنه قد أسر مضيفنا كثيرا. كنت أشد إلى حد ما حول كيفية قبوله للمقترح إذا ما علمنا بافتراض رفض المسلمين الملتزمين بشكل عام لأي تمثيل للحياة. إلا أن حقيقة الأمر هي أن امر النبي هذا لم يعد نافذا. فقد قرر حكماء الإسلام، الذين يحبون الصور كأي شخص آخر، أن الصور والرسوم هي ليست تمثيلا للناس في المعنى الذي تقصده النصوص القرآنية لأنها تبين جانباً واحداً فقط للشخص. كيف يمكن أن يسمى ما يمثل وجه إنسان فقط ويلغي ظهر عمامته تمثيلاً حقيقياً؟ أما النصب النحتي فإنه أمر مختلف لأنه أشد الموبقات، ولكن الصورة هي شيء تافه وأمر ناقص ومن الواضح أن النبي لم يكن يرغب بشموله بالتحريم. وبعد ذلك رافقنا شقيق السيد ويوسف لاستراق النظر قدر الإمكان نحو بوابات المرافد. مررنا بشوارع مزدحمة وأسواق وتوقفنا عند محل صرافة للنقود يقع مقابل البوابة الرئيسية، بهدف مزعوم على أساس أننا نريد الحصول على بعض المال والاستفسار حول العملات أو القطع الأثرية والواقع أننا نريد اختلاس النظر إلى البناء. وبينما كان يوسف مستمراً بالمساومة، استدرت والقيت نظرة كافية. كان ما رأيته هو بوابة كبيرة مكسوة بالآجر الملون ومزينة بكتابات فارسية أو عربية. وفيه أيضا يلتصع آجر أزرق وأحمر وصف من الناس يجلسون عند أكشاك مع بعض الأشياء لغرض البيع. كان هذا كل ما رأيته. لم يكن يبدو على الناس الاستياء من إلقائي النظر نحو المشهد، إلا أن دليلنا قد أسرع بإخراجنا من المكان

وادخلنا إلى أسواق كثيرة وهو يشير إلى بوابات عديدة أخرى للمشهد أثناء السير، حيث كانت تتصل بشوارع مزدحمة ومبينة مع مبانٍ أخرى، إلا أنها لم تكن مهيبة. وبعد أن بدأنا قمنا بدورة كاملة حول البناء، أصبحنا مقابل بوابة كبيرة، يقول دليلنا أنها السادسة. وقد شاهدت داخلها محرابًا مطلقًا بالذهب لتوجيه المصلين نحو مكة. ثم اخترقنا بعد ذلك المزيد من الأسواق، وتوقفت عند أحد الحوانيت واشترت بما قيمته حوالي خمس بنسات أربعة سلال صغيرة وجميلة وثلاثة أطباق واسعة جميعها مصنوعة من سعف النخيل. ويعرض في هذا الحانوت أيضًا لغرض البيع للمتدبرين فقط أفراسًا طينية مختومة غريبة تسمى بشكل شائع ترب كربلاء حيث يشتريها حجاج كربلاء ويأخذونها معهم إلى بيوتهم كتذكارات للضريح. ولأنه يفترض أن هذه الترب مصنوعة من الأرض المحيطة بالضريح نفسه، ينظر إليها بتقديس خرافي، وهو أمر سخيف. يقال أن الشيعة يضعون جباههم في الصلاة عند وضع الركوع على هذه الأحجار، ولا يسمح سوى للمؤمن الحقيقي بلمسها. وقد أخبرنا شقيق السيد بالا نلمس مطلقًا الترب التي رأيناها في هذا الحانوت. بل حتى إنه قد وجّه نصيحته إلينا بالا ننظر إليها بفضول زائد. وقد تولى مضيفنا الذي كما قلت كان متحررًا بشكل فريد من التعصب الأعمى، تأمين نماذج منها وإعطائنا لنا، واليوم لي اثنين منها. كان أحدها ذا شكل مثلث وبقطر أربع إنشات، والأخرى دائرية بنصف قطر الأولى، وكلاهما مصنوعان من الطين ذي اللون الفاتح وغير المشوي، ومختوم بنماذج من الاختتام الدقيقة. وقد صنعت أشكال أخرى مع فراغ في وسطها، لكتابة شيء معين فيه، اعتقد ربما يكون اسم الحاج وتاريخ زيارته للمرقد.

وخلال هذه الجولة والحق طيلة الوقت الذي أمضيته في كربلاء، لم أشاهد أي أثر للتعصب ضد المسيحيين الذي ينسب للأهالي عادة. فإلى وقت قريب كان لا ينصح لأي رحالة مسيحي دخول هذه المدينة، إلا أنه بدخل الآن إليها العديد من الأوروبيين.

ونتيجة لذلك أخذ سكان المدينة يعتادون على رؤيتهم تقريباً. لقد اختفت العواطف القديمة، وأصبح وجود الرحالة للهنبيين لا يثير الاستياء. إلا أن أي محاولة من طرف زائر معين للدخول أو رسم أو ربما حتى تفحص الجامع بفضول، قد يؤدي حتى الآن إلى نتائج لا نحمد عقباها.

تعتبر كربلاء رابع مدينة مقدسة لدى المسلمين الشيعة ويזורها سنوياً عدة آلاف من الحجاج^(١٠).

يمكن إيراد أصل الحج إلى كربلاء بإيجاز كما يلي، في عام ٦٠ للهجرة، وبعد أن قُتل الخليفة علي صهر النبي في جامع الكوفة، أرسل أهالي تلك البلاد إلى ابنه الحسين في المدينة دعوة للمجيء واستلام زمام الحكم. ولكن في نفس الوقت، اغتصب معاوية عدو علي خلال حياته، الخلافة وبعد موته خلفه ابنه يزيد، الذي كان يحكم في هذا الوقت. انطلق الحسين في يوم ٨ ذي الحجة مع عائلته ومجموعة من أتباعه المسلمين. وعندما وصل المكان الذي توجد فيه كربلاء الآن، قابله جيش من الكوفيين الخونة أرسله في غياب يزيد الذي كان في دمشق، واليه عبيد الله يقوده عمر بن سعد. وبعد مفاوضات قصيرة، وقعت القوات العادية نفسها بين جماعة الحسين والنهر، وبذلك قطعت المياه عن قوة ضعيفة ومنهكة بسبب الرحلة الشاقة الطويلة عبر الصحراء العربية. يقال أن الحسين في هذا المأزق الحرج قد عرض العودة أو أن يذهب بمرافقة حرس إلى يزيد في دمشق، ولكن قائد الجيش لم يجب على هذا وطلب الاستسلام غير المشروط.

(١٠) يبين السيد مكرز الأتي لترتيب القنسة حسب معلومات حصل عليها من سيد في كربلاء، اعتقد أنه صديقي سيد حسن نفسه وكما يلي، ١- مكة ٢- للدينة ٣- النجف ٤- كربلاء ٥- الكاظمين ٦- مشهد (في بلاد فارس) ٧- سامراء ٨- قم (المؤلف).

(١١) لا يعتبر الترتيب أنشأ دقيقاً أو يمثل وجهة نظر معينة، فقد فات مصدر المعلومات أن ينسج القنسة قبل النجف ككون الأولى تضم أولى القبليتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى الرسول الكريم ﷺ، (لترجم).

تروي الأخبار المتناقضة عبر الأجيال انه قد وردت إلى الحسين ليلاً رؤى واحلاماً تخبره بمصيره وخلال اليوم أو الأيام التالية، تناقص جيشه الصغير للنهك بفعل نقص المؤن والذي يحتضر من العطش، بقرار قسم منه حتى بقي منه اثنان وسبعون شخصاً. كان من بين هؤلاء عدد من افراد أسرته من ضمنهم علي الأكبر، أكبر ابنائه، وابنان صغيران هما عبدالله وعلي الذي عُرف فيما بعد باسم زين العابدين. كان هناك أيضاً اشقاءه عباس علي وشقيقته زينب وابنته وابن أخيه كاظم وعمته. حصلت سلسلة من المناوشات، إلا انه لم يكن لجموعة الأمير الصغيرة رغم قتالها الباسل، أي أمل بالنصر، وفي الآخر تمت محاصرتها ونجح افرادها. كان علي الأكبر أول القتلى، حيث أصيب برمح ثم جرى تقطيعه إرباً، تبع ذلك مأساة مروعة، عندما طعن طفل الحسين الصغير عبدالله بسهم وهو بين ذراعي والده. بينما نجا زين العابدين، كونه برقد مريضاً. انقاع الأمير وهو جريح وينزف نحو أعدائه وبعد ذلك سقط وطعن بأكثر من ثلاثين طعنة. ثم قطع رأسه، ومُرغ جسده في التراب، ونهبت الخيم التي تاوي أسرته، وسبيت النساء. أرسل رأسه والأسرى إلى دمشق، إلا أن جسده قد وري الثرى في كربلاء، وارتفع بعد ذلك على هذا الموقع المرقد الذي يجذب حشود المؤمنين الشيعة منذ عصور^(١). في القرن التاسع، حاول الخليفة المناهض للشيعة المتوكل إيقاف الحج إليه بإغراقه المنطقة الواقعة بين بغداد وكربلاء بمياه الفرات. ويقال أيضاً انه حاول تدمير الجامع إلا أن الشيعة كانوا من الإخلاص مما لا يدع لمثل هذا الطاغية أي تأثير دائم. وليس كحج مكة، يصل الحجاج إلى هذا المكان في جميع أوقات السنة إلا أن شهري ذو الحجة ومحرم، اللذان حدثت بهما حملة الشهيد وموته، هما الشهران الفضلان، عند

(١) يوجد شرح مفصل في كتاب لوكني (تاريخ العرب) وتاريخ مور (الخلافة)، إلا أن المراجع تختلف في تفاصيل للبيعة. وهما يخص نقطة الخلاف حول المكان الأخير للهن رأس الشهيد، انظر ما كتب برونون في كتابه (مكة والدينة)، المجلد ٢، ص ٤٠، (للؤلف).

العديد من الحجاج، كونهم يأتون من مناطق ذات طقس بارد في بلاد فارس، زيارتهم بأن يصلوا إلى سهول بابل في فصل الشتاء لغرض تجنب الحرارة، كما قال لي يوسف أيضاً أن رمضان يعتبر شهراً مزدحماً بالحجاج ويبدو هذا صحيح تماماً، رغم أنه لا يوجد أي سبب لماذا هذا الشهر مفضل في الزيارة أيضاً. يقال أن أعداد الحجاج القادمين بشكل رئيسي من بلاد فارس والهند تصل إلى حوالي مائتي ألف حاج سنوياً، ولأن البفن في أرض كربلاء المقدسة يعتبر ضماناً لدخول الجنة، تجلب عدة مئات من الجثث عن طريق القوافل أو البواخر سنوياً للبفن في هذه البقعة. وخلال زيارتي قادمًا وذهابًا من كربلاء، شاهدت العديد من تلك الأعمال الشنيعة. فقد كان التابوت المخلع المصنوع من الأغصان الصغيرة والمثبت بالعرض على ظهر أحد البغال، منظرًا معتادًا، ولأن هذه التوابيت قد تم جلبها من مسافة مئات الأميال من بلاد فارس والهند، لهذا يفترض دائماً وجود حالة بعيدة عن الشروط الصحية في قوافل الجثث هذه. وفي حالات عديدة، تكون الجثث قد دفنت في محل موتها ويؤجل نقلها لحين توفر الإمكانية للدفن أجور الزيارة والبفن، التي تكون في كربلاء باهضة جداً. وليس ببعيد عن الاحتمال أنه في حالات أخرى حيث يكون الموت حديثاً، فإن الحرارة وجفاف الطقس تجفف الجثث دون أن تتعفن بالشكل الذي يمكن أن تكونه في طقس مختلف. وفي وقت ما في الماضي وضعت السلطات التركية المزيد من المصاعب أمام مرور الجثث عبر بغداد وقد دفع هذا الخلاف الشاه إلى إيقاف حج كربلاء إلى حد بعيد، ونتيجة لذلك، حلت مشهد في بلاد فارس محل كربلاء وخسر الأتراك مصداً كبيراً للثروات لفترة من الوقت. وعلى أية حال، تم إعادة افتتاح الطريق ويأتي الحجاج حالياً بكثرة كما في السابق.

إن التقديس الذي يكنه جميع الكربلايين أو الحجاج والواقع جميع الشيعة لاسم الشهيد الحسين، هو أمر لافت للنظر حقاً. ففي شهر محرم تمثل في بلاد فارس والهند بشكل منتظم المأساة الفاجعة للشهيد الحسين أمام حشود الناس حيث تثير أحزان

المشاهدين لتصل إلى حالة من الأسى العميق^(١). وقد شهدت بنفسها على باخرة في دجلة، رواية للماسة من قبل أحد الكربلايين لجموعة من الحجاج، حيث أثارت مشاعرهم إلى درجة أن جميعهم قد أخذوا ينشجون بالبكاء بحزن صادق.

تعتبر مدينة كربلاء، التي نشأت بهذه الطريقة الغربية، مكاناً مزدهراً. كانت في السابق صحراء لا ماء فيها، وتحولت بفضل قناة تسمى نهر الحسينية المتفرع من الفرات إلى واحة ماهرة حسب تقدير بعض المراجع بحوالي خمسين أو ستين ألف إنسان. يمكن مشاهدة العديد من القوارب على هذه القناة، تنقل بواسطتها كمية من البضائع التجارية، إلا أن الحجاج يستخدمون طرق القوافل، عانت المدينة من نكسه مرة عندما سلبت ونهبت في عام ١٨٠١م، وثبح الكثير من سكانها على يدي سعود بن سعود الزعيم الوهابي. يعتبر الحي القديم من المدينة الذي يقع فيه الضريح صغيراً نسبياً ويقع داخل سور من الآجر مع أبراج مستديرة بين مسافة وأخرى. وقد نمت خارجه ضواحي كبيرة يمكن أن تشاهد فيها شارع أو شارعين من الشوارع الواسعة الجميلة التي تشبه إلى حد ما بعض أحياء الدرجة الثانية في الإسكندرية. يقع في إحدى هذه الضواحي بيت السيد. وكما في المسيب، يصنع الآجر الأخضر في كربلاء، وبعد تجوالنا حول المدينة، زرنا نواباً هندياً هو وكيل دار الإقامة البريطانية في بغداد. استقبلنا بادب، إلا أنه خلق نوعاً من الصدمة في نفوسنا بكونه شخصاً مغروراً ومتكلفاً والذي رغم كونه دون شك شخصاً ذاهلاً، إلا أنه يبدو ثقيل الظل إلى حد كبير. يظهر أن رايه في تأثيث المنزل هي بحشد مصابيح نفطية لا حصر لها في أي فراغ متوفر في كل غرفة، وهو شكل من الزينة لا يلائم أي ذوق. كانت ضيافتنا تتكون من السكاكر والعصير (الشربت) والشاي

(١) انظر كراتون كيري (رحلة عبر تركيا الآسيوية) الملحق سي، ويتضمن ما كتبه السير لويس بيلي حول إحدى هذه التمنهيات في يومي، وكتاب (رحلة من البنغال إلى بلاد فارس) (١٧٨٦-١٧٨٧)، لوليم فرانكلين ونيكرون (مجموعة الرحلات)، عام ١٨١١م، المجلد ٩، ص ٢٣٤، (لؤلؤ).

والتي يقتضي الأدب أن اقبلها جميعها رغم أنني قد عدت أعاني ثانية بقسوة من مرضي.

وفي الليل هبت على المدينة عاصفة مروعة من المطر الذي يصاحبه بشكل متواصل رعد وبرق وساعة بعد أخرى، أخذ الوابل الغزير بالهطول وكان البرق متواصلاً وشديداً بحيث أن بالإمكان مشاهدة أي شيء بوضوح كنهار عبر نوافذ غرفتنا. إضافة إلى هذا، فإن غرفتنا لوحدها كانت تكفي لطرد النوم، فهي مليئة تماماً بعدد لا حصر له من البعوض اللئيم الذي اجتذبتة دماؤنا الأوروبية ويريد أن يتناولها ليلاً. لا اعتقد أن من المبالغة القول أنه لم تمر أي لحظة من الليل دون أن تكون هناك العديد منها على وجهي. وقد مسحت وجهي عبثاً بالليمون حتى أصبحت كعصير ليمون حي، ودفنت رأسي عبثاً تحت غطية معينة، من أجل الحصول على قسط من النوم المختنق. إلا أن النوم لم ياتي وقضيت معظم الليل ادعك وجهي والعن سي الذي ضم رأسه في شبكة ضد البعوض من اختراع أحد الأشخاص ونام وغط بطريقة هائئة مثيرة للأعصاب وشعرت أنني سوف لن اغفر له ذلك وساعة بعد أخرى، أخذ جرس ساعة برج مشهد الحسين يدق ليعلن المراء يعتقد أنه لولا الطنين المتواصل للأعداد الهائلة من البعوض الذي لا يهجع أنه في مدينة ريفية إنكليزية وليس في كربلاء المقدسة.

وقد حصل حادث بغيض إبان ما كنا على وشك المغادرة في صباح اليوم التالي. فقد جاء يوسف الذي أعطيناه مبلغاً معيناً من المال لإعطائه إلى خدام السيد، وهو يقول أن المال قد سرق من حبيبه أثناء نومه، وأنه يتهم أحد الخدم، الذي يبدو عليه عدم الأمانة، بالسرقة. قال يوسف، إن هذا الرجل قد ضايقه بشكل متكرر في اليوم الماضي طالباً منه البقشيش وأوضح أنه متوحش جشع لا يترد عن فعل أي شيء. قلنا ليوسف أنه ليس لديه أدنى دليل على ذنب الرجل وطالما أنه قد ضيع المال، فإنه يتحمل الخسارة

وحده وامرناه ان يسلم الرجل الهدية المخصصة له وبحضورنا. وقد رفض الخادم، الذي شتمه يوسف، قبول الهدية، إلا إذا سلمت إليه من قبلنا شخصياً. من المستحيل علينا القول بناءً على الدليل المتوفر إن كان يوسف يكذب أم أن الرجل كان منذباً. ومع الكثير من الأسف وبسبب دمدمية يوسف المتواصلة، وصلت القضية إلى اسماع السيد الذي جاء لوداعنا وأراد إعادة المال والبقيشيش إلينا. كل ما استطعنا فعله هو التأكيد له بأننا لم نصدق قيد أنملة بالسرقه، وأن الأمر قد حدث إما بسبب الخطأ أو عدم الأمانة من جانب يوسف نفسه. ولكن طالما أن كل شيء تقريباً تتم ترجمته من خلال يوسف من الصعوبة القول ماذا فهم السيد. وقد احتج يوسف، بسبب وصوله إلى حالة من اليأس من غضبنا، بأنه قد أخبر المضيف بأنه نفسه "كذاب أفاك" وأن المال موجود في الواقع بأمان في جيبه. إلا أننا استطعنا أن نرى من خلال تعابير وجه السيد أنه قد انزعج. على أية حال ليس هناك شيئاً آخر يمكن عمله، غادرنا كربلاء عبر وحل بعمق ست إنجات. وبعد أن انعطفنا إلى ناحية معينة، زلق حصان سي، وسقط على الأرض وغطته الأوحال، إلا أنه لحسن الحظ لم يصبه أي أذى. وفي الحال كان السيد على حصانه بأقرب منه وهو يساعده على النهوض ويزيل الوحل عنه. وعندما افترقنا بعد وقت قصير أردت أن أقدم له هدية هي غمد سكينتي، وهو الشيء الوحيد الذي يستحق الإهداء، إلا أنه كما يقول لا يقبل أخذ أي شيء من المسافرين الذين قد يحتاجون لثل هذه الأشياء في الطريق. وقال أنه سيقبل بسرور أي شيء قد أرسله من إنكلترا. وقد شعرت حقاً بالأسف الحقيقي لوداعنا هذا الرجل الممتع الذي كان لطفه وكرمه معنا غير محدود تماماً. تبادلنا العناوين، وتصافحنا بحرارة، ثم افترقنا.

انطلقنا الآن في الوقت المناسب في رحلة العودة. والواقع أنني أشعر في هذه اللحظة أنني متجه نحو المنزل. فالأرض الصحراوية التي نسير عليها والتي كانت جافة وبابسة في اليوم الماضي مليئة الآن بالوحل وبرك الماء الكبيرة. كان النهار جميلاً، وقد أصبح أثناء ارتفاع الشمس حاراً ثقيل الوطأة. اجتزنا عدة قوافل تحمل جثثاً ومخيماً صغيراً

لعرّب فقراء وعند حوالي الساعة الحادية عشرة توقفنا لتناول الغداء بالقرب من قبيلة عربية كبيرة تدعى سعود، وهي قبيلة تغلق مساحة قليلة من الأرض وتربي قطعانا كبيرة من الأغنام. وبعد الظهر بقليل وصلنا المسيب التي كانت في هذا الوقت من النهار خالية من السكان تقريبا، وهنا حصلت لنا مشاجرة مع المكاري الكبير السن الذي كان يريد التوقف وقضاء الليل هنا وبذلك يجعل رحلة العودة إلى بغداد تستغرق ثلاثة أيام. اخذنا نصراً على أية حال على مواصلة السير، وبعد استراحة لمدة ساعة امرنا يوسف بأن يسرج الخيول ثم غادرنا المدينة، أصبحت حرارة الطقس الآن منهكة جداً، ورغم رؤيتنا لخان الإسكندرية حيث من المقرر أن نمضي الليل فيه، وكان يبعد في الظاهر مسافة مسير نصف ساعة، إلا أن وصولنا له استغرق منا مسير ساعتين وربع. كم كان المنظر خادعاً على هذه السهول المستوية الفسيحة بحيث أن المسافر يقع باستمرار ضحية هذا الخداع في قضايا من هذا القبيل. كانت أشعة الشمس اللاهبة تنصب فوق رؤوسنا وهي تخترقنا كما لو أنها سكين بينما كانت مجموعتنا تسير ببطء وإنهاك على طول الطريق. كنا نجلس أو نتدلى فوق سروجنا ونحن مصابون بالإعياء الشديد بحيث لا نستطيع الكلام بفعل الحرارة وكنا أشبه بالواح خشبية منه بكاننات بشرية. كانت البلاد الواقعة بين المسيب والإسكندرية عبارة عن سهل موحد أما قرب المكان الأخير فتصبح الأرض حصائياً. وعند الساعة الرابعة دخلنا إلى القرية الصغيرة ونصبنا خيمتنا مقابل مقهى على بُعد مسافة قصيرة من الخان نفسه.

استأنفنا مسيرنا في صباح اليوم التالي عند الساعة الخامسة والنصف. وبعد مسير حوالي نصف ساعة، رأينا على مسافة بعيدة إلى اليمين نقطة في الأفق يقول يوسف أنها طيسفون. ربما يكون ذلك صحيحاً، إلا أن آثارها لا بد أن تبعد عنا مسافة حوالي سبعة

عشر إلى ثمانية عشر ميلاً^(١) وقد ظهرت على الطريق بعد ذلك مباشرة مجموعة من التركمان وهم يرتدون قلنسوات غريبة الشكل من فرو الحملات. قالوا انهم من منطقة قرب تيريز. بعد ذلك جلب انتباهنا عمود من الدخان ارتفع على مسافة بعيدة نحو اليسار ويبدو وكأنه باخرة في نهر الفرات، إلا أنه ربما يكون من فعل مضمري القير.

عندما أصبحنا على مقربة من بغداد، سمعنا أن مياه النهر قد ارتفعت كثيراً خلال الأيام القليلة الماضية بحيث أن جسر دجلة قد قطع. والواقع أنه قد جرى تحذيرنا أنه إذا لم نسرع، فإننا سنفقد جسر خان الخر كونه من المحتمل أن ينقطع في أي وقت. لهذا عدونا إلى الأمام، ووجدنا جميع مجاري مياه الري التي اجتازناها قد انفجرت جوانبها وجرفت الطريق. وفي أحد الأماكن التقينا بامرأة تنوح حول فتاة صغيرة مبيتة انجرفت إلى قناة فياضة وغرقت. كان اثنين ونشيج هذه الخلوقة المسكينة يبعث الكثير من الألم لسماعه، إلا أننا لا نستطيع تقديم أي مساعدة، وبعد إسرعنا قدماً عبر الجسر ووصلنا بغداد عند الساعة الثانية.

انتهت رحلتي الآن إلى حد ما. فقد رأيت حلب وبغداد وبابل، وهي المهام الثلاثة التي كرس نفسي لها خلال تلك الفترة، وكل ما تبقى لدي الآن هو العودة إلى الوطن باكبر قدر ممكن من الراحة. لم تحسن ساعات الإجهاد الطويلة تحت الشمس اللاهبة من حالتي الصحية، وعند عودتي إلى بغداد شعرت أنني عاجز عن القيام بمسير برّي آخر نحو البحر المتوسط. إضافة إلى هذا، كنت تواقاً لمشاهدة دجلة الأدنى والخليج

(١) يصف لاهارد في كتابه (نينوى وبابل) عام ١٨٨٢م، ص ٢٢٨، عند مسيره بين الإسكندرية وبغداد أنه يرى طيسفون تحت تأثير السراب ويستطيع التمييز بوضوح بين الأواوين للقطرة والأعمدة وكتل المباني. وسواء ابتعد كثيراً إلى الشرق عن طريق القافلة أو أن السراب قد ضخّم هذا الأمر، إلا أنه تبقى للسافة بين هذا الطريق والأثر بعيدة جداً مما يصعب رؤية الأخير كما سبق أن ذكرنا، (للؤلف).

العربي وطالما أنه بالإمكان القيام بذلك على ظهر بواخر ووسط وسائل الراحة الأوروبية، قررت أن أشق طريقي إلى الوطن عن طريق بومبي.

كان وصولنا إلى بغداد في يوم ١٢ مارس، وفي نفس فترة بعد الظهر استدعت الكاري الكبير السن لأدفع له أجره عن حيواناته. لقد أساء السلوك طيلة فترة الرحلة، لهذا قررنا أن نعرب له عن استهجاننا لسلوكه بعدم إعطائه أي هدية رغم أن الكاري الشاب الذي رافقه سيستلم البقشيش المعتاد. وعندما وصل هذا الخبر إليه، أصبح الوغد في غاية العنف والبناءء ورفض استلام أجوره عن الحيوانات وفارقنا بغضب، محدثا ضجة كبيرة في فناء دار الإقامة عند مغادرته. وضعنا المال جانبا، وفي الصباح التالي، جاء الكاري الشاب وتمت تسوية الموضوع.

وعند عودتي مباشرة، بدأت أستفسر عن الباخرة التالية التي ستغادر إلى البصرة. حيث أمل أن أجد هناك باخرة تقلني إلى إنكلترا. من المقرر أن تغادر إحدى هذه البواخر في الرابع عشر من الشهر، ولكن نتيجة كون الوقت هو رمضان، فلم تنجز سوى القليل من الأعمال في دائرة الجمارك ورصيف التحميل، وأبلغت بأن الباخرة لن تغادر إلا في أحد أيام الأسبوع القادم، إذ أنه يجب تفريغها، وتلك عملية بطيئة كأي شيء آخر في شهر رمضان. وتحت مثل هذه الظروف كنت أود أن استغل وقتي في القيام بنزهة إلى آثار طيسفون وتلال سلوقية، إلا أنني أشعر أنني ضعيف للغاية للقيام بها بسبب سوء حالتي الصحية المستمر. إضافة إلى هذا، أبلغت أن الباخرة النهرية ستمر بالقرب من هذه الآثار، وسيمنح المسافرون وقتا كافيا لزيارة طوق طيسفون العظيم، لهذا كنت أمل أن أشاهده بتلك الطريقة. كما أن الحرارة أخذت تشتد هذه الأيام بحيث أن القيام بأي فعل تحت الشمس بين الساعة العاشرة والرابعة سيكون مثيرا للإعياء الشديد، لهذا قررت أن أمضي اليومين أو الثلاثة قبل صعود الباخرة بهدوء وسلام.

وصل النهر الآن إلى ارتفاع أخذ يهدد حديقة دار الإقامة بالفيضان. كما امتلأ الطريق الطويل الممتد من بغداد نحو الجنوب برك واسعة من الماء الراكد الذي بدأ تحت مثل هذه الحرارة يبعث رائحة بخار كريهة، من المحتمل جدًا أن تولد مع البساتين المحيطة للغمورة بالمياه الحمى والمalaria من البخار المتعفن. وقد كانت هناك علامات واضحة تشهد أن الحرارة العالية أخذت تؤثر على الصيام من المؤمنين في بغداد، فهناك صفوف طويلة من الدكاكين المغلقة في الأسواق، والنشاط المتزايد في أوقات المساء، كل ذلك يبين أن بغداد تجد العمل تحت هذه الظروف أمرًا شاقًا.

وفي أحد الأيام وبينما كنت أتمشى في السوق، قابلت أحد أصدقائي في حلب، إنه الطبيب اليوناني الذي سار في أعقابنا أسفل الفرات إلى بغداد. أبلغني أن هناك قبيلة عربية تستوطن ضفتي النهر بين بغداد والبصرة، في حالة ثورة حاليًا وتطلق النار على البواخر. وقال أن بعض هذه البواخر التابعة إلى الشركة التركية، قد عادت وأن النقل النهري حاليًا في توقف تام. رغم أنني لم أصدق الكثير من هذا، إلا أنني عند الاستفسار قد وجدت شيئًا من الصحة في هذا رغم أنه لم تتعرض البواخر الإنكليزية حتى الآن لأي أذى. وقد علمت في الآخر أن باخرتي ستغادر في يوم ١٩ من الشهر، لهذا رتبت أمتعتي وأعطيت يوسف أواني وقودوري وبنطال ركوب قديم كان قصيرًا عليه، إذ لا يبلغ طوله عليه أكثر من ست إنجات، استدعيت حلاقًا من بغداد لقص شعري. كنت افترض أن هذا الحلاق الكفاء الذي حضر وبيده الطست المألوف وديزينة من الأمواس والمقصات هو سليل الحلاق الأصلي في ألف ليلة وليلة، إلا أنني شعرت براحة كبيرة عندما وجدت أنه لم يجرعني حكاياته الساذجة ومعضلاته التنجيمية، على العكس من ذلك، فقد قص شعري جيدًا وباناقة، واستلم أجوره، وغادر برزانة جديرة بالشناء تبين أن سلالة الحلاقين قد تحسنت كثيرًا في بغداد. وفي نفس اليوم شاهدت على ضفة دجلة أحلب البصرة، الذي نعرف أن ميزته في كتاب الحكايا القديم المتع ذلك هي

"إنارة الضحك لدى الغاضب وتبديد القلق والأسى". لا أستطيع القول إن ذلك الفتى الصغير المسكين الذي خرج من منزله للتجوال، قد أثار في نوعاً من هذه المشاعر. إنه مخلوق صغير غريب، رأسه في صدره مع سيقان قصيرة معوجة بطول قدم واحد تخرج من جسده، ويبدو من ملبسه أنه رجل ذو مكانة.

وفي ليلة ١٩ من الشهر، صعدنا ظهر الباخرة، حيث سبق أن أرسلنا امتعتنا الثقيلة مع قدر كبير من البقشيش لإخراجها سليمة من دائرة الجمارك.

✱

✱

✱

الفصل الخامس عشر

من بغداد إلى البصرة

النقل اللجاري في دجلة - باخرة نهرية - البحارة الكلدان - دليل الرحلة - مفادرة بغداد - طيسفون - القبائل العربية - نذرة الناقلات - العرب ضحايا الفيضان - العمارة - الطابنة - مناظر ظهر المركب - ثورة الشيخ سعود بن منشد - ضريح عزرا - دهر ماه - القرنة - شط العرب - ميناء البصرة - زيارة المدينة - هروب السجناء - ملاحظات لاريفية - الحالة الصحية في البصرة

لا يرجع تاريخ النقل البخاري عبر دجلة وشط العرب إلى ماضٍ بعيد. هناك في الوقت الحاضر خطان للملاحة النهرية بين البصرة وبغداد، وهما خط ناقلات تركية وآخر إنكليزي. في الخط التركي هناك سبع بواخر وقد دشن هذا المشروع مدحت باشا. وبالطبع يتجنب الأوروبيون ركوب هذه الناقلات كونها صغيرة ووسائل الراحة فيها سيئة وعليك أن تجلب طعامك الخاص معك. بدأ الخط الإنكليزي قبل ثلاثين سنة بواسطة الشركة المقدمة لنج (Lynch & a) وتقدم خدمة نهرية جيدة. عدد باواخرها ثلاثة فقط هي الجديدة، والخليفة وبلوس لنج وهي أكبر وأقوى وأفضل من البواخر التركية.

تتميز هذه البواخر بكونها ذات صناعة متينة، فهي لا تسحب سوى القليل من الماء، إلا أنها واسعة إلى حد كبير. يرتفع فوق الظهر الرئيسي للمباخرة والذي يمتد فوق

مستوى الماء بقليل سلسلة طويلة من الغرف، وتبلغ ثلثي طول المركب ويمثل سطحها منصة عالية كبيرة يشغلها بشكل عام المسافرين. تكون وسائل الراحة في المقدمة، وهي تتكون في باخرة الجديدة من عدة غرف مريحة تتسع لشخص واحد مع صالة صغيرة ومريحة للطعام. تستطيع الجديدة حمل ستمائة راكب على ظهرها واعتقد أن باخرة بلوس لنج تتسع لعدد أكبر.

يقود هذه البواخر مسيحيون كلدان من قرى بالقرب من الموصل. وهم رجال طوال يتسمون بالوسامة وتحسبهم من وجوههم أنهم أوروبيون أكثر منهم شريقون. من المتع مشاهدة هؤلاء الرجال أثناء العمل. فهم يعملون كرجال وليس لديهم تلك النزعة المخادعة الدينية المعتادة لدى المسيحيين الشرقيين. ورغم ملامحهم الجميلة التي تدل على الشرف واجسادهم الرجولية، أخبرني أحد موظفي الباخرة بأنهم رقيقون ولا يقدرزون تمامًا قوتهم. والأمر متروك لهم، إذ ربما تكون هذه العماليق المترامية لا تصلح للعراك وربما تعمل بالمثل القائل: "القتال الحقيقي هو الهروب". يتكون زيههم من سرة طويلة زرقاء وعمائهم بيضاء لا تميزهم عن المسلمين ولغتهم هي العربية. تعتبر الملاحه في النهر عملية ليست سهلة، وعندما تكون مياه النهر منخفضة، تصطدم البواخر أحيانًا بضفاف النهر الطينية. وهناك بعض الانعطافات التي يجب الاستدارة فيها حادة جدًا وعند السير باتجاه التيار وقت الفيضان، من الضروري القيادة بحذر شديد. يحملون معهم بالطبع دائمًا دليلاً محليًا. من الطبيعي أن هناك فرق كبير في الوقت الذي تستغرقه الرحلات الصاعدة أو النازلة. تستغرق الرحلة من البصرة إلى بغداد كحد أدنى حوالي ثلاثة أيام ونصف، رغم أنها بشكل عام تستغرق وقتًا أطول، وأحيانًا وعندما يكون التيار قويًا فإنها تستغرق أسبوعًا كاملاً. الحد الأدنى الذي تستغرقه الرحلة باتجاه البحر هو يومان، رغم أنها تتطلب بشكل عام حتى عند أوقات الفيضان ست أو عشرة ساعات إضافية. وقد دوّنت الملاحظات التالي في صالة الجديدة:

اسم المكان على النهر	معدل زمن فواصل السير النهري				شرح وتوضيح للأماكن على نهر دجلة
	النازل مع النهر		الصاعد مع النهر		
	دقيقة	ساعة	دقيقة	ساعة	
البصرة	٣٠	٤			خط عرض ٣٠° ٩' شمالاً
القرنة	٠	٣	٣٠	٥	التقاء نهري الفرات ودجلة ويفترض أنها جينة عدن.
ضريح عزرا	٤٠	٤	١٥	٤	عزرا الكاتب، مكان يهودي مقدس للحج. قبة خضراء على الضفة الغربية من النهر.
أبو سدره	١٠	١	٣٠	٩	بستان صغير لشجر الحور بالقرب من النهر مع ضريح لقديس عربي داخل كوخ من القصب على الضفة الغربية.
العمارة	١٥	٤		٢	قرية تأسست في عام ١٨٦١م، فيها مستودع للقمح لبواخر الشركة على الضفة الشرقية من النهر.
علي الشرجي	٠	٤	١٥	٦	بستان لشجر الحور العالي على الضفة الشرقية وداخله ضريح لقديس عربي.
علي الغربي	١٠	٣	٤٥	٥	قرية صغيرة على الضفة الغربية، سميت على اسم ضريح لقديس عربي أسفل القرية.
شيخ سعد	٣٠	٤	٠	٥	قرية صغيرة على الضفة الغربية سميت على اسم شيخ عربي سابق.
كوت الإمارة	٣٠	٤	٠	٦	قرية على الضفة الشرقية، فيها مستودع للقمح لبواخر الشركة.
البغلة	٠	٥	٠	٧	قرية على الضفة الغربية، من أملاك السلطان تأسست عام ١٨٨٥م.
العزيزية	٤٥	١	٠	٩	قرية صغيرة ذات بيوت طينية على الضفة الشرقية.
البغدادية		٤	٤٥	٣	حصن طيني قديم على تل على الضفة الغربية بناها شيخ زبيد لجباية الإتاوات من القوارب المحلية.
بستان الكسرة	٣٠	٢	٣٠	٦	تلال أثرية، أثار مدينة طيسفون الفارسية القديمة.
نهر دبال	٥٠	١	٠	٥	يصب في دجلة وينبع من تلال لورستان الفارسية.
بغداد			١٥	٣	خط عرض ٣٥° ٥' شمالاً.

زمن الإبحار الصاعد ٤٥ ٧٨، زمن الإبحار النازل ١٠ ٤٧.

ولغرض المقارنة أود أن أذكر أن رحلة الإبحار نزولاً مع النهر تستغرق من سبعة إلى خمسة عشر يوماً بينما يستغرق الإبحار الصاعد دائماً أكثر من شهر.

وقبل مغادرتنا بغداد في صباح اليوم التالي، تركنا رصيف الميناء على الضفة الشرقية وعبرنا إلى الجانب المقابل من النهر. هنا كان مظهر ضفة النهر أفضل نوعاً ما. رسى على الساحل بسرعة واحد أو اثنان من القوارب الضخمة المسماة (البغلة). وكانت تطفو في النهر قوارب الضفة وزوارق طويلة كالأفعى. تعتبر البغلة أكبر صناعة بحرية محلية في الخليج العربي والبحر العربي. إنها مراكب بحرية ممتازة، تختلف كثيراً من حيث الحجم، إلا أنها مصنوعة على نموذج واحد. مقدمتها ومؤخرتها مرتفعة جداً عن الماء في حين تكون منخفضة تماماً في الوسط. توجد حجرة في مؤخرتها مصبوعة بشكل عام باللون زاهية بينما يميل الصاري الكبير إلى الأمام بطريقة غريبة تماماً. تأتي هذه المراكب أحياناً من زنجبار إلى بغداد. اعتقد أنه ليس من السهل تغيير اتجاهها ويجري الإبحار بها بشكل رئيسي بمحاذاة الساحل وبالقرب من اليابسة.

غادرنا عند الظهيرة، وسرعان ما خرجنا من بساتين النخيل ومقاهي بغداد المبنية من الآجر الطيني. وبينما كنت اجلس مستكيناً في كرسي مريح على المنصة السفلى وتحت ظلال سمكة من الباخرة، لم أستطع أن اغالب التفكير في الفرق الشاسع بين هذا الأسلوب من السفر والأسلوب الذي مارسته خلال الشهر الأخير. كم تختلف وسائل الرفاهية والسرعة للسفن البخارية النهرية الإنكليزية المريحة، مع الساعات المضنية من الارتجاج عبر الصحراء تحت الشمس الحادة وعلى حصان مسكين أو في الفسحة المحدودة من التخت الذي سافرت فيه. حيث يبدو أننا نطير بسرعة البرق أمام الشجيرات وبساتين النخيل والقرى المبنية من القصب وأمام السهل ذي السراب ومخيمات

البدو البسيطة. والآن نسير قرب الضفة حيث ترتطم المياه الخلفية للباخرة بقوة بها، ثم تندفع قدمًا وسط النهر، وتستدير مع انعطافته ونحرك باضطراب بمجاديفنا مياه دجلة العكرة. وبعد الساعة الواحدة بقليل، عبرنا جسرًا مفتوحًا يدعى جسر جرارة الذي يترجل فيه أحيانًا بعض الركاب المتجهين إلى بغداد ويتمشون نحو المدينة، لأن هناك انعطافة كبيرة بين هذا المكان وبغداد وتسير الباخرة عكس تيار سريع وبذلك يتم اختصار وقت الرحلة. تسير البواخر نزولاً مع التيار في هذا الوقت من السنة أحد عشر ميلًا بحريًا في الساعة، وبعد أميال قليلة اجتزنا مصب نهر دىالى المجسر بجسر من القوارب.

وبعد ساعة كنا قبالة طيسفون، ولخيبة أمني الشديدة رفض الموظف المسؤول عن قيادة الباخرة السماح لنا بالنزول والسير عبر الانعطافة وبذلك نستطيع ان نلقي نظرة عن قرب على هذا الأثر العجيب. ولأن طيسفون تقع داخل حلقة مستديرة من النهر، فإن الباخرة تقوم بعد مرورها بالقرب من جانبها الغربي، باستدارة كبيرة ثم تقطع ميلين منها إلى الشرق، وهذا يجري باستمرار، حيث يستغرق ذلك ساعة كاملة للباخرة لكي تستدير في رحلة النزول ووقتًا أكبر في رحلة الصعود. لسوء الحظ، كان ربان الباخرة مريضًا في بغداد وكان الموظف الأول المزود بصلاحيات قليلة لا يرى أن من ضمن صلاحياته توفير هذه المتعة لنا ونتيجة لذلك، كان علينا ان نقنع أنفسنا بالنظر على قدر ما نستطيع من فوق ظهر الباخرة.

يظهر طاق كسرى أو بشكل صحيح تخت خسرو أي عرش خسرو من النهر أيضا، وهو يبدو بحالته المتهدمة الحالية أثرًا عجيبًا. كانت النظرة الأولى التي ألقيناها عليه من الناحية القريبة يظهر وكأنه قلعة نورماندية كبيرة يعلوها قوس هائل. ونرى حول هذا القعر النيف للإمبراطورية الفارسية القديمة، المجمعات السكنية

الصغيرة للمواطنين العرب. قبل وصولنا إلى هذا المكان بقليل مررنا على الضفة الغربية بتل أو استحكام من التراب محرز من جوانبه بفعل مياه النهر، كان هذا هو كل ما تبقى من سلوقية المدينة اللقدونية التي قامت على أنقاض بابل والتي أصبحت فيما بعد تعرف مع طيسفون باسم (الدائن)، أي المدينتين. وبعد ساعة كنا مقابل الجبهة الشرقية من التخت، ورغم بعدها الكبير عنا، إلا أننا نستطيع تمييز بوضوح صفوف الأواوين في الجدران والأعمدة التي تزيد واجهة المبنى من هذا الجانب. كانت الواجهة الأخرى التي توازن للمبنى في الجانب المقابل للقوس الكبير قد سقطت في السنين القليلة الماضية ويقال أن باقي الأثر قد يسقط في أي وقت. ولم يكف أحد باشوات بغداد للتنويرين عن تدميره إلا باحتجاجات القناصل الأوروبيين لدى الحكومة العثمانية، ولكن طالما تستمر عملية السرقة بشكل عام للأجر من الأجزاء السفلى للأسوار، فقد يرى الرحالة المحب للآثار الذي ينظر بشغف نحوها من ظهر المركب في أي وقت تلاً من الأنقاض كالتلال الموجودة على الضفة الأخرى بدلاً من أن يشاهد قوساً مهيباً وجليلاً.

إن الأراضي المقفرة على جانبي دجلة بين بغداد والبصرة، تامة الإقفار كالأراضي الواقعة على الفرات شمال الدير، هناك بين مسافة وأخرى قرى أو مجمعات من صرائف العرب ولكن ليس هناك على طول الطريق مكاناً يمكن أن نطلق عليه اسم مدينة عدا (العمارة)، وهناك قريتان أو ثلاثة من القرى الكبيرة المؤهلة لوقوف الباخرة فيها، توجد بقع من الأراضي المزروعة هنا وهناك، ولكن يبدو من الواضح أن أصحاب هذه الأراضي لا يهتمون بها. لا تشاهد جنوب طيسفون أي شجيرات كثيفة كالمنتشرة على الفرات، ويبدو أن انعدام وجودها قد جاء بسبب استخدامها كوقود للبواخر. قبل أن تختفي هذه، كانت هناك أسود يجري صيدها في الغابة، إلا أنه يظهر الآن أنها قد اختفت تماماً رغم أنها لا تزال موجودة على بعض السنة نهر الكارون،

توجد أيضا بأعداد كبيرة الخزائير البرية وطيور البجع، وصيد الأخيرة أحيانا من فوق ظهر الباخرة.

ينتمي السكان العرب القاطنين على ضفتي دجلة إما إلى قبيلة زبيد وقبائل المنتفق الكبيرة على الضفة اليمنى أو إلى قبائل بني لام والبو محمد على الضفة اليسرى. إنها جميعا قبائل بدوية تعيش حياة الرعي وتعود القرى التي نشاهدها مع قطع الأراضي الزراعية إلى بطون صغيرة من هذه القبائل التي جذبتها الحياة الزراعية. إلا أنه يبدو بشكل عام أن هذه التجارب لم تثمر سوى القليل، ومن المحتمل أن العديد من هؤلاء العرب قد ارتدوا إلى حالة تواجدهم القديم. وقد شاهدنا في القرى من على ظهر الباخرة جواميس وابقار ومعز واغنام بأعداد كبيرة ولكن قلما شاهدنا أي جمال. يسكن بعض أفراد قبيلة البومحمد، الذين سأتحدث المزيد عنهم في محل آخر، براري الأهوار الممتدة لأميال شمال القرية.

السمة الأخرى لهذا النهر العظيم هي الندرة غير الطبيعية لوسائل النقل بواسطته، إذ يمر بين فينة وأخرى مركب أخرق ذو شراع رباعي محملاً بالخطب يجره على طول ضفة النهر حشد من العرب العراة وهم يغنون ولم أشاهد لساعات إن لم أقل لأيام أي شكل من أشكال النقل النهري. من المؤكد أن النهر كان إبان مروري به في حالة استثنائية، إلا أنها ليست فريدة وذلك بسبب ثورة العرب في الجنوب وتوقف النقل الناتج عن ذلك، إلا أنه في الظروف الاعتيادية يعتبر النقل النهري محدوداً ويتم بشكل ضئيل جداً. يقول السيد كيري، وهو يسرد تجاربه عند سلوكه نفس الطريق في عام ١٨٧٨م، أنه لم يشاهد سوى باخرتين صغيرتين فقط وعند لا حصر له من قوارب البغلة غير الكبيرة الحجم. عندما ينظر المرء إلى ماذا يمكن أن يكونه هذا الممر المائي

العظيم الممتد من الخليج العربي إلى جبال أرمينيا، يبرز بشكل واضح أكثر من أي حالة أخرى العجز التام للحكم التركي.

كانت قبيلة زبيد في السابق جماعة قوية وكثيرة العدد، إلا أنها الآن في حالة ضعيفة، وممزقة. لقد حصل هارون الرشيد على زوجته الجميلة زبيدة من هذه القبيلة^(١). في مساء اليوم الأول اجتزنا القرية الطينية الحديثة المسماة الجزيرة التي يقطنها هؤلاء القوم وبعد ذلك مررنا بقلعة تدعى البغدادية بناها أحد شيوخهم السابقين بهدف اعتراض وجباية الأتاوات على النقل النهري. دخلنا الأهوار عند أول فترة بعد الظهر بعد مغادرتنا بغداد. ومن خلال الضجة اللامتناهية للضفادع عندما ذهبنا للنوم عند الساعة العاشرة، يظهر أننا كنا لا نزال نسير بجانب الأهوار. يعتبر البعوض في هذه الأهوار مثيراً للإزعاج للغاية، ولاحظت أن النجاسة الاعتيادية تلسع لسعة مؤلمة وحادة رغم أنها لا تخلف أي ورم.

في الليل توقفنا في كوت الإمارة، وعندما استيقظنا في الصباح كنا ننزع قداماً بمواجهة نسيم امامي خفيف وعلى جانبينا سهل فسيح معشوشب واخضر. وبعيداً على اليسار نستطيع تمييز جبال حميرين وهي سلسلة جبلية تفصل لورستان الفارسية عن الأراضي التركية والتي تقع خلفاً مدينة دسفل.

وعند حوالي الساعة العاشرة والنصف اجتزنا على الغربي وهي قرية طينية بانسة على الضفة الغربية من النهر. يقطن العرب كلا جانبي النهر، فالذين على الجانب الشرقي هم من بني لام بنيت مجتمعاتهم السكنية بمزيج من الحصران والقصب

(١) ربما استنتج المؤلف ذلك من خلال تشابه الأسماء، إلا أن الصحيح هو أن زبيدة هي ابنة جعفر بن النصور وزوجها هو هارون بن المهدي بن النصور فهي ابنة عمه، لذا فهي هاشمية قرشية وليست من قبيلة زبيد اليمانية القحطانية للعروفة، (لترجم).

والطين (صرائف)^(١). ويقال ان هؤلاء الناس يتبادلون الزواج مع الأكراد، وهم يتحدثون اللغتين. يرتدي الأطفال الذين نراهم على الضفاف ملابس ذات لون احمر بدلاً من اللون الأزرق الذي يميز العرب بشكل دائم. وقد قابلنا في أحد الأماكن حشدًا كبيرًا من هؤلاء الناس يقفون عراة تمامًا على بقعة من اليابسة تحيط بها المياه. كانوا يحملون راية خضراء ويومنون وينادون على الباخرة. وقد علمت من أحد أفراد الطاقم ان هذه المخلوقات المسكينة تعاني من كارثة كبيرة بسبب فيضان النهر الذي اكتسح أحد السدود وأغرق قريتهم ودمر كل محاصيلهم. وفي مجمع سكني كبير آخر إلى الأمام، من السهولة مشاهدة كيف أن مستوى النهر أعلى من مستوى اليابسة التي يجري فيها، لهذا لا تنفع السدود المدمرة سوى لتراجع الأهالي والوقوف عليها بنفس الطريقة.

وفي المساء وجدنا انفسنا نبحر بين ضفتين تحيطهما بساتين فاكهة نخيل مسورة بسور طيني. تشاهد أيضًا قوارب غريبة الشكل طويلة بشكل مفرط وضيقة إلى حد ضئيل وهي تسير عكس اتجاه التيار. تسمى هذه القوارب البلام وهي القوارب الممتعة في دجلة الأدنى وشط العرب. وبعد ذلك بقليل، وصلنا إلى العمارة، حيث أخذنا نتمايل تجاهها وسط النهر كي ننزل سريعًا إلى الرصيف بينما كان أنف الباخرة مرتفعًا في الماء رغم أنني لم أستطع إقناع أي من زملائي الركاب لمرافقتي، إلا أنني في الحال نزلت إلى الساحل كي أروض ساقبي والقي نظرة على المكان. تعتبر العمارة مدينة كبيرة بعدد سكان يبلغ حوالي خمسة آلاف شخص، من بينهم عدد لا بأس به من اليهود، إلا أن هناك عدد قليل من المسيحيين. في المدينة والي وهناك ثكنات بقم فيها فوج تركي واحد. وهناك بعض البيوت الجميلة والنظيفة على جبهة النهر. ويكمل جاذبية المدينة جسر من القوارب، ودائرة تلغراف، وسوق واسع متعدد البضائع.

(١) بنيت بعض مجمعات الحصان هذه في وادي دجلة الأدنى بانتظام عالي وكانه مخيم عسكري تمامًا. (المؤلف).

في العمارة هناك نهر يصب في دجلة من ناحية الشرق، يعتبر اسمه إلى حد ما مشكوكاً فيه. يشير كبرت إلى أن هذا هو نهر الطيب الذي ينبع من جبل حميرين، وتشير خرائط أخرى إلى نفس الأمر. إلا أن السيد يوسف الموظف في المجيدية قد أبلغني أن هذا غير صحيح، وأن هذا هو المصب الشمالي لقناة أو ماء مرتد خارج من مجموعة الأهوار العظيمة يسمى الصامدة أو سامرغا والذي يمتد إلى هور الحويزة داخل العمق الفارسي. يسمى النهر الشط أو سد الخد. أكد لي يوسف أنه يمكن الوصول إلى الحويزة من العمارة بواسطة القوارب بعد قطع هذه الأهوار الشاسعة. يبدو أن حقيقة الأمر هي أن هذا هو أحد مصبات نهر الكرخة الفارسي الذي تنتشر مياهه بعد مرورها بالحويزة على مجموعات واسعة من الأهوار بعدها يلقي الخد مياهه في العمارة، ومصب آخر إلى الجنوب في العزير أو ضريح عزرا وواحد أو أكثر على بُعد ستين ميلاً إلى الجنوب وبالقرب من التقاء دجلة والفرات. ويبدو أن الطيب يصب في الخد ليس بالقرب من دجلة بل أبعد قليلاً إلى الشرق في المنطقة القريبة من الأهوار.

تجري صناعة البلام التي سبق أن تحدثت عنها ورايتها هنا بل وحتى في البصرة من خشب الصاج المستورد من ساحل مالابار، يثبت الخشب بمسامير حديدية ويطلق القارب كله بالقار. يمكن أن يقود البلم متوسط الحجم رجل واحد فقط يجلس في مؤخرته ويبيده مجذاف عريض الطرف.

في العمارة، والواقع كما في العديد من مدن دجلة الأدنى، هناك عدد كبير من الناس الذين يسمون الصابئة، الذين يدعون انحذارهم من الكلدان القدماء وينظرون إلى القديس يوحنا العمدان بتبجيل خاص^(١). تختلف سماتهم الجسمية، كما أراها على أية

(١) لزيد من المعلومات عن الصابئة ومعتقداتهم وخصوصياتهم، انظر إينسورث، مسرد شخصي عن بعثة وادي الفرات، عام ١٨٨٨م، المجلد II، ص ٤٢، (المؤلف).

حال، عن العرب أو الفرس، رغم أنه لا يميزهم شيء خاص في زيهم، حيث كما رأيتهم لهم لحى داكنة وعيون جميلة، وفي الوقت الذي بدت فيه المجيدة بالرحيل، كان هناك رجل صابني، يظهر أنه شخصية ذات شأن، يقف على المنصة السفلى للباخرة، بينما تجمع على الرصيف حشد من أصدقائه لوداعه، وكان كل واحد منهم يقنف على ظهر الباخرة عباءة مربوطة تحتوي هدية الوداع المكونة إما من الجوز أو من التمر، وحالما تصل الهدية على ظهر الباخرة يقوم الصابني الطويل بإفراغ محتوياتها على المنصة ويعيد رمي العباءة إلى الحشد المزدهم. وفي الآخر ابتلعت الباخرة عن الساحل وأصبح من الصعب عليهم رمي المزيد، وأخذ أصدقاؤه المتلهفين بالتلويح لصديقهم تحية الوداع.

لا يمكن تصوير منظر أكثر غرابة من المنصة العليا للباخرة (دجلة)، فهناك اللوات من الأجساد الجالسة أو المستلقية من جنسيات مختلفة وذات ملابس متعددة الألوان وهي تملأ المكان بشكل مزدحم للغاية، بحيث يصعب على المرء أن ينتقل من هذا الطرف إلى الطرف الآخر. من بين هؤلاء هناك جزء كبير من الحجاج الفرس العاندين إلى وطنهم من كربلاء والنجف، لم أرى في مجاميع الرجال ذوي القلنسوات الضيقة والنساء المحجبات سوى تكرار للمجاميع التي شاهدتها على طريق الحج، باستثناء أنني أراهم هنا وهم في حالة استرخاء، مستلقين على فرشهم المهيئة وغير المرتبة، ويرتشفون الشاي وينفثون الدخان كذلك من الممكن عند القيام بصعود مفاجئ إلى الركن الهادئ في المنصة العلوية، مشاهدة بعض حوريات الشرق دون حجاب. لا أستطيع القول أن ما رأيته قد أحدث وقعاً كبيراً في نفسي، وحالما ارتلت السيدات أرديتهن المناسبة بسرعة، حتى أصبح من الضروري لدي أن أهتم بأنهماك في آلية صناديق عجلة التجذيف. بالإضافة إلى هؤلاء، هناك عرب من البصرة، ومسلمون من بومبي وواحدة أو اثنتان من النساء الغامرات وهن في طريقهن من بغداد إلى بومبي، حيث يأملن جني ثروة

من جمالهن. كل هذا المزيج الغريب يعيش ويدخن وبطبخ ويتناول الطعام وينام على ظهر الباخرة دون أي مشكلة. ففي المكان الذي يضع فيه الراكب على ظهر الباخرة صرة الأمتعة عندما يصعد من بغداد، عليه أن يشغل هذا المكان حتى وصوله إلى البصرة ونادراً ما تنهض أو ينهض الشخص من مكانه، إلا إذا أراد الوصول إلى إبريق الشاي أو أنبوب المياه، وبالنسبة للتنزه على الأقدام، فالسبب البسيط هو أنه لا يوجد أي حيز مكاني ولا أحد يرغب بالقيام به.

في أحد الأماكن، تم تمثيل مأساة الحسين، فقد جلست حول مصباح (كون الوقت ظلاماً) حلقة مؤلفة من دزينة من الحجاج الفرس، الذين دار بينهم بسرعة إبريق الشاي، وقد جلس في أحد أطراف الحلقة على صندوق ليشد انتباه مشاهديه، شيعي وقور كبير السن وهو يروي بترانيم رتيبة قصة شهيدهم المبحّل. لقد بدأ باطراد مطوّل رتيب، ثم فجأة تغيرت نبرته، وبعبارات عاطفية سريعة، دخل في عرض مسرحي تصويري لروايته. وعندما وصل إلى مرحلة معينة اعتقد أنها قتل الحسين، تداعى صوته وغاص في نبرة حزن لا يوصف، وفي نفس اللحظة، انفجر مستمعيه عن بكرة أبيهم بأنين ونشيج بكاء عميق. بعد ذلك، توقف الراوي ومسح بيده اليمنى عينيه مما يظهر أنها دموع حزن صادق. في مواطن معينة من الرواية، قد يرفع الفرس أيديهم وراحاتها إلى الأعلى، ويرددون بتوسل أسماء الله.

رسوّنّا ليلاً في وسط النهر، ونمنا بعمق على أصوات نقيق الضفادع.

اتضح في هذا الوقت، أن هناك على الأقل احتمالاً بحصول مشكلة بسبب ثورة إحدى القبائل العربية التي نحن على وشك اجتياز أراضيها. أعطى الموظف المسؤول عن الباخرة أوامر إلى الدليل وموجه اللغة والموظف الخفر الذي يقفون على منصة ربان السفينة بأن يحموا أنفسهم ببالات الصوف في حالة نشوب أعمال عنائية محتملة. يعود

السبب التاريخي لهذا الاضطراب إلى الآتي: ألقت السلطات التركية القبض على اثنين من اولاد الشيخ سعود بن منشد شيخ قبيلة المكدان العربية بسبب عدم دفعه للضرائب. تعتبر قبيلة المكدان العربية بطناً من بطون قبيلة البومحمد الكبيرة التي تحتل جزءاً كبيراً من البلاد على جانبي نهر دجلة بين العمارة ونهر الكارون. تعمل قبيلة المكدان العربية في تربية الجاموس ويقال ان عددهم حوالي اربعين الف نسمة. لقد حشد الشيخ، الذي لابد ان يتعاطف معه أي شخص لديه أدنى معرفة بالسياسة التركية، عدداً كبيراً من الرجال المسلمين، من ضمنهم اربعمئة شخص تقريباً يحملون بنادق مارتيني وصب جام غضبه في قطع الطريق والتسليط وغالباً ما يكون حرق قوارب الحبوب ووسائل النقل الأخرى في النهر. لم يكتفي، الشيخ الغاضب، على نهج أسلافه، بحرق رؤوس أعدائه، بل إنه أطلق النار وأغرق إحدى البواخر التركية وهي في طريقها إلى البصرة. ولأنه لم يعترض حتى الآن القوارب الإنكليزية وليس لديه أي سبب لشن أعمال عدائية تجاه امتنا، من المحتمل ان نمر في أراضيهم دون مشكلة. ولكنه في وضع مشابه قبل عدة سنوات أصيب أحد رباب باخرة من بواخر شركة لنج في الصدر وجرح جرحاً بالغا، لهذا فإن الاحتياط امر ضروري. كانت السلطات التركية بالطبع تسعى لإخماد هذه الاضطرابات وأرسلت الحملات ضد الشيوخ المتمردين، إلا أن ما على الشيخ الماكر الذي يعرف مداخل ومخارج مجموعات الأهوار الشاسعة ومستنقعات القصب التي تحاذي النهر، إلا التراجع مع قواته كجبران الماء إلى معانهم، ولا تستطيع أي قوات في العالم ملاحقتهم، لهذا كان الأتراك في مازق حاد لا يستطيعون فعل شيء، ورغم المكافأة للعروضة لرأس سعود، التي ستقوده دون شك عاجلاً أم آجلاً إلى المحاسبة، إلا أنه لا أمل ظاهر في الوقت الحالي للقبض على المتمرد، وبذلك تتم استعادة الهدوء.

في صباح اليوم التالي توقفنا في قرية قلعة صالح على الضفة اليسرى من النهر. وهنا صعدت على ظهر الباخرة مفرزة مكونة من عشرين جندياً تركياً كحراسة

لها، وهو شكل مشكوك فيه إلى حد ما من الحماية، لأنه من المحتمل أكثر أن يطلق سعود^(١) النار على القوات التركية الموجودة على ظهر الباخرة مما لو كنا نبحر دونها. لقد جلبت القوات التركية معها تقارير تشير، لو كانت صحيحة تمامًا، كما لو أن التمرد ممتد على نحو خطير. يشير أحد هذه التقارير إلى أن مجموعة من الجنود الأتراك قد تقدمت في اليوم الماضي، برفقة أحد الشيوخ العرب الأصقاء الذي يدعى يسر، مع مجموعة من رجاله وعبرت النهر، وهاجمت جماعة سعود في مكان ما على الضفة اليمنى. وقد قتل خمسون متمرّد وخمسة عشر تركيًا. من الصعب معرفة مدى صحة ذلك ولم أسمع قط بما حدث فعلاً، ربما حصلت مناقشات معينة، وقتل بعض الأشخاص. على أية حال، من الواضح أن علينا أن لا نغفل حتى نجتاز هذه (القلعة الخطرة). وعندما غادرنا قلعة صالح، شاهنت ليس أقل من ثلاثين قاربًا من القوارب المسماة البغلة وهي تسرع نحو الضفة على شكل صف. بعضها كان في اليوم السابق في العمارة، ولكن عند وصولها هنا، منعتها السلطات من التقدم. وإلى الجنوب من هذا المكان كانت الضفاف تعج بالمعدن العرب، الذين من المؤكد أن مظهرهم لا يثير الهلع في قلوبنا. معظمهم عراة تمامًا كما ولدتهم أمهاتهم وآخرون يلفون حرقًا على رؤوسهم أو طوقًا من القماش لا يلفونه حول عوراتهم بل حول صدورهم. بالنسبة للذكور، الرجال البالغون فقط هم الذين يرتدون ملابس بالكامل. كان الصبيان والفتيان يتسابقون بشكل محموم على طول الساحل لمسافة ميل تقريبًا، ويزداد السباق بصورة مستمرة بالقادمين الجدد، ولا يستطيعون مجازاة سير الباخرة في أي وقت. وفي مسافات معينة، يلقي الركاب نحوهم قطعًا من الخبز ويحصل المشاهد الأكثر بدائية،

(١) لقد وجد السيد كيري الذي تنقل في النهر في نيسان عام ١٨٧٨ نفس القبيلة وهي منشغلة بتمرد مماثل إلا أنه أقل حدة. وحسب ما يلحكر كيري أن الشيخ فرصان متوحش لا يجب التسامح معه، لا أعرف إن كان هذا الرجل هو سعود أو أن هذا هو جزء من قضية سعود، ولكن كقاعدة عامة في النزاعات بين الحكومة التركية والقبائل العربية، فإن الأخيرة تستحق العطف بينما تستحق الأولى ازدياد عقلاء الناس، (نؤلف).

حيث تنطلق نصف دزينة من الأشكال الانسابية السمرية في الغوص في الماء في آن واحد، كسرب أسماك، ثم تحصل مخاشنة بينهم في النهر للحصول على الغنيمة. كنت اعتقد من خلال سلوكهم أنهم لابد أن يكونوا في عوز شديد، إلا أنني قد أخبرت أن الأطفال دائماً يتصرفون هكذا عندما تمر الباخرة، وبعد ذلك مباشرة، وصلنا إلى حرم مقدس يدعى عبدالله بن علي، وهو ضريح صغير تقع قربه على ما يبدو أنها تلال آثار قديمة. يُشاهد حول الضريح حشد من العرب وبأيديهم رايات. يعتبر هذا المكان مقدساً لدى العرب الذين يزرونه باستمرار ويلفنون فيه موتاهم مثل كربلاء، رغم أني لم استطع معرفة تاريخه.

وبعد اجتيازنا لهذا، وصلنا إلى الانعطافة الحادة في النهر حيث تكون إدارة الدفة ضرورية ككون النهر ضيقاً والتيار سريعاً. كانت الباخرة تبدو وكأنها تتمايل على محور ثابت عندما استدرنا مرتين في انعطافات منحنية، كانت مؤخرة الباخرة قريبة من الضفة بحيث أن الرء يستطيع بسهولة القفز إلى الساحل.

عند الساعة التاسعة والربع، وصلنا إلى ضريح عزرا المسمى من قبل العرب العزيز، وهو يقع على نحو جميل على الضفة اليمنى وسط أشجار النخيل. قبل وصولنا إلى هذا المكان، كان بمقدورنا رؤيته في الناحية اليمنى في أرض مفتوحة بعيدة عن النهر الذي ينحني هنا بشكل حاد ويمر بالقرب منه الضريح. يعتبر هذا المكان بحسب الروايات اليهودية محل وفاة عزرا الكاتب وهو في طريقه من القدس إلى سوسة، مكاناً مقدساً لحج اليهود. يقول بنيامين التودولي، "يقع ضريح عزرا القديس والكاتب في هذا المكان، حيث توفي هنا وهو في طريق رحلته من القدس إلى الملك أروشير الفارسي. ينتصب أمام الضريح كنيس كبير وجامع إسلامي، ويشير الأخير إلى التبجيل الذي يكنه المسلمون نحو عزرا، وهم ودودون للغاية مع اليهود، ويترددون على هذا المكان

للصلاة". توجد الآن قبة زرقاء جميلة وهناك بيتان كبيران حديثان مواجهان للنهر لاستقبال الزوار، إلا أنه لا توجد حاليًا أية علاقة لأنار قديمة، ويرى لبارد أن الموقع الحقيقي قد جرفه النهر^(١).

يزور الحجاج اليهود هذا المكان بأعداد كبيرة تبلغ حوالي أربعة إلى خمسة آلاف شخص سنويًا، إلا أنه لا يوجد أي منهم هنا العام بسبب الاضطرابات من جانب العرب. ولأن الباخرة لم تتوقف إلا للقيقتين، لم تسنح لي الفرصة في النزول كما كنت أود. كان هناك حشدًا من الجنود الأتراك وهم يقفون أمام المبنى ويرسو قارب مدفعية تركي صغير في النهر، حيث تم إرساله لتقديم المساعدة الممكنة.

عند وقت الإفطار، أبلغنا بأننا اجتزنا المكان الوحيد الذي يحتمل مواجهة الأخطار فيه. إلا أنه بعد ذلك مباشرة، حصل زعر لا مبرر له. كنت أطلع في بعض الكتب في إحدى حجرات الباخرة، عندما سمعت فجأة صوت إطلاق نار. استمر الإطلاق متواصلًا، انطلقت بسرعة خارجًا نحو النصبة معتقًا تمامًا أننا نتعرض لإطلاق نار وأنني على وشك رؤية معركة حربية حقيقية صغيرة. ولكن لدهشتي أنني قد وجدت الجنود الأتراك منشغلين في مهمة سلمية بإطلاق النار على خنزير بري كان يعدو بين القصب على الضفة الغربية من النهر. ولحسن الحظ، لم يكونوا رماة جيدين ونجا الخنزير المسكين من الأذى.

كانت الأهوار التي نمر عبرها مليئة بالقصب، والقليل منها يبدو ارتفاعه أكثر من ثلاثة أقدام. كما أنني استطعت أن أرى من خلال نظاراتي بعيدًا عن النهر نبات طويل هو شيء أشبه بالبردي. يزخر المكان أيضًا بطيور من أنواع مختلفة بما فيها

(١) انظر «مراحل الأولى في بلاد فارس»، المجلد II، ص ٣٥، (المؤلف).

الغريان والبجع والرخاريف وطيور الشنقب. كما توجد بكثرة طيور مالك الحزين، وأنواع من طيور بيضاء لم يسبق أن عرفت.

عند منتصف النهار وصلنا إلى القرنة حيث يلتقي أخيراً دجلة والفرات بعد جريان طويل من بحيرة وأن لجرياً معاً في نهر واسع كبير ويصبا في البحر. حيث تقع قرية القرنة، وهي لا يمكن أن تكون سوى قرية، في بقعة ضيقة من الأرض، وسط بساتين النخيل المثمرة. يثر المكان شيئاً من المتعة بسبب الرواية المحلية بأنه يمثل موقع جنة عدن. من المؤكد أنه مكان ساحر، وهو يضفي على نفسه هالة من الرومانسية. لم يكن ماء الفرات عندما يلتقي بدجلة مضطرباً، كما كنت أراه دائماً لأن مياهه تتبدد قبل أميال قليلة من وصوله للقرنة في الأهوار، تبعد القرنة حوالي خمسين ميلاً شمال البصرة حيث تطير الغريان، وضعف هذه المسافة من البحر. كان يقف هناك عندما مررنا قارب ملغية تركي.

يشكل شط العرب الممتد بين القرنة والبصرة نهراً عظيماً يتراوح اتساعه بين مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة ياردة وبعمق عشرة إلى خمسة عشرة قامة^(١). وعلى طول هذه المسافة تنتشر بساتين النخيل بعضها طويلاً وضخماً وأخرى مزروعة حديثاً. تعتبر تمور هذه المنطقة من أصناف ممتازة جداً وتعتبر زراعة النخيل إحدى المهن المتيسرة هناك. تزرع هنا تشكيلة متنوعة من الأصناف ويؤكد العرب أن هناك أربعين أو حتى سبعين نوع مميز، تصدر كميات كبيرة من التمور سنوياً إلى أوروبا وأمريكا. تشاهد أيضاً على ضفة النهر شباك الأسماك المكونة من طوق شبه دائري من عيدان القصب الواقفة، تدخل السمكة إلى هذه الشباك عند ارتفاع المد وعند انحساره لا تستطيع السمكة الإفلات. ومن الجدير بالذكر أن المد يصل إلى موقع ضريح عزرا.

(١) تساوي القامة (٦) للقدم، (الترجم).

ويمكن مشاهدة أحيانا طوف من القصب مصنوع على شكل قارب كبير الحجم، وهو يطفو متجهاً نحو الجنوب إلى البصرة بفعل انحسار المد. يُستخدم القصب بشكل رئيسي في صناعة الحصران التي سبق أن شاهدها تستخدم في المساكن العربية.

وصلنا إلى البصرة مساء يوم ٢٢ نيسان، وفي هذه اللحظة انتهت رحلتي في البلاد التركية. كانت لدي فكرة أن أسافر برفقة سي بواسطة الخط الملاحي في نهر الكارون المفتوح حديثاً لنصل لغاية شوستر، إلا أنه اتضح أن تلك فكرة غير ملائمة، لأن بواخر شركة لنج قد توقفت مؤقتاً وحل محلها لنج متداع. ولأن هذا المركب سوف لن يبدأ الرحيل حتى منتصف الأسبوع القادم، وليس فيه أي شكل من أشكال وسائل الراحة للركاب، قررت أن أذهب في الحال على ظهر الباخرة البريطانية الهندية (سملا) التي كانت راسية في النهر والتي سوف تبحر في صباح يوم ٢٤ من الشهر. يعتبر ميناء البصرة، وهو ميناء حديث التكوين، (لأن المدينة نفسها تبعد مسافة معينة عن النهر، وتقع على نهر إلى الشمال)، مزيجاً غريباً من الشرق والغرب. تقع القنصلية البريطانية وواحد أو اثنان من المباني التجارية للشركات الإنكليزية والباخرة سملا ومقابلها باخرة فارسية وباخرة تركية ضخمة، جميعها تقع على جانب واحد من النهر، كان هناك قارب مدفعية إنكليزي جميل يدعى (برسك) وآخر تركي قذر، وعدد من البواخر النهرية، كلها تمثل الحضارة الأوروبية، بينما كانت هناك حشونا من العرب والفرس والزنج والبلاد الشبيهة بالأفعى ومجموعة من قوارب البغلة، كلها تمثل الشرق القديم. كانت البلام التي سبق أن شاهدها في العمارة، تنتقل على النهر في كل الأنحاء، كزوارق البنلقية، يقود كل واحد منها رجلان يستخدمان عصي طويلة (مردى) أو مجاذيف حسبما تتطلب الضرورة. كان هناك العديد منها قرب الساحل بحيث أنك لا تستطيع أن تتقدم لمائة ياردة فقط دون أن تصادم نصف دزينة منها، ولا يشغل أصحاب القارب أو الركاب أنفسهم في الحذر من هذه المصادمات، ولكن على القادم الجديد الغافل

أن ينتبه لنفسه، وإلا فإنه سيتلقى ضربة رمح في العين بواسطة مردي الخيزران الطويل.

قمت مع سي بزيارة المقيم البريطاني الميجر جيننكز، حيث قابلت في منزله أيضا وكيل شركة البواخر البريطانية الهندية. قال الأخير ان انتفاضة العرب هي أكبر معضلة حصلت خلال السنوات الخمس الأخيرة. لقد تم إعلان مكافأة لرأس سعود، وعاجلاً أم آجلاً سيقتل. لقد توقفت مؤقتاً جميع وسائل النقل النهري حالياً، وهذا يعني خسارة كبيرة للشركة. لقد أراني عدة قوارب محلية مدمرة ومفككة جاءت طافية مع تيار النهر من مسرح الاضطرابات.

نهضنا في الصباح التالي مبكرين، واستأجرنا بلماً لزيارة مدينة البصرة نفسها التي تقع على مسافة ميلين من النهر، على رأس جدول ضيق أو قناة. كان الجو في تلك الساعة المبكرة منعشاً وبهيجاً ولا يمكن تصور شيء أكثر متعة من تلك الرحلة الصباحية المبكرة. دخلنا إلى هذا الجدول الذي يجري بين البيوت، ثم دخلنا إلى مشهد ساحر لأشجار النخيل. إنها بندقية الشرق. كانت البلام الزاهية تنتقل من وإلى كل جانب من النهر، وهي مسقفة بمظلات مبهرجة ويقودها نوتية سمير. ولا يثير تصادم أحدها مع الآخر كل حقيقة أي اهتمام، والواقع أنها تضيف شيئاً من المتعة على الرحلة. كانت تظلل القناة على طول المسافة أشجار النخيل، وكانت الضفاف معززة في بعض الأماكن بجذوع أشجار النخيل أو بالأجر حيث تعج بالسلطعون الصغير. وفي غضون نصف ساعة وصلنا إلى رأس الجدول الذي تقع حوله عدة بيوت، ثم تمسبنا برفقة أحد نوتية القارب داخل المدينة. شاهدنا سوقاً من المرتبة الثانية طويلاً مسقفاً بالحبال ومكتظاً بالبضائع الإنكليزية، ودائرة تلغراف، حيث حاولت الإبراق من خلالها، إلا أنني لم أستطع كون موظفيه لا زالوا نياماً. كنت اتصور أنني رأيت في بغداد أدنى

مراتب الانحطاط الذي وصلت إليه مدينة عظيمة، ولكن من الواضح أنني كنت مخطئاً. أين بصرة الخلافة الثرية العظيمة؟ لقد أوصلت الحروب والأمراض وتغير طرق التجارة للمدينة إلى ما هي عليه الآن، مع ذلك يؤكد بعض الكتاب أنها الآن في طور الازدهار.

شاهدت بين كلاب المدينة، بعضاً منها مختلف تماماً عن كلاب السوق الاعتيادية، وهي تشبه كلاب حراسة الأغنام الإنكليزية الكثيفة الشعر. اعتقد أنها فارسية حقاً. إلا أن أشد ما أثار انتباهي في البصرة هو الآتي: للمرة الأولى منذ نزولي في الإسكندرية لاحظت أن كل فرد تقريباً في البصرة يعرف أن يتحدث شيئاً بسيطاً باللغة الإنكليزية. فنوتية البلام يتحدثون مع ربانية البواخر بإنكليزية مبسطة، وموظف التلغراف وصاحب الحانوت يعرفون كلمة أو كلمتين باللغة الإنكليزية. كيف حصل هذا؟ لم تغزو البصرة كالإسكندرية أو بيروت خلال فصول معينة من السنة حشود من السياح الناطقين بالإنكليزية. إلا أن حقيقة الأمر هي أن الإنكليزية في البصرة وموانئ الخليج هي كالفرنسية في شمال سوريا وهذا لا يعود بالطبع إلى الإنكليزية ذاتها بل إلى النفوذ الإنكليزي - هندي. فالبواخر النهرية لشركة لنج والقارب الأسبوعي البريطاني - الهندي إضافة إلى مصلحة البريد الإنكليزي - هندية، التي تنقل البريد بين بغداد وبومبي، جميعها تساهم في عرض الإنكليزية أمام أنظار الأهالي. رغم أن في الأراضي التركية، تفضل العملة الفارسية والهندية كثيراً في الأسواق على العملة التركية، وأن عدداً من البيزات الصغيرة التي جلبتها معي من حلب، والتي تعتبر مرغوبة جداً في بغداد بحيث أنني أستطيع بيعها بفائدة، قد أبلغت هنا أنها عديمة القيمة، وكنت ساضطر للاحتفاظ بها لولا أن الوكيل البريطاني الهندي قد أخذها متفضلاً من بين يدي.

وقد حدث في البصرة حادث خطير قبل يوم أو يومين من وصولي، يبين بوضوح كما الثورة العربية، سوء الإدارة التركية في هذه الأنحاء. فقد حطم بعض المحتجزين في السجن الذين يبلغ عددهم أكثر من عشرين، جميعهم متهمون إما بالقتل أو السرقة مع القتل، سور سجنهم وكتفوا حراسهم وخفراءهم ظهرًا على ظهر ثم خاضوا وسبحوا في القناة وهم مكبلين بالحديد الثقيل وهربوا إلى العراء. قتل ثلاثة برصاص الشرطة أو الجنود، ويفترض بشكل عام أن الباقي لا يزالون في الأراضي المجاورة للبصرة عندما كنت هناك.

تأسست المدينة الحالية من قبل الخليفة الثاني عمر في القرن السابع. وبذلك فإنها تسبق بغداد كمدينة عربية، إلا أنه كانت توجد مدينة قديمة في موقع مدينة الزبير الحالية^(١) أو البصرة القديمة، التي تبعد أميالاً قليلة نحو الغرب، وتقع على قناة يفترض أنها المصب القديم للفرات المسمى (بالاكوباس) (Pallacopas). لابد أن يكون هنا بحكم الضرورة منذ زمن سحيق ميناء حيث تنقل عبره جميع بضائع الشرق التجارية إلى بابل وسلوقية في الأزمان السالفة وإلى طيسفون والكوفة وبغداد في الأزمنة اللاحقة، لقد كانت هذه التجارة هي التي أعطت بصرة القرون الوسطى أهميتها هذه وكما يقول لابارد أن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح هو الذي حطم تجارتها. في زمن راولف عام (١٥٧٤م)، كان هناك برينًا بالحمام الزاجل بين بغداد والبصرة لأغراض تجارية. وقد أسست شركة الهند الشرقية مركزًا لها في البصرة في عام ١٧٣٨ م. وكبافي مدن السهل البابلي، توجد في البصرة أعداد من اليهود الذين يقول الحاخام بنيامين أن عددهم كان إثنان رحلته الفان تقريبًا. رغم أن البصرة القديمة تمر في طور السبات، إلا أنه ليس من المستحيل أن تنهض بصرة جديدة على أنقاضها. كتب

(١) لابد أن تكون مدينة الزبير على اسم عبدالله، (المؤلف).

الرحالة بكنكهام، "يقال أن التجارة قد ازدادت خلال العشر سنوات الأخيرة من مركبتين سنوياً إلى ست مراكب تحمل العلم البريطاني، إضافة إلى المراكب التي تبحر تحت الأعلام العربية". يصف لابراد كيف أنه قبل خمسين سنة رعى تاجر إنكليزي مع بضاعته من أقمشة مانشستر في وقت من الأوقات في البصرة، إلا أنه قد وجد صعوبة في إيجاد بضاعة مقابلة. وبعد عشرين سنة تقريباً، كانت تصل إلى البصرة باخرة من بومبي كل ستة أسابيع، وفي الوقت الحالي هناك خط نقل أسبوعي إلى الميناء الأخير، وهناك خط يجري بصورة منتظمة إلا أنه أقل تكراراً إلى أوروبا. وهناك أيضاً خط نقل فارسي بين البصرة والهند.

إن الرحلات الرومانسية للسندباد البحري هي أشياء من الماضي ويستطيع التاجر الآن أن ينطلق من البصرة إلى الهند أو سرنديب في باخرة بريطانية هندية رحبة ومجهزة جيداً بوسائل الراحة والتي لا يحتاج فيها إلى الخوف من طائر الرخ العملاق والانتقامي أو من الأخطار الأخرى التي كان السندباد يواجهها ويتغلب عليها بتلك الطريقة العجيبة^(١).

للبصرة أيضاً حصتها من النزاعات والصعاب. فقد استولى العرب والأتراك والزنجباريون والفرس والعثمانيون كل بدوره على المدينة وفقدوها. في عام ١٧٧٧م، صمعت أمام الفرس لثمانية أشهر، ورغم أنها دُحرت، إلا أن الأتراك قد استعادوها في السنة التالية. في عام ١٧٨٧م، استولى عليها من نيسان لغاية تشرين الأول شيخ عربي من قبيلة المنتفق الذي وضع الباب العالي نهاية مفاجئة لحكمه القصير. حصلت أيضاً حالة

(١) انظر للحق رقم (٨)، قصة رومانسية من الخليج العربي، (لؤلؤ).

مشابهة في البصرة قبل وقت قصير من بعثة الفرات عندما استولى شيخ الزبير مؤقتاً على مقاليد الحكم في المدينة.

تقع غرب شط العرب وعند نقطة شمال القرية على الفرات إلى جنوب البصرة، وعلى مسافة ليست ببعيدة عن النهر، مجموعة طولية من الأهوار، تفصل وادي النهر عن الصحراء العربية. يبدو أن هذه الأهوار قد تشكلت من المياه الفائضة للفرات الذي تنفجر ضفافه في وقت الربيع شمال القرية محاولة مياهه أن تشق طريقها إلى البحر عبر قناة أخرى هي نهر صلاح (ربما يكون بالاكوباس Pallacopas) الذي يصب أمام مدينة الزبير أو البصرة القديمة. إن هذه الأهوار هي التي تعطي البصرة سمعتها في تفشي الحمى وانعدام الظروف الصحية، وهي سمعة لا تحملها ظلاماً في نفس الوقت، أكدوا لي بثقة أن المدينة أكثر حمية مما كانت عليه سابقاً وهذا ربما يعود إلى استصلاح بعض الأراضي المحيطة بها. من المحتمل أن مياه الفرات في السابق بسبب تفرعه إلى عدد لا حصر له من القنوات وإيجاده أيضاً منفذاً ثانياً إلى البحر عبر نهر صلاح (الذي ربما لا يؤدي عمله بشكل كفاء هذه الأيام)^(١) لم تكن تغرق البلاد كما هو الأمر حالياً، ونتيجة لذلك كانت البلاد أكثر صحية مما هي الآن. إضافة إلى لعنة حمى الأهوار، تتفشى حبة العمر هنا كما في بغداد. يعاني الأهالي هنا أيضاً بشدة من الحصى وهذا ربما يعود إلى شرب المياه المالحة.

✱

✱

✱

(١) بيبين لينسورت الذي زار الزبير أن عرض نهر سنده أو صلاح هو لربيعين قديماً، (المؤلف).

الفصل السادس عشر

الخليج العربي

المحيرة - الصنامة المحلية - صيد الأسماك - الشوستريون - اللاريج - الفاو - عبور العقبة - الخليج العربي - قرصنة - المناخ - الرياح - الصحة - بوشهر - سوق وإيلي بنمط فارسي - وصف المدينة - لعبة القلي - الوصول للبحرين - المياه العذبة لحد البحر - صيد اللؤلؤ

بعد الساعة الخامسة مباشرة من يوم ٢٤ نيسان، كنا نبحر جنوباً باتجاه البحر. وعند حوالي الساعة السابعة والنصف وصلنا قبالة مصب نهر الكارون. ينتصب على الضفة الشمالية من بهت حديث، هو مقر إقامة الشيخ مزعل وهو ما يسمى بشيخ المحمرة المستقل، وهو شخصية جذابة إلى حد ما، وعندما اجتزنا ذلك، أطلقنا قذيفة مدفعية كتحية له حيث أجيب علينا بمثلها ولكن بشيء من التأخير. قبل بضعة سنوات هاجم العرب باخرة بريطانية هندية، لهذا تؤدي مراكب هذا الخط التحية دائماً كمقابل لتدخل الشيخ في الوقت المناسب. توقفنا مقابل مصب هذا النصر أو بالأحرى القناة لأن هذه الفتحة مصطنعة، ولأن ربان السفينة قال ان لدينا مزيداً من الوقت، طأطأت راسي ودخلت في أحد الأعلام وجنغنا باتجاه المحمرة التي تقع على بُعد ميل عن شط العرب على الضفة اليمنى من الكارون. كانت بعض الزوارق الطويلة التي

شاهدتها في مدخل القناة هي زوارق من أغصان أشجار حقيقية، جاءت من بلاد فارس او كما يقال انها تصل إلى هنا بين فزة واخرى وهي تبهر بمحاذاة الساحل قادمة من يومي. إن هذه الأبلام مصنوعة من حزم من العيدان المتشابكة التي تشبه بدقة التصاميم السلطية التي نشاهدها على كوكبة صلبان كمبرلاند. كما تشاهد مراكب شراعية غريبة الشكل تمامًا، بعضها ذات مقفرة مرتفعة كسفينة إنكليزية قديمة. تصنع في المحمرة بعض من هذه الصناعات المحلية. ثمارس مهنة صيد السمك بشكل واسع هنا بعضها بشكل منفرد وبعض منها مشترك وهناك أسماك تدعى (الغبر) وهي مفردة عربية تحمل نوعًا من التهكم كون السمكة رغم أنها لذينة إلا أنها مكتظة بالعظام بشكل استثنائي، ويعتبر استخدام الشبكة الكبيرة هو الأمر المعتاد أكثر، إلا أنه تستخدم أيضًا شباك الصيد الصغيرة. وفي الصيف، تشاهد أسماك القرش بكثرة في مدخل الكارون وكثيرًا ما تتكرر حوادث عنه. وتتواجد هذه الأسماك صعودًا في دجلة حتى تصل العمارة. ومقابل المدينة شاهدت هيكل باخرة تجذيف قديمة تعود إلى أحد الشيوخ المتأخرين. كان هذا الهيكل خارج الماء وصدئ ويقع على الضفة وهو بشكل تناقضًا غريبًا مع ما يحيطه ويبعد إلى الذهن مناظر مماثلة عند مصب نهر التايمز الإنكليزي.

توجد بسايتين جميلة تمتد على طول الضفة الشمالية حتى تصل المحمرة، إلا أن المدينة نفسها تعتبر مكانًا بائسًا. فهي مبنية من الطين والأجر قدرة ومتسخة ونصف مهدمة واسواقها ضيقة ومجهزة تقريبًا بالأسلحة فقط، ولا يبدو عليها علامة واحدة للزيميم. ورغم أن المنطقة هي فارسية في الوقت الحالي، إلا أن سكانها هم بشكل رئيسي من العرب. يشاهد أيضًا عدد كبير من الزنوج وهناك بعض الشوسترين^(١) وهم قوم

(١) انظر كركزن ملاد هارس والسالة الفارسية، (المؤلف).

غناث ذوي أنوف كبيرة. لقد أعطيت تقييمات مختلفة لشخصية هؤلاء الناس. وجدهم لبارد أنهم قوم أهل كرم ورحمة ولكن عند افتتاح نهر الكارون للملاحة النهرية، كان لربابنة شركة لنج مشاكل كبيرة معهم. على أية حال، يبدو أن لهم صبيًا سيئًا بإفراط على شط العرب. تقول الروايات، أنه عندما خلق الله كل شيء وجد أنه لابد من خلق مزيد من الرجال. لهذا أخذ دم كلب ودم يهودي وخلق من هذا المزيج النثر الشوستريين.

إن المصب الطبيعي والقديم لنهر الكارون هو في قناة بهمشير التي تجري بشكل متوازي مع شط العرب من المحمرة ثم تصب في البحر في نقطة شرق الفاو. لا يزال هذا المصب صالحًا للملاحة، إلا أن قناة الحفار التي تربط الكارون بشط العرب تأخذ مقدارًا كبيرًا من المياه. من اللافت للنظر أن مياه نهر الكارون هي غالبًا ذات لون أحمر خفيف.

يعتبر تاريخ المحمرة تاريخًا قريبًا. لقد ظهرت على أو قرب الموقع الذي نقف فيه الآن مدن تدعى الإسكندرية وإنطاكية وشرش واستراباد^(١). نشأت المدينة الحالية الواقعة على خط الحدود بين تركيا وبلاد فارس، في عام ١٨١٢م، على يدي شيخ قبيلة المحيسن العربية وهي بطن من بطون قبيلة كعب الكبيرة. لقد أصبح هذا المكان الذي يطلق عليه إينسورث "سبب النزاع" بين الدولتين، حتى تم الاتفاق على عائدته إلى الفرس في اتفاقية الحدود. قام الأتراك بغزو وسلب المدينة في عام ١٨٢٧م، وقصفتها الحملة الإنكليزية - هندية بقذائف مدافع المورتر المثبتة على أطواف طافية، حيث اندحرت الحامية الفارسية بسرعة. وقد حكم المكان عدد من الشيوخ العرب، تحت الحماية التركية، والحاكم الحالي هو الشيخ مزعل خان من قبيلة المحيسن ورئيس قبيلة كعب العربية، وهو يمارس السلطة حاليًا. يدعي هذا الشيخ العربي الاستقلال

(١) شوسر هي مدينة الشوش الإيرانية المعروفة، (الترجم).

وان له الولاية على منطقة كبيرة شرق الحمرة. وهو يقوم بنفع إتاوة سنوية إلى الحكومة ويفرض بنفسه ضرائب على رعاياه. وهو يشعر بخوف شديد من الأولى، ويقال انها قد قامت بأكثر من محاولة لقتله. إن وضعه يبدو شاذًا نوعًا ما، إذ رغم أنه يتمتع بالولاية تحت حكم الفرس، إلا أنه يؤكد في نفس الوقت، استقلال قبيلته التي تسكن الحمرة. كما يرغب الفرس، الذين قاموا بتعيينه كحاكم، في إبعاده عن طريقهم بهدوء، رغم أنهم في وضع لا يؤهلهم لاستبداله في الوقت الحالي بحاكم جديد. ربما يكون آخر شيخ مستقل للحمرة. هناك صورة له في كتاب السيد كرزن "بلاد فارس والمسالة الفارسية"، حيث يظهر فيها بأنه عربي محترم وسيم ذو وجه يوحى بالذكاء وقوة الشخصية. للحمرة شهرة سيئة بانعدام الظروف الصحية فيها رغم أنه من المحتمل أنها ليست أكثر من موانئ الخليج الأخرى. يقال أن المستنقعات تنتشر حولها، إلا أن بساتين النخيل لا تمتد إلى مسافة بعيدة شمال الكارون. يمكن ممارسة لعبة جميلة فيصيد اسد أو ايل أسمر في الرحلة إلى شوستر.

رغم بؤس المدينة الحالية، إلا أن موقعها ذو أهمية عظيمة، فهي تشرف على مياه انهار الفرات ودجلة والكارون الفارسي، ولابد أن مستقبلًا عظيمًا امامها. ولأنه قد جرت الكتابة مؤخرًا بشكل واسع عن الطريق التجاري الجديد لنهر الكارون، لا أرى من الضروري تناول هذا الموضوع هنا. لقد تم افتتاح هذا الطريق للتجارة عام ١٨٨٨م، وقد وضعت شركة لنج وشركة بواخر الخليج وبومبي بواخر على هذا الطريق. وقد تخلت الأخيرة عن هذا العمل باعتباره خاسرًا، إلا أن الأولى، رغم أنها لا تزال تحتفظ بنوع من خدمة النقل في هذا النهر، تفعل ذلك بما قد يعتبر أنه خسارة محققة. لقد استبدلت إحدى بواخرها الكبيرة ببخرة ذات عجلة تجديف في مؤخرتها كانت عاملة في نهر النيل. وعندما كانت هناك، جرى ربط الأهواز بلنج تجاري صغير. من المحتمل أن يقف العناد الفارسي لبعض الوقت في طريق أي تطور ناجح للتجارة.

كان النهر الممتد بين البصرة والبحر مملأ وخالياً من المناظر الجميلة. فالضفّات مستوية ومزروعة بشكل متواصل بأشجار النخيل. إلا أنه عميق وواسع وصالح لسير السفن من أي حجم عندما تجتاز العقبة في المصب. عند فترة بعد الظهر وصلنا الفاو وهي عبارة عن ثكنة صغيرة ودائرة جمارك ودار للحجز الصحي ومراكز تركية وهندو وأوروبية للتلفراف. هناك أيضاً عموداً يحمل ضوءاً في رأسه وسارية علم. قام أحد الركاب وهو طبيب إنكليزي غادر تركيا في طريقه إلى الهند، بالنزول إلى الساحل وعاد بتذكّار في شكل علم للحكومة التركية، حيث قام بإنزاله عن قصد تحت أنظار السلطات التركية ووضعه في جيبه كتذكّار من هذه البلاد. وبعد ساعة، ابتعدنا عن البر، وارتطمنا بالعقبة الكبيرة التي تغلق مدخل النهر. وعند النظر إلى جانب المركب، يبدو كأنه ساكن لا يتحرك، رغم أن الرفاص يتحرك بأقصى سرعته. إلا أننا كنا على أية حال نسير ببطء. وبعد ساعتين تمكنا من عبور العقبة، حيث شققنا طريقنا عبر وحل طري. يحصل هنا باستمرار لأن هناك ثمانية عشر أو عشرين قدماً فقط من المياه فوق هذه العقبة في حالة المد العالي، وعند الجزر يبلغ عمق الماء نصف هذا القدر. كانت ريح الشمال القوية "وهي ريح شمالية غربية" تهب في هذا الوقت، وربما ساعدتنا قليلاً، إلا أنها جعلت أول تجربة لنا في الخليج شيئاً كال مفاجأة، لأنه حالما خرجنا، فإن الرياح أصبحت باردة للغاية بحيث أننا لم نندم على جلب معاطفنا.

ربما يكون الخليج العربي الواقع بين خط عرض ٣٠° شمالاً و٢٤° شمالاً، فيما يخص شأنه التاريخي وأهميته التجارية المستقبلية، غير معروف كثيراً لدى الإنكليزي الاعتيادي من أي بحر آخر بنفس الحجم ونفس صلاحية المرور. وهذا يعود بالطبع إلى عدة أسباب وجيهة. فمناخه لا يتحمّله الأوروبيون تقريباً باستثناء مواسم معينة، رغم أنه لا يقال أنه يؤدي إلى مكان غير معلوم، إلا أن الأماكن التي يؤدي إليها الخليج غير مجهزة بوسائل الراحة المناسبة لرحلة أوروبية، بحيث أن السائح الاعتيادي يحاول

تجنبها وبذلك بفلت من الوقوع في شرك التخلف والتعصب الشقي ككون التجارة حتى هذا الوقت لم تستطع خلق تطور كبير في المراكز السكانية.

شكل الخليج مستطيل غير منتظم ويمتد بشكل مائل بالاتجاه الجنوبي الشرقي من شط العرب إلى مضيق هرمز، حيث يبرز رأس مسندم من الساحل العربي بشكل حاد باتجاه الشمال ليشكل النقطة الجنوبية للخليج. وجنوب هذا يتسع خليج عمان بشدة نحو البحر العربي، طول الخليج العربي حوالي خمسمائة وأربعون ميلاً، إلا أن المسافة الكلية التي تبهرها البواخر البريطانية الهندية من بومبي إلى البصرة تقارب ألفي ميل. تقع على الساحل الشرقي منه ولايات عربستان وفارستان وباقي الولايات الفارسية الأخرى حتى كفير حيث تأتي بلوشستان وتمتد لتصل إلى الأراضي الإنكلو - هندية في كراچي. بينما يحتل الجانب الشرقي^(١) بشكل تام الجزيرة العربية، التي تخضع أجزاء منها اسمياً إلى الحكومة التركية. وحقيقة الأمر أن الرخاء الذي يتمتع به الخليج يعود إلى النفوذ البريطاني.

في القرن الرابع قبل الميلاد، قاد نيرخوس، أمير البحر في جيش الإسكندر، الأسطول المقدوني من جزر الأنديس إلى دجلة بغية دعم سيده الذي زحف عبر بلوشستان وجنوب فارس بعد حملته الهندية. في القرن السادس عشر، أحرز البرتغاليون تفوقاً تجارياً ظل قائماً لمدة مائة عام.

لقد وصلت القرصنة في الخليج العربي إلى نهايتها عملياً ويعود الفضل في ذلك إلى القوة البريطانية التي مارست دورها في الجزء الأول من هذا القرن. ولأن القرصنة يقيمون في الساحل الغربي من الخليج لم تكن التجارة المستقرة ممكنة طالما استمرت أعمال السلب. واعتباراً من عام ١٨٠٥م ولغاية عام ١٨٢٥م تم تنفيذ أعمال التهنة في الخليج، إلا أنه لم يعم السلام حتى توقيع معاهدات عام ١٨٢٥م وعام ١٨٥٢م، حيث أصبح

(١) المصحح هو الجانب الغربي، (الترجم).

الخليج أمناً فعلاً. يمكن معرفة الحجم الكبير الذي يمارس فيه هؤلاء القراصنة تجارتهم من خلال معرفة حقيقة أن عدد اسطولهم في عام ١٨٠٩م بلغ ثلاثة وستين سفينة كبيرة وثمانمائة مركب صغير، يعمل عليها تسعة عشر ألف رجل.

تتم التجارة المحلية حالياً بواسطة قوارب البغلة التي تنتقل بين الخليج والساحل الإفريقي والبحر الأحمر والهند. تختلف حمولة هذه المراكب من مائة إلى ثلاثمائة طن وهي مجهزة بشكل عام بصاري رئيسي وشرع مثلث الشكل وشرع آخر مثلث منصوب على الصاري الأقرب في مؤخرة المركب. تتطلب هذه المراكب تبعاً لحجمها طاقماً كبيراً، ورغم أنهم بحارة ممتازون في الرياح الاعتيادية إلا أنهم غير قادرين على الإبحار بمواجهة الريح.

تم اقتباس الملاحظات التالية عن درجات الحرارة والرياح في الخليج من "دليل الخليج العربي" الذي نشر بتوجيه من المفوضين اللوردات في الإميرالية البريطانية عام ١٨٧٠م، والذي اعاره لي مشكوراً ريتان الباخرة سملا.

تم قياس درجات الحرارة بالفهرنهايت على ظهر الباخرة وهي تمثل معدلها لأكثر من أربع سنوات، أما على الساحل، فمستوى درجات الحرارة يكون كبيراً.

الشهر	للمعدل كافي حد في الرابعة بعد الظهر	المعدل كادني حد في الرابعة صباحاً	الشهر	للمعدل كافي حد في الرابعة بعد الظهر	المعدل كادني حد في الرابعة صباحاً
كانون	69	89	تموز	65	91. ½
الثاني	67	89	أب	63	94
شباط	75	83. ½	أيلول	69. ½	90
آذار	80. ½	81	تشرين الأول	75	85. ½
نيسان	85	76	تشرين الثاني	81	80. ½
مايس	89. ½	70	كانون الأول	85	74

ورغم أن هذه تمثل حالة مريحة جميلة للحياة في البحر، إلا أنه لابد أن تكون الحرارة على الساحل وفي المدة المكتظة أكثر قساوة. إن التقويم الممتع الذي كتبه كاتب القرن الخامس عشر عبدالرزاق، والذي اقتبسه السيد كرزن في كتابه "بلاد فارس والمسالة الفارسية"، مثيراً للضحك بشدة بحيث أنه يستحق أن نعيد اقتباسه. وهذا يشير إلى طقس مسقط،

"إن الحرارة مرتفعة جداً بحيث أنها تحرق نخاع العظام، يذوب السيف في غمده كالشمع وتتحول الجواهر التي تزين قبضة الخنجر إلى فحم. وفي البراري يصبح الصيد في غاية السهولة، لأن الصحراء تكون مليئة بالغزلان المشوبة".

في الخليج هناك امطار شتوية كاوروبا ويكون الشتاء احياناً قارساً جداً. يبلغ سقوط المطر في بوشهر ثمانية او تسعة إنجات بينما لا يبلغ في مسقط سوى ثلاثة إنجات ونصف.

الرياح السائدة عادة في شهور الصيف هي ريح الشمال الشمالية الغربية والتي تتجه مع انحناءات الخليج، وتحمل هذه الرياح غالباً ذرات صغيرة من الغبار من بلاد الرافدين وقد حصل في العديد من المرات خلال الرحلة أن نجد شبابهك حجرات الباخرة والمنصة وحبال الأشربة والصواري وهي مكسوة بطبقة سميقة منه.

تسمى الرياح الجنوبية الشرقية في الشتاء (القوس) وهي تهب في كانون الأول إلى نيسان. وهي ريح عاصفة وممطرة. كذلك تكون الرياح الشمالية الشرقية في الشتاء ممطرة أيضاً وتسمى "الهاشي". وتتبع غالباً الرياح الجنوبية الغربية المسماة "الساحلي" رياح "القوس" وهي تهب بشكل عام لساعات قليلة ويصاحبها رعد وبرق.

إن السمة المميزة في الخليج هي أنه لا يرافق الطقس السيئ أحيانا أي تغير في مقياس الضغط الجوي. إلا أن هناك خلال الصيف انخفاضاً كبيراً في الضغط الجوي.

قد يقال أن جميع موانئ الخليج لا تتوفر فيها الشروط الصحية، فهي في الواقع بالنسبة إلى الأوروبيين قاتلة إلى حد ما. فسرعان ما تلقي الإمدادات السيئة من المياه والنقص التام للصرف الصحي والحرارة المفرطة، بظلالها على كل من يحاول الإقامة فيها. تتفشى حمى الخليج وهو شكل متقطع وخطير من الملاريا في هذه الموانئ، ولا يمكن استعادة العافية إلا بالبحث عن طقس جديد. يعاني الأهالي بشدة منها. ينتشر البلاء المروع لحشرة غينيا^(١) بشكل مؤلم في بندر عباس وباقي الموانئ الأخرى وهذا ربما يعود إلى المياه السيئة. يشاهد أيضاً بكثرة مرض التفيل^(٢). ويقال أن الكوليرا لا تغيب أبداً إلا أنها تكون في أسوأ حالاتها في البحرين.

في صباح اليوم التالي وجدنا الباخرة سملا تحت رحمة ربح الشمال العالية وبحر هائج يقودها نحو بوشهر، فبدلاً من البحر الهادئ والحرارة اللاهبة المتوقعة، كان المظهر العام يبدو أشبه ما يكون بطقس صيفي عاصف في خليج بسكاي. مع ربح كهذه كنا نتوقع أن نصل بوشهر بأسرع من الاعتيادي إلا أن مصلحة النقل البريطاني الهندي في الخليج رغم حملها البريد لم تتأثر سرعتها بذلك، وأمضينا أسبوعين كاملين بين البصرة وبومبي. وعند حوالي الساعة الثامنة شاهدنا جزيرة خرج التي يمكن الرؤية من خلفها قمم الجبال المغطاة بالثلوج في البر الفارسي. كان يشغل هذه الجزيرة في الجزء الأول من القرن الماضي والتي يسكنها الآن القليل من صيادي الأسماك

(١) هي حشرة خطيئة طفيلية تنتشر في أفريقيا الاستوائية، وجنوب آسيا. تعيش في الأنسجة الداخلية للإنسان، يمكن أن يصل طول الأنثى إلى ثلاثة أقدام. (الترجم).

(٢) هو حصول تضخم هائل في عضو من أعضاء الجسد، (الترجم).

والأدلاء، مركزًا هولنديًا. يروي كارسن نيسور في كتابه "رحلات في الجزيرة العربية"، التاريخ الموجز لهذه المستوطنة ابتداءً من بارون نيفوسين المدير الأول الذي نصبه الشيخ مير ناصر، إلى السيد فان هوتنك المدير الثالث والآخر الذي طرده دون إبطاء مير مهنا خليفة مير ناصر لتدخله في السياسات الفارسية العربية.

وعندما اقتربنا من بوشهر خلال فترة الظهيرة، شاهدنا منظرًا رائعًا للجبال الفارسية وهي تنتصب خلف المدينة. القمة الرئيسية فيها هي قمة كوه هرجج، وهي قمة مهيبة يبلغ ارتفاعها ٦٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر وتليها على اليسار سلسلة رائعة أخرى. يقال أن هذه الجبال تبعد مسافة سير ثلاثة أيام من بوشهر وتقع خلفها مدينة شيراز. يتم الرسو على مسافة ميلين في الميناء، ويصعب إلى حد ما الوصول إليها، حيث لا بد من إجراء انعطافة كبيرة قبل الوصول. وعندما ابجرنا، اخذتني الدهشة بسبب خضرة البحر للمفرطة، إلى حد لم أر مثله من قبل في أي مكان. تحتل المدينة الطرف الشمالي من حافة طويلة من الحجر الرملي، يبلغ طولها حوالي اثني عشر ميلاً ويظهر أنها ارتفعت عن البحر في العصور المتأخرة. عند صعود المد، تنفصل عن البر الرئيسي بواسطة البحر، وفي الأوقات الأخرى يفصلها عنه مستنقع ملحي. يبدو منظر بوشهر من البحر أشبه ما يكون إلى حد ما بمنظر الإسكندرية قبل أن ترتدي طابعها الأوروبي الحالي. ولأننا قضينا طيلة اليوم هنا، أجلت زيارتي إلى صباح اليوم التالي. وبعد أن ذهبت إلى الساحل بواسطة قارب البريد، امتطيت حملاً، حيث يمكن استنجاره هنا كما في القاهرة، وطففت حول المدينة، في البداية ولكوني قد ابلفت أن في بوشهر حانوتنا يمكن شراء سلعاً أوروبية من مختلف الأنواع منه، ذهبت إليه بحثاً عن قبعة شمسية وتبغ متحضر للغليون، وهو ترف لم ادخنه منذ مغادرتي البحر المتوسط. ولدهشتي الكبرى، نزلت في حانوت مجهز جيداً بالأحذية الإنكليزية والمواد الفنية

العلبة والقبعات الشمسية وهو في الحقيقة عبارة عن سوق وايتلي ولكن بنمط فارسي حيث يمكن شراء كل شيء من علبة السيكار إلى قنينة مهدئ الآلام، كان السيد كلزار مالك الحانوت مؤدبًا للغاية، وقد امضيت ربع ساعة وأنا استمتع في ممارسة ترف التبضع الأوروبي. يبدو غريبًا حقًا أنه هنا في هذا الميناء الفارسي القدر والبانس، يستطيع تاجر مقدم أن يدير حانوتًا يحتوي على سلع حضارية أكثر مما تحويه أسواق حلب وبغداد مجتمعة. بعد ذلك، امتطيت حماري وسرت على طول الساحل أمام دار الإقامة البريطانية حيث يوجد حرس من الهنود المجندين كما في بغداد، بعد ذلك عبرت اللسان البري إلى الجانب الآخر وعدت من خلال السوق. وكان هذا اضيق وربما اقذر مكان رأيته، ورغم اكتظاظه بالفرس والعرب الذين يتحدثون الفارسية، إلا أنه ليس فيه الكثير مما يجلب المتعة إلى النفس. تمتلئ الحوانيت بقدر مناسب من سلع مانشستر والسكر وحلويات متقنة الصنع وتعتبر هذه هي السلع الرئيسية في السوق. اشترت بعض ملاعق الحساء الجميلة المصنوعة من الخشب بقدر ضئيل من المال. كان الفتى الذي يقود حماري يتحدث بشيء من الإنكليزية، وكان الناس يحلقون نحو منظر رجل إنكليزي أقل مما يحرق أهالي حلب. وعلى أية حال، ورغم القنارة ذات الرائحة الكريهة، إلا أنني شعرت أنني أقرب إلى الوطن في سوق بوشهر أكثر من أي يوم آخر. البيوت مبنية بشكل رئيسي من الطين والحجارة وفي بيوت جميع أفراد الطبقة الأفضل هناك شرف مزدوجة. ليس هناك سراديب ككون الجو هنا رطبًا جدًا إلا أن العديد من البيوت مزودة بأبراج خاصة تقوم بجمع الرياح وتوجيهها إلى داخل الغرف وتسمى هذه (الباجير). تكون الحرارة في تموز ولغاية تشرين الأول مرتفعة جدًا بحيث أن الأهالي ينامون على السطوح المستوية. لا يعتبر زي الأهالي كونهم عربيًا أكثر منهم فرسًا، مميزًا كما هو في شمال البلاد. وقد شاهدت على طول الساحل وقرب سور البحر صفًا من مراكب الصيد المتقنة الصنع. ومن الجدير بالذكر، أن لقوارب بوشهر

اعلامها الخاصة فهي عبارة عن راية حمراء مع سيف على ذي الشفرتين مرسوم بلون ابيض في منتصفه. تمت استضافتي بكرم لتناول الغداء في المكتب المريح للشركة، حيث استطعت ان القي نظرة على خارطة بوشهر وضواحيها. يقع في بوشهر التي تبعد مسافة ستة اميال جنوب شبه الجزيرة الركنز التلفزيوني، تقع دار الإقامة الصيفية للمقيم البريطاني إلى الخلف في مكان يدعى سبزياد. لا يوجد في هذا الجزء أي بيوت حالياً وبشتهر بكونه مكاناً خطيراً، إلا أنه قد بنيت في هذا المكان مؤخراً دور إقامة لعدد من الأوروبيين وأشخاص آخرين. هناك أيضاً في هذا المكان آثار قديمة بشكل تلال تشغل مساحة مربع قطره ثلاثمائة ياردة. يقال أن التل الذي يبلغ ارتفاعه حوالي ثلاثين قدماً فوق مستوى الأرض، محاط بخندق عميق من الجهة المقابلة للبر. كما توجد تلال أخرى في المنطقة المجاورة وقد اكتشفت فيها جرار وأجر عليه كتابات مسمارية. يعتقد أن هذه الآثار تعود إلى العصر البابلي أو أنها بقايا قلعة برتغالية. في عام ١٨٥٦م، احتلت المكان قوات بريطانية. إن بلاء بوشهر هي تجهيزات المياه. تبعد النوعية الاعتيادية من المياه وهي النوعية التي لا يجزؤ أي أوروبي على لمسها مسافة ميلي، والنوعية الأفضل على مسافة خمسة اميال باتجاه بوشهر.

عند وقوفي على شرفة مكتبة الشركة المريح، شاهدت في المحيط المجاور عدداً كبيراً من الأولاد وهم يلعبون لعبة يبدو أنها إحدى التسالي الرئيسية لفتيان الشوارع العرب في هذا المكان. إنها تسمى (القلي). ترسم دائرة على الأرض، يقف امامها أحد اللاعبين وهو مزود إما بثلاث عصي أو بعضاً مع كيس، يلقي فتى آخر من مسافة حوالي عشرين خطوة، عصا قصيرة أو قطعة من العظام، بنيت وضعها داخل الدائرة، بينما على اللاعب ذي العصا والكيس ان يبعدها عن الدائرة، على الأخير إيقافها بأقصى ما يستطيع بالعصا أو الكيس أو جسده ثم يأخذها ويضربها بعيداً بأقصى ما يستطيع بإحدى عصيه. ويفعل هو هذا بشكل عام بحيث أنها تضرب الأرض وترتد بقوة

كبيرة عنها. وبعد ذلك، أينما تسقط العصا، على الرامي أن يسعى ثانية لقفزها إلى داخل الدائرة حتى لو وصلت بقربها أو بعيداً عنها. وعندما ينجح في هذا، على اللاعب ذي العصا والكيس أن يخرج من اللعبة.

يجري بيع الخيول في بوشهر بطريقة ظريفة، فالمسافر الإنكليزي الذي يصل من برسيبوليس ويريد بيع حيوانه، ما عليه سوى أن يرسل على الدال، حيث يأخذ الأخير بالطواف في شوارع المدينة وهو يقود الحيوان ويصبح بشكل متواصل مردداً مزاياء من أجل الحصول على عطاءات لشرائه. وفي الآخر يصل تحت شبابهك المكتب البريطاني الهندي، حيث يحصل على عطاء أو عطاءين، وبعد قيادة الحيوان جيئةً وذهاباً في الشارع مردداً السعر الذي وصل إليه، يباع الحيوان في الآخر.

رغم وجودها كمدينة إسلامية قديمة في شبه الجزيرة، إلا أن ميناء بوشهر يعتبر ميناءً حديثاً أسسه الشاه نادر في القرن الماضي. أوضح السيد كرزن أن الاشتقاق الشائع للاسم (أبو شهر) أي (أبو المدن)، هو اشتقاق غير صحيح، لأن إحدى الكلمات عربية بينما الأخرى فارسية. وبعد عام ١٧٦١م، أسست شركة الهند الشرقية مركزاً لها فيها. وسرعان ما أصبحت المدينة الميناء الأول في هذا الجزء من الخليج وتضاعف سكانها خلال هذا القرن الذين يقدرون الآن بـ (١٣٠٠٠) نسمة. خلال الحرب الفارسية استولت عليها القوات البريطانية في (١٠) كانون الأول عام ١٨٥٦م، واستمرت السيطرة عليها حتى انتهاء الحرب مع بلاد فارس في السنة التالية. وكالمحمرة، كان يحكمها خلال الجزء الأخير من القرن الماضي وبداية هذا القرن شيوخ عرب، إلا أن الفرس قد عيّنوا لبعض الوقت حاكماً منتظماً عليها، الذي كان يحمل في وقت ما وربما إلى الآن اللقب الخاص (دار كابيك) أو (سيد البحر). هناك أيضاً جالية أرمنية صغيرة، يوجد في كنيستها قبور وبعض الضباط الإنكليز الذين فقدوا حياتهم، خلال الحملة

الفارسية. لقد جرى تعزيز المدينة في السابق بأبراج وسور متين على جهة الجنوب أو الجهة المواجهة إلى البر، إلا أنه لم يبق منه الآن سوى القليل.

لم تغادر بوشهر حتى الساعة الخامسة مساءً كوننا قد تأخرنا قليلاً بسبب البريد. كانت ريح الشمال لا تزال تهب وهي باردة جدًا ومنعشة، بينما يشير مقياس الحرارة على المنصة عند الساعة التاسعة بعد الظهر إلى درجة معتدلة من الحرارة قدرها (٧٥°). سرنا بسرعة عبر الخليج ووصلنا البحرين قبل ظهر اليوم التالي مباشرة. كان القبطان يود المغادرة سريعاً ونتيجة ذلك لم أتمكن من النزول. لهذا كل ما رأيته هو قفر رملي طويل تتخلله في بعض الأماكن بساتين نخيل ومدينتي المحرق والبحرين، الذين يفصلهما البحر عن بعضهما عند حصول المد. تعتبر الأولى هي المركز الرئيسي لصيد اللؤلؤ الذي يمتد على طول الساحل العربي. ويمكن مشاهدة القوارب المستخدمة في هذه الصناعة، مكدة خارج الماء على الجزيرة، حيث لا تجري أي عملية صيد قبل نهاية شهر مايس. كانت مياه البر في الموقع الذي رسونا فيه، الذي يبعد كثيراً عن الساحل، ذات لون أخضر جميل وعند هدوء البحر، فهي صافية بشكل كبير. توجد الظاهرة اللافتة للنظر المتمثلة بعيون الماء العذب التي تنبع من قاع البحر، في العديد من الأماكن قرب الجزيرة ويغوص الأهالي للحصول على المياه كما يغوصون للحصول على اللؤلؤ ويملاؤن به قناني جلدية يحملوها معهم لهذا الغرض ثم يجري سحبهم إلى السطح ربما لم يتم العثور مطلقاً على إمداد المياه الكبير هذا لولا إغواء صيد اللؤلؤ للعرب الذي جعلهم يطوفون بشكل دائم عند قاع البحر. بالإضافة إلى محار اللؤلؤ غير المؤذي، يعج البحر أيضاً بأسمالك القرش وأبي منشار التي على الغواص المسكين أن يحترس منها. كذلك شاهدت أعداداً كبيرة جداً من قناديل البحر والكثير من غريبان الماء وهو نوع من طيور الفاق.

يجري صيد اللؤلؤ خلال الفترة من مايس ولغاية ايلول وفي البحرين هناك عدة آلاف من القوارب التي تزاح حملتها بين اربعة إلى عشرة اطنان تعمل خلال هذا الموسم. يقال ان ثروة تصل إلى مائتين او ثلاثمائة ألف باون ترفع سنوياً من البحر إلى البحرين وحدها. ينزل الغواص سائداً انفيه بالشمع وغالفاً انفه باداة اشبه بملقط الفسيل ومثقلاً وزن قديمه، إلى البحر إلى عمق لا يزيد عن ثلاثة عشر قامة. وعندما يجمع محاراته، يسحب بواسطة حبل إلى السطح. أقصى فترة يمكن أن يمضيها الغواص تحت الماء هي دقيقة ونصف. تاخذ معظم اللآلى طريقها إلى بومبي. ويعتبر النظام المروع، الذي يعيش فيه الغواصون المساكين، الذين يفنون صحتهم وقوتهم في حياة غير طبيعية، بفقر واعتماد تام على تجار عرب وهنود انذل، معروفاً على نطاق واسع. ولسوء الحظ، لا يعرف "قانون المقايضة Truck"^(١) في الخليج، وفي بعض الأحيان يتصور العرب البؤساء الذين يضطرون لبيع لأنفسهم إلى سيدهم بالسعر الذي يريده ويستأجرون قواربهم وتجهيزاتهم منه بمبلغ ابتزازي شنيع، جوعاً يتيماً يجعل عملهم الآخرين من اصحاب الملايين. لا يوجد شكل للعبودية اكثر خسة من هذا في البلاد.

احتل البحرين كباقي الموانئ الخليجية الأخرى في القرن السادس عشر البرتغاليون، الذي طردهم الفرس في عام ١٦٢٢م. وبعد هذا التاريخ، كانت البلاد مصدرًا دائماً للنزاع بين الفرس وعدد من الشيوخ العرب (من ضمنهم سلطان عُمان)، الذي استولى عليها بدوره أيضاً، تخضع عملياً في الوقت الحاضر إلى الحماية البريطانية.

✱

✱

✱

(١) قانون المقايضة او Truck Act هو قانون إنكليزي يرجع أصله إلى ما قبل سنة ١٦٦٤م، وفحواه دفع اجور العمال سلفاً لا نقداً شرط الشراء من صاحب العمل، ونتيجة انعدام العدالة فيه صدرت عدة قوانين (Truck acts) اخرها في عام ١٨٩٦م مهمتها تنظيم كيفية دفع الأجور للعمال. (لترجم).

الفصل السابع عشر

الخليج العربي

الجبـال المحيطة بميناء لنكا - ميناء لنكا - إمداء إك المياه - مضائق هرمز - موقع بندر عباس -
المدينة - حرارة مظيمة - جزيرة هرمز - لاريخا - لقييم قديم - منظر جميل - السمكة الطيارة
ونمايين البحر - السلاحف وإسماك اللؤلؤ - بومبي - المغادرة نحو إنكلترا - طقس عاصف في
البحر الأحمر

من البحرين اتجهنا نحو الشرق عابرين الخليج باتجاه ميناء لنكا اللورستاني.
أخبرنا القبطان روبرتسن أن الرياح قد تنخفض سرعتها ويتبع ذلك ارتفاع درجات
الحرارة، وهكذا جرى. وفي اليوم التالي تناولنا غداءنا وعشاءنا على مائدة في أعلى سطح
مستوٍ للباخرة سملاً (وهو ترتيب جميل مفيد في البحار الاستوائية)، ولم نشعر بالبرودة
رغم وجود مروحة تدور في الهواء المفتوح. بعد الغداء، ألقينا نظرة جميلة على الساحل
الصحراوي من لورستان. في البداية ظهرت سلسلة طويلة من الجبال الحمراء بعيداً على
يسارنا، وخلفها أيضاً تظهر سلسلة أخرى أكثر ارتفاعاً. عند الساعة الثانية والنصف،
شاهدنا على يميننا جزيرة صغيرة جبلية نوعاً ما ويتضح أنها غير مأهولة. وتسمى
هذه (فارور). بعد ذلك أخذت سلسلة مهيبة يبدو أنها بركانية تظهر على يسارنا،
استطيع أن أشاهد أسفلها باستخدام نظارتي مدينة صغيرة، وفي أحد أطرافها بستان

نخيل صغير. وهذه السلسلة هي جبال بستانة التي يبلغ ارتفاعها ١٧٥٠ قدم، أما الجبل مستوي القمة الذي نشاهده قبلها فهو جبل (تورانجه) ويبلغ ارتفاعه (٥٧٠) قدم. يخيم على جميع الجبال ضباب كثيف، كون الجو في هذا الجزء من الخليج، رغم مظهر السواحل الشبيه بالصحراء، رطبًا بشكل مفرط ويتساقط الندى الثقيل المخضّل كل ليلة. كما ان الضباب دائم الحدوث.

تبدو لنكا التي وصلناها بعد مسير اثنتي عشرة ساعة من البحرين واضحة جدًا من البحر. فهي تقع على نجد ساحلي وترتفع خلفها الجبال العظيمة كخلفية الصورة، ويبدو الصف الأبيض من البيوت والمنازة الوحيدة وقوارب الصيد من خلال الضباب الذي يغمرها اثناء إبحارنا باتجاه المرسى جميلًا جدًا. توجد في المرسى باخترتين شرعيتين إنكليزيتين عمرهما حوالي ستين عامًا، وهي الآن ملك تاجر عربي مقدم. وقد شعرت ان من المتع معاينة الحالة الراهنة للغرف للرنية في وقت ما لهذه السفن القديمة. يبعد المرسى مسافة حوالي ربع ميل عن البر. ذهبت إلى الساحل مع موظف البريد ونزلنا قرب رصيف مسور صغير تقف فيه الكثير من قوارب البغلة خارج الماء لغرض الإصلاح، كما تجري هنا صناعة بعض منها ولكن بحجم أكبر، حيث تمارس تجارة ساحلية نشيطة مع لنكا. يبدو انه لم يبذل أي اهتمام بإجراءات الصرف الصحي هنا، حتى أنها أدنى من أي ميناء خليجي آخر، وحالنا نزلنا، صدمت أنوفنا رائحة كريهة منبعثة من الساحل الذي تغمره في الحقيقة القنارة بكافة أصنافها. إنها قاتلة تمامًا. وقد تمشيت داخل شوارع المدينة وأسواقها. كانت الأخيرة ضيقة وغير منتظمة تمامًا، ويبدو ان السلع الرئيسية فيه هي الأسماك والحبوب والحلويات. وفي إحدى المرات شاهدت صفًا من القدور الصينية الصغيرة المستخدمة لحفظ الكمل، ربما جاءت هذه برًا مع الشاي بواسطة طرق القوافل، يعتبر السكان هجينًا من الفرس والعرب من قبيلة الجواسم القرصانية وبعضهم يرتدي عمامة من قماش محلي وهي كبيرة وجميلة.

يُشاهد أيضًا بحارة وشحاذون زنوج وهم يتسكعون في الميناء الصغير ولا يضيفون قليلًا إلى جمال منظر المكان. وكانت تطوف أيضًا نساء، بزي مختلف تمامًا لما رأيته من قبل، وهن يرتدين خمارًا أشبه بالقناع مع فتحات فيه للعيون. قد يبلغ عدد السكان الكلي حوالي عشرة آلاف. إن العالم في لنكا قليلة ومتباعدة، هناك جامع حديث صغير واحد مبني على الطراز البغدادى مع زخارف صغيرة من الآجر الملون. وقد شاهدت خارج المدينة على أحد الجوانب الكثير من المباني الغربية ذات القباب منتشرة على سطح الأرض، وقد علمت أنها مستودعات مخصصة لغرض تجميع مياه الأمطار وهو المصدر الوحيد للمياه في لنكا، لأنه لا توجد فيها عيون. تم بناء القباب التي يبلغ ارتفاع بعضها أربعين قدمًا، بشكل غير منتظم، والغاية منها منع التبخر. يتميز هطول الأمطار في لنكا بغزارته وتجمع هذه البرك كما يسمونها خزينًا ضخماً من المياه لاستخدامات المدينة. بعد هنا ذهبنا إلى دائرة البريد البريطانية التي يديرها موظف هندي. لقد أدى هنا الشخص في إعداد حقائب البريد إلى تأخر البريد قبل أن يصعد على ظهر الباخرة.

يقال حتى الآن أن لنكا ينعدم فيها القانون وهي مكان غير آمن تمامًا للتجوال فيه، كانت في السابق بأيدي قراصنة الخليج العربي، وقد فقدت العديد من السفن الحربية لشركة الهند الشرقية في ملاحقتها لهذه الأشباح وسط مخاطر وجزر الخليج. كان يحكم المدينة حتى وقت متأخر شيخ عربي مستقل. ويقال أنه يمكن أن يقطع حامل بريد سيرًا على الأقدام المسافة من هنا إلى بوشهر في عشر إلى أربع عشر يومًا حسب الموسم في السنة.

استيقظنا مبكرين صباح اليوم التالي لنجد أنفسنا على مرأى من بندر عباس، الذي يعتبر دون شك المكان الأكثر إثارة للمتعة على الخليج العربي، لقد أصبحنا الآن تحت حرارة شمس حقيقية وقد صعد معظم الركاب للنوم على سطح السفينة، ولأن

حالتى الصحية لم تتحسن كثيراً وإن تساقط الندى في هذه المنطقة من الخليج كثيراً للغاية بحيث أنه يجعل كل شيء رطباً خلال فترة قصيرة جداً من الزمن، لهذا فضلت أن أبقي في حجرتي في السفينة، رغم أن الحرارة فيها تجعل النوم مهمة صعبة. في طقس مثل هذا لا يستطيع المرء في البحر تجنب أخذ إغفاءة طويلة على كرسي في النصبة تحت حرارة شمس النهار، لهذا لا بشكل النوم ليلاً ذات الأهمية كما في أوروبا حيث كل نهار هو نهار للعمل.

تقع بندر عباس أو كمبيرون كما هو اسمها القديم على خليج فسيح ممتد داخل الساحل الفارسي يبرز مقابله من الجانب العربي، شبه الجزيرة، يسمى أقصى امتداد لها رأس مسندم، وتسمى القناة التي تفصل الساحلين، مضيق هرمز. لا أعلم إن كنت مصيباً، ولكن نظرة إلى الخريطة أو المخططات توحى إلي أن هذه القناة التي تقطعها إلى النصف الجزيرة العربية وتنتشر فيها الجزر الصغيرة والكبيرة، هي ليست إلا تطوراً جغرافياً حديثاً نسبياً. من المؤكد أن هذه السواحل في وقت ما وقبل حصول ترسبات في المياه، كانت متحدة، ولا تمثل الجزر الناتئة من الساحل الفارسي سوى ربوات على هذه الأرض الفارسية - العربية. إذا ما صُح هذا، فإن الخليج كان كبيراً قزوين بحراً مقلداً باليابسة ولأنه ربما لم يكن في ذلك العهد لا آشوريين ولا فرس ولا عرب يحاولون البحث عن منفذ إلى الجنوب لغرض التجارة، فليس هناك طريق للقوافل أو قناة تقطع هذا اللسان البري الذي يفصل البحر الداخلي عن المحيط الواسع الذي يمتد إلى المناطق القطبية الجنوبية، والذي تفصل أمواج مده سواحل البلدان التي كانت ستصبح من البلدان الأغنى ربما في العالم كله.

يعتبر الوصول إلى بندر عباس، بطريقته الغربية، ممتعاً تماماً. فالباخرة، بعد أن تجتاز جزيرة القشم التي ربما يبلغ طولها سبعين ميلاً، تستدير شمالاً نحو المرفأ الواقع

عند أقصى نقطة شمالاً من الخليج الفسيح. وعندما تقترب من الصحراء الشاسعة، ترتفع الجبال المجدبة والوعرة بطريقة غير منتظمة على جميع الجهات. يقع على يمين المدينة نفسها جبل جيناو (ارتفاعه ٧٦٩٠ قدم)، وعند النظر من أعلى كتفه الأيمن يمكن مشاهدة جبل باخور المهيب الذي يهيمن على الخليج من ارتفاع (١٠٦٠) قدم. وابتعد قليلاً إلى اليمين يقع جبل شمال الذي يبلغ ارتفاعه (٨٥٠٠) قدم، بينما يقع على يسار جبل جيناو جبل خامر. تقع خلفنا منحدرات القشم التي استولى عليها في زمن ما البرتغاليون ولا تزال تحتفظ بسكان عددهم من عشرة إلى اثني عشر ألف نسمة. في عام ١٨٢٠م، وضعت قوة بريطانية هنا لمراقبة القراصنة من قبيلة الجواسم ومنذ عام ١٨٧٩م لا تزال قوة من الجنود الهنود مرابطة في المكان^(١). إن ما يمثل النفوذ البريطاني في الوقت الحاضر هو مستودع للفحم فقط. ونحو الخارج من جهة البحر وبالقرب من الميناء تقع جزر هرمز ولارك، ونرى من هنا في الأولى التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ الشرق، حثاً متعرجاً واطناً وعند طرفها الجنوبي نشاهد لساناً برزاً ينتهي بحصن برتغالي قديم. ونشاهد على اليسار قبل دخولنا الميناء قليلاً من الجزر الصغيرة قليلة الأهمية.

وجيناو في الرفا الذي يبعد حوالي ميلاً وثلاثة أرباع الليل عن المدينة، باخرة الخط الفارسي راسية. تقع للمدينة على أرض رملية مع واجهة على البحر يبلغ عرضها تقريباً

(١) لنفي تلحكار ظريف عن هذا الاحتلال الإنكليزي مكتوب على قرآن قديم جميل لا يزال يحتفظ بجلده الأصلي وقد كتب على الورقة البيضاء في أوله ما يلي، لقد وجد هذا الكتاب على ظهر سفينة قرصانية تم تدميرها في الخليج العربي قرب جزيرة القشم من قبل الباخرة العربية لصاحب الجلالة للسماة (عند) يوم ١٠ كانون الثاني عام ١٨٢٨م. لم يشر مقياس درجة الحرارة إلى أو طاً من ٦٤° رغم أننا في عز الشتاء.

ولأن الحملة لم تغادر بومبي إلا في نهاية عام ١٨٢٨م، لهذا لا بد أن يكون التاريخ خطأ كتابي والصحيح هو عام ١٨٢٠م، وهو خطأ شائع حتى في إنكلترا عند حلول سنة جنيحة ويحصل في الجرائد أو التقاويم ولدى جميع الجهات. يمكن إيجاد تفاصيل متسعة عن الحملة في كتاب كروزن عن بلاد فارس. تاريخ كتاب القرآن هي

مبلاً واحداً. تقع على الطرف الشرقي منها المستنقعات للمينة بأشجار المانغروف الاستوائية. ورغم أنها تعتبر محلاً لتجارة واسعة (كونها تمثل ميناء كمرمان ومشهد التي تمتد منها الطرق التجارية إلى طهران بل وحتى كابل وهرات)، إلا أنه لا يشاهد الكثير من العالم في المدينة. هناك رصيف ميناء صغير ومناسب وسور بحري، وقد وجدت على الأول مدغعين قديمين من اليراص ماركة (هوني سويت. جي. آر). وقد سمعت أخبار مختلفة عن هذه القطع الأثرية. يعتقد رجل إنكليزي، كان مقيماً في بندر عباس وجاء معنا على ظهر الباخرة سملًا، إنه قد تم جلبها من بوشهر، بينما قال فتى عربي كان واقفاً على رصيف الميناء، أنها قد تم جلبها من مسقط. يقول السيد كرزن أن سلطان مسقط قد استولى على المدينة في نهاية القرن الأخير بفرمان صادر من الحكومة الفارسية، حيث أعطى خلال هذه الفترة وبموجب معاهدة، رخصة إلى الإنكليز لإقامة مركز فيها ونصب الدافع. وهو يرى أن هذه القطع القديمة قد جاءت إما استجابة إيجابية لطلبهم أو أنها قدمت هدية إلى السلطان.

كانت معظم الأسواق مغلقة لأن الوقت كان عيداً أو احتفالاً، إلا أن الكثير من الناس الذين رايتهم كانوا يبدون وكأنهم مخلوقات بدائية ذات ظفائر طويلة تتدلى على اكتافهم. كذلك يمكن مشاهدة البلوش. توجد في بعض البيوت المواجهة إلى البحر شرفات مزدوجة، ولدى العديد من أفراد الطبقة الأفضل (باجيرات) على سطوح بيوتهم. بينما كانت البيوت الموجودة داخل المدينة عبارة عن مباني طينية بائسة، وهناك أيضاً أكواخ من القصب تنتشر في الفسح المفتوحة. وإجمالاً، من الصعب تصديق أن بندر عباس هي المدينة الأكبر، وهي لا تزال المكان التجاري المهم على الساحل الفارسي. قمت بجولة على الأقدام داخل المدينة مع أحد أصحاب القوارب العرب. كانت الحرارة عظيمة وكان العرق ينضح من وجهي بفزارة. وكان الرمل الذي أسير عليه يلسع حناثي، وكنت كل مسافة بضع باردات اجلس قليلاً لأستريح. كان المكان فرناً

حقيقياً ومن السهولة تصديق من يقول أن هذا المكان هو المكان الأكثر حرارة في الخليج. كما أنه أيضاً رطباً للغاية ويشاهد بكثرة ضباب البحر. إن الحمى منتشرة بشكل خطير هنا، ولا يستطيع الأوروبيون العيش طويلاً هنا. كما تنتشر أيضاً حشرة غينيا ومرض التيفل بكثرة، توجد في المدينة آثار سور قديم وأبراج، وقد أراني صاحب القارب الذي يتحدث العربية، بوابة على الجانب الري من المدينة تسمى (باب البالو)^(١). ورغم أنه يجري التحدث بشيء من العربية، إلا أن الفارسية والهندية هي الأكثر شيوعاً.

تعتبر الصادرات الرئيسية لبندر عباس هي الفواكه والحبوب إلى مسقط والسجاد والصمغ بكميات كبيرة إلى بومبي وكذلك الملح الذي يستخرج ويجفف في هرمز. هناك أيضاً تجارة الواردات المعتادة لسلع البع بالتجزئة. يغطي عدد السكان رقماً متقلباً جداً، لأن الكثير من السكان يعودون إلى داخل البلاد عند درجات الحرارة المرتفعة، ولأنه أيضاً يعتمد على وصول ومغادرة القوافل، قد يصل عدد السكان إلى أقصى حد له في الشتاء ليصل إلى (١٠٠٠٠) نسمة وأدنى حد هو (٥٠٠٠) نسمة. يقول هاملتون في كتابه عن جزر الهند الشرقية أن الحرارة في شهر آب تؤثر كثيراً في البحث بحيث "تصدر منه رائحة كريهة" وهي "مقيدة كرائحة حيوانات ميتة على اليابسة، وتقنف على الساحل كميات كبيرة من المحار بفعل موران البحر. إنها تفسد الذهب والفضة كماء آسن في جوف سفينة محكمة الإغلاق".

لم تسنح لي الفرصة لزيارة جزيرة هرمز العجيبة، وعلي أن ألنع نفسي فقط بالنظر إلى حدودها المتعرجة وإلى ثلاث قمم بيضاء من سطح الباخرة. يعتبر هنا المكان

(١) ثرى هل هي بوابة بلوشستان، (المؤلف).

بموجب جميع التقديرات غريباً إلى حد كبير، رغم أنه لا يوجد فيه سوى قرية صيادين مكونة من مائة بيت تقريباً. لا يوجد فيه أي شكل من الحياة النباتية، ولا مياه عذبة، إلا أنه يزخر بالملح والكبريت وخامات الحديد. تتكون قمتان من القمم التي نشاهدها من مسافة بعيدة من الكبريت، والقمة الثالثة من الملح. كما أن المكان يحتوي على العديد من القمم البركانية. يقول قبطان سملاً الذي زار المكان أنه يوجد في مكان واحد أكثر المناظر غرابة، حيث يمكن مشاهدة نهر واسع من الماء يصب في البحر وهو مغطى بطبقة متألقة من الملح، وفي وسطه ولكن دون أن تمتزج بمياهه، يجري تيار من المياه ذات اللون الأحمر القاني التي جاء لونها بفعل خامات الحديد. لا يزال حصن برتغالي وفنار موجودان حتى الآن ويقال أن الأول هو بناء عجيب من الحجارة المزينة.

تأسست هرمز في البداية في القرن الثالث على يدي أحد أفراد الأسرة الساسانية. قامت محلها مدينة عربية، أسسها أمير عربي يدعى محمد درامكو الشهير. تقع المدينتان على البر الرئيسي، ولم يكد يبدأ القرن الرابع عشر، حتى تأسست مدينة داخل الجزيرة بسبب غارات الأتراك على البر الرئيسي. تظهر هرمز من خلال وصف ماركو بولو الذي ارتحل في هذه الأنحاء في القرن الثالث عشر، إنها موجودة على الساحل وداخل الجزيرة، لأن الأخيرة تذكر بشكل خاص وقد تعتبر كولاية. لقد وصف البيوت الصيفية المبنية داخل الماء، التي يلجأ إليها الأهالي عند ارتفاع درجة الحرارة وذكر أيضاً "التوابل، واللآلئ، والأحجار الكريمة والملابس المطرزة بالذهب والفضة وجميع الأشياء الثمينة الأخرى من الهند". في ترجمة تشارا أو بالأحرى في تاريخ تورنشا، هناك العديد من الملاحظات الوصفية للمتعة. حيث نقرا عن "العيون الفياضة الثلاثة لماء صافي نقي، إلا أنه مالح كماء البحر". وكذلك "هناك في أحد أطراف الجزيرة ماء عذب قليل يستخدم لسقي بساتين الملك". ومرة أخرى: "تتوفر في الجزيرة الكثير من الحيوانات

كالغزلان ومخلوقات شبيهة بالمعز البري والذئب وهي نوع من الثعالب والسلاحف والحمام وباقي أنواع الطيور المائية، ومن العجيب أنه لا يتوفر في الجزيرة ماء عذب، إلا أنه لا يعرف حتى الآن ماذا تشرب هذه المخلوقات. البعض يدعي أنها عطشى بشكل مفرط، فإنها تشرب للمياه المالحة وآخرون اختلفوا خرافات ليس أقل من ذلك استحالة".

كذلك نقرأ لمحة عن السكان،

"معظم اهالي هرمز وسيمون وذوي اشكال جميلة، والرجال مؤدبون ومهذبون، والنساء جميلات.. وجميعهم مسلمون. بعضهم من الشيعة وآخرون من السنة، بالإضافة إلى ذلك هناك العديد من المسيحيين البرتغاليين والأرمن والجورجيين واليعاقبة والنساطرة.. والهنود واليهود". في الصيف "تستنفد الحرارة العظيمة كل طاقة الإنسان بحرق مفرط".

في بداية القرن السادس عشر استولى دون ماثياس دي البوكورك على المدينة وأسس مركزاً برتغالياً. كان الحصن الذي بناه، والذي لا يزال يمكن مشاهدته من الرفق في بندر عباس ذا تصميم رباعي الاضلاع، مبني بشكل جيد ومعزز بخندق مائي. يقال أنه أفضل حصن برتغالي لا يزال قائماً حتى الآن في الخليج، ولا يزال يوجد حول هذا الأثر عدد من المنافع القديمة. في عام ١٥٨٢م، ألقى البوكورك القبض على السيد رالف فيتش وتاجر من لندن وثلاثة من رفاقهما وهم في طريقهم إلى الخليج العربي قادمين من طرابلس وحلب وبغداد، وبعد أن تمت مصادرة شيء من بضائعهم تركوا لمواصلة سيرهم إلى الهند. وقد ترك لنا السيد فيتش في مذكراته عن رحلاته وصفاً ممتعاً عن هرمز في ذلك الوقت. فقد وصفها بأنها، "الجزيرة الأكثر جنباً في العالم"،

واخبرنا ان هناك قلعة برتغالية فيها "نقيب تابع لملك البرتغال وبإمرته عدد كافي من الجنود، بعضهم بقي داخل القلعة والآخرين في المدينة". وهناك ايضا: "تجري هنا تجارة عظيمة لكافة أنواع التوابل والعقاقير والحريير والأقمشة الحريرية ومنسوجات فارسية مزينة بالصور وخزين كبير من اللآلئ القادمة من جزيرة البحرين، والكثير من خيول فارس تصل إلى كافة أنحاء الهند". كانت له نظرة عن الجمال النسوي، فرغم أن الجميلات يرتدين الحجاب دون شك، إلا أن تاجرنا الغامر قد وجد الوقت ليكتب. "تتزين نساؤهم بشكل غريب جدًا، فهن يلبسن على أنوفهن وأذانهن ورقابهن وأنزعن وسبقانهن العديد من الحلقات المزينة بالجواهر ومشابك من فضة وذهب في أذانهن وقضيب طويل من الذهب بجانب أنوفهن. كانت أذانهن بفعل ثقل الجواهر مثقوبة بشكل واسع بحيث يستطيع المرء إدخال ثلاثة من أصابعه فيها"^(١). في عام ١٦٢٢ حاصر الإنكليز بالتحالف مع الشاه عباس هرمز وبعد حصار دام قرابة ثلاثة أشهر، استسلمت المدينة^(٢) وبعد ثلاث سنوات تم تسليم الساحل إلى الفرس بموجب معاهدة، لم تنتهكها حكومة البلاد بأدنى حد. وبعد ذلك مباشرة، قام نفس الشاه بتأسيس ميناء على البر الرئيسي، الذي كان في السابق قرية صيادين تحمل اسم كومبرون. (ويقال ان الاسم يعني قرية صيد الأربيان)، وهي تسمى الآن بندر عباس.

عند هذا الوقت كانت هرمز تبدو في أوج عظمتها، وقد وصفها السير توماس هربرت في عام ١٦٢٧ "البيوت فيها مؤثثة بالجلود المذهبة والنوادر الهندية والصينية،

(١) انظر نيكرتون (مجموعة الرحلات)، المجلد التاسع، ص ٤٠٨، (لؤلؤف).

(٢) يقول هاملتون ان الحصار قد استمر لقل من شهرين. وقد تم التقييد بدقة بالمعاهدة لغاية عام ١٦٨٠، عندما فشل الإنكليز في تطهير الخليج من الأعمال العدائية، (لؤلؤف).

سوقها ثري وجميل وفيها كنائس رائعة وقلعة محصنة بقوة وبشكل منتظم^(١). لا يزال بالإمكان مشاهدة آثار مستودعات المياه وأجزاء الجوامع والمدينة. كان عدد سكان المدينة في وقت معين أربعون ألف نسمة، والآن انخفض إلى ثلاثمائة فقط وهم بهاجرون إلى البر الرئيسي خلال موسم معين في السنة.

نهضت كومبيرون والآن بندر عباس لتحتل مكان هرمز في التجارة حيث لم تنجح في ذلك سوى جزئياً. تم تأسيس مراكز إنكليزية وفرنسية ولاندية ولا زال بالإمكان مشاهدة بقايا بعضها أو كلها. كانت في نهاية القرن الماضي تحت حكم سلطان مسقط كما سبق أن ذكرنا، ولم يمض ربع قرن حتى حقق الفرس سيطرة تامة عليها.

غادرنا بندر عباس في مساء يوم ٢٩ من الشهر، ولأننا لا نذهب إلى مسقط، فإن رحلتنا إلى كراحي ستستغرق ثلاثة أيام. بعد هذا البناء، تستأنف البواخر البريطانية الهندية نشاطها بعد استعادة السيطرة على البحار البريطانية وأخذت تسير بسرعة كبيرة نحو بومبي التي ستصلها في غضون حوالي ست وخمسين ساعة. وعندما أبحرنا خارج بندر عباس، كنت أعتقد أنني سوف لن أرى منظرًا جميلًا كهذا في أي مكان. حيث يلف ضباب أرجواني جبال جيناو والشمال والجزر وخلفها تضيء السماء بوهج برتقالي خفيف ينذر بانتهاء النهار. يمتد أمام السفينة البحر الهادئ الذي يتلألأ بانعكاس غروب الشمس. إنها تبدو وكأنها أرض الجن أو موطن السحر ولا يمكن أن يوجد شيء أكثر جمالاً إلى حد لا يوصف كهذا للكان. من الصعب تصديق أن مثل هذا المكان الجميل لا يمكن أن يكون صحياً. فعندما هبط الظلام، اضيء البحر بومضات متألقة لا حصر لها، كل واحدة تضيء لثانية ثم تختفي.

(١) انظر كورن بلاد هارس والسالة الفارسية، (لؤلؤ).

خلال رحلة الثلاثة أيام إلى كراجي، شاهدنا من بعيد الساحل الفارسي والبلوشست في بعض الأجزاء نشاهد أكثر الحدود إثارة للدهشة فهي متعرجة ومسنة كحافة منشار وفي بعض الأماكن، تكون الأشكال مدهشة بشكل غريب، حيث هناك قمم كالمنارات ملتصقة بشدة مع بعضها البعض. وقد صادفنا أشياء غريبة من التاريخ الطبيعي. فقد شاهدنا ثعبان يمر بطول أربعة أقدام وجسم أصفر مع أشرطة داكنة وذنوب سطح كسمكة. وهنا تعرفت لأول مرة بالسמكة الطيارة، عندما شاهدتها لأول مرة كانت تهرب بعيداً عن مقدمة السفينة، وقد رفضت أن اصدق ذلك معتقداً أنها مجرد طيور بحر صغيرة، حتى طارت أحدها بشكل جميل وسقطت على ظهر السفينة، وبذلك تبدد وهمي. وفي إحدى الأيام شاهدت عددًا كبيراً من هذه الأسماك وسمكة توتوج وسلحفاة كبيرة. كل ذلك شاهدته في ربع ساعة. كانت الأخيرة تدور بهدوء على بُعد خمسين ميلاً من اليابسة، ويتضح أنها ذكر غير مهتم تماماً بزوجته التي يبدو أنها دون شك تستعد للتزاوج في المياه الضحلة للساحل البلوشستاني. أخذت الرطوبة والحرارة تزداد، وأصبح النوم أسفل منصة الباخرة متعباً للغاية، إلا أن الندى كان غزيراً ومتواصلاً، بحيث من الصعب أن لا تبتل حتى الجلد عندما تجلس على المنصة وقت المساء. وفي يوم (٢) مايس، رسونا في مرفأ كراجي، وفي الآخر ساعود مرة أخرى إلى الحضارة الأوروبية. بهذا تصل قصتي إلى نهايتها. وبعد أيام قلانل، وصلت إلى بومبي، وعندما كانت تتجمع الرياح الموسمية، شعرت أن الجو حار بشكل غير مريح تماماً. كانت قراءة مقياس الحرارة تتراوح بين ٩١ درجة و ٩٨ في صالة الفندق، التي تعتبر في هذا الجو الحار الرطب لبومبي درجة عالية غير مريحة البتة. وبعد أسبوع، حيث شاهدت المعالم الرئيسية في تلك المدينة، اتخذت طريقي إلى الوطن ووصلت إلى لندن في (٨) حزيران، كان الشيء الوحيد اللافت للنظر خلال الرحلة هو الطقس غير الاعتيادي الذي واجهناه في البحر الأحمر. كانت الباخرة (دمشق) أجنبية، إلا أنها

ذات صناعة جيدة ومجهزة بأكثر الوسائل جلباً للراحة في كل المجالات إلا أنها محملة تماماً وواطنة في المياه. اجتزنا باب المنب في (٢٠) من الشهر، وفي يوم (٢١)، ازداد هبوب ريح معاكسة لاتجاه السفينة إلى ما يشبه العاصفة. وفي الليلة التالية أصبحت الريح اشد، وقد غمرت المياه جميع الركاب (وأنا من ضمنهم) الذي كانوا ينامون على سطح السفينة واسرعنا في الدخول إلى غرفنا في السفينة ببجانات مبللة. وعند الصباح، تحولت إلى عاصفة تامة، وأصبحت السفينة واطنة جنباً في المياه، وأخذت موجات المياه المنكسرة على جوانبها تخمر باطنها من الأمام ومن الخلف. وقد جرفت زرائب الأغنام والقوارب وفلتت الحيوانات، وأخذت تضرب أعلى مقدمة السفينة ومنصة الرهان. وقد تهشمت أيضاً حظيرة البط وغرقت عدة طيور بينما أخذت الأخرى تسبح، وقد جرى بصخب نقل تجهيزات الطعام والمبيت إلى الصالة. لقد فاضت المنصات الأمامية والخلفية، وكان كل شيء في حالة لا توصف من الفوضى. في ليلة (٢٢)، أقام كل فرد داخل الغرف، وبما أنها كانت لا تزال حارة بشكل غير مقبول، شغلت موقعاً بديلاً على منضدة الصالة حتى وجدت نفسي متدحرجاً بعيداً عندما عدت إلى الأسفل. وقد اضطررنا لعدة ساعات أن نخفض سرعتنا إلى النصف، بحيث أنه عندما كانت تدون للملاحظات في اليوم التالي، نجد أننا قطعنا مائة وثمانية وستون عقدة فقط. هبات العاصفة في اليوم التالي. كان هذا طقساً غريباً نواجهه في البحر الأحمر، حيث كنا جميعاً نخشى من حرارته التي لا يصاحبها أي نسيم. وعلى العموم، على أية حال اعتقد أن الفرق هو بديل مقبول عن الشواء.



ملاحق

١. أبو نؤاس، مهرج هارون الرشيد.
٢. رحلة بابلي من بغداد إلى البصرة.
٣. تقرير هاملتون عن البصرة.
٤. قصة رومانسية من الخليج العربي.
٥. مقاييس وأوزان مضطربة.

أبو نواس، مهرج هارون الرشيد

لا تزال تتداول الكثير من القصص في الشرق عن هذه الشخصية، روى لي أحد السوريين القصص التالية:

أبو نواس وأنية الحساء:

كان أبو نواس في أحد الأيام ينتظر سيده الخليفة على العشاء. حصل أن اسقط على رقبة هارون قطرة من الحساء الحار. استدار الخليفة بغضب واستل سيفه وكان على وشك قطع رأس أبي نواس، حينذاك أغمى المهرج عيون الخليفة بسكبه للمتمثلي من محتويات الإناء على رأس الخليفة. قال الخليفة: "أيها التعس لماذا فعلت ذلك؟ تكلم قبل أن تموت". أجاب أبو نواس: "يا سيدي إذا ما فقت رأسي لإسقاطي قطرة واحدة فقط من الحساء على رقبتك، فإن كل الناس ستقول أنك سيد ظالم وغير عادل، ولكن إذا ما قتلتنني لسكبي إناء حساء عليك، لا أحد سيلومك، لهذا قلبت أنية الحساء على رأسي".

أبو نواس والسيدة خالصة:

كانت هناك فتاة في منزل هارون الرشيد، وكان أبو نواس غيورًا منها لأنها أثيرة لدى هارون الرشيد. في أحد الأيام أهدى إليها الخليفة عقدًا ثمينًا وهذا ما أثار المهرج بحيث أنه كتب على بابها البيت التالي:

لقد ضاع شعري على بابكم كما ضاع عقد على خالصة

وعندما قرأت الجميلة هذا البيت، جرت والدموع في عينها لتخبر الخليفة الذي جاء بغضب شديد للملاحظة ذلك بأم عينيه. خلال فترة غيابها، قام أبو نواس بتغيير معنى البيت وذلك بمحوه الطرف السفلي من الحرف (ع) في الكلمة (ضاع) وبذلك أصبح الحرف همزة بدلاً من العين وكما يلي:

لقد ضاء شعري على بابكم كما ضاء عقد على خالصة

وبعد أن رأى الخليفة هذا، وبخ خالصة لدعوتها إياه، لأنه لا يوجد شيء في البيت سوى الإطراء. إلا أنه يبدو أن قدرة خالصة على التورية، رغم أن مشاعرها قد جرحت، لا تقل عن قدرة المهرج لهذا أجابت: "الآن أزيلت العين (وهنا لا تقصد الحرف)، لهذا يمكن فهم البيت".

أبو نواس والحمير:

حصل أبو نواس على رخصة من سيده لأخذ حمار واحد من كل رجل في الولاية يخاف من زوجته كنوع من الضرائب. وبموجب ذلك ارتحل إلى القرى، وطلب من كل رجل معروف بأنه يخشى زوجته حمارًا، وحصل على حمار من هنا وحمار من هناك حتى تكون لديه قطيعًا كبيرًا. وفي أحد الأيام شاهد حراس بوابات المدينة غيمة كبيرة من الغبار للتصاعد من الأرض، وقال أحدهم إلى الآخر: "عجبًا ما هذا؟"

ولكن عندما اقترب الحشد الذي أثار الغبار من المدينة، أدركوا أنه ليس عدوًا كما كانوا يخشون، ولكنه أبي نواس وهو يسوق أمامه قطيعًا كبيرًا من الحمير التي أخذها من الأزواج المسيطر عليهم من زوجاتهم في الريف المحيط. دخل أبو نواس المدينة واقترب من القصر، وتساعد الغبار بشكل غيمة دخلت إلى الغرفة التي يجلس فيها الخليفة، مما جعل الخليفة يعطس. طلب الخليفة تفسير ذلك، وعندما أبلغ بأنه أبي نواس، طلب حضوره أمامه ليخبره كيف فعل ذلك. لهذا ذهب أبو نواس إلى الخليفة وبدأ يشرح له تجربته قائلاً: "يا سيدي، هناك في القرية الفلانية سيدة رائعة الجمال، عليك أن ترسل عليها لتستقدمها إلى القصر. شعرها كجناح غراب أسود، عينيها كعيون غزال الصحراء، شفاهها خاتم سيدنا سليمان، وقوامها ممشوق". وهكذا استمر في الوصف بالتفصيل لمواطن الجمال والسحر لهذه السيدة لسيدة. ولسوء الحظ وبينما كان المهرج مستمرًا في شرح مواطن الجمال، نظر الخليفة نحو الشباك المفتوح على سكن السيدات، وهناك رأى العيون السوداء الدائرية للسيدة زبيدة، وهي تتلألأ بنظرة عدم رضا، بينما كانت تزم شفاهها الجميلة بكل شيء عدا الابتسامة التي يفرم بها هارون الرشيد. استدار سريعًا إلى أبي نواس وقال: "صه، صه، ألا ترى السيدة زبيدة وهي تصغي إلينا، تحدث بشيء آخر؟" قال أبو نواس: "الآن يا سيدي، عليك أن تعطيني حمارين، لأنك ملك والواضح أيضًا أنك تخشى زوجتك السيدة زبيدة".



رحلة بالبي من بغداد إلى البصرة

يعتبر كتاب رحلة جاسبارو بالبي من بغداد إلى البصرة في نهاية القرن السادس عشر، مهماً لأنه يحتوي على أسماء أماكن لا تظهر في الخرائط الحديثة. أنا لا ادعي بأنني عيبتها:

في يوم ١٢ آذار عام ١٥٨٠م، غادروا من بغداد إلى البالسارا (من بغداد إلى البصرة). وركبوا على ظهر سفينة في دجلة وهو نهر يبدو كأنه نهر النيلوس (النيل)، ولم يكن خطيراً باكتظاظه بالصخور أو جذوع الأشجار كالفرات، وفي (الماكا) ينقسم النهر إلى قسمين، أحدهما يصب في الفرات والآخر في البالسارا. القاطنون على الجانب الأيمن هم من العرب بينما على الجانب الأيسر فهم من "الكُرْجِي". وفي يوم (٨) دخلوا إلى (الكر). يوجد فيها الكثير من الأسود واللصوص العرب. وهناك أيضاً الكثير من مربّي الثيران والأغنام والماعز. ومن هناك وصلوا إلى (انكاسرامي)، حيث على كل ملاح أن يلقي خبراً قرباناً لقديس دفن هناك. كان هواء دجلة والفرات في هذه المنطقة طيباً، إلا أنه بعدها تبدأ تظهر من النهر رائحة كريهة مثيرة للاشمئزاز، وفي الليل يكون النهر خطيراً بسبب تكون نوع من الدواسات فيه حيث تستدعي السفينة المرافقة الأخرى لإخراج

الأولى من الدوامه. وفي اليوم التالي وصلوا إلى (كاسال) وهي مقر إقامة (السانياك)، حيث يصب فيها نهر مروان الفارسي. وهنا يواجهون لأول مرة المد القادم من الخليج العربي. وبعدها بقليل في (كالاتيل) يغذون سيرهم عندما يرتفع المد، وإلا فإنه سيعيدهم إلى الخلف. السهول هنا مأهولة تمامًا. ثم دخلوا إلى (كورنر) وبعدها بقليل شاهدوا فرعًا من الفرات يلتقي بدجلة حيث يتمركز العديد من الجنود مع السانياك لمنع اللصوص الذين يقومون بالسرقة برفقة منات الأشخاص. كان النهر هنا واسعًا كالنيلوس ومأهولًا بشكل جيد (وهو في بعض الأماكن يشبه نهر البرنت). كان الجو هنا في بعض الأوقات حارًا جدًا بحيث يموت العديد بسبب الحر. وقد أصاب الإنهاك في هذه الرحلة أربعة أشخاص بسبب الحرارة وجلسوا لاستعادة نشاطهم لبرهة من الزمن، إلا أن رياحًا حارة قد تغلبت عليهم وادت بهم إلى الاختناق. في يوم (٢١)، وصلوا البصرة".

انظر نيكرتون "الرحلات"، المجلد ٩، ص ٢٩٦.

لا بد أن الماكا التي يتفرع منها النهر إلى فرعين تشير إلى شط العمارة أو الحي، الذي يتفرع من كوت الإمارة. ربما تكون (الكر) هي الشاهرية المؤشرة في خريطة كيرت إلا أنه ليس لدي مزيدًا من المعلومات عنها. ربما يكون القديس هو علي الشرقي أو الغربي. لا بد أن يكون نهر مروان الفارسي هو أحد مصبات نهر الكرخ. وتشير حقيقة أن المد يشاهد لأول مرة إلى مكان ضريح عزرا. (كورنر) هي بالطبع القرنة.



تقرير هاملتون عن البصرة

في كتاب رحلات القبطان الكسندر هاملتون، تقرير عن البصرة، يحتوي الكثير من الأشياء الممتعة التي قمت باقتباس بعضها بتصرف. طبعت رحلاته في المجلد العاشر من كتاب نيكرتون "مجموعة الأسفار والرحلات"، لندن عام ١٨١١م، تحت عنوان "تقرير جديد عن جزر الهند الشرقية، ملاحظات وإشارات القبطان الكسندر هاملتون الذي امضى وقته هناك للفترة من ١٦٨٨ إلى ١٧٢٣م، وهو يتاجر ويسافر براً وبحراً إلى معظم البلدان والجزر التي تنشط فيها التجارة والملاحة بين رأس الرجاء الصالح وجزر اليابان".

"تقع الباسورا (البصرة) في أقصى شرق الممتلكات التركية، تبعد حوالي ميلين من نهر الفرات الشهير وفيها نهر صغير يجري عند أطرافها على الجانب الغربي ويفرغ مياهه في نهر الفرات. تبعد هذه المدينة حوالي ثلاثين فرسخاً من البحر ويزعم أنها بنيت على يدي الإمبراطور تراجان ولها شرف أن تكون موطن ولادة إمبراطور روماني آخر هو فيليب المشهور بالعربي، ولكنها بنيت في البداية على طول ضفة النهر، ولا زال

بالإمكان مشاهدة اثار اسوارها القديمة من النهر المذكور إلى الجنوب بفرسخ واحد من ضفاف الفرات الذي يصب مياهه عن طريق أربع أو خمس مصبات في الخليج العربي، وهي غير صالحة لسير سفن الشحن عدا تلك القناة التي تقود إلى البصرة. تستمر القناة داخل المدينة لأقل من ميل واحد بعرض صالح للملاحة، وتستمر بنفس العرض لغاية مصبها.

يزخر النهر بالأسماك، إلا انها ليست طيبة باستثناء سمك (شابل) صغير بحجم سمك الرنكة (السردين) هناك أيضا أعداد كبيرة من الطيور المائية البرية كالأوز والبط والتم والحنف والكروان والزو وتعج الحقول بطيور الحجل من مختلف الأنواع والزقزاق والحمام والشنقب واليمام والقبرات الكبيرة التي يتميز لحمها بأنه طيب للغاية واصواتها ممتعة للأذن. هناك أيضا الطيور الكواسر كالعقبان وأنواع واحجام عديدة من الصقور، طيور الحداة، والغربان السوداء والبيضاء، ومن الجدير بالملاحظة ان الغربان السوداء تعيش في الجانب العربي من النهر بينما البيضاء في الجانب الفارسي وإذا ما تطفل احدها على مكان الآخر، فإنها تبدأ بالصياح حتى تبعد هذا الطائر وتعيده إلى موطنه.

هناك كميات كبيرة من السلاحف الصغيرة في النهر، إلا انه لا احد ياكلها لأنها محرمة في الشريعة اللاوية التي يلتزم بها المسلمون كثيرا فيما يتعلق بالطعام. هناك أيضا أنواع عديدة من الحيوانات البرية. حيث يوجد الخنزير البري بأعداد كبيرة ولحمها طيب ولذيذ إلا انه لا يوجد حيوان سمين بينها، وغالبا ما يأتي الفلاحون إلى المدينة لدعوة للمسيحيين لقتلها لأنها تسبب دمارا كبيرا لزروعاتهم. وإذا ما قتل مسيحي أيًا من هذه الحيوانات، فإنه يأخذه إلى بيته على ظهر بغل أو حمار مقابل مكافأة صغيرة، بالرغم من وجود امر في القرآن يحرم لس لحوم الخنزير.

لدى الأهالي الكثير من الماشية السوداء، البرية والأليفة، وذات حليب جيد، إلا أنهم لا يصنعون منه إلا جبن رديء، ولا يستخرجون منه الزبد لأنهم يستخلصونه من ذبول الأغنام، ويستخدمونه في مطابخهم بدلاً من الزبدة، ولا يستخدمون الشاي لاستهلاكه مع الزبدة الطازجة. بينما تعتبر القهوة، التي تستهلك على نطاق واسع، رقيقاً دائماً لغليون التبغ الذي تدخنه السيدات إضافة إلى الرجال. وفي الصحراء التي تقع بالقرب من المدينة، هناك جمال برية وخيول وحمير وماعز واسود ونمور وكوجر وثعالب، والتي يتم اصطيادها من فوق ظهور الخيول بالسيف والرمح وعلى الأقدام بواسطة بنادق خفيفة. ولديهم الكثير من الفواكه اللذيذة كالرمان والخوخ والمشمش والسفرجل والزيتون والتفاح والأجاص والدراق والأعشاب الحلوة المذاق كعصير قصب السكر وكحولها ضئيل جداً بحيث أنه لا ينتج النبيذ ولا الخل. إلا أن الأكثر فائدة الأغزر إنتاجاً من فاكهتهم هي التمور التي تغذي وتطعم ملايين البشر الذين يجعلون منها غذاءهم اليومي، وهم يعتنون بها بطريقة عجيبة. تصدر البصرة سنوياً إلى البلدان الأجنبية أكثر من عشرة آلاف طن من التمور، مما يُوظف الكثير من البحارة لتصديرها، بالإضافة إلى توظيف الكثير من الفقراء في جمع وتعبئة هذه التمور في أوعية من الحصران المصنوعة من أوراق أشجار النخيل وبالمثل في تجفيفها. اشترت حوالي (١٦٠) باون من التمور اللينة بمبلغ اثنين أو ثلاثة من الباونات الإسترلينية وأحياناً تكون أرخص من ذلك.

كانت البصرة لسنوات عدة بأيدي الفرس الذين شجعوا التجارة كثيراً، وهذا ما جذب العديد من التجار من البلدان الأجنبية للاستقرار هناك وخاصة من سرّة في الهند. ولكن في عام ١٦٩١م، اجتاحت وباء الطاعون المدينة وقتل أكثر من ثمانين ألف شخص من سكانها، وهرب المتبقي منها، بحيث أنها بقيت خالية من السكان في السنوات الثلاث التالية لذلك، واستوطنتها الحيوانات المتوحشة التي طردها في الآخر من المدينة

العرب المحيطين بها حيث سيطروا عليها لقراية اثني عشر شهراً وبدورهم أخرجهم الأتراك منها، حيث ظلت تحت سيطرتهم لغاية هذا اليوم، إلا أن تجارتها أكثر ضالة مما كانت عليه في زمن سيطرة الفرس عليها والسبب في ذلك هو أن الأتراك متعجرفين مع التجار الأجانب.

يوجد الكثير من اليهود في البصرة وهم يعيشون على السمسة والصيفة، إلا أن الأتراك يبقون هذه الشريحة من الناس بمستوى أدنى لأسباب سياسية. هنالك أيضاً حوالي مائتين من المسيحيين من أتباع الكنيسة اليونانية، إلا أنه لا يوجد قساوسة لهذه الطائفة بينما تتمركز هناك بعض البعثات التبشيرية الرومانية. لم يكن رجل الدين اليوناني مهتماً بكسب مهنتين جدد، وهي لا تتحمل مخاطرة الاستشهاد في سبيل رعاية أتباعها، لهذا لم تبقى أي كاهن في البصرة. ولكن عندما كنت هناك كان يشرف على تلك الكنيسة ثلاثة من القساوسة الرومان من الرهبة الكرملية. كان هؤلاء الأنبال المتظاهرون بالتقوى خزيًا على المسيحية لأنهم قد جعلوا من كنيستهم حانة مستغلين تسامح الحكومة معهم أكثر من المسلمين في القضايا الأخلاقية، وأساءوا استخدامها لأغراض دنيئة في بيع العرق الذي يقطروه من التمور ويجلبون حور الجنة لاستخدامها من قبل زبائنهم. يحرم على المسلمين بتاتا شرب الخمر أو تقطير النبيذ بموجب شعائهم الدينية والمدنية، لأن حرارة الشمس والزية الرملية الجافة تخلق في أدمغتهم قدراً من سرعة الغضب بحيث أنه عندما تزداد سخونتهم بفعل شربهم لنبيذ قوي، فإنهم يصبحون عصببي المزاج ومؤذنين لأحدهم الآخر، وبنوبات الجنون قد يجرحون أو يقتلون بعضهم، لقد كانت الحكومة باستمرار تؤنب هؤلاء القساوسة الأوغاد لإساءتهم استعمال التسامح الممنوح لهم، ولكن دون دوى لأن تجارتهم رابحة.. ولكن عند مشاجرة بين اثنين من البحارة السكارى حيث جمع أحدهم بشكل خطير بسكين وتحول الآخر بسبب الخوف من العقاب إلى الإسلام كونه مسيحي برتغالي،

أرسل الباشا ضابطاً وعدداً من الجنود لدخول الكنيسة وجميع المباني الملحقة بها مع أوامر بتهشيم الجرار ومعدات التقطير مع المتبقي من القناني الجاهزة، وسكب كل العرق الموجود على الأرض، حيث جرى كل ذلك حسب الأوامر، وعند التفتيش عثر الجنود على ساعة فضية جميلة وحوالي أربع مائة دولار أسباني، حيث حملوها معهم، التمس القساوسة من الباشا إعادة الساعة والمال، إلا أنه أجابهم أنهم قد وعظوا كثيراً عن الزهد بالثروات الدنيوية، وإذا ما جعلهم جنوده يمارسون ما وعظوا به فعليهم أن يشكروا الجنود ويتركوا هذا المال الحقير في الأيدي التي تعترف بحبها له، وتعرف جيداً كيف تستخدمه أكثر من القساوسة، وهكذا طردهم مع تهديد بعقوبة أشد في حالة ارتكابهم لإثم آخر. إلا أن حلاوة الكسب الدنيوي سرعان ما جعلتهم ينسون التحذير الذي وجهه الباشا إليهم، وعادوا ثانية كالكلب إلى قنيته لتجارتهم القديمة في إفساد المسيحيين واليهود والمسلمين والوثنيين بالخمور وأعادوا نصب معدات التقطير لهذا الغرض مرة أخرى.

✱

✱

✱

قصة رومانسية من الخليج العربي

لا تزال هناك فسحة من الرومانسية في الخليج العربي يمكن ملاحظتها من خلال القصة التالية التي ظهرت في صحيفة (التايمز) بتاريخ ٤ تشرين الأول، عام ١٨٩٢:

تحتوي الصحف الهندية التي جاء بها بريد هذا الأسبوع قصة جديدة بالاهتمام عن حطام سفينة وعوز. كان على ظهر الباخرة سملا التي وصلت بومبي من الخليج العربي في ٢ أيلول، شقيقين اسمهما لافي وهما من ماهي. كانا يعملان في نقل البضائع من جزيرة إلى أخرى من جزر سيشل ويستخدمان لهذا الغرض مركبًا شراعيًا ذا حمولة حوالي (٢٥) طنًا، حيث أجرى رحلة واحدة فقط. في يوم ٢١ حزيران، غادر المركب ميناء فكتوريا وعلى ظهره ستة أشخاص جلهم من الفرنسيين في رحلة بحرية قصيرة حول الجزيرة ولديهم مؤن تكفي لأربعة أيام فقط. وبعد مغادرتهم مباشرة، واجههم طقس سيئ حال دون رسوهم إلى البر. بعد أربعة أيام من مغادرتهم الميناء، قلعت قوة العاصفة شراع السارية الأمامي. وبذلك جرفتهم الرياح إلى أعالي البحار، وابتعدوا عن خط سير البواخر. قاموا بتقسيم الطعام والمياه إلى حصص صغيرة وأخذوا يتناولونها بالدور وهم يراقبون ويحاولون إبقاء أنف المركب عاليًا في الماء. وبعد اليوم التاسع عشر نفنت مؤنهم. شرب أكثر من واحد منهم ماء البحر، وبعد سبعة أيام من

نفاد المؤن توفي أحدهم من الجوع والعوامل الجوية. وبعد يومين توفي آخر، ولكن في اليوم الثالث شاهدوا اليايسة. جرى توجيه القارب نحو الساحل، حيث غرق بعد ذلك. وبعد نزولهم إلى البر مباشرة توفي الثالث بسبب الجوع لفترة طويلة. خلال الوقت الذي أمضوه في البحر، لابد أنهم قد ساروا مسافة لا تقل عن ١٣٠٠ ميل في قاربهم المفتوح، لأن المكان الذي نزلوا فيه هو راشور أو رأس مدروكة وهو مكان قفر على الساحل العربي. وبينما كان الناجون الثلاثة يبحثون عن شيء من الفاكهة أو المياه، ذهشوا لرؤيتهم بدوينا قادمًا نحوهم، قام بدلاً من إساءة معاملتهم كما كان متوقعًا، بتقديم التمور والمياه إليهم. شرب الثلاثة الماء بنهم والتهم الإخوان لافي التمور، وهي أول وجبة لهم منذ أحد عشر يومًا، إلا أن الإجهاد كان كبيرًا على رفيقهم الثالث حيث توفي بعد ذلك بقليل ليصبح الميت الرابع منذ أن بدأت الرحلة. وبعد أن وجدهم البدوي غير قادرين على المشي، وضعهم على ظهور جماله ورحل بهم إلى مسافة قصيرة إلى مكان معين في الصحراء وجد فيه شجرة وارقدتهم تحتها. بقيا هنا لمدة ثلاثة أو أربعة أيام محاولاً معرفة من أين جاءوا. كان الحديث غير ممكن معهم، ولكن بعد فترة ذكر كلمة مسقط، حيث أشار الأخ الأكبر أنهم يودون أن يذهبوا هناك، كونه يعرف أن هناك مثل هذا المكان على الخليج العربي. وفي اليوم الرابع من الإقامة في الصحراء، وبعد أن استعادوا جزءًا من قواهم وضعهم ثانية على ظهر جماله وانطلق بهم ماشيًا على قدميه. وبعد رحلة دامت اثنان وعشرون يومًا أوصلهم إلى القنصل البريطاني في مسقط، حيث تحدثوا له عن مغامرتهم. أعطى القنصل إلى البدوي الصديق مكافأة نقدية كبيرة. وبعد البقاء في مسقط لثلاثة أيام، تم استدعاء باخرة سملا وتم إركابهم على ظهرها وإعطاهم أجرة السفر إلى بومبي. جرت إعادتهم على نفقة الحكومة إلى جزر سيلش عن طريق عدن".

✱

✱

✱

مقاييس وأوزان مضطربة

لقد سبق أن ذكرت العملة المتداولة المربكة في بغداد. يبين التقرير التالي حالة الأوزان والمقاييس:

اقتبست صحيفة هيئة التجارة من صحيفة غرفة تجارة اسطنبول تقريراً مثيراً للغربة عن الأوزان والمقاييس المستخدمة في بغداد والبلاد العربية الخاضعة للأتراك. لم يجر تبني النظام العشري المتري، الذي صدر به قانون في تركيا عام ١٨٧٠م، من قبل سكان بغداد، حيث تستخدم هناك كما في باقي أجزاء الإمبراطورية الأوزان والمقاييس القديمة. لا يعرف الأجنبي الذي وصل البلاد حديثاً شيئاً عنها لفترة طويلة ويكون عرضة للخدبة من قبل الخدم وأصحاب الحوانيت. لهذا، عليه، على سبيل المثال، أن يعرف أنه عندما يتحدث الطباخ معه عن أوقية من اللحم، فعليه أن يفهم أنه يقصد أوقية كبيرة، لأن الخبز واللحم والزبدة والرز والخضراوات والفواكه وباقي الأطعمة تباع بأوقية بغداد الكبيرة التي تساوي حوالي أوقيتين ونصف من أوقيات اسطنبول. ومن جانب آخر، قد يبيع البقال الذي يعتبر نفسه متقدماً بضاعته بأوقية اسطنبول. يباع القمح والتمور بالطغفار المكون من عشرين وزنة التي تعادل حوالي (٧٨) أوقية في

حين يباع الخشب والقيرو الجص... الخ. فيستخدم الطغفار المكوّن من (٢٠) وزنة ذات الـ (٥٠) أوقية اسطنبولية. وبالنسبة إلى الصوف، يشيع استخدام المن البغدادي الذي يعادل حوالي ست أوقيات بغدادية أو (١٢) أوقية اسطنبولية. يزن الجواهري مجوهراته بالمنقال الذي يعادل واحد ونصف درهم. تباع المنسوجات حسب نوعها، أما باليك الحليبي الذي يعادل (٢٦،٢٥) إنج أو اليك البغدادي الذي يعادل (٢٩،٥) إنج أو اليك الفارسي الذي يعادل (٤٠) إنج، وبالنسبة إلى الفراء الفارسي فإنهم قبل قطع القطعة التي اشتروها، يتأكدون دائماً من أن القياس كان صحيحاً وذلك بإجراء العملية التالية: يأخذون باليد اليسرى أحد أطراف الذراع ويضعونه قرب الأنف ثم يمدون الذراع الآخر بأقصى ما يستطيعون. وهذا الطول يجب أن يتناسب مع ذراع شاه. تستخدم أيضاً بعض العادات الخاصة في وزن بضائع معينة، على سبيل المثال، يجري عدّ الجوز. وبعد وزن البضاعة بالمن ذي الست أوقيات فإنه لغرض الحصول على الوزن الصافي للمن، يتم إنقاظه من (١٢) إلى (١٠) وتقلل النتيجة أيضاً من (٣١) لـ (٣٠) وما يتبقى يتم تحويله إلى القنطار بمعدل (٢٠) من القنطار الواحد، ويتم التعاقد على السعر على أساس القنطار. من العسير فهم أصل وسبب هذا الحساب الغريب. يباع النبيذ الذي يأتي من ديار بكر وكركوك والذي يستهلك في هذا المكان بالوزن أي بالأوقية الاسطنبولية. يباع الحليب أحياناً بالوزن ولكنه يبالغ بشكل عام بالقيينة ونصف القينة، ولا أهمية لحجم القينة سواءً كانت صغيرة أم كبيرة حيث تجري تسوية الفرق بإضافة كمية كبيرة أو صغيرة من مياه دجلة حسب الطلب.

✱

✱

✱

صور وخرائط



اسطرلاب فارسي (يوجهين)



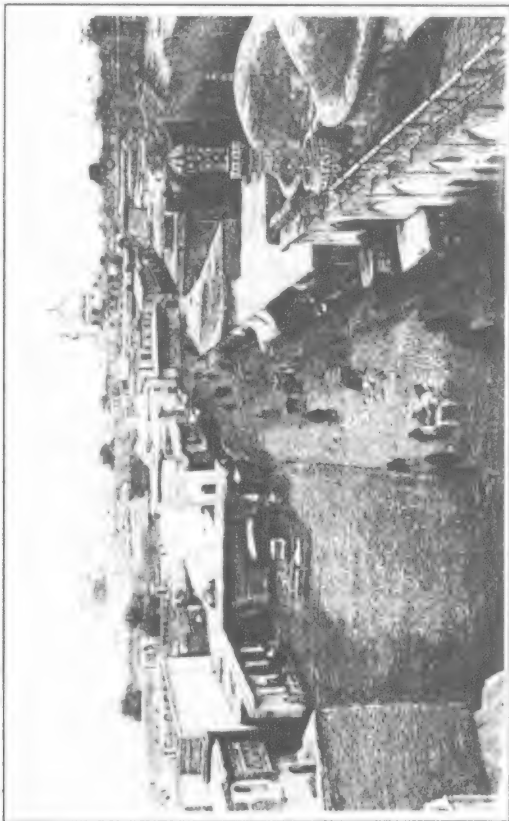
بلاد في البصرة

البغدادی

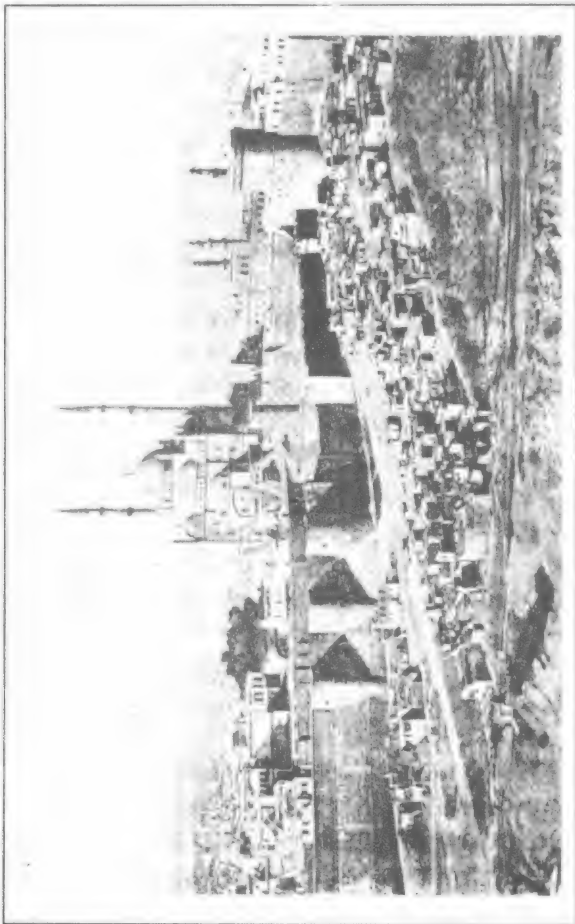


مخیمي





شارع في بغداد



القاهرة



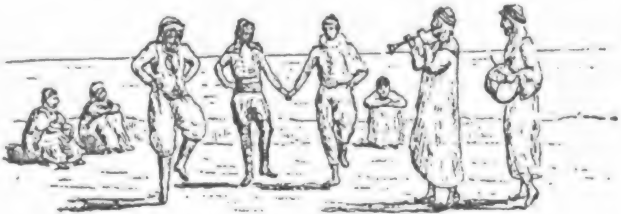
الهودج



فارس من عنزة



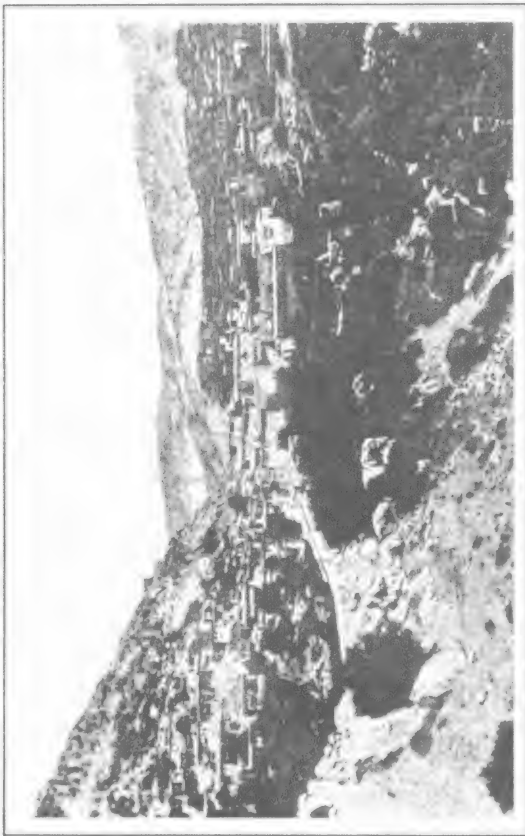
ناعورة في عنه



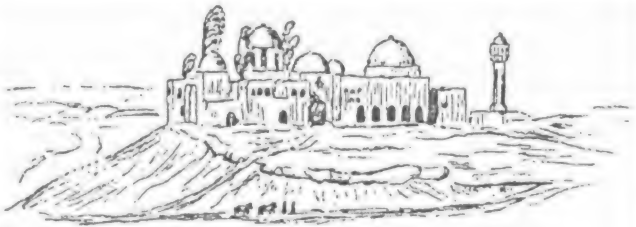
موسيقىون متجولون على الطريق إلى حلب



نخيل وأهرامات



بیلان



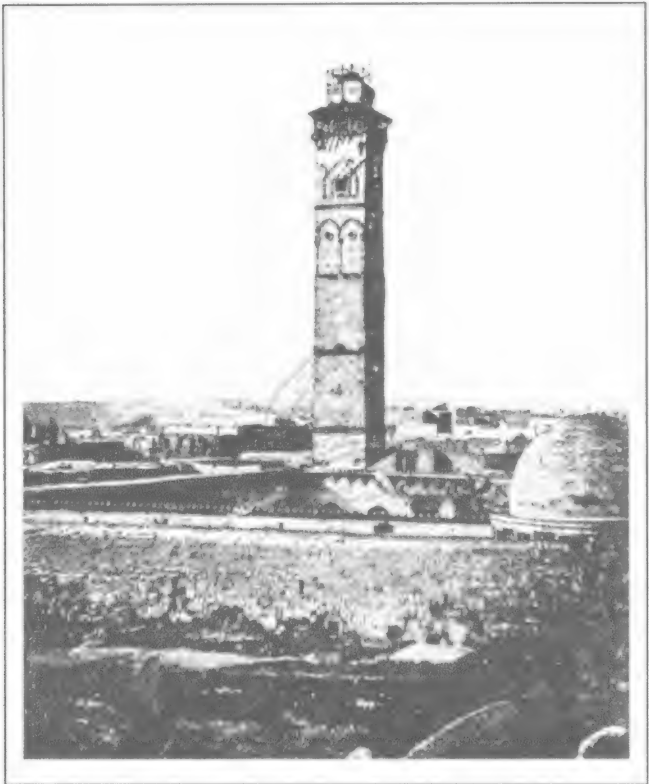
شيخ بكر



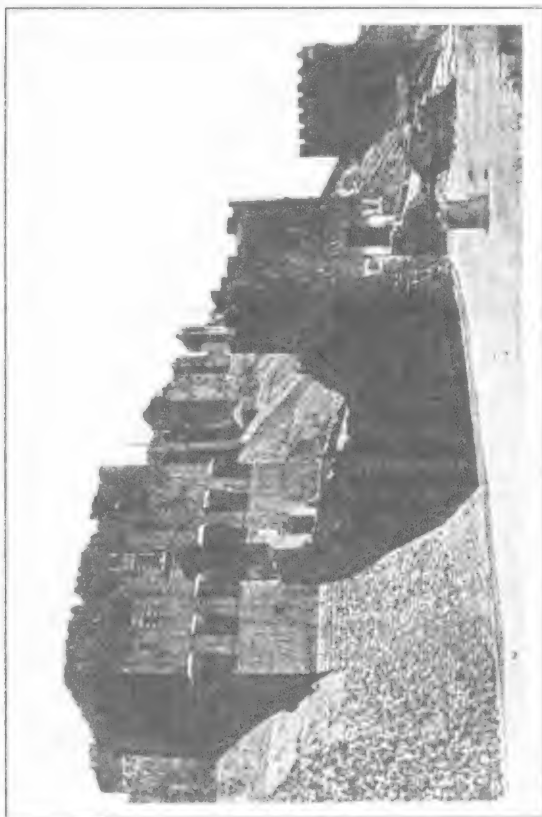
جمال عنزة في مسكينة



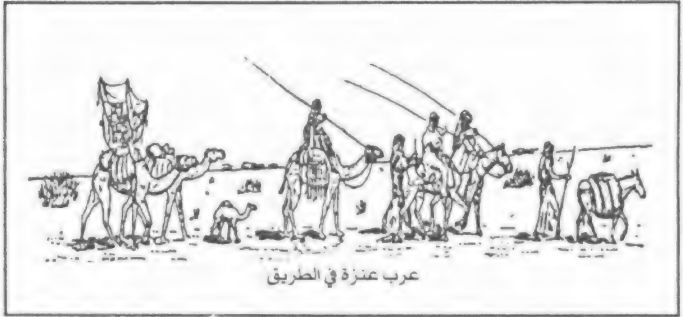
غزوة عربية



جامع زكريا في حلب



مدخل قلعة حلب



خان في الدبر



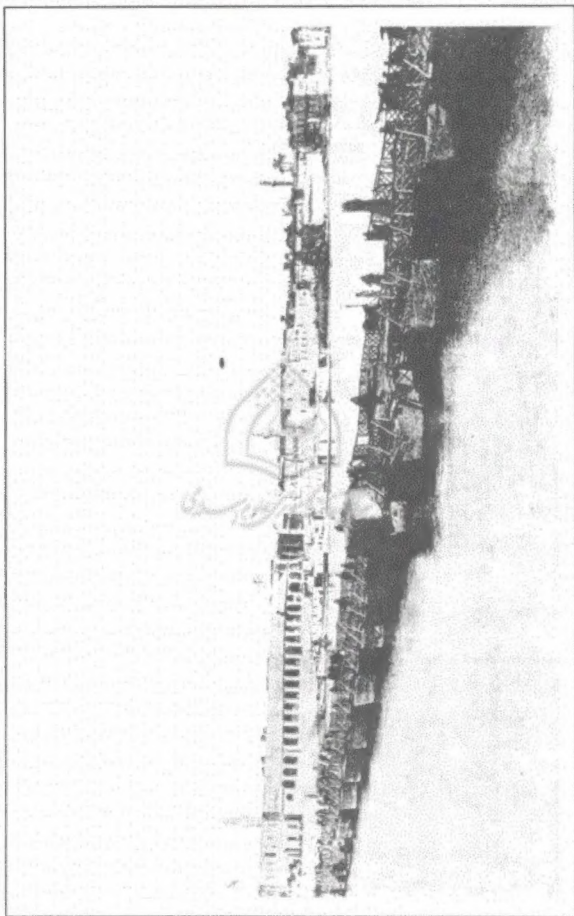
التخت روان



خان الزاد



حجاج قرس في المسيب



بغداد وجسر القوارب، من الضفة الغربية

